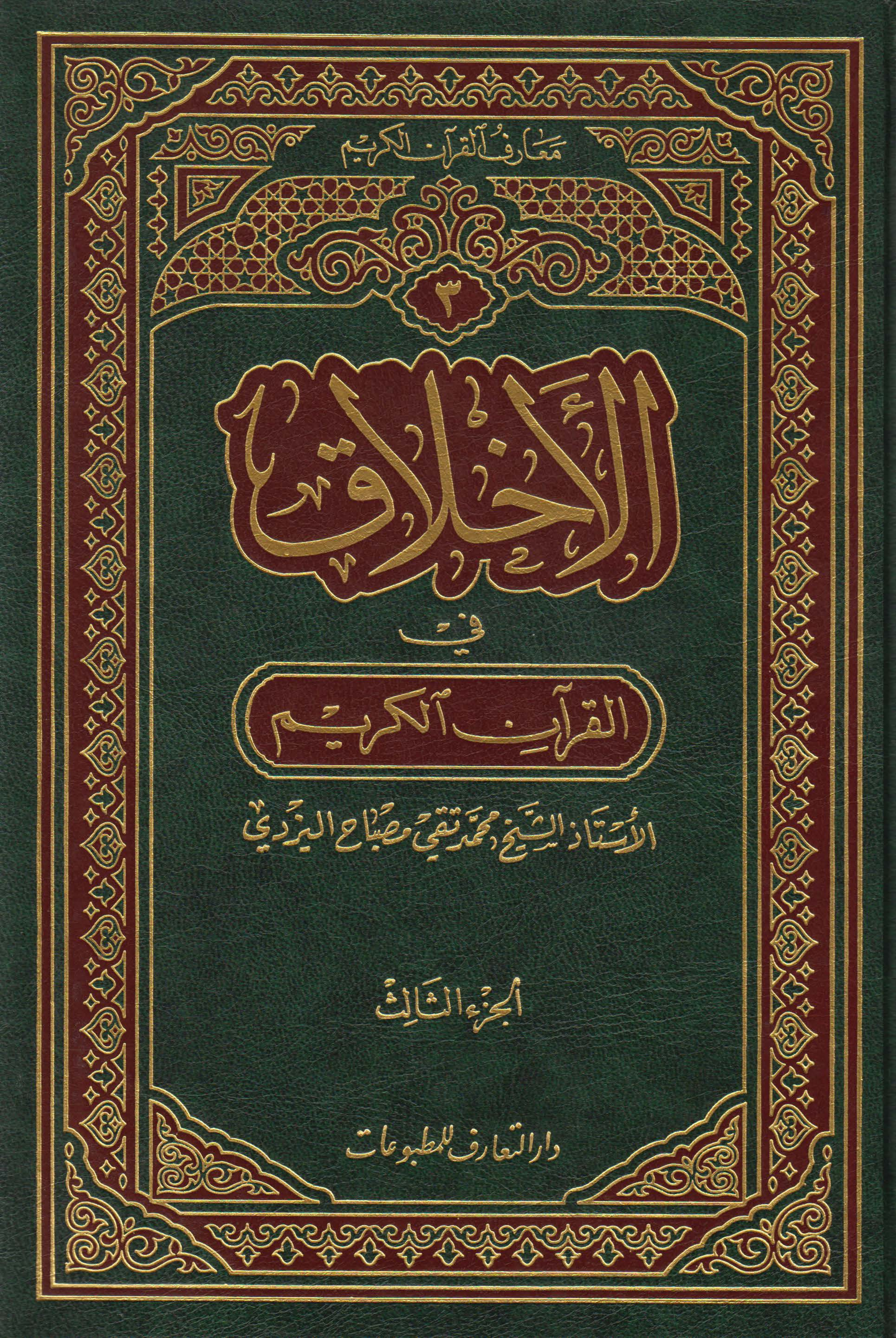

معارف القرآن الكريم
٣
الأخلاق
في
القرآن الكريم
الأستاذ الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي
الجزء الثالث
دار المعارف للمطبوعات

الأخلاق
في
القرآن الكريم

معارف القرآن الكريم

الأخلاق
في
القرآن الكريم

محاضرات
الأستاذ الشيخ محمدتقي مصباح يزدي

تدوين وتحقيق:
محمد حسين اسكندري
نقله الى العربية:
الشيخ كاظم الصالحي

بسم الله الرحمن الرحيم

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤ م

دار التعارف للمطبوعات:

الإدارة والمعرض ـ حارة حريك ـ شارع دكاش ـ بناية الحسنين ـ
تلفـــــون: ٠١/٢٧١٩٠٧ ـ ٠١/٢٧١٩٠٨ ـ ٠٣/٨٢٣٦٢٠
ص.ب: ١١/٨٦٠١ ـ ١١/٦٤٣ ـ فاكس: ٢٧١٩٠٨ (٠٠٩٦١١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

الفصل ١: مفاهيم عامة

الفصل ٢: الملاكات العامّة في الأخلاق الاجتماعية

الفصل ٣: الأُسرة

الفصل ٤: المجتمع

الفصل ٥: العدل والظلم

الفصل ٦: الإصلاح والإفساد

الفصل ٧: الوفاء بالعهد وأداء الامانة

الفصل ٨: حقوق ومصالح اعضاء المجتمع

الفصل ٩: آداب المعاشرة

الفصل ١٠: القيم والأخلاق الاسلامية في مجال الأموال

الفصل ١١: القيم الأخلاقية في الحوار

الفصل ١٢: الأخلاق الاسلامية تجاه السلوك غير الاخلاقي

الفصل ١٣: الأخلاق الدولية

القسم الرابع

الأخلاق الاجتماعية

القيم المرتبطة بعلاقة الانسان بالآخرين

القسم الرابع

١

مفاهيم عامة

الأخلاق والحياة الاجتماعية

القرآن والانزواء الاجتماعي

القرآن والروح الاجتماعية

تلخيص وفذلكة

المقدمة

في الأقسام السابقة قمنا بدراسة مجموعتين من المسـائل الأخـلاقية: المـجموعة الأُولىٰ هي المسائل التي محورها علاقة الانسان بالله عزّ وجلّ، والمجموعة الثانية هي المسائل التي محورها علاقة الانسان بنفسه.

اما المجموعة الثالثة فهي المسائل التي محورها العلاقات الاجتماعية للانسان بالآخرين وتطلق عليها (الأخلاق) عادة وفي اغلب المـوارد. فـحينما يـقال فـي المحاورات العرفية ان فلانا ذو أخلاق حسنة أو سيئة فالمقصود هذه الملكات التي تتجلى في العلاقات مع الآخرين. المجموعتان السابقتان تمثّلان توسّعاً في الأخلاق العرفية وتتحققان في ضوء الرؤية الاسلامية وكون مـوضوع الأخـلاق هـو فـعل الانسان الإختياري مطلقا ـ اجتماعياً كان أو غير اجتماعي ـ لان كل فعل اختياري ـ اجتماعي أو غير اجتماعي ـ يمكن أن يكون ذا قيمة ايجابية أو سلبية ويـدخل نطاق المسائل الأخلاقية.

الأخلاق والحياة الاجتماعية

السؤال الأول في بحث الأخلاق الاجتماعية يدور حول قيمة الحياة الاجـتماعية ذاتها. هل الحياة الاجتماعية في الرؤية الاسلامية ذات قـيمة كـي تـدخل نـطاق

الأخلاق، وهل يمكن اعتبار الحياة بصورة جماعية من الأخلاق الاجتماعية أم ليس لها قيمة وهي خارجة عن موضوع الأخلاق ونطاقها؟

يجب القول في الاجابة: يستند الحكم بهذا الشأن الىٰ اعتبار الحياة الاجتماعية فعلا اختياريا للانسان أو فعلا قهرياً وغير اختياري. فلو كانت الحياة الاجتماعية باختيار الانسان، أي اذا شاء الحياة الاجتماعية فهو يستطيع ذلك، وإنْ لم يشأ فهو يستطيع أن ينزوي عن المجتمع، في هذه الحالة تكون الحياة الجماعية في ذاتها موضوعاً اخلاقيا، واذا كانت الحياة الاجتماعية قهرية وليس بوسع أي انسان أن يعيش لوحده منزويا عن المجتمع فانّ موضوع الحياة الجماعية في هذه الحالة يكون خارجا عن نطاق الأخلاق وموضوعها. إذ انّ القيم الأخلاقية ـ الايجابية أو السلبية ـ ترتبط بالأفعال الإختيارية كما أسلفنا.

وعليه من خلال الاجابة عن السؤال المذكور يطرح سؤال آخر لا يرتبط جوابه بنطاق الأخلاق، بل يمكن طرحه ودراسته في نطاق العلوم الأُخرىٰ وهو: هل الانسان مجبر علىٰ الحياة الاجتماعية أم مختار؟ انّنا سنطرح هذا السؤال في البحوث المتعلقة بالمجتمع، ولكن نضطر هنا الىٰ الاشارة اليه كمقدمة للدخول في بحث الأخلاق.

كان بعض المفكرين الغربيين يعتقدون بانّ الحياة الاجتماعية أمر قهري، وتلاحظ رؤى مختلفة من هذا القبيل في العلوم الاجتماعية حيث تعتبر الحياة الاجتماعية ضرورة طبيعية للانسان. وقد تجاوز البعض ذلك وقالوا: لا أصالة لذات الفرد في المجتمع، بل هو بمثابة الخلية في جسم المجتمع، وتستند اليه حياته وهويته وشخصيته، أو قالوا: انّ وجود الفرد بمثابة الورقة بين كتلة من الاوراق والاغصان والاجزاء الاخرىٰ من الشجرة، وأرادوا من خلال هذه التشبيهات عرض

هذا الارتباط وبيان انّ الفرد تابع محض للمجتمع ومجرد عن كل استقلال، وانّ المجتمع ذو أصالة ووجود حقيقي.

لأنصار هذه النظرية آراء مختلفة بالنسبة للمبالغة في اضفاء الأصالة علىٰ المجتمع، كما تختلف مذاهب علم الاجتماع بهذا الشأن، ولكن يميل الذين يعتبرون الأصالة للمجتمع غالباً الىٰ ان هوية الفرد تتحقق في إطار المجتمع وانّ وجوده تابع لوجود المجتمع.

وغاية ما يسلم به بعض انصار هذه النظرية هو أنّ الفرد يمكن أن يكون ذا استقلال محدود داخل المجتمع وذلك بأن ينفصل عنه ويتحول الىٰ عضو ميت كالورقة التي تنفصل عن الشجرة، أو العضو الذي يُقطع من جسم الانسان، حيث يبقى طبعاً حياً لأمد قصير بعد الانفصال وسرعان ما يفسد ويتلف. وللفرد تجاه المجتمع هذا الحكم ذاته. فحينما ينفصل عنه يكون بمثابة موجود ميت ينسلخ عن الوجود الانساني ولو بقي حيا فانّ حياته لا تتخطى الحياة الحيوانية.

ما أوضحناه يمثل نظرية أنصار أصالة المجتمع بمعناها الفلسفي، وهي طبعاً نظرية متطرفة جداً ولا تنسجم ولا تتطابق مع الرؤية الاسلامية.

فمن يعتبر وجود الفرد كالخلية من جسم حي تماماً أو ورقة من شجرة فانّه يعني انّ الحياة الاجتماعية ضرورة طبيعية للفرد وليس أمامه سبيل للحياة غيرها، والنتيجة هي انّها لا تدخل نطاق الأخلاق، ولا يمكن القول: يجب أن يوجد في المجتمع أو لا يجب، لان الانسان من جهة كونه انسانا اذا أراد أن يعيش ويبقى حيا فانّه يتحتّم وجوده في نطاق المجتمع. وقد أثبتنا هذه الحقيقة في محلها ونعتبرها هنا كأصل موضوعي، وهي أن الحياة الاجتماعية اختيارية بالنسبة للفرد بشكل أو بآخر لا قهرية، وكل فرد فهو موجود مستقل ذو روح مستقلة وارادة ومعرفة وقادر

علىٰ انتخاب مناهج مختلفة في حياته. وهو بوسعه ربط حياته بحياة أفراد من الانسان وبوسعه قطع هذه الرابطة.

ليس لوجود الفرد ارتباط عضوي مع وجود المجتمع، وليس هو بمثابة خلية في جسم المجتمع ولا ورقة في شجرة ليكون غير قابل للانفصال عنه ويؤدي انفصاله عن المجتمع الىٰ انعدامه، بل هو موجود مختار وله حياة مستقلة وله الخيار في الحياة بصورة اجتماعية أو فردية، ويمكن أن يبحث في نطاق علم الأخلاق بمقدار مايتمتع به من اختيار في الحياة الجماعية.

وعليه بوسعنا لدىٰ المباشرة ببحث الأخلاق الاجتماعية أن ندرس هذه المسألة: ما هي القيمة الأخلاقية للحياة الاجتماعية؟ هل هي حسنة أم سيئة؟ وهكذا السؤال عن الحياة الاجتماعية كما وكيفاً، وعن كيفية المعاشرة ومن هو طرف المعاشرة واقامة العلاقات معه أو قطعها؟ هذه الأمور تقع تحت اختيار الانسان الىٰ حدّمّا وفي نطاق الأخلاق وإنْ لم يتساوَ اختيار الانسان في هذه الموارد. فمثلا لنا الخيار في التنفس أيضاً ولكنه ليس كالخيار في تحريك أيدينا إذ بامكاننا تحريكها كما نحب، ولكن التنفس فانه بوسعنا ايقافه الىٰ حدّ ثمّ نبلغ درجة فقدان القدرة علىٰ ذلك.

أجل، لنا الخيار في التنفس الىٰ حدّمّا وليس ذلك كنبض القلب إذ ليس لبني الانسان العاديين أي خيار في ذلك، ويكون ذا حكم اخلاقي حسب درجة الإختيار فيه، فمثلا لو قُدّر للانسان أن يوقف تنفسه حتى يموت اعتُبر هذا العمل انتحاراً وحراماً اخلاقيا.

هذا إيضاح لقولنا: يتفاوت الإختيار في الأعمال وعليه سيتفاوت اندراجها في الأخلاق أيضاً، والأعمال الإختيارية تكون موضوعا للبحث الأخلاقي حسب درجة اختيار الانسان فيها.

والحياة الاجتماعية اختيارية للانسان الىٰ حدٍّ ما أيضاً، فهي اخلاقية بـدرجـة الإختيار فيها. فمن الممكن أن يعزم علىٰ أن يعيش وحيداً في زاويـة بـعيدة عـن الآخرين في غار أو غابة ولا يعاشر أحداً ولا يتكلم ولا يتعامل مع أحد ويقتات علىٰ الأعشاب الصحراوية وثمار الغابة ويصون جسمه من البرد والحر كما يـحب ويواصل حياته الفردية لمدة. أجل، هذا النوع من الحياة البعيدة عن المجتمع أمـر ممكن للفرد إذ انّ وجودنا غير مندك تكويناً مع وجود سائر الأفراد بنحو لا ينفك عن حياة الآخرين.

قيمة الحياة الاجتماعية

نقول في السؤال الثالث: ما هي قيمة الحياة الاجتماعية؟ وفي المقابل ما هو حكم الانعزال عن المجتمع والرهبانية في منظار الأخلاق الاسلامية؟

للاجابة عن السؤال ينبغي دراسة وتحليل الحـياة الاجـتماعية والانـعزال عـن المجتمع أي الرهبانية. ما هي العوامل التي تستدعي ركون الانسان الىٰ المـجتمع؟ وما هي عوامل انعزاله وانزوائه ؟

ليس للحياة الاجتماعية وترسيخ الأواصر الاجتماعية أو الاعـتزال والانـزواء قيمة ذاتية، بل تكتسب قيمتها من عوامل وأُسس أُخرىٰ. ولذا لابدّ لتعيين وتحديد قيمة كل منها من دراسة العلل والعوامل لكل منهما.

يمكن تقسيم العوامل التي تبعث ميل الانسان نحو الحياة الاجتماعية الىٰ عدة مجموعات:

ـ المجموعة الأُولىٰ: العوامل الغريزية كالغريزة الجنسية. فكل فرد لميله التكويني الىٰ الجنس المقابل يقترب منه ـ شاء أم أبىٰ ـ ويعاشره ويحتك به ويربط حياته بحياته.

انّ الحياة الأُسرية والحياة الاجتماعية اصطلاحان مختلفان ـ بمعنىً من المعاني ـ ولكن وفق مفهوم أوسع تكون الحياة الأُسرية نحواً من الحياة الاجتماعية بل ان الأُسرة تمثل النواة الأُولىٰ والأساس للحياة الاجتماعية كما تذهب اليه بعض نظريات علماء الاجتماع ويؤيدها القرآن الكريم الىٰ حدٍّ ما.

وليس لأي مستوى من مستويات الحياة الاجتماعية والأحداث ومراحل التأريخ عامل واحد، بل هناك عوامل مختلفة تؤثر في ايجادها دائما، ولكن ليس من الخطأ أن يقال: يقيم فردان حياتهما المشتركة علىٰ أساس الغريزة الجنسية وتكون هذه الغريزة عاملاً لحياتهما الجماعية.

ـ المجموعة الثانية هي العوامل العاطفية التي تستدعي الميول الاجتماعية وربط حياة فرد مع سائر الأفراد. وقد قلنا في بحث العاطفة ان الانسان يميل طبيعيا الىٰ الاقتراب من بني الانسان الآخرين والاستئناس معهم، سيّما العاطفة الأُسرية حيث تكون سببا لبقاء واستمرار الحياة الأُسرية.

ـ المجموعة الثالثة: العوامل العقلية التي هي أوسع من العوامل الأُخرىٰ والعنصر الاختياريُّ فيها أقوى.

فالانسان يدرك بعقله أنّه عاجز عن توفير متطلبات حياته بنفسه، فهو بحاجة الىٰ التعاون مع الآخرين في توفير حوائجه المادية كالملبس والمسكن والمأكل، وهكذا حوائجه المعنوية. انّ التكامل المعنوي للانسان وتلبية حوائجه المادية يتوقفان علىٰ الحياة الاجتماعية، ولولا المجتمع فلا تعليم ولا تربية ـ اضافة الىٰ اختلال حياة الفرد المادية ـ كما لا يتحقق الرقيّ المعنوي والأخلاقي، ولذا يحكم العقل بضرورة معاشرة الآخرين وربط الحياة بحياة الآخرين والتعاون معهم في حل مشكلات الحياة.

ما ذكر يمثل أهم العوامل التي تدفع الانسان لانتخاب الحياة الاجتماعية. الّا انّ تأثير هذه العوامل غير متكافئ في جميع الأفراد. اذ هناك أفـراد يـريدون الحـياة الاجتماعية لتلبية حوائجهم المادية فقط ولا يعبأون بالمتطلبات المعنوية، وفي حين يولي بعض آخر اهتماماً أساسياً للمعنويات، هؤلاء يحبون المجتمع ويميلون الىٰ الحياة الاجتماعية لتلبية متطلباتهم المعنوية، وجلّ تفكيرهم هو أن ينتفعوا بـعلوم الآخرين وسلوكهم وتجاربهم في المجتمع، وأن يستخدموها في سـبيل تكـاملهم المعنوي حتى انّهم يستعدون للابتعاد عن الحياة الاجتماعية أو تقييدها في حـالة فقدان هذا العامل، أو تعرُّض هذه المصلحة للخطر، ويتأثر بعض آخـر بـالعوامـل العاطفية بشدة، ويضعف تأثير هذه العوامل في بعض آخر، وهكذا يتفاوت تأثـير العامل الغريزي في الأشخاص.

وعليه فانّ تقييم الحياة الاجتماعية يتبع تأثير العوامـل والدوافـع التـي تـدعو الانسـان للحياة الاجتماعية أو الابتعاد عنها. إذنْ لابدّ من دراسة تأثير هذه العوامل أولاً، ومن الطبيعي أن يكون إبداء الرأي بالنسبة لهذه الشؤون مع وجود عـوامـل متعددة ذات ادوار مختلفة معقدا وصعبا.

في حالة وجود عامل واحد لسلوك الانسان فانه يمكن قياسه وتقييمه الىٰ حدٍّ ما، اما سلوك الانسان واعماله المعقدة والتي تتعاضد عوامل مختلفة في ايـجادها ويؤثر بعضها علىٰ البعض الآخر وتتساند أو تتعارض في القيمة فلا يمكن ببساطة دراسةُ قيمها وبالتالي ابداء الرأي عن تقييم هذا النحو من الحياة الاجتماعية بصورة عامة؛ هل تكون محبذة أم لا؟ فالكثير من الحسابات ينبغي اجراؤها بدقة كي تقدَّم اجابة صحيحة عن السؤال المذكور.

انّ التقييم في هذه الموارد نسبي ولا يمكن ـ في الرؤية الاسلامية ـ اعتبار قيمة

مطلقة للحياة الاجتماعية أو الانزواء الاجتماعي. وقولنا انّ التقييم في هذه الموارد نسبي لا يعني خضوعه لآراء الأشخاص وأذواقهم، بل يعني انّ قيمتها تابعة للظروف الزمانية والاحوال الاجتماعية المختلفة والدوافع والعوامل الأُخرىٰ.

وبعبارة أُخرىٰ: نظراً لتأثير عوامل مختلفة في تقييم الحياة الاجتماعية لا يمكن تقديم ضابطة ثابتة له، وليس ذلك لأن مجرد تغيير الزمان أو الموقع الجغرافي أو اختلاف الاذواق يؤدي الىٰ اختلاف القيم، بل ان الاختلاف في العوامل والظروف ودوافع الحياة الاجتماعية يستتبع اختلاف القيم، فلو اجتمعت مجموعة من العوامل والظروف فستكون لها قيمة ايجابية في أي زمان ومكان وبالنسبة لاي فرد، وتكون لمجموعة أُخرىٰ قيمة سلبية.

انّ أهم عامل للتقييم في الشؤون الأخلاقية هي نية الانسان ودافعه حتىٰ انّ العمل المحدد الواحد قد يؤدى بدافعين متضادين: دافع حسن جداً ودافع سيء جداً، فلا يمكن تقييم عمل ما دون الأخذ بنظر الاعتبار الدافعَ في ادائه. وهذه حقيقة مغفول عنها في الكثير من الفلسفات الأخلاقية.

وعلىٰ أساس رؤيتنا وبتأييد الآيات والروايات لا ينبغي ـ علىٰ الأقل ـ التغاضي عن النية والدافع ـ وهما من العوامل الأساسية لإنجاز العمل ـ في تقييم السلوك الاجتماعي. طبعاً المؤثر في قيمة العمل لا ينحصر في النية، فقد يكون للانسان هدف ونية صالحة ولكن يجهل الطريق لتحقيق ذلك فقد ينجز العمل مستتبعا الضرر المادي والمعنوي لنفسه أو للآخرين. وعليه فانّ مجرد النية الحسنة لوحدها ليست ملاكاً للتقييم ولكن ليس من الصحيح التغاضي عنها أيضاً في تقييم العمل فانّه يبعد الانسان من الحقيقة.

فالانسان تارة يلاحظ مصلحة الحياة الاجتماعية فيعطيها قيمة مطلقة مع أن

هناك عوامل أُخرى تقيّد تلك القيمة. ففي النظام الحاكم السابق كانت قضية الاختلاط بين النساء والرجال من القضايا المألوفة جداً في مجتمعنا وكانت تطرح آراء مختلفة بشأنها، لكن كان التعامل الحسن مع الشرائح والفئات كافة قيمةً قد سرت من الثقافة الغربية الىٰ ثقافتنا، واتخذت موقعها لدىٰ متنوّري الفكر والمتغرّبين. وذلك بأن يكون كل انسان حسن التعامل وحميما مع أي انسان آخر، ولا فرق من هذه الناحية بين الرجل والمرأة. فعلىٰ المرأة أيضاً أن تتعامل بحرارة مع أيّ رجل، فكما تمزح مع النساء الأُخريات فانها تمزح مع الرجال. علىٰ أي حال كانوا يرون ذلك من القيم حيث يكون بنو الانسان ـ رجالاً ونساءً ـ متحابّين ومستأنسين فيما بينهم.

هذه الفكرة تنشأ من جذور فلسفية وفكرية عميقة، وحينما تدخل تلك المبادئ أدمغة أفراد الانسان فانّها تثمر هذه النتائج، فمثلا ستكون معاشرة المرأة الاجنبية مع الرجل الاجنبي عنها من جملة القيم، فاذا دخل الضيف الاجنبي البيت ولم تستقبله ربة البيت ولم تصافحه وتكرمه كان سلوكها غير قيمي وتُتّهم بانّها تجهل الآداب الاجتماعية وانّها ليست اجتماعية بل انعزالية.

أجل، لو اعتبرت هذه الفكرة مبدءً عاماً يأبىٰ الاستثناء بمعنى ان جميع أفراد الانسان يمثلون خلايا جسد واحد فلابدّ من التنسيق والتلاحم بينها دون فرق، مثل هذه الفكرة تستتبع هذه النتيجة وتوجد هذه القيم، وعليه يكون ابتعاد المرأة الاجنبية عن الرجل الاجنبي أمراً غير قيمي، فيما يكون الاحتفاء والمعاشرة والمزاح بينهما أمراً قيمياً.

وعليه فانّ هذه القيم لا تظهر تلقائيا بل لها أرضية فكرية، وعندما تروّج هذه الأفكار في الكتب ووسائل الاعلام ومؤسسات التربية والتعليم فانّها تستتبع هذه

النتيجة وتحدث هذه القيم، ويعتبر المعارض لها رجعياً ومتزمّتاً ولم ينمُ حسّه الاجتماعي، ويبقى بعيدا عن الثقافة الجديدة والأمور الحديثة والجميلة. في هذه الرؤية يكون كل ما هو أحدث فهو الاجمل والاكثر جذابية، وهذ هو المبدأ الثقافي المعروف بـ(الحداثة).

لسنا اليوم بحاجة الىٰ البحث عن هذه الشؤون حيث تسود الاجواء الثورية والاهتمام بالدين، ولكن من اللازم الدراسة الاكاديمية لهذه القضايا بدقة كي يتعرف الغافلون علىٰ منطق الاسلام وعدم أصالة هذه الميول والأفكار وأشباهها.

لقد ترسَّخ في مخيلة اغلب شعوب العالم في الشرق والغرب انّ كل جديد فهو ذو قيمة ايجابية، وانّ كل قديم فهو ذو قيمة سلبية (حب الجديد ونبذ القديم). وقد صاحب ذلك ـ اضافة الىٰ كونه منسجما مع طبيعة عامة الناس وأهوائهم ـ تبريراتٌ فلسفية خاصة، سيّما مذهب الديالكتيك ـ الذي يعتبر كل حركة تكاملية وكل جديد أكمل من القديم وأفضل ويعتبر الحرص علىٰ الحداثة ونبذ القديم أمراً ضرورياً.

وفي المقابل نحن الذين نرى بوضوح خواء هذه القضايا، فاننا لا نعتبرها جديرة بالبحث والدراسة العلمية فنمرّ عليها مرّ الكرام، أمّا اذا اردنا النقد العلمي لهذه الرؤى والقيم فانه يلزمنا البحث عن جذورها بنحو مستقل ونقدها لكي تتوفّر لدينا ثقافة ثابتة ومتقنة لا تدحر.

علىٰ أي حال فانّ قول شخص بانّ الحياة الاجتماعية مذمومة أو ممدوحة في الآية أو الرواية الفلانية لا يكفي للرد علىٰ هذا السؤال المعقد، لاحتمال وجود قضايا معارضة لها في آيات وروايات أُخرىٰ، فمثلاً تقول رواية ترتبط بآخر الزمان: (كونوا أحلاس بيوتكم) اي الزموا بيوتكم ولا تغادروها[1].

---

١. بحار الانوار ج ٥٢ الباب ٢٢ الرواية ٤٣.

فهل يمكن أن تكون هذه الرواية ـ وإنْ افترض صحة سندها ـ ملاكاً للتقييم العام لمثل هذه القضية المعقدة والمصيرية؟

انّ الفقهاء العظام ـ كثّر الله أمثالهم ـ كم يبذلون من جهود لاستنباط الاحكام الفقهية البسيطة كحكم ماء البئر والآنية وانفعال الماء القليل، وكم هي الجهود التي يبذلونها في التحقيق بشأن سند الروايات والجمع بين الروايات المتعارضة، وفي النهاية قد لا يُفتون جازمين في الكثير من الموارد ويعملون بالاحتياط. حينما تكون مثل هذه المسائل ـ التي ليس لها دور مهم في حياة الانسان ويسهل الاحتياط فيها ـ بحاجة الىٰ هذا الجهد الكبير والدقة فكم هي ضرورية الدقة في القضايا التي تتعلق بمصير المجتمع الاسلامي؟ لابدّ أن نستيقظ ونعتبرها قضايا جدية ونبحث في مثل هذه القضايا أكثر من القضايا البسيطة، إذ انّها تمثّل الأساس لثقافتنا وتقرّر مصير المجتمع. الحصيلة هي انّ هذه القضايا معقدة جداً وينبغي لدىٰ البحث بشأنها وتقييمها ملاحظة عوامل مختلفة، ولا تكون الاجابة عنها أمراً يسيراً. لا يمكن القول بانّ الحياة الاجتماعية محبذة مطلقا وذات قيمة ايجابية في جميع الاحوال والاوضاع، كما لا يمكن اعتبار الانزواء الاجتماعي أمراً محبّذاً مطلقا، فقد يكون الميل الىٰ المجتمع أحياناً أمراً محبذاً بأعلىٰ المستويات، وقد تكون الهجرة والانزواء الاجتماعي كذلك في احيان أُخرىٰ.

القرآن والانزواء الاجتماعي

انّ الحياة الاجتماعية رغم أهميتها وما لدينا من ارشادات اسلامية بشأنها لا يمكن اعتبارها قيمة مطلقة، ولذا يكون الانزواء الاجتماعي أو الهجرة من المجتمع ـ في بعض الموارد ـ أفضل من الميل الىٰ المجتمع.

في القرآن آيات تثني علىٰ الهجرة والانزواء الاجتماعي وهذه لا تبيّن طبعاً انّ الانزواء الاجتماعي ذو قيمة مطلقة. نشير هنا الىٰ نماذج من هذه الآيات:

١ـ جاء في قصة اصحاب الكهف أنّ شبابا صالحين قد هجروا مجتمعا فاسداً ولجأوا الىٰ غار، قال تعالىٰ: ﴿وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً﴾[١].

والقرآن يثني علىٰ هذه الهجرة لانّ هؤلاء هجروا ذلك المجتمع وابتعدوا عن بؤرة الفساد صوناً لدينهم.

انّ قصة أصحاب الكهف تشير الىٰ انّ قيمة الميل الىٰ المجتمع والحياة الجماعية ليست مطلقة، ولم يكن بوسع اولئك اختيار الحياة الجماعية في ظروف ذلك المجتمع، إذ انّ ضرر الحياة فيه أكبر من نفعها.

٢ـ اعتزال النبي ابراهيم عليه السلام المجتمع النمرودي المشرك. فانّ هذا المجتمع لم يذعن لدعوى هذا النبي، وبلغ به الأمر الىٰ إلقائه في النار فلم يكن من المبرّر لابراهيم عليه السلام أن يبقى ويعيش في هذا المجتمع، فتحتم عليه هجرانه، ولذا قال لهم:

﴿وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ أَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[٢].

وقد شمله الله سبحانه برعايته لاعتزاله وهجرته، حيث يقول:

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَ وَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَ جَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[٣].

٣ـ رهبانية اصحاب السيد المسيح عليه السلام أنموذج آخر حيث يقول القرآن بهذا الشأن:

﴿وَ رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾[٤].

---

١. الكهف ١٦.

٢. مريم ٤٧.

٣. مريم ٤٩ و ٥٠.

٤. الحديد ٢٧.

إذنْ لم يوجب عليهم الحياة الانفرادية واختيار الرهبانية، الّا انّالظروف كانت بنحو لم يجدوا طريقة لحفظ دينهم غير ذلك، وكان عليهم اعتزال ذلك المجتمع الفاسد وغير المتدين لكي يباشروا ـ في فرصة مؤاتية ـ هداية الناس واصلاحهم، ويمهّدوا لحركة دينية واصلاحية. لقد يئسوا من أداء واجباتهم جيداً في ذلك المجتمع الفاسد، ولذا كانوا يعبدون الله خفية في الأديرة والصوامع، ثم غدا ذلك سنّة بين أتباع السيد المسيح عليه السلام تدريجياً.

ولذا يمكن القول انّ الرهبانية كانت ـ في تلك الظروف ـ الطريقة الوحيدة لعبادة الله ونيل رضاه، وفي هذه الحالة لا يمكن أن تكون غير محبذة.

القرآن والروح الاجتماعية

ولكن في المواطن التي يكون رضا الله تعالىٰ في الرجوع الىٰ المجتمع لهداية الآخرين ومعاشرتهم لا تكون للرهبانية والبقاء في الدير قيمة، اذ كيف يكون ترك الواجب سببا للتقرب الىٰ الله عزّ وجلّ؟

لا شك انّ أغلب كمالات الانسان يتم الحصول عليها في الوسط الاجتماعي، وبدونه يُحرم الانسان من هذه الكمالات، الّا انّ هذا لا يعني كون المجتمع ذا قيمة مطلقة، لأن قيمة الحياة الاجتماعية منوطة بتعايش الأفراد والمجموعات الخاصة علىٰ أساس خاص وبدوافع خاصة.

في القرآن الكريم تحظى البراءة من بعض الأشخاص والابتعاد عنهم بأهمية يعدل مستواها مستوى تبادل المحبّة بين الناس، ويتحدث عن الحرب والجهاد كما يتحدث عن السلم.

والقرآن يرشد الىٰ انّ الاحتفاظ بحياة اجتماعية حسنة قد يستلزم الانعزال الاجتماعي:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا

بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَ بَدَا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَ الْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ﴾(١).

ليست الحياة الاجتماعية هدفا في الرؤية الاسلامية، وليست ذات قيمة مطلقة بل هي وسيلة لتوفير قيم أعلىٰ. وعليه فانّ قيمتها نسبية، فحتى في أرقى مجتمع نموذجي يتأسس في عصر الامام الحجة عليه السلام لا تكون للحياة الاجتماعية أصالة ذاتية، بل يتأسس المجتمع لتوفير أرضية أفضل للرقي المعنوي لكل فرد. يقول تعالىٰ:

﴿وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاٰ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾(٢).

تشير هذه الآية الىٰ انّ الهدف في تأسيس المجتمع النموذجي هو أن يعبد بنو الانسان الله سبحانه بنحو أفضل. وعليه فانّ تقييم الحياة الاجتماعية يتبع عوامل أُخرىٰ يصعب العثور عليها وتحديد ضابط دقيق لها، ولكن يمكن القول بعبارة عامة انّ قيمة المجتمع تكون حسب درجة تأثيره في رقيّ الانسان وتكامله فاذا كان تأثيره في هذا المجال سلبيا كانت قيمته سلبية طبعاً.

تلخيص وفذلكة

انّ الحياة الاجتماعية ـ رغم أهميتها البالغة ووجود احكام كثيرة قد شرّعها الاسلام بشأنها ـ لا يمكن اعتبارها قيمة مطلقة، بل تكون محبذة حسب الظروف التي تربط حياة الفرد بحياة الآخرين ومن ثمّ تستند الىٰ نية الفرد في اشتراكه في الحياة الاجتماعية.

والعوامل النفسية التي تربط حياة الفرد بالمجتمع هي:

---

١. الممتحنة ٤.　　٢. النور ٥٥.

العامل الغريزي والعامل العاطفي والعامل العقلاني. هذه العوامل تدفع الانسان للميل الىٰ المجتمع وربط حياته بحياة الآخرين، الّا انّ القيمة الأخلاقية للحياة الاجتماعية تستند الىٰ الانتخاب العقلاني، فعندما يقف الانسان علىٰ مفترق طريقين وتتجاذبه الدوافع المختلفة الىٰ هنا وهناك فانّ العقل هو المعيّن للدافع ذي القيمة الاكبر ولزوم اتباعه. إذنْ في ظل الارشاد العقلي تتحدد القيمة الأخلاقية.

في الشؤون الفردية كذلك لا يكون مجرد وجود الدافع الطبيعي دليلا علىٰ القيمة الأخلاقية، بل بحكم العقل يمكن تشخيص القيمة الأخلاقية لكل عمل من الأعمال، فمثلا الشهوة الجنسية دافع طبيعي ويستند تحديد قيمتها الأخلاقية الىٰ حكم العقل، والعقل قد يحكم علىٰ هذا الميل ـ حسب الظروف المختلفة ـ بالقيمة الايجابية أو السلبية. والميول الطبيعية ـ في الواقع ـ أدوات لتحقيق الأهداف العقلانية وذلك لتوقف هدف الخلق علىٰ بقاء الاجيال الانسانية، وهذا الميل اداة لتحقيق ذلك الهدف. فمن الالطاف الإلٰهية أن أودع في الانسان أدوات طبيعية تدفعه لممارسة اعمال في مسيرة تحقيق الأهداف القيّمة.

وعليه فانّ الميول الطبيعية والعوامل الغريزية والعاطفية وإنْ وجدت في الانسان لتشكيل الحياة الاجتماعية الّا انّ قيمتهاالأخلاقية تستند الىٰ انتخاب العقل الذي يقول: انّ وصول الانسان الىٰ رغباته المادية والمعنوية يتوقف علىٰ الحياة الاجتماعية، ولو شاء الانسان أن يعيش وحده فانّه سيواجه مصاعب ومشكلات في توفير مستلزماته المادية والمعنوية.

لقد خُلق الانسان ليصل الىٰ كماله النهائي ولا تتوفّر مقدماته الّا في ظلّ المجتمع. **إذنْ تكون الحياة الاجتماعية محبذة بحكم العقل وتتميّز بالضرورة بالقياس.**

القسم الرابع

٢

الملاكات العامّة في الأخلاق الاجتماعية

أ- مبدأ العدل

ب- مبدأ الاحسان

ج - مبدأ ترجيح المصالح المعنوية علىٰ المصالح المادّية

د- مبدأ رعاية الأولوية

خلاصة وفذلكة

لتحديد قيمة الأفعال ذات الصلة بالحياة الاجتماعية وقيمة الملكات التي تحصل من هذه الأفعال لابد من الأخذ بعين الاعتبار مبادئ تستنبط علىٰ أساس الرؤية العقلانية وملاحظة واقع الحياة الاجتماعية، نلاحظ هنا أهمها وهي:

أ ـ مبدأ العدل

انّ الحاجة الىٰ المجتمع لتوفير المتطلبات المادية والمعنوية هي حاجة عامة، ولا تنحصر في أفراد معيّنين. فالحياة الاجتماعية تتشكّل من أجل وصول جميع الأفراد الىٰ مصالحهم المادية والمعنوية وكمالهم النهائي. وعلىٰ هذا الأساس ينبغي أن يكون سلوك ابناء المجتمع مؤثراً في تحقيق هذا الهدف العام لا أن تذهب جماعة ضحية لجماعة أُخرىٰ. إذنْ يكون السلوك الاجتماعي للافراد صحيحا وقيّماً فيما لو أدى الىٰ تحقيق المصلحة العامة للمجتمع، ولا ينبغي أبداً من أجل تحقيق مصلحة فرد أو أفراد حرمان جماعة أُخرىٰ من مواهب الحياة وامتيازاتها وفقدانها كل شيء.

اذ لا تشعر شريحة المحرومين في هذه الحالة بأي اندفاع للمساهمة في الحياة الاجتماعية، لأنّها ترىٰ أتعابها في سبيل المجتمع تذهب هدراً، بل ان جماعة أُخرىٰ تصادر حصيلة أعمالها، فما الداعي إذنْ للاهتمام بالمجتمع والدفاع والتضحية في سبيله؟

انّ الفرد يستعد لحمل العبء وانجاز عمل في الحياة الاجتماعية فيما لو كان ذا حصة في الثمار المترتبة عليه. ويقتضي حكم العقل انتفاع كل فـرد بـثمار الحـياة الاجتماعية حسب درجة تأثيره فيها وتحقيق مصالحها. فالعقل يأمر الفرد بممارسة اعمال تعود بفائدتها علىٰ المجتمع فيثبت حقه على ذمـة ذلك المـجتمع ازاء هـذا التكليف. من هنا يطرح التوازن بين الحق والتكليف: التوازن بين التكليف الموجّه الىٰ الفرد ازاء المجتمع وبين الحق الذي يثبت للفرد في ذمة الآخرين، وهـذا هـو العدل والقسط في المفهوم الاجتماعي والأخلاق الاسلامية.

وعليه فانّ العدل والقسط هو أن ينهض الأفراد بعبء الآخرين بمقدار ما ينهض به الآخرون من عبئهم، وينتفعون من المجتمع بمقدار ما يفيدونه.

إشكال وردّ

في ما يتعلق بهذا المبدأ ينبغي الالتفات الىٰ هذه الملاحظة الدقيقة وهي: انّ العمل الذي يؤديه الانسان للمجتمع اذا كان مساويا تماماً للمنفعة التي يكسبها من المجتمع أمكن القول إن الانسان لا يمتلك دافعاً لخدمة المجتمع، وأمكن القول مثلاً اني لا أقوم بعمل يعادل مائة تومان للمجتمع ولا أطالبه بمنفعة تعادل مائة تومان.

ان الالتفات الىٰ ملاحظتين يعيننا لحل هذد القضية ويدعم دافع الأفراد لخـدمة المجتمع.

أولاً: انّ المنفعة التي ينالها الفرد من المجتمع تكون أغلى من العمل الذي يؤديه للمجتمع لانّه يعجز عن تحصيلها لوحده، وعليه فانّه اذا نال من المجتمع ما يعادل عمله حقاً فانّه ينال معادلاً يعجز عن توفيره بنفسه.

ثانيا: انّ النتائج التي تترتب علىٰ العمل الجماعي تفوق الجهود التي يبذلها كل

عضو من أعضاء المجتمع، أي ان نتائج الحياة الاجـتماعية لا تسـاوي المـجموع العددي لجهود الأفراد. فمثلاً اذا قدّم كل فرد خدمة للمجتمع بمقدار مائة تومان فانّ حصيلة عمل عشرة أفراد هي ألف تومان، ولكن حينما يعمل عشرة اشخاص سوية في المجتمع فانّ العائد عليه يفوق الألف تومان في الحقيقة، أي يعود علىٰ المجتمع أضعاف حصيلة العمل الفردي.

ومن البديهي أن ما يزيد علىٰ الجهود الفردية يرجع الىٰ مشاركة الأفراد وكون العمل جماعيا.

ولكي يتضح كون نتائج العمل الجماعي أضعاف نتائج العمل الفـردي نـضرب مثلا: حينما يدرّس الاستاذ طالباً واحداً فانّ الطاقة التي يصرفها تعادل الطاقة التي يحتاجها للتدريس في صف يضم مائة طالب، وبنحو أدق نقول: انه لا يتفاوت عنه كثيراً، ولكن حصيلة عمل الاستاذ تكون مضاعفة مائة مرة في إطار جهود جماعية في الحياة الاجتماعية.

ان حسن الحياة الاجتماعية يكمن فـي أن حـصيلة جـهود الأفـراد وأعـضاء المجتمع لا تعادل المجموع العددي للجهود الفردية، بل تتضاعف الفـائدة العـائدة علىٰ المجتمع بصورة متوالية هندسية. إذنْ لا يصح القول بانّ تمتُّع الفرد بالامتيازات الاجتماعية هو بمقدار الطاقة التي يبذلها تماماً، بل يقسّم مجموع المكاسب عـلىٰ أعضاء المجتمع بنسبة جهودهم، فمثلا إذا قدم عشرة اشخاص خدمة للمجتمع، كل شخص بمقدار مائة تومان فان مجموع الخدمات الجماعية للـمجتمع يـبلغ ألفـي تومان فلابدّ أن ينتفع كل فرد بنسبة العشر من هذا المبلغ، أي بمقدار مائتي تومان وإنْ لم يتجاوز عمله الفردي المائة تومان. وهذا هو معنى العدالة الاجـتماعية، أو توازن الحق والتكليف.

لقد لوحظ البعد الاقتصادي في المثال المذكور وينبغي الالتفات الىٰ انّ المنفعة والمصلحة المادية والمعنوية لا يتيسّر قياسها وفق ملاكات كمية ورياضية، ومن الصعب جداً تحديد النسبة بين الخدمة الفرديه والكسب الاجتماعي، وهذا بذاته خير دليل علىٰ حاجة الانسان الىٰ الشريعة المقدسة والوحي الإلٰهي. فلو أراد الانسان تحديد ذلك استناداً الىٰ عقله فانّ هذه المسيرة سوف تختل الىٰ يوم يبعثون. فمن الضروري وجود ضوابط بالغة التعقيد لتحديد جميع المصالح المادية والمعنوية بدقة، وتشخيص ملاكات العدل والاحسان المختلفة والمبادئ الأُخرىٰ، وهذه تقديرات لا تتيسّر للانسان العادي وبأي طريق من طرق الادراك الاعتيادية،، ولذا يضطر الانسان أخيراً للّجوء الىٰ الشريعة في المشكلات الاجتماعية أيضاً.

وعليه فانّ المبدأ الأول الذي ينبغي الالتفات اليه في تقييم السلوك الاجتماعي هو مبدأ العدل والقسط، وقد طرح بعض أصحاب الرأي نظريات في الفرق بين هذين المفهومين، ولكن لا يلاحظ وجود فرق كبير بينهما، ولذا لا نستند هنا الىٰ الفرق بين مفهومي العدل والقسط.

ب ـ مبدأ الاحسان

العدل ـ كما قلنا ـ مبدأ مهمٌّ ولكن ليس بوسعه أن يكون المعيارَ الوحيد لتقييم العلاقات الاجتماعية، إذ من الطبيعي في كل مجتمع وجود اشخاص ذوي ظروف استثنائية يعجزون عن توفير متطلبات الحياة بعملهم فقط ويواجهون حرمانا كبيراً، فمثلا يولد أفراد وفيهم نقص عضوي فلا يقدرون كغيرهم علىٰ السعي وتوفير المصالح الاجتماعية، وقد يبلغ النقص العضوي بشخص درجة لا يمكن فيها قياس فائدته للمجتمع مع متطلباته الاجتماعية لان احتياجه للمجتمع يفوق بكثير افادتَه له.

علىٰ أساس مبدأ العدل يلزم نيل هذا الفرد ما يعادل عمله المقدّم للمجتمع، ولو كان مبدأ العدل هو المبدأ الوحيد لتحديد العلاقات الاجتماعية لكانت النتيجة حرمان هذا الفرد من تلبية متطلباته المادية والمعنوية. هنا يطرح هذا السؤال:

هل في الاسلام فكرة اخرىٰ غير فكرة العدالة يتمّ في ظلّها أيضاً تلبية متطلبات هذه الشريحة؟

في الاجابة ينبغي القول: ان الاسلام يطرح مبدأ الاحسان الىٰ جانب مبدأ العدل لسد النقص والعوز لدىٰ هؤلاء الأفراد الموجودين في كل مجتمع، الأفراد الذين يعانون من نقص عضوي حين ولادتهم أو إثر بعض الحوادث.

علىٰ أي حال فانّ أمثال هؤلاء الأفراد العاجزين عن العمل وليس بوسعهم أداء دور في المجتمع موجودون في كل مجتمع بشكل أو بآخر، وعليه يلزم قيام الآخرين بحمل عبء معيشتهم بنحو ما، وعلىٰ المجتمع تكفّل معيشتهم أو توفير متطلباتهم الأولية والضرورية علىٰ الأقل.

بملاحظة هذين الأمرين تتّضح مكانة مبدأي العدل والاحسان في الأخلاق الاسلامية. ويشير الله سبحانه اليهما حيث يقول:

﴿إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الإِحْسَانِ﴾[١].

ولكن كما يقصر مبدأ العدل وحده عن تلبية المتطلبات الاجتماعية فكذلك مبدأ الاحسان، اذ لو قامت أُسس الحياة الاجتماعية علىٰ الاحسان فسوف تضعف دواعي النشاط والمساهمة في الحياة الاجتماعية.

فلو انتفع كل شخص من المجتمع بمقدار يزيد علىٰ حقه وفوق درجة افادته للآخرين وعمله للمجتمع لم يبق لديه دافع قوي للمساهمة والنشاط في الحياة

---

١. النحل: ٩٠.

الاجتماعية، ولا يشعر بالحاجة الىٰ العمل والسعي، بل سيقيم الكثير حياتهم علىٰ أساس من الرفاهية والراحة وينتفعون من جهود الآخرين ويختل النظام الاجتماعي، كما اذا كان الاستناد علىٰ العدل فقط، اذ سيبقى العاجزون عن العمل محرومين دائما ويفقدون كل شيء.

في بعض المذاهب المادية يُستند الىٰ مبدأ العدل فقط، فلا يعتبر العاجزون عن النشاط والعمل أعضاء في المجتمع ويقرر القضاء عليهم أحيانا، فمثلا: في المجتمعات الشيوعية كان يقضىٰ ـ كما ينقل ـ علىٰ العاجزين عن العمل ويقال: انهم لا ينفعون المجتمع، ولعجزهم عن حمل عبء اجتماعي فلا ينبغي أن يتمتّعوا بالعطاء الاجتماعي.

والاسلام يرفض وجهة النظر هذه ويعتقد انّ المجتمع مسؤول عن إعالة العاجزين عن العمل. ومن هنا يطرح القرآن مبدأ الاحسان الىٰ جانب مبدأ العدل، ويطرح هذا المبدأ بهدف إعالة هؤلاء الأفراد العاجزين عن تدبير حياتهم.

ج ـ مبدأ ترجيح المصالح المعنوية علىٰ المصالح المادية

المبدأ الثالث هو ترجيح المصلحة المعنوية علىٰ المصلحة المادية. فتوفير المتطلبات المادية يتزاحم أحيانا مع رعاية المصلحة المعنوية، فانّ قوىٰ الناس اذا استخدمت كلها للاعمال الاقتصادية والتقدم المادي في المجتمع فانّ هذا المجتمع سوف يشهد تقدما ملحوظا في البعد الاقتصادي والحياة المادية طبعاً وذلك لتعبئة قوىٰ الناس كافة في هذا الاتجاه. في حين اذا خصّص بعض الوقت للمعنويات فمن الطبيعي أن يتباطأ تقدمه المادي بمقدار ذلك، وهنا يحصل التزاحم بين التقدم المادي والمعنوي لذلك المجتمع.

ولا ينبغي التغافل عن هذه القضية وهي أن التخلف المادي يضر أحيانا بالمصلحة المعنوية الّا انّ هذه العلاقة ليست عامة وشاملة. كما ان معنويات المجتمع تدعم التقدم المادي أحيانا، فالعامل اذا كان امينا ومخلصا أو كان رجل الأعمال مراعيا لشؤون العاملين لديه فانّ مثل هذه الخصال المعنوية سوف تعزز التقدم المادي.

وعليه يمكن افتراض مجتمع ذي مستوى من الثقافة والأخلاق يمنع وقوع أضرار مادية كالمجتمع النزيه عن تناول الخمرة والمخدرات واتباع الشهوات المفرط والضار بمصالح الانسان الماديه أيضاً. في مثل هذا المجتمع يكون الازدهار المادي في أعلىٰ مستوياته كما تكون معنوياته في مستوى يدعم ازدهاره المادي، ولكن لا وجود فيه للرقي المعنوي والعبادة والمناجاة والدعاء والتدبر في المسائل الفلسفية والعرفانية. هنا اذا افترضنا وجود مجتمع لا يصرف أوقاته في الشؤون المادية والاقتصادية فحسب، بل يخصص أعضاؤه قسطا من اوقاتهم للشؤون المعنوية أو تتّجه فئه منهم الىٰ الشؤون المعنوية فمن الطبيعي أن لا يبلغ هذا المجتمع بهذه الاحوال مستوى المجتمع الأول في التقدم المادي والاقتصادي الّا انّه أكثر تقدما منه في المعنويات قطعا.

ما ذكر يوضّح لونا من التزاحم بين الماديات والمعنويات فلا يتيسّر للمجتمع أن ينالهما معاً بل يضطر إمّا للاهتمام بالتقدم المادي باعلىٰ مستوياته وترك الرقي المعنوي أو العكس أي الاهتمام بالرقي المعنوي والاكتفاء بتقدم أقلّ في الابعاد المادية والاقتصادية، وعليه يبدو التزاحم بين توفير المصالح المادية والمصالح المعنوية معقولا الىٰ حدٍّ ما.

الآن وبعد بيان التزاحم بين المصالح المادية والمعنوية يطرح هذا السؤال: في

حالة التزاحم بين الماديات والمعنويات في المجتمع أي مبدأ سيعيننا في رفع هذا التزاحم وتنظيم العلاقات الاجتماعية؟ وهل يجب ترجيح المصالح المادية بـاعلىٰ مستوياتها وترك الرقي المعنوي، أم ينبغي توفير المصالح المعنوية بثمن قبول تقدم مادي أقلّ؟

ان هذا السؤال لا ينحصر في العلاقات الداخلية للمجتمع بل يطرح علىٰ صعيد العلاقات الدولية أيضاً. فاذا أدت علاقات المجتمع الاسلامي مع مجتمع غير اسلامي الىٰ ضعف الاهتمام بالمعنويات واستحال الجمع بين الرقي المـعنوي وبـين اقـامة العلاقات مع ذلك المجتمع فانّ هذا السؤال يطرح أيضاً: أي مبدأ يعيننا في رفع هذا التزاحم، وأيهما نختار وندفع ثمن فقدان الثاني؟ هل نقيم العلاقات مع ذلك المجتمع ونترك الرقي المعنوي أم نهتم بالرقي المعنوي ولا نقيم مـعه مـثل هـذه العـلاقات المزاحمة؟

بديهي انّ المبدأ الأول ـ أي العدل ـ ليس له دور فاعل في هذا المجال ولا يمثل حلاً لهذه المشكلة لان المفروض هو انّ العدل والتوازن حاكمان علىٰ المعاملات، ورغم ذلك يوجد مثل هذا التزاحم أيضاً. وهكذا المبدأ الثاني ـ أي الاحسان ـ فانّه يعجز عن حل المشكلة لانّا افترضنا مجتمعين متكافئين لا يـحتاج أحـدهما إلى الآخر أبداً، أو لا يحتاج ابناء المجتمع بعضهم إلى بعض في الأُمور المادية.

وعليه نحتاج هنا الىٰ مبدأ ثالث هو (ترجيح المعنويات علىٰ المـاديات) فـاذا تزاحمت الماديات مع المـعنويات كـانت المـعنويات هـي الراجـحة لان انسـانية الانسان وكماله الحقيقي يحصلان في إطار المعنويات.

المعنويات تقرّب الانسان الىٰ الله سبحانه وتكون الحياة المـادية مـقدمة لنـيل المعنويات ووسيلة لتوفيرها. فان لم تقرّبنا الوسيلة من الهدف وراح المبدأ أو الهدف

ضحية للوسيلة فانّها تفقد قيمتها الواقعية.

تكون الحياة المادية ـ في الرؤية الاسلامية ـ مقدمة للآخرة وتكون المصلحة المادية وسيلة لتحقيق المصلحة المعنوية، ولا تمثل الثروة المادية هدفا بل وسيلة لنيل الانسان تكامله الانساني. وعليه ينبغي في حالة التزاحم بينهما ترجيح الأمور المعنوية.

وفي فرضيات نادرة يمكن أن يضحّى بمرتبة من المصالح المعنوية من أجل مراتب عظيمة من المصالح المادية، إذ مع عدم تحقيق تلك المصالح المادية ستتعرض المصالح المعنوية للخطر علىٰ المدى البعيد. افترضوا مجتمعا تعرض للمجاعة فاضطر لاقامة علاقات مع مجتمع آخر لمواصلة حياته، هذه العلاقات تحطّ شيئا من أموره المعنوية والأخلاقية ولكن تبقىٰ أُسس معنوياته واخلاقياته ثابتة، في هذه الحالة سيتعرض وجود المجتمع الىٰ الخطر لولا هذه العلاقات، ولا يمكن بقاؤه حيا حتى يبلغ كمالاته، ولو أقيمت العلاقات فسوف تحفظ حياته المادية والمعنوية وإنْ تضررت المعنويات شيئا ما.

في مثل هذه الفرضيات النادرة يمكن القول: انّه لا بأس في التضحية ببعض الكمالات المعنوية من أجل المصالح المادية المهمة التي يبتني عليها كيان المجتمع، لكن المبدأ العام هو ترجيح المصالح المعنوية علىٰ المصالح المادية.

اننا لو لاحظنا التعاليم الأخلاقية والاجتماعية في الاسلام لمسنا هذا المبدأ بوضوح في مضامينها حيث يقول تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿وَ لَنْ يَجْعَلَ اللّٰهُ لِلْكٰافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾[1].

أو يقول: ﴿وَ لِلّٰهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

---

١. النساء ١٤١.　　٢. المنافقون ٨.

فلو كانت العلاقات الاقتصادية مع مجتمع ما تشكل خطراً علىٰ استقلال المجتمع المسلم وعزّته وعلو شأنه فالواجب هو قطع هذه العلاقات، فلتفُقد تلك التكنولوجيا وليحتفظ المجتمع الاسلامي في مقابل ذلك باستقلاله وعزّته.

وهكذا اذا ادت اقامة العلاقات مع بلد ما الىٰ الفساد الخلقي واضمحلال المعنويات فليس من الجائز أبداً اقامة مثل هذه العلاقات وإنْ جلبت مكاسب مادية ودنيوية كبيرة، فالواجب هو البراءة من اعداء الاسلام وإنْ استتبع فقدان بعض المصالح المادية لان العلاقات الحميمة مع اعداء الاسلام تعرّض المصالح المعنوية للمجتمع الاسلامي الىٰ الخطر، وتحطّ من الثقافة الاسلامية.

في هذا العصر اذا وافق المجتمع الايراني أن يكون ولاية من الولايات الأمريكية ويشارك الولايات الأُخرىٰ في المصالح والامتيازات المادية فلعل ذلك كان في صالحه ماديا، ولكنه اذا أراد الاحتفاظ بقوانينه وقيمه المعنوية كدولة اسلامية فلابدّ من تنازله عن هذه المصالح والتغاضي عن الاتحاد مع هذا البلد بل يلزم مواجهة امريكا.

هذا الملاك يكون هو الحاكم في العلاقات الفردية والجماعية أيضاً، فما ورد في بعض الروايات من النهي عن معاشرة ذوي خلق سيء معين فهو لما ذكر. وليس ملاك هذه الاحكام هو العدل ولا الاحسان بل هو مبدأ ثالث وهو مبدأ ترجيح المصالح المعنوية علىٰ المصالح المادية والذي يستتبع هذه الاحكام.

د ـ مبدأ رعاية الأولوية

المبدأ الرابع الذي يتولىٰ تلبية المتطلبات القيمية للمجتمع هو مبدأ (تدرج العلاقات

الاجتماعية) فالعلاقات بين ابناء المجتمع والعلاقات المعيشية بينهم ليست بمستوى واحد، اذ هناك اشخاص تتشابك معيشتهم ليلا ونهارا ويستمر تواصلهم في جميع أبعاد وشؤون الحياة، كما يوجد اشخاص لا تبلغ علاقاتهم هذا المستوى حيث يتم الاتصال بينهم أسبوعيا او شهريا لا أكثر. إذنْ رغم الترابط في حياة ابناء المجتمع ـ شاؤوا أم أبوا ـ وتشابكها بنحو مباشر أو غير مباشر فانّ هذه العلاقات ذات خطوط غامقة وباهتة اللون، وذات شدة وضعف وفوارق عميقة.

هذا الاختلاف في العلاقات والتقارب والتباعد بين الأشخاص يمثل ارضية أخرىٰ لنشوء حقوق ومسؤوليات اجتماعية تستدعي نوعا من التقسيم في الواجبات، ويطرح مبدأ رابعاً الىٰ جانب الأبعاد الثلاثة السابقة. انّ التدرج في مستوى العلاقات بين الأشخاص ودرجات القرب والبعد في حياتهم يقتضي ثبوت حقوق ومسؤوليات مختلفة بحقهم.

ان مسؤوليات الفرد ليست متساوية تجاه كل فرد في المجتمع، بل تختلف حسب درجة التباعد والتقارب والاتصال والقرابة بينهم، وهكذا الحقوق المتبادلة بينهم تكون ذات درجات وكيفيات مختلفة بتأثير من هذا العامل.

نستنتج ان أحد معايير الاختلاف في الحقوق والمسؤوليات هو الاختلاف في العلاقات الاجتماعية، وينبغي اعتباره مبدأ مهماً آخر ويكون ذا درجات ويراعى فيه الأهم والمهم، يقول الله سبحانه في القرآن الكريم:

﴿وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾[1].

مؤكداً علىٰ هذا المبدأ، ومشيراً الىٰ ان الارحام والاقارب أيضاً ليسوا متكافئين حيث يرجّح بعضهم علىٰ بعض آخر، حتى الجار القريب قد منحه الاسلام حقوقاً

١. الانفال ٧٥.

خاصة. وعليه كلما كانت العلاقة أقرب كانت العلاقات المتبادلة أقـوىٰ والحـقوق والمسؤوليات بين الطرفين أعظم.

خلاصة وفذلكة

بملاحظة ما قلنا استطعنا استخراج اربعة مبادئ عامة لتقييم الأفعال من المـصادر الاسلامية:

١ ـ مبدأ العدل والتوازن بين الحق والمسؤولية علىٰ الفرد تجاه المجتمع.

٢ ـ مبدأ الاحسان.

٣ ـ مبدأ ترجيح المصلحة المعنوية علىٰ المادية.

٤ ـ مبدأ رعاية الأولوية.

القسم الرابع



الأُسرة

حاجة الانسان الى الحياة الاجتماعية

سعة متطلبات الانسان وتنوعها

البيئة الأفضل لتلبية متطلبات الانسان

علاقة الأبناء مع الوالدين

القرآن وأولوية الأم

ارشادات خاصة بشأن الوالدين

مصاديق للاحسان بالوالدين

العلاقات المتبادلة بين الزوجين

حدود الحقوق والأُخلاق الاسلامية

امتزاج الاحكام الحقوقية والأُخلاقية في القرآن

الاحكام الحقوقية والأُخلاقية للزواج في القرآن

تعدد الأزواج

التعارض الظاهري بين آيتين

اهداف تأسيس الأُسرة

الاسس الحقوقية والأُخلاقية للاسرة في القرآن

الترسيخ التدريجي للاسرة

الطلاق أو تفكك الأُسرة

الطلاق في القرآن

اخلاق المرأة في الأُسرة

حاجة الانسان الىٰ الحياة الاجتماعية

قلنا انّ الغاية من الحياة الاجتماعية والترابط المعيشي لكل فرد مع سائر الأفراد هي تنجّز متطلباته المادية والمعنوية بنحو أفضل في إطار المـجتمع، إذ انّ قسـما مـن حاجات الانسان يتم رفعه في المجتمع فقط ولا يمكن رفعه في الحياة الفردية، وان قسما آخر يتم رفعه في الحياة الفردية بنحو ناقص ويرفع بنحو كامل في المجتمع.

بناء علىٰ ذلك نستنتج ان لقيمة الحياة الاجتماعية وكونها مرادة منشأً في تلبية المتطلبات المادية والمعنوية لافراد المجتمع.

سعة متطلبات الانسان وتنوعها

يمكن تقسيم حاجة الأفراد بعضهم لبعض الىٰ قسمين رئيسيّين:

١ ـ حاجة الانســان الىٰ الآخـرين فـي الوجـود والظـهور، كـحاجة الولد الىٰ الوالدين. لا نريد طبعاً اعتبارها كحاجة اجتماعية بل نلاحظها بعنوان انها اســاس لتنظيم العلاقات الاجتماعية، وملاك لتحديد قيمتها، أي نظراً لحاجة الفرد الىٰ سائر الأفراد في أصل وجوده فانّه يضطر لانتهاج سلوك خاص معهم عملاً بمقتضى هذه الحاجة.

٢ ـ حاجة الانسان للآخرين في حياته بعد ولادته.

والحاجات من النوع الثاني تنقسم الىٰ اقسام مختلفة:

أ ـ حاجة الفرد الىٰ فرد آخر بنحو مباشر، أي ان اتّصال انسان بإنسان آخر يرفع تلقائيا هذا النوع من الحاجة، كحاجة الولد الىٰ أمه لارضاعه والحنوّ عليه ورعايته.

ب ـ الحاجة التي ترفع بمعونة الآخرين ومساهتمهم وبواسطة أشـياء أُخـرىٰ،

ويمكن تقسيمها الىٰ مجموعتين:

الأُولىٰ: الحاجات المادية، وحاجة الانسان الىٰ النعم والمواهب الطبيعية، فالطبيعة هي التي تلبّي هذه الحاجات من خلال تقديم النعم والمواهب الطبيعية المختلفة للانسان، وعلىٰ أفراد المجتمع التعاون فيما بينهم لاستثمارها والإفادة منها بشكل أفضل.

الثانية: الحاجات المعنوية حيث ينتفع الأفراد بالعلم والكمالات المعنوية بنحو متبادل، وهذا النوع من الحاجات يرفع في إطار المجتمع أيضاً بمعونة من الآخرين.

البيئة الأفضل لتلبية متطلبات الانسان

بملاحظة ما ذكر من انواع الحاجة المتبادلة بين الأفراد يمكن القول: ان أكثر المتطلبات أصالة تلبّى في إطار الأُسرة، فالطفل يسد حاجته التكوينية والمباشرة عبر والديه، ويرفع الزوج والزوجة حاجتهما الجنسية والعاطفية بنحو متبادل فيما بينهما.

وعليه فانّ أعضاء الأُسرة ـ اضافة الىٰ التعاون والمساهمة في تلبية المتطلبات الخارجية والتعاضد لاستثمار النعم والأشياء الخارجية ـ بحاجة الىٰ بعضهم بنحو مباشر، كالحاجة الجنسية بين الأزواج والمتطلبات العاطفية المتنوعة والمتبادلة بين جميع اعضاء الأُسرة، ولهذا نخصص القسم الأول من مبحث الأخلاق الاجتماعية لموضوع الأُسرة.

هناك علاقات متنوعة في إطار الأُسرة:

العلاقة بين الزوج والزوجة، وعلاقة الوالدين مع الأبناء وعلاقة الأبناء مع الوالدين، والعلاقة بين الأبناء.

هناك مسائل مفصلة جداً ومهمة بشأن هذه العلاقات قد وردت في الروايات، ولكن نظراً الىٰ ان بحثنا قرآني وليس في نيتنا التناول التفصيلي للروايات فانّا نطرح جميع هذه العلاقات في موضع واحد من بحث الأُسرة، ونذكر فهرست الايات ذات الصلة بكل منها.

هدفنا الرئيسي في هذه البحوث هو توضيح الخطوط الرئيسية لعلاقات الأفراد مع المجتمع ليتمّ لاحقاً اجراء المزيد من الدراسة بشأنها من وجـهة نـظر عـقلانية روائية.

علاقة الأبناء مع الوالدين

ان أهم علاقة يمكن اقامتها بين انسانين هي علاقة الولد مع والديه، فهي تـعكس تبعية وجود الولد لوجود والديه. ولا يمكن هنا اعتبار العلاقة المتبادلة ملاكا لتقييم السلوك والأفعال المتبادلة بينهم لان الولد عاجز عن التأثير علىٰ والديه كتأثيرهما في نشوئه. فوجود الولد تابع لوجود والديه في حين لا يتبع وجود الوالدين وجود ولدهما أبداً.

وعليه لا يمكن تقييم علاقة الولد مع والديه استناداً الىٰ مبدأ العدل والقسط لان أساس العدل والقسط قائم علىٰ وجود علاقات متبادلة بين فردين أو أكثر، وبالتالي ثبوت حقوق ومسؤوليات متبادلة بينهما. أينما وجد حق ومسؤولية مـتبادلة كـان هناك نوع من التأثير والتأثّر المتبادل. أما تأثير الوالدين في وجود ولدهـما فـلن يتأتّىٰ للولد جبرانه بالنسبة اليهما. من هنا يدعو الله سبحانه في القرآن الكريم الىٰ الاحسان بالوالدين بنحو متواصل، ويعتبره ملاكا للقيمة في علاقة الولد مع والديه. اننا لا نجد آية توجب علىٰ الولد التعامل بالعدالة مع والديه، لان العدالة لا يمكن تحقيقها في علاقة الولد مع والديه.

يُدعىٰ الأبناء في آيات كثيرة الىٰ الاحسان بوالديهم، مـما يشـير الىٰ ان حـق الوالدين علىٰ الولد عظيم جداً لا نظير له في سائر أفراد المجتمع.

من الممكن طبعاً أن يكون للوالدين حقوق أُخرىٰ علىٰ الولد غير حق الأُبـوة والأُمومة، ولهذه الحقوق نظير في سائر أفراد المجتمع، الّا انّ أصـل حـق الأُبـوة والأُمومة لا يمكن ملاحظته في موضع آخر. ومن هـنا نـلاحظ وجـود واجـبات وتكاليف علىٰ الولد بالنسبة لوالديه ولا يوجد مثلها في مجال آخر.

يتضمن القرآن الكريم تعابير جذابة بشأن حقوق الوالدين علىٰ الأبناء وواجبات

الأبناء تجاه الوالدين توضح أهميتها جيداً، يقول تعالىٰ في آية مباركة:

﴿وَ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَ لاٰ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰاناً﴾[١].

في هذه الآية يدعو الله سبحانه الىٰ الاحسان بالوالدين عقيب الأمر بعبادة الله والنهي عن الشرك مما يشير الىٰ الاهمية البالغة لِحقوق الوالدين علىٰ الأبناء.

ويقول في آية أُخرىٰ:

﴿قُلْ تَعٰالَوْا أَتْلُ مٰا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاّٰ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰاناً﴾[٢].

كما يقول سبحانه:

﴿وَ قَضىٰ رَبُّكَ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاّٰ إِيّٰاهُ وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰاناً﴾[٣].

(القضاء) هنا يعني التكليف القطعي المنجز والمؤكد. ان أعلىٰ تكليف يوجّه الىٰ الانسان هو عبادة الله سبحانه، والتعبير بـ(قضى) الذي لا يضاهيه تعبير (أمر) ولا أيّ تعبير آخر يفصح عن هذه الأهمية. ثم يتابع بقوله (وبالوالدين احسانا) أي يامر بالاحسان بالوالدين بتعبير (قضى) ذاته الذي أمر به في عبادة الله بنحو مؤكد ومحكم، مما يشير الىٰ ان الاحسان بالوالدين بعد عبادة الله عزّ وجلّ قد وقع موضوعاً للأمر والحكم الإلٰهي المؤكد.

ما ذكرناه يمثل المنهج القرآني العام، ولذا اعتبر الاحسان بالوالدين ـ في الآيات القرآنية الأُخرىٰ ـ عقيب الأمر بعبادة الله تعالىٰ والنهي عن الشرك ـ من أهم الواجبات الاسلامية، الّا انّ الآية موضوع البحث تمتاز بخصوصيات وتنطوي علىٰ مزيد تأكيد بهذا الشأن.

ونتيجةً للتأكيد البالغ علىٰ الاحسان بالوالدين في القرآن ينشأ هذا الوهم وهو وجوب تسليم الولد لوالديه تسليما مطلقاً، لذا يأمر الله دفعاً لهذا الوهم:

﴿وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسٰانَ بِوٰالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جٰاهَدٰاكَ لِتُشْرِكَ بِي مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاٰ تُطِعْهُمٰا﴾[٤].

---

١. النساء ٣٦.
٢. الانعام ١٥١.
٣. الإسراء ٢٣.
٤. العنكبوت ٨.

بناء علىٰ ذلك فانّ عبارة (وإنْ جاهداك...) تفيد أن طاعة الوالدين واجبة ما لم يدعواك الىٰ الكفر.

والمقارنة بين الأمرين يوضح درجة خضوع الانسان لوالديه.

القرآن وأولوية الأم

هناك آيات أُخرىٰ في القرآن تذكر ـ في سياق تأكيدها علىٰ عظمة حق الوالدين ووجوب ادائه ـ ما تتحمّله الأم من اتعاب مضنية لا تجازىٰ، منها ما جاء في سورة لقمان:

﴿وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسٰانَ بِوٰالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلىٰ وَهْنٍ وَ فِصٰالُهُ فِي عٰامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوٰالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[١].

تتضمن هذه الآية تأكيداً شديداً علىٰ حق الأم، كما انّ الروايات تثبت للأم حقاً أكبر من حق الأب، فهي تدعو للاهتمام بالوالدين أولاً وفي التعابير التالية تذكّر بحق الأم وأتعابها أيام الحمل وارضاع الطفل وتربيته، والهدف هو بيان الحكمة في سبب هذا الكم الكبير من الدعوة الىٰ الاحسان والبر بالوالدين وخاصة الأم.

ثم ورد تعبير (ان اشكر لي ولوالديك) وهو من التعابير القرآنية العجيبة ولا نظير له في أي موضع من القرآن، يدعو الله عزّ وجلّ: اشكروني أولاً ثم يدعو الىٰ شكر الوالدين مباشرة. الملفت هو عدم الفصل بين شكر الوالدين وبين شكر الله سبحانه في العبارة، بل ذكر الأمر بشكر الله وشكر الوالدين بفعل واحد مما يشير أكثر مما سبق الىٰ أهمية حق الوالدين.

وفي ذيل الآية يذكر ذات الاستثناء الوارد في الآية السابقة بفارق طفيف وهو انهما ان سعَيا لان تشرك بالله تعالىٰ فلا تطعهما.

﴿وَ إِنْ جٰاهَدٰاكَ عَلىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاٰ تُطِعْهُمٰا وَ صٰاحِبْهُمٰا فِي الدُّنْيٰا مَعْرُوفاً وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنٰابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢].

---

١. لقمان ١٤. ٢. لقمان ١٥.

من الطبيعي أن يكون الوالدان اللذان يدعوان الىٰ الشرك ولم يكتفيا باقتراحه بل يصرّان علىٰ ذلك ثابتين علىٰ الشرك، ورغم ذلك فانّ الآية تدعو الىٰ الاحسان بهما وتأمر بعدم الاطاعة عند دعوتهما الىٰ الشرك فقط، ومع ذلك توصي مباشرة بالتعامل الحسن معهما في الدنيا، جاء في آية أُخرىٰ:

﴿وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ كُرْهاً وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾[1].

هذه الآية كالآية السابقة ـ تذكّر بما تعانيه الأم من متاعب ومشاق أيام الحمل والولادة تذكيراً للولد بحقها الذي يفوق حق الأب بلحاظ هذه المشاقّ لكي لا ينساها ولا ينسى حقها أبداً.

ارشادات خاصة بشأن الوالدين

كانت الآيات المذكورة توصي بني الانسان كافة بالاحسان بالوالدين بصورة مطلقة، وهناك مجموعة أُخرىٰ من الآيات القرآنية توصي شخصا أو فئة خاصة بالاحسان بالوالدين، أو تثني علىٰ شخص بهذا الشأن. كقوله تعالىٰ:

﴿وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾[2].

فقد أثنى الله سبحانه علىٰ النبي يحيىعليه السلام لاتصافه بخصال حميدة منها البِر بالوالدين بقوله:

﴿وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَ حَناناً مِنْ لَدُنّا وَ زَكاةً وَ كانَ تَقِيًّا * وَ بَرًّا بِوالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبّاراً عَصِيًّا * وَ سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾[3].

وقال الله سبحانه في القرآن بانّ النبي عيسىعليه السلام أخبر بنحو الاعجاز عن نبوته ومستقبله ثم أشار الىٰ الوصايا الإلٰهية المهمة له:

﴿وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا * وَ بَرًّا بِوالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي

---

١. الاحقاف ١٥. ٢. البقرة ٨٣.
٣. مريم ١٢ ـ ١٥.

جَبّاراً شَقِيًّا﴾[١].

ونظراً لعدم وجود أب للنبي عيسى عليه السلام فقد أشار الىٰ البر بالأم فقط.

مصاديق للاحسان بالوالدين

ومن جانب آخر تحدثت الآيات المذكورة عن مطلق الاحسان ولم تُشر الىٰ احسان خاص فهي تشمل إذنْ كلَّ احسان، ولكن في آيات أُخرىٰ توصي باحسان خاص ومنها قوله تعالىٰ:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[٢].

قال الفقهاء والمفسرون ان هذه الآية نزلت قبل آيات الارث، ولعدم تحديد حق للوالدين في الارث بعدُ فانّ الله سبحانه يأمر الولد بأن يخصص حين موته شيئا من أمواله لوالديه في وصيته، ولكن يمكن القول ان استحباب الوصية للوالدين ساري المفعول حتى بعد نزول آيات الارث، ولم تنسخ الآية المذكورة، بل انّ المراد هو الوصية بما يفوق حق الارث سيّما اذا كان الوالدان معوزَين، فاضافة الىٰ سهم الارث تستحب الوصية لهما بشيء، وهذا نوع من الاحسان المالي بالوالدين.

وعليه يحسن بالمرء أن يخصص شيئا من ثلث أمواله لوالديه اضافة الىٰ حقهما في الارث، وهذا شاهد اخر علىٰ أهمية حق الوالدين، قال تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

﴿يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ﴾[٣].

فقد ذكر الوالدين في هذه الآية قبل الجميع وذلك بترجيحهما حال كونهما معوزين.

الآيات المشار اليها تؤكد علىٰ الاحسان المالي، ولكن هناك مجموعة أُخرىٰ من الآيات تهتم بنوع من الاحسان القولي والسلوكي، كالآية القائلة:

﴿وَ قَضىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما وَ قُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً * وَ اخْفِضْ

---

١. مريم ٣١ـ٣٢.
٢. البقرة ١٨٠.
٣. البقرة ٢١٥.

لَهُمٰا جَنٰاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمٰا كَمٰا رَبَّيٰانِي صَغِيراً﴾[١].

مرحلة الشيخوخة فترة يكون الوالدان فيها ضعيفين وعاجزين عن العمل، وبحاجة الىٰ ولديهما احتياجاً حيوياً، من هنا فانّ علىٰ الولد اخلاقياً وشرعاً رعاية حقوقهما خاصة في هذه الحالة. فما دام الوالدان شابّين فانّهما ليسا بحاجة الىٰ الولد في الشؤون المالية وغيرها غالبا، بل قد يفوقانه في العمل وبذل الجهود بل قد يساعدانه، ولكنهما غير قادرين أيام الشيخوخة علىٰ بذل جهود من أجل الحياة كالشباب، سيّما وان مرحلة الشيخوخه تصحبها عادة الأمراض ومشكلات أُخرىٰ. في هذه الحالة هما بحاجة الىٰ إعانة ابنائهم ورعايتهم، فيجب بذل ذلك بصبر وأناة تامة.

قد يجزع الولد لدىٰ التعامل مع هؤلاء العاجزين والضعفاء في موارد كثيرة، ويبدو عليه التعب والتذمر والجزع، فيولي القرآن الكريم أهمية خاصة لهذه الموارد ويوصي الانسان بان لا يبدو متعبا ومتألماً وأن يجتنب الحالة التي تشعر الوالدان بانّه متعب جرّاء رعايتهما، قال تعالىٰ:

﴿فَلاٰ تَقُلْ لَهُمٰا أُفٍّ وَ لاٰ تَنْهَرْهُمٰا وَ قُلْ لَهُمٰا قَوْلاً كَرِيماً﴾

ثم يقول تعالىٰ:

﴿وَ اخْفِضْ لَهُمٰا جَنٰاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾

يقول المفسرون في شرح هذه العبارة انّ الطيور تخفض اجنحتها الىٰ الارض لدىٰ تواضعها لطير آخر أو لمن يخدمها. يقول سبحانه في هذه الآية، ينبغي أن تكون حالتكم تجاه والديكم كحالة هذا الطير، كونوا متواضعين ومتذلّلين واجتنبوا التكبر وتصعير الخد والفظاظة والحدّة في التعامل.

العلاقات المتبادلة بين الزوجين

العلاقة الاكثر طبيعية بعد علاقة الولد مع والديه هي العلاقة المتبادلة بين الزوجين، فالولد يمثل في الحقيقة الثمرة لهذه العلاقة، ونظراً للاهمية البالغة التي تحظى بها

---

١. الإسراء ٢٣ ـ ٢٤.

علاقة الولد مع الوالدين قمنا بطرحها قبل العلاقة الزوجية.

انّ العلاقة الزوجية تترجح بلحاظٍ علىٰ علاقة الولد مع الوالدين، إذ ما لم يتحقق الزواج والعلاقة الزوجية فلا وجود للولد، ومع عدم الولد لا تحقق للوالدين أيضاً، كما انّ العلاقة بين الوالدين والأبناء وإنْ حظيت بأهمية بالغة ولها تقدم رتبي الّا انّالعلاقة الزوجية ذات تقدم زماني بالنسبه للعلاقة مع الوالدين.

علىٰ أي حال فانّ القسم الآخر من أخلاق الأُسرة يتعلق بالعلاقة الزوجية في إطار الأُسرة، ولكن نظراً لتقارن البحوث الأخلاقية في هذا القسم مع البحوث الحقوقية في القرآن الكريم يلزم ابتداء بيان الفرق بين الاحكام الأخلاقية والحقوقية.

حدود الحقوق والأخلاق الاسلامية

ترتبط المسائل الحقوقية بالأخلاق في الكثير من الموارد ولبعض المسائل حيثية اخلاقية وأُخرىٰ حقوقية. ان نطاق الأخلاق الاسلامية يشمل المسائل الحقوقية أيضاً وإنْ لم تكن لبعض الاحكام الحقوقية حيثية اخلاقية، فمثلا تكون أحكام المعاملات والعقود أحكاماً وضعية خاصة لا ترتبط مباشرة بالأخلاق، والاحكام الأخلاقية والحقوقية تتفاوت من جهات عديدة:

الأُولىٰ: ان الاحكام الحقوقية تكون لتنظيم العلاقات الاجتماعية للانسان في الحياة الدنيا، ولا يتجاوز هدفها ـ سواء أكان العدل أو النظام أو أمراً آخر ـ دائرة الحياة الدنيوية للانسان بينما يسمو هدف الأخلاق الاسلامية علىٰ هدف الأحكام الحقوقية ولا ينحصر في الأهداف الدنيوية.

الثانية: ان الاحكام الحقوقية تحظى بالتزام حكومي لتنفيذها، فالحكومة هي المسؤولة عن تنفيذ الاحكام الحقوقية والمتابعة القانونية لمن يتنكّب عنها، في حين لا تحظى الاحكام الأخلاقية بمثل هذه الخصوصية والالتزام الحكومي لتنفيذها.

وقد يكون للحكم حيثيتان: اخلاقية وحقوقية، فتقوم الحكومة في هذه الحالة بتنفيذه بلحاظ حيثيته الحقوقية.

ان حيثيته الأخلاقية ذات صلة بالتأثيرات النفسية والكمالات المعنوية التي ترسخ في الانسان فتكون مشروطة قهراً ببعض الظروف النفسية التي لا تندرج في نطاق علم الحكومة وسلطتها لكي تكون قادرة علىٰ تنفيذها وضبطها.

هناك احكام تختص بنطاق الأُسرة ويعتبر التهرب منها جريمة فيمكن ملاحقة المتهرب قانونيا، وهذه الخصوصية تشير الىٰ البعد الحقوقي لهذه الاحكام التي ترتبط بالسلوك الظاهري لاعضاء الأُسرة ويكون العمل بها مقبولاً من الناحية الحقوقية مهما كانت النية من ورائه. ولكن كما ذُكر فانّ قوام القيمة الأخلاقية يستند الىٰ دافع المرء ونيته ويمثّل ذلك مؤشراً للبعد الأخلاقي لهذه الاحكام.

إذنْ قد يكون الفعل مسموحاً به قانونيا وحقوقيا ولكنه مرفوض اخلاقيا وذو قيمة سلبية فيما لو أُنجز بدافع ونية سيئة. ليس للحقوق موقف خاص من نية الانسان في العمل الذي يؤديه، بل يكون مُجازاً لانّه قانوني ظاهراً ولا بأس به مهما كان الدافع.

وفي موارد نادرة تستند الاحكام الحقوقية الىٰ النية كالقتل العمدي وغير العمدي حيث تترتب عليهما عقوبات حقوقية متفاوتة والتفاوت بينهما هو القصد والنية، الّا انّ المقصود في هذه الموارد هو الفعل ذاته، ولكن ما له الدور في الأخلاق والقيمة الأخلاقية هو النية في نتيجة العمل والدافع للانسان في ممارسته.

الثالثة: ان قوام قيمة الاحكام الأخلاقية ـ بملاحظة ما ذكر ـ هو النية وتختلف قيمة العمل حسب النية الصالحة أو السيئة في حين لا تأثير للنية في الاحكام الحقوقية والأعمال القانونية.

امتزاج الاحكام الحقوقية والأخلاقية في القرآن

تم بيان الاحكام الأخلاقية والحقوقية في القرآن الكريم بصورة ممتزجة سيّما في العلاقات الأُسرية والشؤون الزوجية، ففي الموارد التي بينّت فيها الاحكام الحقوقية قاطبة هناك ذكر للاحكام الأخلاقية أيضاً. والسبب لهذا الامتزاج هو أن الاحكام الحقوقية لا تضمن لوحدها سعادة الانسان وكماله من جهة، وانّ الهدف الرئيسي للقرآن في بيان الاحكام الحقوقية ليس فقط وضع قانون لتنظيم العلاقات الاجتماعية من جهة أُخرىٰ، بل يقصد هدفاً أسمى هو بلوغ الانسان الىٰ كمالاته المعنوية والأخلاقية، بل ان الأهداف الأخلاقية في القرآن حاكمة علىٰ اهدافه الحقوقية.

للامتزاج بين الأخلاق والحقوق في القرآن خصوصية ايجابية ذات تأثير نافذ في الحياة الاجتماعية، إذ انّ الناس لو افتقدوا التربية الأخلاقية والمعنوية لكان تنفيذ القانون الحقوقي الجاف أمراً صعبا وبحاجة الىٰ جهاز اداري كبير بوسعه متابعة اعمال جميع الناس.

في المجتمع البعيد عن التربية والقيم الأخلاقية يسهل التهرب من القانون والضوابط الاجتماعية من قِبل الأفراد ويشيع ويكثر انتهاك القانون. في هذه الحالة يلزم وجود جهاز قضائي واداري واسع ومقتدر لمتابعه هذه الانتهاكات.

من جهة أُخرىٰ اذا افتقد المسؤولون التنفيذيون المتصدون لمتابعة هذه الانتهاكات الصلاحية الأخلاقية فانّهم سيرتكبون انتهاكات أكبر وأعقد ذات شمولية أوسع وتبعات أشدّ ضرراً علىٰ المجتمع، فلابدّ من وجود جهاز رقابة يشرف علىٰ اعمالهم بهدف متابعة هذه الانتهاكات. واذا انتهك المراقبون القانون أيضاً فمن اللازم تشكيل محكمة عليا لمتابعة انتهاكاتهم وبالتالي لن تنتظم الأمور حتى يقع زمامها

بيد الصالحين الذين ينتهجون الطريق الصحيح بعيداً عن انتهاك القانون والانحراف عنه.

انّ القانون الحقوقي الجاف يعجز حتى عن فرض النظام في الحياة المادية والدنيوية للانسان، بل يتوقف تأثيره المناسب علىٰ اسناد نظام اخلاقي، فكلما ترسخت الاسس الأخلاقية في المجتمع طوت النفوس البشرية طريق التكامل والرقي بنحو أكبر، كما ستنخفض نسبة الجريمة وانتهاك القانون، وبالتالي ستقل وتتيسر مهام الاجهزة التنفيذية والقضائية بنحو أكبر. من هنا فانّ القرآن الكريم يذكر الاحكام الحقوقية مع الاحكام الأخلاقية عادة، وعليه قلّما نجد لدى البحث عن اخلاق الأُسرة في القرآن آية تهتم بالجانب الأخلاقي فقط. اننا نبحث عن الجوانب الأخلاقية في هذه الآيات فعلا ونوكل البحث عن جوانبها الحقوقية الىٰ فرص مناسبة أُخرىٰ.

* * *

الزواج فعل مسموح به من الناحية الحقوقية ولا شك أو شبهة في جوازه في الرؤية الاسلامية، ولكن ما هو حكم الزواج في بعده الأخلاقي؟ هل يستوجب كمالاً نفسيا في الانسان وهل يكون ـ اضافة الىٰ جوازه ـ راجحا ومحبذاً؟

للزواج في باب الفقه احكام مختلفة حسب اختلاف الاحوال والظروف، فيكون واجبا أحيانا أو مستحبا أو مباحا، بل تترتب عليه الاحكام الخمسة حسب اختلاف الظروف. ويمكن استنتاج حُسن الزواج بوضوح من آيات القرآن الكريم، الحُسن الذي يبلغ حد الوجوب في بعض الظروف، وفي دائرة السنّة توجد روايات كثيرة بهذا الشأن أيضاً، ولكن لا نتابعها لان بحثنا هنا قرآني.

الاحكام الحقوقية والأخلاقية للزواج في القرآن

ذكر سابقاً انّ النية هي أساس القيمة الأخلاقية، أي يلزم وجود الحسن الفاعلي الىٰ جانب الحسن الفعلي أيضاً، وبناء علىٰ ذلك من تزوج بهدف اشباع شهوته فقط لم يحظَ عمله بقيمة اخلاقية، وللزواج طبعاً قيمة اخلاقية مهما كان الدافع في ذلك، إذ انّ من يلتزم بالحدود الإلٰهية من خلال الزواج ولا يتزوج بالمحارم وينأى بنفسه عن الانفلات في اشباع الشهوة، أي يضع قيوداً وموانع شرعية لدىٰ اشباع غريزته وشهوته فانه بحاجة الىٰ دافع اخلاقي لذلك وإنْ كان هذا الدافع عاما ويشعر به جميع المسلمين لدىٰ زواجهم، وقلما يوجد من يلتزم بحدود الزواج خوفا من متابعة اجهزة القضاء فقط. أجل انه دافع إلٰهي ويقدم علىٰ هذا العمل نيلا للثواب أو خوفا من العقوبة الاخروية علىٰ الاقل، وهذا في نفسه ذو مرتبة من القيمة الأخلاقية وإنْ لم تكن قيمته جديرة بالمقارنة مع قيم الأخلاق الاسلامية السامية.

أسمى قيمة للزواج يكون حينما يشعر الانسان بدافع أسمى لتأسيس الأُسرة كدافع الابتعاد عن المعصية. ان هذا الدافع خير ويخلق قيمة اخلاقية، واذا كان ذا همة أعلىٰ وأقدم علىٰ هذا العمل بغية مرضاة الله سبحانه فقد اتّصف بقيمة اخلاقية سامية.

يجب الالتفات في مثل هذه الأعمال التي يشعر الانسان بدافع طبيعي ازاءها الىٰ انّ الميول الغريزية تدفع المرء لممارستها غالبا، وقليلون هم الذين يوفقون لتهذيب نياتهم وتحصينها أمام تأثيرات هذه الغريزة وجذابيتها، ولكن بقدر علو الانسان في همته والاخلاص في نيته يكون عمله ذا قيمة اخلاقية أسمى.

علىٰ أي حال ففي الزواج نوع من القيمة الأخلاقية، والآيات القرآنية ذات دلالة واضحة علىٰ هذه الحقيقة كقوله تعالىٰ:

﴿وَ أَنْكِحُوا الْأَيٰامىٰ مِنْكُمْ وَ الصّٰالِحِينَ مِنْ عِبٰادِكُمْ وَ إِمٰائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرٰاءَ يُغْنِهِمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١].

يعتبر تحديد المهر في الشريعة الاسلامية المقدسة من الاحكام الحقوقية للنكاح. وقد كان هذا الحكم وما يزال موجوداً في سائر الأمم. وفي الآونة الأخيرة أخذت بعض المجتمعات الغربية بإثارة الشكوك حول هذه القضية بل اعتبرتها قيمة سلبية، فكأن تحديد المهر يعني بيع المرأة وشراءها، الّا ان هذا الانطباع ليس له اساس صحيح. فقد اعتبر الاسلام المهر علىٰ أساس المصلحه الاقتصادية للمرأة، فحتى مع عدم تحديد مقداره في العقد يجب علىٰ الرجل دفع مهر المثل. وكذلك وجوب نفقة المرأة علىٰ الرجل من الاحكام الحقوقية للزواج في النظام الحقوقي للاسلام وقد شرّعت هذه الاحكام لمصالح اجتماعية خاصة، وينبغي أن يبحث عنها عند البحث عن الأحكام الحقوقية.

والىٰ جانب هذه الاحكام الحقوقية هناك احكام اخلاقية في الاسلام تتعلّق بهذه الموضوعات، منها ان تحديد المهر وإنْ كان واجبا ولكن لا ينبغي أن يكون باهظاً الىٰ درجة العجز العملي عن تقديمه. وعليه يكون التشدد في تحديد المهر الىٰ درجة عجز البعض عن تقديمه وعن الزواج ناقضا للغرض ولا ينسجم مع جوهر قانون الزواج في الاسلام. ويحرم الكثير من الرجال والنساء من الزواج.

يؤكد القرآن علىٰ هذه القضية وهي أن الفقر لا ينبغي أن يسبب حرمان المرء من الزواج، فعلىٰ الفقراء التوكل علىٰ الله سبحانه فانّه سوف يغنيهم، ولٰكن غلاء المهور يعمل عادة علىٰ تاخير الزواج أو حرمان الكثير من الناس منه.

طبعاً يحق للمرأة تحديد المهر حسب رغبتها قانونياً، الّا انّ القرآن الكريم يدعو

---

١. النور ٣٢.

الىٰ عدم التشدد في تحديد المهر أخلاقيا، ويدعو للزواج من الفقراء أيضاً.

رغم هذه الوصايا قد يكون اشخاص في ظروف خاصة يعجزون فيها من الزواج الدائم، فيمكن رفع حاجتهم بالزواج المؤقت دون أن يشعروا بعبء ثقيل. وهذا طريق قانوني آخر ذكره الله سبحانه في القرآن الكريم حيث يقول:

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾[١].

الطريق الثالث الذي يقترحه القرآن الكريم في هذا المجال ويرتبط طبعاً بالعصور الغابرة هو الزواج بالإماء، وذلك بالنسبة للعاجزين عن الزواج بالحرائر والقادرين علىٰ الزواج بالاماء، قال تعالىٰ بهذا الشأن:

﴿وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنٰاتِ الْمُؤْمِنٰاتِ فَمِنْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ مِنْ فَتَيٰاتِكُمُ الْمُؤْمِنٰاتِ﴾[٢].

وقال في ذيل الآية:

﴿ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَ أَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾[٣].

وأخيراً علىٰ الذين أُغلقت أمامهم جميع هذه الطرق وعجزوا عن الانواع الثلاثة للنكاح أن يتحلّوا بالعفاف والنزاهة حتى يغنيهم الله من فضله وكرمه ويكونوا قادرين علىٰ الزواج، قال تعالىٰ بهذا الشأن:

﴿وَ لْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاٰ يَجِدُونَ نِكٰاحاً حَتّٰى يُغْنِيَهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[٤].

وهذا حكم اخلاقي أيضاً بشأن العلاقة الزوجية.

تعدد الازواج

في الرؤية الاسلاميه يجوز الزواج باربع نساء. ولتعدد الزوجات في الاسلام بُعد

---

١. النساء ٢٤.
٢. النساء ٢٥.
٣. النساء ٢٥.
٤. النور ٣٣.

اخلاقي ينبغي دراسته بصورة مستقلة. ونشير هنا الىٰ الملاحظات والاحكام الأخلاقية الواردة في القرآن بشأنها، قال الله تعالىٰ:

﴿وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتٰامىٰ فَانْكِحُوا مٰا طٰابَ لَكُمْ مِنَ النِّسٰاءِ مَثْنىٰ وَ ثُلاٰثَ وَ رُبٰاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوٰاحِدَةً﴾[١].

ههنا سؤال ينقدح حول مضمون الآية والترابط بين صدرها وذيلها وشرطها وجزائها، وهو: ما الرابطة بين عبارة (وإنْ خفتم الّا تقسطوا في اليتامىٰ) وهي الشرط وبين عبارة (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) وهي الجزاء، ولماذا علّق الله سبحانه هذا الجزاء علىٰ ذلك الشرط؟ وما السبب لقوله: (وإنْ خفتم الّا تقسطوا في اليتامىٰ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنىٰ وثلاث ورباع)؟

عرض المفسرون وجوها مختلفة للإجابة علىٰ السؤال، أوجهها وجهان:

الأول هو وجود اعداد كبيرة من الاطفال اليتامىٰ بين العرب إثر الحروب الكثيرة، في هذه الحالة دعا القرآن الكريم الىٰ الاحتراز من التصرف بأموال اليتامىٰ وعدم خلطها بأموالهم. وفي الوهلة الأُولىٰ من نزول الآيات بهذا الشأن أخذ بعض المسلمين المتصدين لرعاية بعض اليتامىٰ يشعرون بالقلق الىٰ درجة عدم تناولهم لبقية الطعام الذي يفضل منهم فيفسد، لظنهم عدم جواز التصرف بمال اليتيم.

أثارت هذه الحالة بعض المشكلات مما دعا البعض للتوجّه الىٰ رسول الله ﷺ ليخبروه بقولهم: اننا نخشى التصرف بأموال اليتامىٰ وبالتالي وجدت هذه المشكلات. في هذه الظروف كما جاء في شأن النزول نزلت آيات أمر الله سبحانه فيها بأن يكون تصرفكم علىٰ أساس مصلحة اليتيم وليس عدم التصرف أبداً.

﴿وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾[٢].

---

١. النساء ٣.

٢. البقرة ٢٢٠.

من هذه المشكلات قضية البنات اليتيمات اللائي يصعب رعايتهن من جهة، وشحة المُقدمين علىٰ الزواج بهن لدىٰ بلوغهن سن الزواج ليُتْمهنّ من جهة أُخرىٰ. يعتقد بعض المفسرين ان الآية الكريمة تدعو الىٰ الزواج باليتيمات التي في أُسرهن، ولا يشكّل وجود الزوجة عقبة بوجه هذا الفعل إذ بامكانهم الزواج باثنتين أو ثلاث أو أربع نساء. إذنْ حكمة هذا الحكم هي عدم بقاء اليتيمات دون أزواج. لكن قانون تعدد الزوجات عام ولا يختص بمورد نزول الآية طبعاً، الّا انّ الأساس في جعل هذا القانون وشأن نزول الآية المذكورة هو البنات اليتيمات.

وقال بعض آخر من المفسرين: ان الآية تعني انكم لو خفتم أن يؤدي الزواج باليتيمات الىٰ التصرف غير الوجيه في أموالهن فتزوجوا بنساء أُخريات غير اليتيمات، واعتبره العلامة الطباطبائي الوجه الاقوىٰ في تفسير الميزان.

وعلىٰ أي حال، فلا خلاف بين الشيعة والسنّة في جواز تعدد الزوجات، ومقصودنا من ذكر هذه الآية هو التذكير بالقضية الأخلاقية التي تدعو اليها عبارة: (فانْ خفتم الّا تعدلوا فواحدة) فعلىٰ من يختار أكثر من امرأة الالتزام بالعدالة في التعامل معهن، ومن الممكن استيفاء بعض حدود ودرجات العدل قانونيا، ولكن اذا احتمل الزوج عجزه عن رعاية العدالة بينهن فالأفضل ـ حسب ما يدعو اليه القرآن ـ اكتفاؤه بالزواج من امرأة واحدة، ورغم ذلك لو انتخب زوجة أُخرىٰ لم يبطل عقد الزواج من الناحيه الحقوقية ويكون مُلزما برعاية العدالة بينهن، مما يدل علىٰ ان دعوة القرآن دعوة اخلاقية.

التعارض الظاهري بين آيتين

قال تعالىٰ في آية أُخرىٰ في القرآن الكريم:

﴿وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ وَ إِنْ تُصْلِحُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللّٰهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾[١].

لقد أفرط البعض لدىٰ الجمع بين هذه الآية والآية آنفة الذكر، وقالوا: ان الآيتين معا تدلان علىٰ عدم جواز الزواج بأكثر من زوجة واحدة، لان الآية الأُولىٰ تجعل جواز تعدد الزوجات متوقفاً علىٰ رعاية العدالة بينهن، والآية الثانية تدل علىٰ ان رعاية العدالة بين الأزواج أمر غير ممكن، والتعامل بنحو عادل مع الزوجات غير مقدور للزوج، فتكون نتيجة الجمع بين الآيتين هي عدم جواز الزواج بأكثر من زوجة واحدة.

من البديهي انّ الجمع بين الآيتين بهذا النحو لا يعني سوى الحط من شأن الآيات، اذ كيف يمكن أن يسمح الله سبحانه بزواج الانسان من اربع ازواج مشروطاً بالعدالة من جهة ثم يقول انكم لا تستطيعون رعاية هذا الشرط من جهة أُخرىٰ، فتكون النتيجة عدم جواز الزواج بأكثر من امرأة؟! حتى كلام الانسان الاعتيادي لا يمكن تفسيره بهذا النحو فكيف بالكلام الإلٰهي الذي بلغ الذروة في الفصاحة والبلاغة؟ الادراك الصحيح لمفهوم الآيتين والجمع بينهما يقتضي ملاحظة ذيل (الآية ١٢٩) الدال علىٰ انّ العدالة التي لا يستطيع الانسان رعايتها ليست رعاية حقوق الأزواج القانونية، لان رعاية هذه العدالة ليست أمراً غير ممكن، بل رعاية التساوي المطلق بين الأزواج وهي العدالة التي اعتبرتها عبارة (ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم).

المقصود هو انكم لو أردتم المساواة التامة بين ازواجكم دون تفرقة كان ذلك أمراً غير ميسور لكم، سيّما وان درجة المحبة القلبية والتعاطف مع الأزواج ليس بيد

---

١. النساء ١٢٩.

الانسان حتى يراعي العدالة فيه، ومن الطبيعي أن يكون اختلاف الحب في القلب منشأ للاختلاف في السلوك الظاهري للانسان أيضاً. وعليه لو أراد صاحب الزوجات المتعددة التعامل معهن تعاملا موحداً دون تفرقة في المحبة القلبية والسلوك الظاهري كان ذلك أمراً غير عملي، لان إحداهن تكون أجمل والأُخرىٰ أقلّ جمالا، أو تكون احداهن أكثر شبابا والأُخرىٰ أكبر سنّاً، أو تكون إحداهن افضل خلقا والأُخرىٰ سيئة الخلق، وأخيراً فانّ في النساء جهات مختلفة ويكون التفاوت فيها ـ شئنا أم أبينا ـ منشأ للتفاوت في محبة المرء القلبية تجاه زوجاته، الأمر الذي يؤثر الىٰ حدٍّ ما علىٰ سلوكه بنحو لا شعوري أيضاً.

يقول سبحانه بانّ رعاية هذه الدرجة من العدالة أمر غير ممكن، ولا نطلبه منكم، بل عليكم ان لا تصرفوا وجوهكم عن إحداهن وكأنها ليست زوجة، ولا يبلغ الأمر حد الاهمال حتى لحقوقها القانونية. وهذا ما يستفاد من العبارة:

(ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلّقة).

أهداف تأسيس الأسرة

من البديهي أن يكون الهدف الأساسي من بناء الأُسرة هو استمرار النسل البشري، وتأسيس مجتمع سليم، وتوفير السلامة النفسية لأبنائه. وفي المرحلة التالية يكون أحد اهداف الحياة الأُسرية تلبية متطلبات أعضاء الأُسرة في إطار الحياة المشتركة، فسيكون كل عمل قيّما بنسبة تأثيره في تحقيق هذا الهدف.

والأعمال التي ينجزها أعضاء الأُسرة تحقيقا لهذا الهدف تنقسم الىٰ نوعين أساسيين:

أ ـ الأعمال التي يمكن إنجازها من قِبل أعضاء الأُسرة وهم متكافئون في امكانية تحقيق هذا الهدف من خلال إنجازها.

ب ـ الأعمال التي لا يتيسّر إنجازها من قِبل جميع أعضاء الأُسرة، بل كل عمل منها يؤدىٰ من قِبل عضو خاص حسب ما في الأعضاء من خصائص جسمية ونفسية، ويكون انجازه فوق طاقة سائر الأعضاء، وعلىٰ هذا الأساس يتم بنحو طبيعي توزيع الأعمال علىٰ أعضاء الأُسرة.

فمثلا، انّ الدور الذي تضطلع به المرأة في إطار الأُسرة لن يتأتّى من قِبل الرجل، إذ انّ المرأة لها قابلية الحمل باعتبار بنيتها الطبيعية والجسمية وقدرتها علىٰ تغذية الطفل بعد ولادته بارضاعه اللبن وتربيته باعتبار خصوصيات الأُمومة النفسية، في حين لا تنجز هذه الأعمال من قِبل الرجل لخصوصياته الجسمية والنفسية الأُخرىٰ.

وفي المقابل بامكان الرجل لخصوصياته الجسمية والنفسية تحمُّل مسؤوليات تصب في طريق تحقيق أهداف الأُسرة وتعجز المرأة عن القيام بها.

إذنْ منشأ التفاوت القيمي بين الرجل والمرأة في تحقيق اهداف الأُسرة يستند الىٰ التفاوت في خصوصياتهما الجسمية والنفسية، وفي تقييم عامّ يمكن القول انّ المرأة عادة هي الأرهف احساساً مقابل تدبير الرجل وتعقُّله، وبما أن أجواء الأسرة بحاجة الىٰ التدبير والتربية معا فانّ هذا التقسيم يتم بنحو طبيعي، وذلك بأن يتولّىٰ الرجل ادارة الأُسرة وتوفير متطلباتها الاقتصادية، وتتولّىٰ المرأة الشؤون التربوية للابناء لما تتمتع به من حب واحاسيس عميقة تجاه الأولاد وتتحمّلهم بنحو أكبر.

وعليه تستند الدراسة المعمقة للاخلاق في الأُسرة ومعرفة الاحكام والقيم التي نادى بها الاسلام في هذا المجال ـ الىٰ حد كبير ـ الىٰ معرفة المزايا الجسمية والنفسية لكل عضو من أعضاء الأُسرة ودوره الخاص الذي يمكنه الاضطلاع به.

هنا وبعد ملاحظة ما ذكر نستعرض باختصار المبادئ والأُسس الحاكمة علىٰ الأُسرة:

الأُسس الحقوقية والأخلاقية للأُسرة في القرآن

١ ـ مبدأ اشباع الحاجة الجنسية

العامل الأول الذي يقرّب بين الرجل والمرأة ويستدعي الحياة المشتركة والترابط بينهما هو الغريزة الجنسية. فالرجل يرفع حاجة المرأة الجنسية وهكذا المرأة حيث تلبي في المقابل حاجة الرجل الجنسية، وهذه الحاجة المتبادلة توجب الىٰ حد كبير الترابط الدائم أو الطويل الأمد بينهما. ان تلبية هذه الحاجة المتبادلة تمثل القاعدة والأساس للكثير من احكام الأُسرة.

٢ ـ مبدأ اشباع الحاجة العاطفية

العامل الثاني هو نشوء العلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة حيث تجعلهما مخلصين ومعينين ومدافعين عن بعضهما. لقد خلق الله تعالىٰ بني الانسان بنحو تنشأ بينهم آصرة عاطفية وتنمو تدريجيا لدىٰ تلبية متطلباتهم ومصالحهم بنحو متبادل. تنشأ هذه العاطفة بين الزوجين بصورة قوية وطبيعية وبوسعها القيام بدور مهمّ في تحقيق مصلحة الأُسرة كلها بحيث يمكن القول ان اقوىٰ عامل لاستمرار الأُسرة وتماسكها هي العاطفة والمحبة المتبادلة بين أعضاء الأُسرة. وبناء علىٰ ذلك ومع اعتبار ضرورة الحياة الأُسريه يرىٰ العقل ان افضل عامل لترسيخها واستمرارها هو اثارة العواطف المتبادلة بين أعضاء الأُسرة.

وليس المراد طبعاً انّ العواطف ذات قيمة مطلقة وبلا حدود، لان قيمة هذه العواطف تنشأ من المصلحة العامة للاسرة، وقيمة الأُسرة بدورها تتبع القيم

والمصالح العامة للمجتمع. وعليه تكون ذات قيمة ايجابية حسب دورها الايجابي في تحقيق هذه المصالح. فيلزم سيطرة العقل علىٰ العواطف والاحاسيس وتوجيهها، ان قيمة النشاطات العاطفية تتوقف علىٰ امضائها من قِبل العقل. وتنال النشاطات العاطفية في إطار الأسرة تاييداً واستحساناً عقليا طبعاً نظراً لما تستتبعه من استقرار الأُسرة وتوفير المصالح العامة للمجتمع في اغلب الموارد.

مما ذكر نستنتج ان الاهتمام بالعلاقة العاطفية بين أعضاء الأُسرة يمثل مبدأ، فيكون كل ما يزعزع هذه العلاقة مرفوضا لأنّه يهز كيان الأُسرة. فالتعامل العاطفي إذنْ يمثل المبدأ الثاني الذي يمكن أن يكون دعمه وتنميته ذا تأثير ايجابي في تحقيق القيم الأُسرية.

وبناء علىٰ ذلك يلزم رعاية خط الاعتدال واجتناب الافراط والتفريط حتى في العواطف الأُسرية. ويتحقق الاعتدال فيها حينما تعمل علىٰ توثيق العلاقات الأُسرية واستقرار كيان الأُسرة دون أن يترتب عليها أي تسامح في أداء الأُسرة لمسؤولياتها الاجتماعية. انّ التفريط في العواطف الأُسرية يعني اللامبالاة وعدم الشعور بالمسؤولية وضعف التحابب المتبادل بين أعضاء الأُسرة الأمر الذي يزعزع استقرارها. والافراط فيها يعني جعل الأصالة للعلاقات الأُسرية الىٰ حد التأثير السلبيّ علىٰ العلاقات الاجتماعية للأُسرة أيضاً، والحيلولة دون أداء الأعضاء مسؤولياتهم الاجتماعية، كأن يمنع التحابب بين الزوجين الزوج من التوجّه الىٰ الجهاد أو الأسفار الضرورية.

اننا لو حصرنا ملاك القيمة في العاطفة واعتبرناها أساسا للقيمة بنحو مطلق ـ كما يقول بعض فلاسفة الأخلاق ـ لغيّر هذا المبنى طريقة تفكيرنا بشأن الأُسرة، ولسوف نواجه مشكلة في الجمع بين المسؤوليات الاجتماعية وطموحات الأُسرة، في حين

لا تكون العاطفة محوراً للقيم الأخلاقية في فلسفة الأخلاق الاسلامية بنحو مطلق، بل تمثل أحد الدوافع في العمل الإختياري، والعقل هو الذي يحدد قيمتها، وهناك مصالح وقيم أسمى أيضاً، قال تعالىٰ:

﴿قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ وَ إِخْوانُكُمْ وَ أَزْواجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَ تِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَ مَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّٰى يَأْتِيَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ﴾[1].

يتّجه هذا التهديد الىٰ الذين يفرطون في عواطفهم الأُسرية الىٰ مستوى الصد عن القيام بالواجبات الإلٰهية والاجتماعية. فالعواطف إذنْ لا تمثل مبدءاً مطلقا ومحوراً أساسيا للقيمة الأخلاقية، بل لابدّ من تقييدها بقيود أُخرىٰ كي تكون ذات قيمة اخلاقية.

وعليه لا ينبغي ان تَحول العواطف الأُسرية دون القيام بالمسؤوليات الاجتماعية لان ميدانها هو كيان الأُسرة، فلا ينبغي ان تتعداه وتؤدي الىٰ تسامح الانسان في أداء مسؤولياته الاجتماعية. ولكن كما قلنا فانّ رعايتها في كيان الأُسرة يمثل مبدأ، وتستتبع تقويتها تحقيقا أفضل لمصلحة الأُسرة. فالانسان حينما يحب شخصا فانّه يسعى لتحقيق مصالحه وحيثما وجدت العواطف المتبادلة فانّ جميع الأفراد سوف يسعىٰ كل منهم لتحقيق تقدم الآخرين.

ان ما يصد الانسان عن هذا التعاضد والتعاون هو الأنانية بين بني الانسان، فانّها تنخر في أساس الأُسرة وتضعف كيانها وتزعزعها.

ان معرفة العوامل التي تشيع الأنانية في أعضاء الأُسرة في نطاق الحياة الأُسرية تحتاج الىٰ دراسات نفسية عميقة، ولكن يمكن القول ان أنانية الانسان ذات جذور

---

١. التوبة ٢٤.

في العُقد النفسية الحاصلة قبل تأسيس الأُسرة غالبا.

فالتعامل المهين مع الانسان في مرحلة الطفولة من قِبل الوالديـن او الآخـرين يترك أثره علىٰ نفسه فلا يزول سريعا، ويدفعه لانتهاز الفرصة لأخـذ الثأر دائـما وبصورة لا شعورية.

انّ الزوجين غير المـتعاطفين لا يـلتفتان الىٰ العـامل الذي يـدفعهما للسـلوك الخاطىء، الّا انّ العلماء بدراساتهم العميقة توصلوا الىٰ هذه النتيجة وهي ان اهانة أفراد الانسان في مرحلة الطفولة داخل الأُسرة او المدرسة أو المجتمع ذات تبعات سلبية عليهم فيبحثون عن فرصة للتعويض أو الانتقام.

انّ الطفل الذي تحمّل المعاناة وأهانة والديه يقوم بهذا الدور ذاته حينما يصبح أباً أو أُماً فيقوم باهانة ابنائه، انه مسير طبيعي تقريبا. وتفسيره البسيط هو أنه قد تلقى هذه العادة من أُمه وابيه، الّا انّه ليس تعلما فحسب بل له دافع نفسي لاشعوري أيضاً. فالذين عانوا من الأوامر التعسفية وتحكم الآخرين في الوسط الاجتماعي يقومون بذلك الدور ذاته بدلاً عن الاعتبار والاحتراز منه، ويمارسون إصدار أوامر تحكّمية بحق الآخرين حتى انهم يستغلون الآيات والروايات والاحكام الإلٰهية فـي هـذا السياق، فمثلا حينما يأمر الاسلام في بعض الآيات والروايات المرأة بطاعة الرجل يتخذون ذلك ذريعة للتحكم وفرض آرائهم وافكارهم عـلىٰ أعـضاء الأُسـرة دون التفات الىٰ المقصود منها وتـفسيرها الأسـاسي، فـي حـين لا تكـون مـثل هـذه التحكمات مقصودة، ومن يمارسها فهو مسؤول أمام الله عزّ وجلّ. ان دائرة أوامـر الرجل كمدير في نطاق الأُسرة محددة، فعليه ادارتها ضمن تـلك الحـدود كـي لا تتشتت، الّا انّ ذلك لا يعني أبداً آمرية الرجل المطلقة في هذا النطاق.

علىٰ أي حال، فانّ أساس حياة الأُسرة في الرؤية الاسلامية مبني عل التحابب،

قال تعالىٰ في القرآن:

﴿وَ مِنْ آيٰاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهٰا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً﴾[١].

وليس المراد طبعاً ان الله سبحانه يوجد مثل هذه المودة بين الزوجين قهراً وتكوينا وبدون أسباب اختيارية، ويعشق أحدهما الآخر تلقائيا بمجرد اجراء صيغة العقد وكأن كلمات العقد وصيغته تميمة لنشوء التحابب، بل المراد هو انّ الرجل والمرأة حينما أجريا العقد وقرّرا التعايش مدى العمر فانّ العواطف الخاصة المتبادلة سوف تنشأ وتنمو تدريجيا.

ان نشوء هذا النوع من العلاقات العاطفية بين الزوجين مراد إلٰهي تكوينا وتشريعا. انّ الهدف الإلٰهي هو سيادة المودة والتحابب بين الزوجين وشعور أحدهما بالطمأنينة والسكينة في جنب الآخر. وبناء عليه فانّ الأساس هو وجود أجواء الطمأنينة المفعمة بالمودة في حياة الأُسرة، فعلىٰ الزوج والزوجة السعي لإحلال الطمأنينة بين أعضاء الأُسرة وتنمية العواطف والتحابب المتبادل يوما بعد آخر. وهذا هو المبدأ الثاني الحاكم في الأُسرة.

وقد تبرز بعض المشكلات والخلافات في الحياة الاجتماعية فتتعكّر باستمرارها أجواء الطمأنينة والراحة في الأُسرة، وسوف تنهار أُسس الرحمة والمودة بين الأزواج، مما يعني انّ العواطف التي تسود الأُسرة ليس بوسعها ـ رغم قوتها ـ الحيلولة دون وقوع هذه المشكلات والخلافات. ولذا يلزم عرض مبادئ وأساليب أُخرىٰ لحلها والوقاية من تشتت الحياة الأُسرية.

فالاسلام يقدّم مبادئ أُخرىٰ للوقاية منها وحلها نبين هنا اربعة منها:

---

١. الروم ٢١.

مبدأ التشاور ومبدأ قيمومة الرجل علىٰ الأُسرة ومبدأ اختيار الحَكَم ومبدأ اللين والتسامح.

لمزيد من الايضاح يمكن القول: ان من الممكن طروء نوعين من الخلافات في الأُسرة وبالتالي تعكير أجوائها العاطفية.

أ ـ لا يكون هدف الزوجين سوى تحقيق مصالح الأُسرة تارة فيتابعان هذا الهدف المشترك، ولكنهما يسلكان طريقين مختلفين لتحقيقه، أي تختلف وجهة نظرهما في طريقة تحقيق مصلحة الأُسرة.

فمثلا يتفقان في الرأي علىٰ ضرورة وجود دخْل معين لرفع حاجات أعضاء الأُسرة، فتقترح المرأة ممارستها عملاً خارج الأُسرة لتساهم في توفير مؤونة الأُسرة بشرط أن يقتطع الرجل بعض وقته للاهتمام بشؤون البيت، الّا انّ الرجل يعارض هذا الاقتراح ويرغب في أن يقوم هو بتوفير المؤونة وإنْ استدعى ذلك مضاعفة اعماله وتبقى زوجته في البيت بدلاً من العمل خارجه وتتولى تدبير شؤون البيت وتربية الأبناء. هذا الاختلاف في الرأي قد يكون منشأ للخلاف بين الزوجين.

ب ـ الخلافات الناشئة من اتّباع الزوجين أو أحدهما للمنافع الشخصية، كأن ترغب المرأة في العمل خارج البيت ليس لتحقيق مصلحة اجتماعية أو اسرية بل لكسب ربح شخصي، وهكذا الرجل وذلك بأن يعارض زوجته ويجبرها علىٰ البقاء في البيت لا لتحقيق مصلحة في المجتمع أو الأُسرة، بل للتحكم وتعويض ما تلقّاه من اهانات في الماضي.

في مثل هذه الموارد التي يختلف فيها الزوجان حول تحديد مصلحة الأُسرة أو تتعارض رغباتهما ومنافعهما الشخصية تفقد العواطف فاعليتها المطلوبة. ولذا يقترح الاسلام طرقاً لحل هذه الخلافات نقوم بتوضيح هذه المبادئ تحت عنوان المبدأ الثالث وحتى المبدأ السادس:

٣ ـ مبدأ التشاور

المبنى أو المبدأ الثالث الحاكم علىٰ الأُسرة هو مبدأ التشاور. الاسلوب الأمثل في حلّ الخلافات المذكورة آنفا هو أن يتبادل الرجل والمرأة الرأي وينتخبا طريقا يستسيغه العقل. من الطبيعي أن يكون لكل شخص رغباته وآراؤه الخاصة، وأن يكون للزوجين رغبات وآراء متعارضة، ولكن في الكثير من الموارد بوسعهما التنسيق بين رغباتهما وآرائهما والحد من التعارض بينهما من خلال تبادل الرأي والتشاور.

فالطريقة المثلىٰ لحل الخلافات في الأُسرة إذنْ هي تبادل الزوجين الرأي باخلاص وتعاطف وارادة للخير، ويفهم أحدهما الآخر ويفكر في ادلته وآرائه ويهجر الهوى والانانية، وعليهما الاذعان لحكم العقل سيّما في القضايا الطارئة في الأُسرة وترتبط بالمرأة بنحو أكبر، فاذا انفرد الرجل في اتخاذ القرار بشأنها دون التفات لرأيها فسوف تبرز بعض المشكلات.

وكنموذج: يمثل تغذية الطفل الرضيع إحدىٰ هذه القضايا، فهل تقوم الأُم بارضاعه أو يسلّم الىٰ المرضعة، وما هي مدة الرضاعة ولأي مرضعة يسلّم؟

علىٰ المرأة والرجل في هذه القضايا ـ التي يحتاج حلها الىٰ التعاون المشترك بينهما ـ أن يتشاورا ويفكرا في المصلحة ويتخذا قراراً صائبا ومناسباً. قال تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿فَإِنْ أَرٰادٰا فِصٰالاً عَنْ تَرٰاضٍ مِنْهُمٰا وَ تَشٰاوُرٍ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِمٰا وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاٰدَكُمْ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ إِذٰا سَلَّمْتُمْ مٰا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1].

علىٰ الأُم ارضاع طفلها سنتين، ولكن اذا اتفق الوالدان بعد التشاور علىٰ ان يفطم

١. البقرة ٢٣٣.

قبل ذلك واتخذا هذا القرار تشخيصا لمصلحة الطفل والأُسرة فلا بأس في ذلك.

وبدلاً من التعبير بـ(التشاور) في الآية المذكورة يستخدم تعبير (الائتمار) في آية أُخرىٰ برعاية هذا المبدأ في موضع وجّه فيه بعض الارشادات بشأن النساء المطلّقات حيث يقول:

﴿وَ إِنْ كُنَّ أُولاٰتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ أْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَ إِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرىٰ﴾[١].

أجل، في هذه الموارد لا يكون التشاور مع الأزواج مذموماً، بل عملاً ممدوحا قد دعا الله سبحانه الىٰ رعايته في القرآن الكريم مكرراً. ان عدم التشاور مع الزوجة ليس جريمة طبعاً ولا يستتبع مؤاخذة قانونية، بل ان ضرورة التشاور حكم اخلاقي يلزمان به. في هذه القضايا ـ خاصة اذا ارتبطت بمصير الطفل ـ لابدّ أن يجتنب الرجل والمرأة الاهواء والتفرد في الرأي، وعليهما الاذعان لحكم العقل وتبادل الرأي والتشاور، الّا انّ هذا حكم اخلاقي لا يستتبع أجراً ولا عقوبة قانونية.

جدير ذكره ان ضرورة التشاور مع الزوج وقيمته الأخلاقية تكون في شؤون الأُسرة وقراراتها، ولا دور للتشاور مع الزوجة من جهة كونها زوجة في الأعمال التي لا ترتبط بالأُسرة، بل يلزم التشاور فيها مع الذين لهم احاطة أكبر بتلك الشؤون، والتعرف علىٰ آراء الذين تحملوا مسؤولية وساهموا في تلك الأعمال، ويكون للاتفاق معهم دور ايجابي وراجح في انجاح ذلك العمل.

بناء علىٰ ذلك حينما نقول بضرورة التشاور مع الزوجة فلابدّ أن يقتصر ذلك علىٰ الأعمال المرتبطة بنطاق الأُسرة، ولا يُظن جواز تدخل الأزواج بعضهم في جميع

---

١. الطلاق ٦.

شؤون البعض الآخر بنحو غيرمسؤول. في الأعمال التي يقوم بها الرجل ولا ترتبط بشؤون الأُسرة لا تكون المرأة مؤثرة، فهي ليست أعرف أو أوعى لكي تكون موافقتها نافعة أو يكون التشاور وتبادل الرأي معها مؤثرا.

من ثمار التشاور وتبادل الرأي أن يعتبر أطراف التشاور أنفسهم مساهمين في ذلك الرأي وما اتخذ من قرار، ولا يشعرون بانّ أمراً قد فرض عليهم. وكما ذكر ليس من الضروري التشاور مع المرأة في الشؤون الخارجة عن البيت، فالكثير من الشؤون الاجتماعية لا ينسجم مع مشاعر وعواطف النساء، ولا يكون التشاور معهن في هذه الموارد نافعا، فمثلا ليس من النافع مراجعة مستشارات نساء في الحرب والسلم والدفاع، إذ انّ المرأة نظراً لأحاسيسها وظرافتها الروحية لا تصمد أمام آثار الحرب ومجازرها ودمارها، ولا تبدي رأيها علىٰ أساس مصالح المجتمع العامة، بل من الطبيعي أن يكون تعاملها عاطفيا بدلاً عن التدبر وابداء الرأي الصحيح، وبالتالي سيترتب علىٰ ذلك أضرار فادحة. في مثل هذه الموارد لا يحظى التشاور مع المرأة بقيمة ايجابية، وما ورد في بعض الروايات: (شاوروهن وخالفوهن) فانّه يقصد هذه الموارد.

مثل هذه الروايات لا يعني عدم التشاور مع المرأة في أي مورد، بل يعني انّ التشاور مع المرأة يجب أن يكون في الموارد التي تتناسب مع أحاسيسها وعواطفها ونظامها الادراكي، وهذه حقيقة يقتضيها الجمع بين آيات التشاور وهذه الروايات.

فحينما يأمر الله سبحانه بالتشاور مع الزوجة في شؤون الطفل فانّه لتطابق أحاسيس المرأة مع مصلحة الطفل في الأُسرة في هذه الموارد، وانشداد الأم بالطفل يقتضي تدبرها بمصلحته بنحو أكبر. في هذه الموارد لا تتّهم المرأة بغلبة أحاسيسها علىٰ عقلها، بل عاطفة الأُمومة تقتضي اعتبار مصلحة الطفل.

٤ ـ مبدأ قيمومة الرجل في الأسرة

المبنى الرابع والمبدأ الحاكم علىٰ الأُسرة هو اناطة قيمومة الأُسرة بالرجل، ففي الحياة الأُسرية تطرأ أحيانا بعض المشكلات والخلافات في الرأي لا ترتفع بالعواطف والتشاور مع الزوجة، ولو استمرت فسوف تنهار ركائز التعاطف والمودة بين الأزواج وطمأنينة الأُسرة واستقرارها، فينبغي البحث عن طريقة أُخرىٰ لحلها احترازاً من تفكك الحياة الأُسرية. ان الأُسرة حينما تؤسس بوصفها وحدة اجتماعية صغيرة تكون ـ كأي تجمع آخر ـ بحاجة الىٰ مدير من الناحية الحقوقية، ولاعتبار الأُسرة في الاسلام أساسا للمجتمع فقد أولى اهتماماً بالغا بارساء كيان الأُسرة بنحو صحيح لكي يضمن بذلك ثبات المجتمع وسلامته.

لقد أُوكلت قيمومة الأُسرة في الاسلام الىٰ الرجل، قال تعالىٰ في القرآن:

﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**﴾[١].

فعلىٰ المرأة والأبناء الخضوع لقيمومة الرجل في الأُسرة، ومن اللازم ـ سوى الجوانب القانونية والحقوقية ـ رعاية حرمة الأب في الأُسرة واحترامه اخلاقيا من قِبل الزوجة والأبناء. ان قيمومة الرجل تمثل المبدأ الرابع الحاكم علىٰ الأُسرة، ويتوقف حل الكثير من المشكلات في حياة الأُسرة علىٰ تنفيذ هذا المبدأ.

كل جماعة بحاجة الىٰ مدير، وفي القضايا الضرورية لابدّ من اتخاذ القرار من قِبل شخص واحد، والّا فانّ الجماعة سوف تتفرق وتتشتت. ووقوع الخلافات في الأُسرة أمر طبيعي وما يقوله أتباع بعض المذاهب من ضروره التوادد بين ابناء المجتمع كافة وعدم تفكير الفرد بمصلحته الشخصية فانّه يمثل فكرة مثالية، الّا انّها لا تنسجم مع الحركة الواقعية للحياة الانسانية. فمن الناحية العملية لا ينبغي توقع

---

١. النساء ٣٤.

الالتزام التام بالقيم الأخلاقية السامية من قِبل بني الانسان في الحياة، وعدم وقوع أي خلاف فيما بينهم، بل لابدّ من تقديم قيم اخلاقية بمستويات أدنىٰ، والبحث عن طريقة حقوقية لحل الخلافات الواقعة قهراً.

ان الاسلام يلاحظ واقع الحياة حينما يستعرض نظامه القيمي. وبناء علىٰ ذلك لا يدعو الانسان الىٰ قيم نادرة التطبيق في نطاق خاص ومن قِبل عدد ضئيل من الأفراد فحسب بل يلاحظ واقع الحياة دائما ويقدم نظاما شاملاً ذا مستويات مختلفة، أي مع اهتمامه الشديد بتعميم وتوثيق العواطف بين أعضاء الأسرة وعرضه كمبدأ حاكم علىٰ سلوك الأُسرة فانّه لا يكتفي بذلك بل يطرح الىٰ جانبه مبدأ قيمومة الأُسرة بغية معالجة المشكلات الأُسرية بمبدأ القيمومة علىٰ الأُسرة في الموارد التي يستعصي حلها على التعامل العاطفي. أجل، لو بُني سلوك الأُسرة علىٰ أساس العاطفة فقط فسوف نواجه صعوبات لدىٰ معالجة الكثير من مشكلات الأُسرة، فلابدّ من وجود طريق آخر لمعالجتها. في هذا السياق يعرض الاسلام المبدأ الرابع الحاكم علىٰ الأُسرة أعني مبدأ قيمومة الرجل.

وهذا لا يعني ـ كما ذكر ـ آمرية الرجل المطلقة في نطاق الأُسرة، وفاعليته لما يشاء بأن يأمر كما يحلو له، وإطاعة المرأة وتسليمها كأمَة. لا يستفاد هذا الحق للرجل من أي مصدر اسلامي معتبر كالآيات والروايات ولكن قد يتمسك بعض بالمتشابهات والمطلقات دون التفات الىٰ المخصصات والمقيدات والمعارضات ويستخدمها لتثبيت هذا الحق لأنفسهم.

وعليه كما ان من الضروري وجود قيّم لترسيخ كيان الأُسرة، وهي تتشتت بدونه وتتزعزع، فكذلك الاستبداد والأنانية والتحكم والقهر. بناء علىٰ هذا ينبغي ان لا يستغل الرجل حقه في القيمومة ولا يتحرك الا في نطاق الشرع وإطار حق القيمومة

الوارد في القانون الاسلامي، وينبغي أن يدير شؤون الحياة باسلوب صحيح وسلوك عقلاني. كما يجب علىٰ المرأة أن لا تعكر الاجواء العاطفية والمودة فـي الأسـرة بالتحكم والمواقف الفردية، وينبغي أن تصون الأُسرة من التشتت باحترامها لحـق الرجل.

٥ ـ مبدأ التصالح

المبدأ الخامس الحاكم علىٰ أجواء الأُسرة هو مبدأ التصالح. فقد يبلغ الأمر بأحد الزوجين ـ في منظار زوجه علىٰ الاقل ـ الىٰ ممارسة سلوك غير عقلاني. في هذه الحالة اما أن يكون سلوكه غير منطقي واقعا، أو يظن الزوج بـانّه شـخص مـعاند ويسعى لفرض رأيه ولا يذعن لحكم العقل. من الطبيعي في الحالتين أن تـتعرض الأواصر بينهما الىٰ التفكك ويتزعزع كيان الأُسرة.

في مثل هذه الحالة يدعو الاسلام الىٰ السعي ـ قدر المستطاع ـ للحيلولة دون انفصام العلاقة الزوجية وانهيار وحدة الأُسرة وإنْ استدعى ذلك تنازل أحد الطرفين الىٰ الطرف الآخر فوق المستوى المطلوب بل التنازل عن حقه الثابت صونا للأسرة وبقاء العلاقة الزوجية، قال تعالىٰ بهذا الشأن:

﴿وَ إِنِ امْرَأَةٌ خٰافَتْ مِنْ بَعْلِهٰا نُشُوزاً أَوْ إِعْرٰاضاً فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِمٰا أَنْ يُـصْلِحٰا بَيْنَهُمٰا صُلْحاً وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[1].

من اللازم طبعاً رعاية كل من الزوج والزوجة حق الآخر بدقة، ولكن قد يتخلف الزوج عن أداء بعض حقوق زوجته فتشعر بالقلق من أنها لو أصرت علىٰ حـقها فسوف يعرض زوجها عنها أو يتجاهل حقوقها الأُخرىٰ، في هذه الحالة يـوصيها

---

١. النساء ١٢٨.

الاسلام ـ لما للحفاظ علىٰ كيان الأُسرة من أهمية بالغة ـ بالسعي للمحافظة علىٰ أساس الأُسرة وإنْ كان بالتنازل عن بعض حقوقها، وتقي كيان الأُسرة من التشتت قدر المستطاع من خلال التصالح والمساومة والتسامح.

٦ ـ مبدأ التحاكم

المبدأ السادس الحاكم علىٰ الأُسرة في النظام الحقوقي والأخلاقي للاسلام هو مبدأ التحاكم، فالله سبحانه يدعو الزوجين في القرآن الكريم في حالة عدم حل مشكلة الأُسرة بالتصالح، وبقاء خطر تفكيكها قائما الىٰ التحاكم لدىٰ شخصين ذوَي تجربة كحكَمين علّهما يعالجان المشكلة. يقول القرآن بهذا الشأن:

﴿فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَماً مِنْ أَهْلِهَا﴾[1].

وعلىٰ الزوجين التسليم لقضاء الحكمين كي يبقى كيان الأُسرة مستقراً وراسخاً، ويسود التصالح لا الجدال والخصام قدر المستطاع.

الترسيخ التدريجي للأسرة

بناء علىٰ ذلك يولي الاسلام اهتماماً بالغا لترسيخ أساس الأُسرة، ويتابع هذا الهدف السامي في آدابه وتعاليمه خطوة خطوة، فهو يدعو قبل كل شيء الىٰ سيادة العواطف والمودة علىٰ العلاقات الأُسرية، والحيلولة ـ قدر المستطاع ـ دون نشوء ارضية الاختلاف في الأُسرة إذ انّ أجواءها ليست أجواء الاختلاف والنزاع.

ويدعو الزوجين في المرحلة الثانية ـ حالة وقوع الاختلاف ـ الىٰ التشاور والتدبر في المصلحة كي يعالجا المشكلة بأنفسهما ولا يسمحا باتّساع رقعة

---

١. النساء ٣٥.

الاختلاف الىٰ خارج نطاق الأُسرة.

وفي المرحلة الثالثة بعد عدم التوافق والعجز عن رفع الاختلاف بأنفسهما لعدم اكتفاء أحدها بحقه، حقا أو لظن الآخر، وعناده وانفراده في السلوك يدعو الاسلام الطرفَ الآخر الىٰ اللين والتنازل عن حقه كي يبقى أساس الأُسرة ثابتا.

وفي المرحلة الرابعة وفي حالة عدم التوافق بينهما يجب عليهما رفع الاختلاف بالتحاكم الىٰ الآخرين وتوسيطهم، والهدف من جميع هذه التعاليم هو السعي لاستقرار الأُسرة.

الطلاق أو تفكك الأُسرة

في المرحلة الأخيرة لو بلغ الأمر بالزوجين الىٰ عدم التصالح بينهما أبداً فتح الله سبحانه باب الطلاق، أي انفصال الزوجين كطريق نهائي للحل.

لقد جعل الله عزّ وجلّ الطلاق للذين لا يجدون طريقا لمواصلة حياتهم المشتركة وحل مشكلاتهم واختلافاتهم، بحيث أصبحت أجواء الأُسرة لا تطاق، وباستمرارها تكون حياة الانسان مرّة وصعبة.

انّ الطلاق مبغوض ومرجوح شرعاً لايتمّ اللجوء اليه الا في موارد الضرورة، وعليه لا ينبغي صيرورته لعبة بيد أهل الاهواء والذوّاقين والبعيدين عن العواطف الانسانية، أو تبديله الىٰ وسيلة لزعزعة كيان الأُسرة.

الأُسرة شجرة مقدسة ينبغي أن نسعى ـ قدر المستطاع ـ للحفاظ عليها حتى تثمر وتقدم للمجتمع أبناء صالحين وناضجين. من هنا لا يمكن القضاء علىٰ هذا الكيان بالطلاق إلّا في حالة واحدة هي حالة فقدان اوضاعه الطبيعية والاعتيادية وتبدله الىٰ كيان فاسد يعرّض نفوس الزوجة والزوج والأبناء الىٰ الأذى والعذاب.

علىٰ الزوجة والزوج إذنْ مراقبة سلوكهما كي لا يستغلا الاحكـام الإلٰـهية ولا يغمطا حقوقهما المتبادلة أبداً.

الطلاق في القرآن

ذكرت مسالة الطلاق في آيات قرآنية عديدة، وهي من الموضوعات التي اندمجت فيها الاحكام الحقوقية والأخلاقية في اعلىٰ مستوياتها، وهناك تأكيد شديد عـلىٰ الالتزام بالآداب والتعاليم الأخلاقية بشأنها الىٰ جانب بيان الاحكام الحقوقية. ونظراً لضيق المجال لهذا المقال نترك البحث التفصيلي في آيات الطلاق ونـقوم بـذكرها فقط، قال تعالىٰ:

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ وَ اتَّـقُوا اللّٰهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَ لا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللّٰهِ وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّٰهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللّٰهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْراً﴾[١].

﴿فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِـمَعْرُوفٍ أَوْ فـارِقُوهُنَّ بِـمَعْرُوفٍ وَ أَشْـهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَ أَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلّٰهِ ذٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَنْ يَتَّقِ اللّٰهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾[٢].

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَ لا تُضآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَ إِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتّٰى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ أْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَ إِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرىٰ﴾[٣].

---

١. الطلاق ١.
٢. الطلاق ٢.
٣. الطلاق ٦.

﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللّٰهُ لا يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْساً إِلاَّ ما آتاها سَيَجْعَلُ اللّٰهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾[١].

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً﴾[٢].

﴿وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَ لا تَتَّخِذُوا آياتِ اللّٰهِ هُزُواً وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ ما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَ الْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٣].

﴿وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذٰلِكُمْ أَزْكىٰ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[٤].

﴿لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ * وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ وَ لا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّٰهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٥].

تدعو جميع الآيات المذكورة بنحو متواصل الىٰ رعاية الحدود الأخلاقية الىٰ جانب بيان احكام الطلاق وتعظ وتهدّد وتحذّر المسلمين بطرق مختلفة من السلوك المضاد للاحكام الإلٰهية، أو العزم علىٰ إيذاء الأزواج والإضرار بهن باستغلال الحدود الإلٰهية.

---

١. الطلاق ٧.
٢. الاحزاب ٤٩.
٣. البقرة ٢٣١.
٤. البقرة ٢٣٢.
٥. البقرة ٢٣٦ـ٢٣٧.

هذا النوع من النصائح والمواعظ والتهديدات الأخلاقية في آيات الطلاق على كثرتها يثير التساؤل عن الداعي لهذا الكم من التأكيد الإلٰهي علىٰ الجوانب الأخلاقية والعاطفية؟

للاجابة عن هذا التساؤل ينبغي القول: مع توفّر المجال لاستغلال القوانين وكثرة الذين يستغلون التفريعات القانونية في المحاكم لصالحهم بما لديهم من حذاقة وخبرة ومعرفة، ورغم علمهم بانّ الحق مع الطرف الآخر فانّهم يُلجئون القاضي الىٰ الحكم لصالحهم علىٰ أساس القرائن والأُسس الظاهرية، وبالتالي ضياع الحق الثابت والقاطع لزوجاتهم. وعليه فانّ من لا يلتزم بالقيم والمبادئ الأخلاقية لا يمكن أن يردعه شيء ـ حتى القانون ـ عن تضييعه للحق واعتدائه، ومن هنا فانّ القرآن ـ سيّما فيما يتعلق بالعلاقات الأُسرية والزوجية التي تمثل محوراً للعواطف الايجابية والسلبية ـ يؤكد بشدة علىٰ رعاية الشؤون الأخلاقية والالتزام بالمبادئ الانسانية بتعابير متنوعة وباستخدام أساليب مختلفة في الوعظ والتهديد وغيرهما.

اخلاق المرأة في الأسرة

في القرآن ثلاثة ارشادات مهمة للمرأة:

الارشاد الأول هو الالتزام بالحجاب وقد ورد ذلك في عدة آيات نذكرها هنا، قال تعالىٰ:

﴿وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ لْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَ لاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ

غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلىٰ عَوْراتِ النِّساءِ وَ لاٰ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَ تُوبُوا إِلَى اللّٰهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَ بَناتِكَ وَ نِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاٰ يُؤْذَيْنَ وَ كانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[٢].

﴿وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ﴾[٣].

نزلت هذه الآية في نساء النبيﷺ ولكن يمكن الاستفادة من الآية السابقة لها انّ الحكم بوجوب الحجاب لا يختص بنساء النبيﷺ بل هو مشترك بين جميع المسلمات، كما يمكن تعميم عبارة (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) التي تبين علة هذا الحكم علىٰ جميع النساء، وبالتالي فانّ الآية المذكورة ألزمت الرجال المسلمين أيضاً باحترام حجاب النساء الاجنبيات كافة.

الارشاد الثاني هو الحد من مخالطتهن للرجال الاجانب. ولا مؤاخذة قانونية طبعاً اذا ارادت المرأة الملتزمة بحدود الحجاب الاسلامي الذهاب الىٰ السوق ما لم تنجرّ الىٰ الفساد والفحشاء، ولكن يجب علىٰ المرأة المسلمة اخلاقيا الابتعاد عن الرجل الاجنبي والسعي في انحصار عملها في نطاق البيت.

وقد تطرأ ظروف خاصة وتقتضي المصلحة الاجتماعية والسياسية مشاركة النساء في التجمعات العامة، فيلزم هنا أيضاً فصل تجمع النساء عن الرجال قدر الامكان، فانّ اختلاط المرأة مع الرجل الاجنبي، سيّما اذا كانت متزيّنة، ذو قيمة

---

١. النور ٣١.
٢. الاحزاب ٥٩.
٣. الاحزاب ٥٣.

اخلاقية سلبية من وجهة نظر الاسلام، قال تعالىٰ بهذا الشأن:

﴿وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لاٰ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجٰاهِلِيَّةِ الْأُولىٰ﴾[1].

الارشاد الثالث هو الالتزام بالحياء، ويعني ان ينأىٰ الانسان بنفسه عن مواطن التلوث بالمعاصي خشية التلوث بها. وعليه لا يمكن اعتبار أي ضعف في الحياة أو النفس حياء. يقول القرآن في قصة ابنتي شعيبعليه السلام:

﴿فَجٰاءَتْهُ إِحْدٰاهُمٰا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيٰاءٍ﴾[2].

يستفاد من هذه الآية انّ الحياء للمرأة ذو قيمة اخلاقية خاصة.

الارشاد الرابع هو التزامهن بالوقار والحشمة حين التحدث مع الرجال، وان لا يكون لحن كلامهن مثيراً لاهوائهم، قال تعالىٰ بهذا الشأن:

﴿فَلاٰ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ قُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾[3].

وهذا الارشاد موجّه الىٰ نساء النبيصلى الله عليه وآله وسلم طبعاً ولكن من المسلّم به انه ارشاد اخلاقي ويعتبر الالتزام به راجحاً اخلاقيا بالنسبة لكل امرأة مسلمة.

---

١. الاحزاب ٣٣.
٢. القصص ٢٥.
٣. الاحزاب ٣٢.

القسم الرابع

٤

المجتمع

الترابط الاجتماعي

ذكر في مقدمة البحث عن الأخلاق الاجتماعية انّ العوامل التي تـحقق التـضامن والحياة الاجتماعية للانسان يمكن اختصارها فـي ثـلاث مـجموعات: العـوامـل الطبيعية والعقلانية والعاطفية.

العامل الطبيعي، هو الغريزة الجنسية التي تبعث علىٰ تقارب انسانين وتكـوين اسرة. وعليه فانّ الغريزة الجنسية تمهد لاجتماعات صغيرة، وبـاتساعها تـدريجيا تتبدّل الىٰ عشيرة وطائفة وقبيلة.

والعواطف تتجلّى بوضوح بين أعضاء الأُسرة وهي السبب للترابط بـين أفـراد الأُسرة وتصون التجمّع الأُسري من التشتت والتفكك.

والعامل العقلاني يحث الانسان علىٰ التفكير والتأمل كي يشعر بـاحتياجه الىٰ الآخرين لتلبية مصالحه المادية والمعنوية، ولذا يـأمر الانسـان بـاقامة عـلاقات مشتركة مع الآخرين من بني الانسان لتوفير متطلبات حياته.

تأثير العوامل الطبيعية علىٰ المجتمع

ليس للعامل الغريزي ـ من بين هذه العوامل الثلاثة ـ تأثير مـباشر فـي تأسـيس المجتمع الكبير. طبيعي ان بوسع الانسان اقامة هذه العلاقة مع فرد أو عدة أفـراد

معدودين. فالغريزة الجنسية إذنْ لا يمكن أن تكون عاملا مباشراً في تأسيس المجتمع الكبير. ويمكن طبعاً اعتبار دور غير مباشر لهذا العامل في ذلك لما له من دور في تأسيس الأُسرة واعتبار الأسرة اللبنة الأُولىٰ لبناء المجتمع. وبما اننا نبحث في هذا المجال عن العوامل المباشرة لبناء المجتمع الكبير فسوف لا نتعرض للعامل الطبيعي باعتباره عاملا غير مباشر وبالواسطة، ونبحث فقط عن العواطف والعوامل العقلانية للمجتمع.

دور العوامل العاطفية في الحياة الاجتماعية

تنقسم العواطف الىٰ قسمين:

أ ـ العواطف التابعة للعوامل الطبيعية والناشئة تبعا لتأثيرها بحيث اتخذت وجهتها الخاصة، كالعواطف الأُسرية التي تنشأ إثر الزواج بين الرجل والمرأة، وتأسيس الأُسرة علىٰ أساس العامل الطبيعي أو الغريزي بين هاذين وابنائهما، وحتى العواطف المتبادلة بين الرجل والمرأة والتي تكون سببا لزواجهما ولتأسيس الأُسرة ستكون تابعة للعامل الطبيعي والغريزي.

ب ـ العواطف التي لا تتبع العوامل الطبيعية بل تنشأ بعد تأسيس المجتمع، ويمكن أن تؤثر في بقاء المجتمع وترسيخ العلاقات الاجتماعية، أي ان بني الانسان الذين باشروا تعايشهم الاجتماعي وحياتهم المشتركة في المجتمع لتوفير متطلباتهم المادية والمعنوية استجابة لحكم العقل ستنشأ بينهم عواطف متبادلة في ظل هذا التعايش المتبادل، إذ انّ الانسان حينما يشعر بانّ اناساً آخرين يخدمونه ويرفعون حوائجه في الحياة الاجتماعية فانّه يشعر بالتعاطف والمودة تجاههم.

وعليه يمكن أن نستنتج انّ العواطف ليس لها دور أساسي وتأسيسي في تكوين

الحياة الاجتماعية أو المجتمع المدني، بل ينحصر دورها في ترسيخ وتثبيت العلاقات الاجتماعية ـ التي وجدت إثر عوامل أُخرىٰ سابقة ـ وفي بقائها واستمرارها.

قد تخطر في الذهن هذه االقضية وهي أن بني الانسان كافة بما أنهم ولدوا من أب واحد وأم واحدة فهم في الحقيقة أعضاء أُسرة واحدة، وفي هذه الحالة ينبغي أن تكون العلاقات العاطفية بينهم عاملا لوحدتهم والتضامن بينهم جميعا، ليس في مجتمعات محلية وشعوب وحكومات فحسب بل في مجتمع انساني عالمي واحد، وتستتبع الترابط بين المجتمع البشري كله وتحول دون تشتّته.

ومما يؤيد هذه القضية انّ القرآن الكريم يعتبر ظهور الجيل البشري في الارض من أب واحد وأم واحدة حيث يقول:

﴿يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثىٰ وَ جَعَلْنٰاكُمْ شُعُوباً وَ قَبٰائِلَ لِتَعٰارَفُوا﴾[1].

إذنْ بملاحظة هذه الحقيقة وهي ان أفراد الانسان جميعا هم أعضاء أسرة كبيرة واحدة ولهم أب واحد وأم واحدة نستنتج وجود عواطف أُسرية فيما بينهم، ولابدّ أن تكون هذه العواطف عاملا لوحدة بني الانسان والتضامن بينهم في المجتمع الانساني والعالمي، في حين ان الأمر ليس كذلك.

ورداً علىٰ ذلك ينبغي القول ان دائرة العواطف الأُسرية ليست غير محدودة بل تتحدد بالقربى. وللعلاقات العاطفية بين الاقرباء والأُسرة طاقة كبيرة في نطاق الأُسرة، ولكن كلما تعددت الواسطة وتباعدت القرابة فانّ هذه العواطف تكون أوهن وأخف لونا، وتحفظ تأثيرها في اطار العشيرة والقبيلة الىٰ حدٍّ ما في بعض الظروف

---

١. الحجرات ١٣.

التأريخية والزمانية، ولكن مع تكثر الوسائط يبلغ الأمر حد النسيان الكامل لهذه الرابطة النسبية. دعونا من بعض المتخصصين في علم الاحياء الذين يشكّكون أساسا بوجود هذا الترابط العام والشامل بل ينكرون ذلك، اذ يعتقد الكثير من انصار نظرية داروِن ان بني الانسان قد وُجدوا من امهات وآباء مختلفين، فالبيض ولدوا من حيوان خاص، وللسود والحمر والقوميات الانسانية الأُخرىٰ مناشيء وجذور منفصلة وقد ولدوا من آباء وأمهات تختص بهم.

لا نسلم طبعاً بهذه النظرية، ولكن كما قلنا فانّ علاقة القرابة والنسب تعجز عن ايجاد عواطف وثيقة بين أعضاء المجتمع الكبير، ولا تكفي حقيقة انتهاء جميع بني الانسان الىٰ أب واحد وأم واحدة لايجاد علاقات اجتماعية وثيقة بينهم وضمان وحدتهم، ففي الكثير من الموارد يتقاتل بنو الانسان في معارك طاحنة ويدمّرون ممتلكاتهم بقسوة، وعليه نستنتج ان لا دور يذكر للعواطف في تأسيس المجتمع الكبير.

دور العامل العقلاني في الحياة الاجتماعية

العامل الأهم في ظهور المجتمع وبناء الحياة الجماعية وتأسيس المجتمعات المدنية هو العامل العقلاني. فالعقل كائن محاسب حيث يدعو الىٰ تأسيس المجتمع علىٰ أساس مصالح أعضائه التي تعم المصالح المادية أو المعنوية.

وعندما نضع مصالح المجتمع محوراً لتأسيس مجتمع عقلاني فانّ العلاقات الاجتماعية تتخذ أشكالاً وصوراً متنوعة حسب تنوّع هذه المصالح وتعارضها.

انواع العلاقات الاجتماعية

يمكن افتراض عدة انواع للعلاقات الاجتماعية حسب تأثيراتها المختلفة في تحقيق

المصالح المادية والمعنوية، إذ انّ تأثيرها يكون ايجابيا تارة وسلبيا تارة أُخرىٰ، وهكذا التعارض الذي قد يحصل لدىٰ تحقيق المصالح المادية والمعنوية:

النوع الأول هو أن يكون التعايش السلمي بين الناس نافعا في تحقيق مصالحهم المادية والمعنوية. هذه الفرضية يمكن تصورها بمستوى مجتمع صغير ذي عدة مئات أو عدة آلاف من الأشخاص وبمستوى المجتمع العالمي والتعايش بين جميع البشر، أي لو قدّر أن يكون جميع البشر في الارض مؤثرين في تلبية المتطلبات المادية والمعنوية المتبادلة لكان من الممكن تأسيس أكبر مجتمع انساني وعالمي، الّا انّ هذه الفرضية تتحقق حينما تكون لجميع البشر أهداف معنوية مشتركة، ويدركون مصلحتهم الواقعية، ويتقبلونها ويسعَون لتحقيقها، وبكلمة واحدة: عندما تتحقق وحدة دينية بين جميع البشر يمكن أن ينفع الجميع بعضهم بعضا مادياً ومعنوياً.

ان تأسيس المجتمع العالمي والحكومة الواحدة علىٰ أساس توفير المصالح المادية والمعنوية لبني الانسان كافة فرضيه مثالية، ويسعى الاسلام من أجلها، انه المجتمع الذي تسود جميع أعضائه أهداف ورؤية مشتركة ويتبادل الجميع المنفعة المادية والمعنوية، ولكن هذه الفرضية لا تتحقق بسهولة ولم تشهد المجتمعات البشرية مثل هذه الحالة الىٰ يومنا هذا.

لقد وعد الله سبحانه في القرآن بتحقق الحكومة العالمية لامام العصر عليه السلام ويؤمن المسلمون بذلك وينتظرون ذلك اليوم الموعود.

في الصورة الثانية نفترض مجتمعين أو مجموعتين ذاتَي علاقات وتعايش بحيث تُهدّد المصالح المادية والمعنوية لاحد الطرفين علىٰ الاقل. مثل هذه العلاقات تحصل بين دول الاستعمار والبلدان المستعمرة. فالدول التي تجهد للسيطرة علىٰ

المجتمعات الأُخرىٰ تقوم بتهديد مصالحها المادية وهكذا المعنوية. ومن البديهي ان تكون هذه العلاقات ذات قيمة سلبية ولابدّ من الكفاح ضدها.

الفرضية الثالثة هي أن لا تتضمن العلاقات مع مجتمع ما مصلحة معنوية ولا ضرراً معنويا بل تتضمن مصلحة مادية للمجتمع، نلاحظ مثلا بلدين: في الأول شعب مسلم وفي الثاني شعب كافر، ولم يكن البلد غير المسلم ـ لاسباب مختلفة ـ بصدد الاضرار بالمجتمع الاسلامي وسلب ايمانه أو زعزعة آدابه ومبادئه الدينية بالغزو الثقافي، بل يرغب في اقامة علاقات اقتصادية مع البلد المسلم لكي يتمتع البلَدان من خلالها بمصالح ومكاسب مادية متبادلة. في هذه الحالة لا تكون مثل هذه العلاقات غير مرغوبة، بل قد تكون ذات قيمة من بعض الجهات.

في الرؤية القرآنية تكون المجتمعات الانسانية منذ بدئها حتى نهايتها بمثابة الأُسرة الواحدة، لانّها وجدت من أب واحد وأم واحدة، وعليه تكون العلاقات بينها أمراً طبيعياً، ولا تتصف بقيمة سلبية الا اذا ترتب الضرر عليها، فاذا لم يصحبها أي ضرر بل ترتّبت عليها مكاسب مادية فانّها ستكون قيّمة بتلك النسبة.

الفرضية الرابعة هي أن يصحب اقامة العلاقات مع مجتمع آخر مكاسبَ معنوية من جهة، وأضراراً مادية من جهة ثانية. هنا يعتبر مبدأ ترجيح المعنويات علىٰ الماديات (سنقدم مزيد إيضاح في هذا المجال) هذه العلاقات ايجابية، نعم اذا ترتبت خسائر معنوية للمجتمع الاسلامي علىٰ الاضرار المادية الفعلية في بعض الموارد الاستثنائية علىٰ المدى البعيد، حينئذ لا رجحان لاقامة العلاقات، ان هذا استثناء من القاعدة إذ انّ الأصل والقاعدة العامة هي تحمل الاضرار المادية من أجل تحقيق المصالح المعنوية.

فمثلا اذا كان جمع من المسلمين في بلاد الكفر قد استضعفهم الكفار فانّ واجبنا

هو السعي لتحريرهم من نير الكفر والظلم، ومن الطبيعي ان لا يتحقق هذا الهدف المعنوي بدون تحمل المسلمين خسائر في الأموال والانفس، قال تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿وَ مٰا لَكُمْ لاٰ تُقٰاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجٰالِ وَ النِّسٰاءِ وَ الْوِلْدٰانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنٰا أَخْرِجْنٰا مِنْ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظّٰالِمِ أَهْلُهٰا وَ اجْعَلْ لَنٰا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنٰا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾[١].

أجل، وقع بعض المؤمنين في قبضة الكفر وكان علىٰ المؤمنين في المدينة الذين أسسوا مجتمعا حديثاً وكانوا ذوي سيادة، السعيُ لتحريرهم. وكان من البديهي أن يكلفهم ذلك مجهوداً باهظا وخسائر روحية ومالية، ولم يكن ذلك عملا صائبا وقيّما فحسب بل واجبا.

الفرضية الخامسة هي ان تكون اقامة العلاقات مع مجتمع آخر نافعة ماديا ولكنها ضارة معنويا. في هذه الفرضية يقف المجتمع علىٰ مفترق طريقين حيث يتعارض تحقيق المصالح المادية مع تحقيق المكاسب المعنوية. في هذه الحالة أيّ طريق ينتخب؟ هل تكون المصالح المعنوية اثمن واسمى فيضحي المجتمع بالمكاسب المادية من أجلها، أم العكس فيجب عليه الاهتمام بمكاسبه المادية؟ الجواب: انّ المبدأ هو ترجيح المصالح المعنوية علىٰ المكاسب المادية، وفي المستقبل سوف نستنبط رجحان المصالح المعنوية علىٰ المكاسب المادية من آيات القرآن الكريم. يلزم إذنْ قطع هذه العلاقات الضارة معنويا وإنْ تضمنت مكاسب مادية، إذ انّنا سنحصل علىٰ مكاسب من خلال هذه العلاقات ولكن سوف نفقد مكاسب اثمن. إذنْ بمحاسبة بسيطة سيكون ضررها أكبر من ربحها.

---

١. النساء ٧٥.

وعليه من الضروريقطع هذه العلاقات الا في بعض الموارد الاستثنائية التي تترتب فيها خسائر معنوية علىٰ قطع العلاقات اضافة الىٰ الخسائر الماديه أي يتمّ تهديد المصالح المادية للمجتمع بقطع هذه العلاقات، ويشكّل انعدام المصالح المادية تهديداً للمصالح المعنوية للاسلام والمجتمع الاسلامي علىٰ المدى البعيد.

في هذه الظروف والموارد الاستثنائية يمكن السماح باقامة العلاقات الّا انّ القاعده العامة هي التضحية بالمكاسب المادية من أجل المصالح المعنوية في حالة التعارض بينهما. وكل علاقة تصحبها مفاسد معنوية تكون ذات قيمة سلبية لابدّ من قطعها.

المحاور المعنوية للحياة الاجتماعية

يهدف الاسلام الىٰ وحدة بني الانسان علىٰ أساس تحقيق مصالحهم المادية والمعنوية بحيث يؤسّسون مجتمعا واحدا، ويلتفت في الوقت ذاته الىٰ المحور المعنوي أكثر من المحاور المادية. يسعى الاسلام لوحدة بني الانسان كافة علىٰ أساس محور الدين الحق اذ هو العامل لتحقيق المصالح المعنوية للانسان، ولا يكتفي بتحقيق المصالح المادية في حياتهم.

في آيات كثيرة تتأكّد محورية الدين الحق من أجل التضامن الاجتماعي والتعايش بين بني الانسان. نذكر هنا بعضها، قال تعالىٰ:

﴿وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِيعاً وَ لاٰ تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدٰاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوٰاناً وَ كُنْتُمْ عَلىٰ شَفٰا حُفْرَةٍ مِنَ النّٰارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهٰا كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ آيٰاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١].

١. آل عمران ١٠٣.

فالله سبحانه يريد جعل الجميع حول محور واحد وايجاد الترابط بينهم، ولكن ليس أي محور بل محور (حبل الله).

وعليه ليس للاتحاد والترابط في ذاته قيمة مطلقة في الاسـلام، ولا يـمكن أن يكون كل اتحاد وترابط قيّماً. فقيمة التضامن والاتحاد نسبية وتستند الىٰ محورية الدين الحق والمصالح المعنوية. قال تعالىٰ في الآية اللاحقة:

﴿وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْبَيِّنٰاتُ وَ أُولٰـئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

فقد بين في هذه الآية انّ المنشأ الأساسي للتفرق هو التفرق في الدين وهو لازم محورية الدين في التضامن الاجتماعي.

قال تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

﴿وَ أَنَّ هٰذٰا صِرٰاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَـتَفَرَّقَ بِكُـمْ عَـنْ سَبِيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصّٰاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

يدعو الله عزّ وجلّ: اتبعوا الطريق المستقيم ولا تسلكوا طرقاً أُخرىٰ علىٰ هامش الطريق المستقيم لكي لا تنحرفوا عن طريق الحق. ان واجب الجميع إذنْ هو معرفة الصراط المستقيم والسير فيه. جاء في آية أُخرىٰ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كٰانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمٰا أَمْرُهُمْ إِلَـى اللّٰهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَفْعَلُونَ﴾[3].

الآية تهدّد مثيري الاختلاف في الدين بحيث يكونون فِرقاً متشتتين.

قال تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

---

١. آل عمران ١٠٥.
٢. الانعام ١٥٣.
٣. الانعام ١٥٩.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسىٰ وَ عِيسىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(١).

يستفاد من جميع هذه الآيات انّ الحالة المثالية في الرؤية الاسلامية هي أن يتحد جميع أفراد الانسان حول محور الدين وان يسعوا في سبيله، وان يتخذوه محوراً للتضامن ولا يثيروا الاختلاف والتفرق فيه.

هناك آيات أُخرىٰ تشير الىٰ هذه الحقيقة أيضاً بتعابير أُخرىٰ، آيات تندد بالأعمال المفرّقة المثيرة للاختلاف عمليا، فمثلا أراد بعض المنافقين خلال العهد الأول للاسلام في عصر النبيﷺ أن يفرقوا بين المسلمين، فبنَوا مسجداً بهدف ايجاد قاعدة للنفاق والاختلاف، فنزلت فيهم هذه الآية:

﴿وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَ كُفْراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ الْحُسْنىٰ وَ اللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾(٢).

في قصة (مسجد ضرار) المشار اليها في الآية ان أُناساً كانوا بصدد اثارة الاختلاف بين المسلمين من خلال بناء هذا المسجد. لقد كانوا علىٰ اتّصال مع الاجانب، وأرادوا ببناء هذا المسجد ان يصبح وكراً للذين حاربوا الله ورسوله في الماضي.

يروي التأريخ انّ المنافقين الذين عزموا علىٰ بناء مسجد ضرار كانوا علىٰ اتّصال مع اليهود والمشركين، وفي الوقت الذي اوشك وقوع هذا الاختلاف بين المسلمين تصدى الله سبحانه له بشدة، فكلّف الرسول الاكرمﷺ بهدم هذا المسجد ـ وإنْ كان مسجداً ومكانا لعبادة الله ولكن الهدف وراء بنائه هو اثارة الاختلاف ـ أي وإنْ

---

١. الشورى ١٣.

٢. التوبة ١٠٧.

كان مسجداً فالواجب هو هدمه لكي يُقضى علىٰ الاختلاف في مهده.

وفي بعض الآيات يدعو الله سبحانه الناس الىٰ التعاون بينهم علىٰ أساس البر والتقوىٰ لا المعصية والظلم.

﴿وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوىٰ وَ لاٰ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ﴾[1].

وعليه لا يكون كل تعاون قيّما، بل يكون التعاون والتعامل قيّما اذا كان علىٰ أساس التقوىٰ والقيمة الدينية، فاذا كان معارضاً للبرّ والتقوى اتّسم بالقيمة السلبيّة، وإذا كان حياديا إزاءهما فليست له قيمة ايجابية ولا سلبية.

العواطف الاجتماعية في القرآن

كما قلنا سابقاً فانّ المجتمع العالمي الذي يطرحه الاسلام كأُنموذج لم يتحقق بعدُ ولا يمكن تحقيقه في هذا العصر أيضاً، ولكن الناس اذا كانوا طالبين للحق فبوسعهم ايجاد مجتمع بمستوى أدنىٰ علىٰ أساس الدين والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ.

حينما يتأسس مثل هذا المجتمع الإلٰهي علىٰ أساس الحق عقيدة وعملا وترابط أعضاؤه في إطار التعاليم والقوانين الدينية فسوف تتولد بينهم عواطف خاصة. وكما قلنا فانّ العلاقة العاطفية تنشأ إثر عامل طبيعي تارة وإثر عامل عقلاني تارة أُخرىٰ، وتكون العوامل العقلانية هي المؤثره في ايجاد هذه العواطف الاجتماعية.

ان أعضاء هذا المجتمع يدركون أن جهود جميع الأعضاء تُبذل لاجل هدف واحد وينفع بعضهم لبعض. هذا الادراك يثير فيهم العواطف والتحابب ويرسخ تضامنهم الاجتماعي. انه ذلك التآلف والتحابب الذي ينشأ بين المؤمنين وقد اعتبره الله سبحانه احدىٰ نعمه الكبرى وامتنّ علىٰ المؤمنين باعطائهم هذه النعمة ويذكّرهم

---

١. المائدة ٢.

بها باستمرار ويدعوهم لتقديرها والسعي لتقويتها. قال تعالىٰ بهذا الشأن:

﴿وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً﴾[١].

كانت القبائل العربية قبل الاسلام متعادية فيما بينها، وكانت شؤون الحياة المادية وراء العداء بينها، وقد اثار التعارض في الشؤون المادية عواطف سلبيه بينهم. فجاء الاسلام وجمَعهم حول محور الحق واختفت تلك العواطف السلبية. لقد اجتثّ الاسلام جذور تلك العواطف السلبية من خلال تقديم رؤية صحيحة ومكافحة الرؤى الخاطئة فانجذب الناس نحو القيم والأهداف المعنوية، وببركة الاسلام ولّت العداوات ذات الجذور المادية وتولّدت بدلاً عنها علاقات عاطفية ايجابية علىٰ أساس الدين الحق. لقد جعل الله قلوبهم متراحمة واصبحوا اخوانا في ظل الاسلام. من الواجب تقدير هذه النعمة وترسيخ العلاقات العاطفية المتبادلة والأُخوة الدينية بايلائها اهتماماً أكبر لكي تتحقق المصالح المتوخاة من الحياة الاجتماعية بنحو أفضل.

جاء في آية أُخرىٰ:

﴿وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لٰكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

هذه الآية تخاطب النبي الاكرمﷺ بانّك لو كنت تملك ثروات الارض كلها ثم انفقتها لم توفّق للتآلف بين قلوب القبائل العربية المختلفة، الّا انّ الله تعالىٰ قد آلّف بين قلوبهم بنعمة الاسلام وجعلهم متراحمين، أي مع غض النظر عن هذا العامل الإلٰهي وهو العامل المعنوي والحاكم علىٰ قلوب الناس لو عزمت علىٰ انفاق ثروات

١. آل عمران ١٠٣.
٢. الانفال ٦٣.

الارض كلها ليستأنسوا بينهم لم توفق في ذلك. ان وحدة المسلمين وتضامنهم إذنْ نعمة عظمى وجدت في ظل الاسلام والايمان بالله وتفوق قيمتها النعم المادية كلها، اذ لو انفقت ثروات الارض كلها للتأليف بين القبائل العربية لم تكُ مجدية في حين قد تآلف جميع المسلمين اليوم ـ عربا وغير عرب ـ في ظل الاسلام وبدون بـذل أموال، وهذا التوادّ والتحابب المتبادل له أبلغ الاثر في تـحقيق المـصالح المـادية والمعنوية لهذا المجتمع، وتفوق قيمته النعم المادية كافة.

وهناك آيات أُخرىٰ تشيد بالمؤمنين علىٰ عواطفهم الخاصة التي دعتهم للتعاون بينهم منها قوله تعالىٰ:

﴿وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدّارَ وَ الْإِيمٰانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هٰاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لاٰ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حٰاجَةً مِمّٰا أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كٰانَ بِهِمْ خَصٰاصَةٌ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَ الَّذِينَ جٰاؤُ مِنْ بَـعْدِهِمْ يَـقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنٰا وَ لِإِخْوٰانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونٰا بِالْإِيمٰانِ وَ لاٰ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنٰا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنٰا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾[١]

انّ المؤمنين في المدينة الذين يُعبر عنهم بـ(الانصار) يبدون مودتهم للمهاجرين الذين هاجروا مكة وفقدوا مقومات الحياة ولم يقصروا في بذل أموالهم ورعايتهم ويؤثرونهم علىٰ أنفسهم فينالون الفلاح، لان من يتحرر من عامل البـخل الخـطير والمضرّ فقد أفلح.

ينبغي الالتفات الىٰ ان هذه الاستعدادات والتـضحيات التـي أبـداهـا الانـصار للمهاجرين قد حصلت إثر التحابب والعواطف بينهم في ظل الاسلام الذي كان في الحقيقة هو النبع الفياض للعواطف في قلوب المسلمين.

---

١. الحشر ٩ و ١٠.

واجيال المسلمين التالية حينما تتدبر في ايثار المسلمين والمؤمنين وتضحياتهم فيما بينهم في سبيل الاسلام ابّان العهد الاسلامي الأول فانّها تدعو لهم، وتـدفعهم هذه الذكرى للقول: ربنا لا تجعل في قلوبنا غلاً لأي مؤمن وبالتالي تتعاظم المحبة والعواطف المتبادلة بين المؤمنين. وذيل الآية (ربنا انك رؤوف رحيم) يشير الىٰ هذا الأمر وهو أن تراحم المؤمنين والتوادد فيما بينهم اشعاع من رحمة الذات الإلٰـهية الطاهرة علىٰ عباده.

اذا أُهملت العلاقات المعنوية في مجتمع ما وكانت العلاقات الاجـتماعية بـين أعضائه قائمة علىٰ أساس المـصلحه المـادية، وكـانت الشـؤون المـادية مـحوراً لعواطفهم وصداقاتهم كانت هذه العواطف خطيرة وتسوقهم نحو الشقاء. وقد كـان الكفار يتحابون ويتعاونون فيما بينهم علىٰ أساس المكاسب المـادية المشـتركة. وكان تضامنهم يشكل خطراً كبيراًعلىٰ الاسلام، وخسارة لا تعوّض بالنسبة اليهم اذ كان يبعدهم عن المعنويات والسعادة الحقيقية. وقد أشير في القـرآن الكـريم الىٰ نماذج من هذه العواطف. منها ما ورد في قصة النبي ابراهيم عليه السلام:

﴿وَ قالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾[١].

كان عليه السلام يخاطب عبدة الأصنام: ان عبادة الأصنام السائدة في مجتمعكم ليست لأجل عقيدة اتخذتموها بعد بحث وتحقيق، بل لم تؤمنوا بها حقا وإنما كان هناك مصالح مادية مشتركة بينكم وجعلتم عبادة الأصنام محوراً لنيل المكاسب المادية في حياتكم. هذه الوحدة وإنْ وفّرت المصالح المادية للحياة ولكن ليس لها قـيمة معنوية ولا اخلاقية. ان قيمة التضامن الاجتماعي تستند الىٰ تحققها في سياق هدف صحيح ويكون نافعاً لتوفير المصالح المعنوية المشتركة، في غير هذه الحـالة وإنْ

١. العنكبوت ٢٥.

كانت نافعة ماديا الّا انّها ضارة معنويا وتستتبع الندم. من هنا قال تعالىٰ:

﴿الْأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾[١].

وبما انّ المكاسب المادية لا تنفع يوم القيامة، ويدركون ان اولئك الأصدقاء هم السبب لعذابهم فانّهم يتمنون عدم مصادقتهم.

﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً﴾[٢].

والصداقة الوثيقة الوحيدة التي تنفع في الآخرة هي الصداقة القائمة علىٰ محور الايمان والتقوىٰ.

تحديد العواطف الاجتماعية في القرآن

جعل الله سبحانه العواطف الاجتماعية تنضبط وتدور حول محور الايمان والتقوىٰ وعلىٰ أساس الدين الإلٰهي ولم يسمح بتجاوز هذه الحدود. واشتدت معارضة القرآن للعواطف والصداقات التي تتعدى إطار الملاك المذكور ومنع المسلمين منها بتعابير مشددة في آيات عديدة. نذكر هنا أُنموذجا من هذه الآيات، قال تعالىٰ:

﴿لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّٰهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللّٰهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللّٰهِ الْمَصِيرُ﴾[٣].

يمكن القول ان هذه الآية من أصرح الآيات في هذا المجال حيث حذرت المؤمنين بلحن شديد من اقامة صداقات مع الكفار. فقد استعمل في الآية لفظ (اولياء) وهو جمع ولي ويشترك في جذر الاشتقاق مع (الولاية) و(التولي)

---

١. الزخرف ٦٧. ٢. الفرقان ٢٨.

٣. آل عمران ٢٨.

المستعملين بمعنى الترابط والصداقة والتقارب والتضامن، وكلما تقارب اثنان الىٰ حد التضامن استعمل لفظ (الولاية) بحقهما.

مفهوم الولاية

استناداً لما ذكر فانّ الولاية تدل علىٰ العلاقة بين طرفين أو عدة أطراف بحيث يكون كل طرف في هذه العلاقة وليّاً للآخرين علىٰ حد سواء ويتولى بعضهم بعضاً، فالله سبحانه ـ مثلا ـ ولي المؤمنين من جهة وهم أولياء الله من جهة أُخرىٰ. يقول القرآن في موضع:

﴿اللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1].

ويقول في موضع آخر:

﴿أَلاٰ إِنَّ أَوْلِيٰاءَ اللّٰهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

وقد يطلق (الولي) علىٰ أحد الاطراف لموقعه المتميز وتأثيره الاوضح وتكون الاطراف الأُخرىٰ (مُولّى عليهم). ان رابطة الولاية بين بني الانسان تتحقق في صور مختلفة: بين شخصين تارة، وبين شخص وفئة أو مجتمع تارة، وبين فئتين أو مجتمعين تارة أُخرىٰ.

أحد موارد الولاية ذات الطرفين هو الصداقة بين الأفراد، بأن يتضامن شخصان في مستوى واحد بنحو يؤثر أحدهما في حياة الطرف الآخر، وتكون الرابطة أحياناً ذات طرف واحد أو يكون أحد الاطراف هو الاقوىٰ كالأب الذي هو ولي الابن. هذه رابطة وثيقة بين الأب والابن الّا انّ الأب وحده هو المؤثر في حياة الابن، سيّما الطفل الذي يعيش تحت ظلّ قيمومة أبيه. في هذه الموارد تستند الولاية الىٰ الفرد

---

١. البقرة ٢٥٧.

٢. يونس ٦٢.

المؤثر ويقال: الأب ولي الابن، ولا يقال الابن ولي الأب.

ان رابطة الولايه التي تعود بالمكاسب علىٰ طرف واحد أو علىٰ الطرفين تصحبها عادة رابطة عاطفية وقلبية.

من هنا يكون مفهوم الولاية مقرونا بالمودة والمحبة. انّ المودة طبعاً تلازم الولاية وليست نفس الولاية، لكن لتلازمهما العملي في الخارج قد يستعمل أحدهما بدلاً عن الآخر.

وعندما يكون للمجتمع الاسلامي مثل هذه العلاقات مع مجتمع آخر وتتقارب علاقاتهما الثقافية والاقتصادية والعسكرية وغيرها الىٰ حد التأثير المتبادل فانّ القرآن يعبّر عن هذه الرابطة بـ(الولاية) و(التولي) ويصطلح عليها اليوم بـ(العلاقات الودية).

المصاديق الممنوعة لـ(الولاية)

اذا تسلط مجتمع علىٰ مجتمع آخر فسوف يكون وليّه عمليا، ولكن هذا النوع من الولاية هي الولاية أحادية الطرف وتعتبر حالة خاصة لهذا المفهوم كعلاقة دولة استعمارية مع بلد مستعمَر أو تحت الوصاية.

يؤكد القرآن الكريم انّ المجتمع الاسلامي والمجتمع الكافر يقفان في نقطتين متجابهتين وتتعارض أهدافهما تماماً. من هنا لا يمكن أن تربطهما علاقات ودية سواء أكانا مجتمعين رسميين مستقلين أو فئتين اجتماعيتين في أوساط المجتمع الواحد.

عندما دخل المسلمون المدينة ولم يمتلكوا بعدُ قوة ونظاما وحكومة كانوا مجموعة من المسلمين يعيشون الىٰ جوار المشركين واهل الكتاب. في هذه الظروف

تعايشت عدة فئات اجتماعية بأهداف مختلفة.

كانت لجماعة المسلمين اهداف اسلامية وهم بصدد تأسيس المجتمع الاسلامي. ولذا جابهوا الكفار الذين يتابعون اهدافا أُخرىٰ، فلم يكن بـالامكان اقـامة رابـطة التولي فيما بينهم، لان علاقة الصداقة كانت سوف تثير العواطف فيما بينهم فلا يكون بوسعهم مواجهتهم، وعند نشوب حرب لا ينهضون للمواجهة كما يـتوخى وكـان الأمر ينتهي بهزيمة الاسلام والمسلمين.

يمكن القول ان ظهور المنافقين والذين يميلون الىٰ المشركين واهل الكتاب في اوساط المجتمع الاسلامي كان وليداً لهذه العـلاقات الوديـة. لم يـلتفتوا الىٰ هـذه القضية المهمة رغم التهديدات الواردة في القرآن الكريم ومنع المسلمين من اقـامة الصداقة مع الكفار وغدوا مصدراً لأخطار وأضرار بالغة للمجتمع الاسلامي. لقد كان المنافقون عاملاً لاختراق العدو للمجتمع الاسلامي بـحكم عـلاقاتهم الوديـة مـع الكفار، وقد نهضوا بدور الطابور الخامس فيه.

من هنا كرر القرآن الكريم تحذيره في هذه القضية باهتمام بالغ وحذر المؤمنين بشدة من اقامة الصداقة مع الكفار. يحسن هنا أن نقف قليلا عند الآية المذكورة لكي تتضح أهمية هذه القضية. يقول الله سبحانه في قسم من الآية: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء) ثم يقول: (ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء)، فيقف الانسان علىٰ مفترق طريقين: إمّا ان تكون له علاقات مع الكفار وإمّا مع الله تعالىٰ لأنّهما لا يجتمعان، فاذا اتّجه نحو الكفار انقطعت علاقته مع الله الّا انّ تكـون عـلاقاته مـع الكفار بسبب التقيّة.

ثم يهدّد مرة أُخرىٰ بشدة أكبر بقوله: ان مصيركم هنا بيد الله، انتبهوا، فانْ ركنتم الىٰ الكفار فانّ الله سيكون عدوَّكم واحذروا ان تواجهوا الله وتعادوه فانّ مـرجـع

الجميع اليه، هو الذي سيقضي بينكم ويجزيكم نتيجة اعمالكم القبيحة او الصالحة. ويتضمن كل تحذير منها تهديدا أشدّ بالقياس الىٰ التحذير السابق مما يدل علىٰ أهمية هذه القضية التي تهدّد أساس الاسلام وكيان المجتمع الاسلامي.

في آية أُخرىٰ يحذّر الله تعالىٰ من اقامة العلاقة مع الكفار أيضاً حيث يقول:

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾(١).

فعلىٰ المسلمين أن يتوكلوا علىٰالله ويعلموا انّ الكفار لن يكونوا مصدراً لعزّتهم واحترامهم. يشير الله سبحانه من خلال تكرار هذا التحذير الىٰ الحكمة في هذه التهديدات والتحذيرات ويقول:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً﴾(٢).

اذا أردتم اقامة العلاقات معهم فانّ الله سيجعلكم محكومين ويسلط الآخرين عليكم. فاذااحببتم ان لا يكون الله عدوّكم ولا يسلط آخرين عليكم فلا ترتكبوا هذا العمل. ويقول في الآية اللاحقة:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾(٣).

ان مجيء هذه الآية عقيب الآية السابقة يشير الىٰ انّ الصداقة مع الكفار تجرّ الانسان نحو النفاق. ينبغي العلم من جهة بانّ الصداقة مع الكفار تنشأ من رتبة سابقة من النفاق، وتعمل من جهه أُخرىٰ علىٰ ترسيخ روح النفاق في الانسان وتسوقة بالتالي الىٰ الدرك الاسفل من النار، جاء في آية أُخرىٰ:

---

١. النساء ١٣٩. ٢. النساء ١٤٤.
٣. النساء ١٤٥.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارىٰ أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ﴾[١].

لا تجعلوا اليهود والنصارى اصدقاء لكم ولا تعتبروهم مخلصين لكم لانّهم متعاضدون ومتّحدون ضدَّكم. فلو أقام أحد المسلمين علاقة الصداقة معهم فانّه منهم ويدخل في دائرة ولايتهم وهم مجموعة أعداء ومناوئين للمسلمين قد انتهجوا الظلم، والله لا يهدي الظالمين.

وجاء في موضع آخر:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفّٰارَ أَوْلِياءَ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٢].

في هذه الآية اهتمام خاص بالمصالح المعنوية، وقد انصبّ الحكم علىٰ الوصف لبيان علة ذلك الحكم. فقوله: لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً اولياء يشير الى علة النهي الإلٰهي عن اقامة الصداقة معهم وهي أنهم يستهزئون بدينكم وهدفهم هو القضاء عليه. فاذا كان دين الله سبحانه عزيزاً عليكم فليس بوسعكم ان تكونوا أصدقاءهم. في ذيل الآية تحكي عبارة (واتقوا الله) عن لون من التهديد.

وقال تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَ إِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ﴾[٣].

تبين هذه الآية بنحو خاص انّ النهي عن تولي الكفار لا يختص بمجتمعين أو فئتين، فحتى أعضاء الأُسرة الواحدة اذا كان بينهم كفار وأعداء لله عزّ وجلّ وغير

---

١. المائدة ٥١.
٢. المائدة ٥٧.
٣. التوبة ٢٣.

مسلمين فلا يجوز تولّيهم، فحتى الذين يتولّون الأب والأخوة الكفار هم ظالمون. ولذا يقول تعالىٰ في الآية التالية بلغة التهديد:

﴿قُلْ إِنْ كٰانَ آبٰاؤُكُمْ وَ أَبْنٰاؤُكُمْ وَ إِخْوٰانُكُمْ وَ أَزْوٰاجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوٰالٌ اقْتَرَفْتُمُوهٰا وَ تِجٰارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسٰادَهٰا وَ مَسٰاكِنُ تَرْضَوْنَهٰا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهٰادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّٰى يَأْتِيَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰاسِقِينَ﴾[١].

من الطبيعي ان لا يرغب من ارتبط بأعضاء أُسرته برابطة عاطفية في الانفصال عنهم أو مواجهتهم، ولكن اذا جابهوا الله ورسولهﷺ ووقفوا موقف الحرب والعداء مع الله عزّ وجلّ فلا ينبغي للانسان أن ينصاع لهذه العواطف. لقد وضعنا الله تعالىٰ في هذه الآية علىٰ مفترق طريقين، فيجب انتخاب أحدهما: اما الارتباط والتوادد مع الارحام وأعضاء الأُسرة، واما الارتباط مع الله سبحانه. فاذا انتخبنا أعضاء الأُسرة وكانوا أحبَّ الينا انقطعت وشيجتنا مع الله ولننتظر العذاب الإلٰهي حسب قوله تعالىٰ في هذه الآية. والله سبحانه لا يعتبر هذا الموقف عداء للمسلمين فحسب بل عداء مع الله. فأمثال هؤلاء فاسقون خارجون من عبودية الله وسوف لا يحققون أهدافهم.

نقرأ في آية أُخرىٰ:

﴿لاٰ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوٰادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كٰانُوا آبٰاءَهُمْ أَوْ أَبْنٰاءَهُمْ أَوْ إِخْوٰانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمٰانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولٰئِكَ حِزْبُ اللّٰهِ أَلاٰ إِنَّ حِزْبَ اللّٰهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

---

١. التوبة ٢٤.
٢. المجادلة ٢٢.

في هذه الآية استعمل لفظ (المودة) بدلاً عن (الولاية)، أي لا تجد أُناسا يؤمنون بالله والقيامة يحبون أعداء الله وإنْ كانوا آباءهم أو ابناءهم. ينبغي أن يكون ملاك المودة لدىٰ المؤمن هو الارتباط بالله. فاذا أدت مودة الانسان الىٰ قطع العلاقة مع الله أو وهنها فلا قيمة لها.

ابتدأت سورة الممتحنة بقوله تعالىٰ:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيٰاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ قَدْ كَفَرُوا بِمٰا جٰاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِيّٰاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهٰاداً فِي سَبِيلِي وَ ابْتِغٰاءَ مَرْضٰاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِمٰا أَخْفَيْتُمْ وَ مٰا أَعْلَنْتُمْ وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوٰاءَ السَّبِيلِ﴾[١].

الذين يعادونكم بسبب الايمان بالله هم أعداء الله أيضاً، فلا يجوز لكم توليهم والارتباط بهم عاطفياً فانّهم يعارضون أهدافكم وأساس أعمالكم ومرتكز شخصيتكم. هذه العلاقة ستضرّ بكم سواء أكانت لاسباب عرقية أو قومية أو أُسرية أو لصداقات قديمة.

بناء علىٰ ذلك نستنتج من الآيات المذكورة انّ الدين يمثل المركز لتضامن المسلمين اجتماعيا وسيكون كل ما يهدّد هذا المركز ويزعزع التضامن الاسلامي ذا قيمة سلبية ويجب الابتعاد عنه.

الأنموذج الجميل لـ(الولاية).

بعد توضيح هذه الآيات تحسن الاشارة الىٰ آية تقدّم للمسلمين القدوة والأسوة في هذا المجال لكي يحددوا صداقاتهم وعداواتهم تبعاً لها، قال تعالىٰ:

---

١. الممتحنة ١.

﴿قَدْ كٰانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرٰاهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قٰالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنّٰا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمّٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ كَفَرْنٰا بِكُمْ وَ بَدٰا بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمُ الْعَدٰاوَةُ وَ الْبَغْضٰاءُ أَبَداً حَتّٰى تُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ إِلاّٰ قَوْلَ إِبْرٰاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[١].

عليكم اتّباع النبي ابراهيم‌عليه السلام واصحابه الذين قالوا لقومهم بصراحة: انّا برءاء منكم ومما تعبدون. فينبغي للمؤمن أن يكون صريحا هكذا أمام الكافر اذ لا معنى للمناورة السياسية مع أعداء الدين. أعلنوا براءتكم من الكفار واظهروا عداءكم. يدور هذا الاختلاف حول الهدف وأساسه الايمان والكفر. فلا يجوز أبداً بيع العقيدة بأي شيء آخر، والطريق الوحيد لحلّ هذا الاختلاف هو ايمان العدو بالله عزّ وجلّ.

لقد اعتبرت الآية الكريمة النبي ابراهيم‌عليه السلام قدوة للمسلمين واستثنت مورداً واحداً وهو وعده لربِّ أسرته بأن يستغفر له، اذ كان ذلك سلوكاً مفعماً بالمودة من ابراهيم‌عليه السلام تجاهه، فلا تتبعوه في ذلك، أي اذا كان أحد أعضاء أُسرتكم كافرا فلا تعِدوه حتى بالاستغفار.

هذا وكان وعد ابراهيم‌عليه السلام طبعاً في زمان لم يثبت فيه عناد آزر وكان‌عليه السلام يأمل هدايته ولذا قال في آية أُخرىٰ:

﴿وَ مٰا كٰانَ اسْتِغْفٰارُ إِبْرٰاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاّٰ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهٰا إِيّٰاهُ فَلَمّٰا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّٰهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ لَأَوّٰاهٌ حَلِيمٌ﴾[٢].

إذنْ لا ينبغي اتخاذ المسلمين سلوك ابراهيم‌عليه السلام ذريعةً لاقامة صداقات مع أقربائهم الكفار، والله سبحانه يعطي الأمل في آية أُخرىٰ بحلول يوم تتبدل فيه العداوات الىٰ صداقات:

﴿عَسَى اللّٰهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عٰادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَ اللّٰهُ قَدِيرٌ وَ

١. الممتحنة ٤.
٢. التوبة ١١٤.

اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١].

أجل، قد يؤمن الكفار في المستقبل ويصبحون اصدقاءكم، ولكن حينما كانوا اعداء لله فلا يحق لكم اقامة الصداقة معهم.

الولاية المأذون بها

قلنا لا يجوز لنا اقامة علاقات ودّية مع مجتمع يعادي المجتمع الاسلامي، وهو عازم علىٰ تضييع المصالح المادية والمعنوية أو المصالح المعنوية للمسلمين، ولكن اذا كان حيادياً تجاه مصالحنا المعنوية وأراد اقامة علاقات مع المسلمين لتحقيق مصالحه وفيها طبعاً مكاسب مادية للمجتمع الاسلامي، وقد يمهد ذلك لتحقيق المصالح المعنوية أيضاً علىٰ المدىٰ البعيد وفي ظل هذه العلاقات، فانّ مثل هذا المجتمع وإنْ كان كافراً فلا ينبغي للمسلمين معاداته، قال تعالىٰ بهذا الشأن:

﴿لاٰ يَنْهٰاكُمُ اللّٰهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقٰاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيٰارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمٰا يَنْهٰاكُمُ اللّٰهُ عَنِ الَّذِينَ قٰاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيٰارِكُمْ وَ ظٰاهَرُوا عَلىٰ إِخْرٰاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ﴾[٢].

أجل، احسنوا من موقع القوة الىٰ هؤلاء الذين لا يقاتلونكم ولا يعادونكم واقيموا معهم علاقات عادلة. وتكون القيمة السلبية إذنْ حينما تهدّد مصالحكم المعنوية، أي تتخاصم فئتان: كافرة ومؤمنة حول الهدف الأساسي، وينبري الكفار لمعاداة المجتمع الاسلامي بشدة انتصاراً للكفر، بينما اذا لم يضر الكفار بايمانكم فبوسعكم اقامة علاقات ودّية معهم، حتى ان الله سبحانه يحب ان تعاملوهم معاملة

---

١. الممتحنة ٧.

٢. الممتحنة ٨ ـ ٩.

عادلة خالية من الظلم.

إذنْ التزموا بالعدل في التعامل معهم، فاذا كانوا قد عاهدوكم فعليكم الوفاء بعهدكم طالما وفوا بعهدهم واحترموا ذلك ولا تنقضوا العهد عند اقتداركم، إذ انّ القيم الأخلاقية تُسحق بنقض العهود وتُسلب الثقة بها، ويشكّل ذلك خطراً علىٰ المجتمعات البشرية كافة.

بملاحظة المعايير العامة المذكورة يمكن معرفة القيم الأخلاقية في العلاقات الاجتماعية لكي يتّضح متى تكون العلاقات ودّية ومتى تكون عدائية؟ وهكذا في العلاقات الشخصية، فمع أي شخص تكون الصداقة مناسبة ومع أي شخص تكون غير مناسبة؟ وكيف ينبغي التعامل مع جماعة المؤمنين والكفار في الوسط الاجتماعي؟

القسم الرابع



العدل والظلم

مقدمة

من أوسع المفاهيم في مجال الأخلاق الاجتماعية من جهة وأيقن القيم الأخلاقية الاجتماعية من جهة ثانية هو مفهوم وقيمة (العدل) ويقابله مفهوم (الظلم) الذي يمثل قيمة سلبية ويناظرهما مفهوما (الإصلاح) و(الإفساد)

أصالة العدل وقيمته

لا شك في اعتبار الموقع المتميز للعدل وقيمته السامية لدىٰ بني الانسان كافة، والسوفسطائيون وحدهم يثيرون الشبهة في هذا المجال ولا يقرّون بشموليته. ليست لدينا طبعاً معلومات مضبوطة عن افكار السوفسطائيين، ولكن المستفاد من كتب تأريخ الفلسفة هو أن رؤيتهم عن القيم الأخلاقية والعدل والتقوىٰ وأمثالها تختلف مع الآخرين، خاصة وان سقراط قد ناقشهم في هذا المجال وقد نقل افلاطون ذلك في محاوراته.

وقد ظهرت بين الاوربيين في القرون الأخيرة ميول لأفكار السوفسطائيين، وملخص قولهم هو ان الانسان يحب الالتذاذ ويبذل كل مساعيه لنيل ما يتوخاه ومضاعفة اقتداره واستثماره للمواهب الطبيعية بنحو أكبر. وبالتالي فانّ التمتع المتزايد للنعم الطبيعية يمثل رغبة انسانية، فيرفض كل ما يحدد رغبته الطبيعية هذه.

يعتقد هؤلاء ان الانسان كسائر الحيوانات ذو رغبات طبيعية يسعى لتحقيقها، ولذا سيكون ما يواجهه من قيود امراً قسريا وغير طبيعي ويضطر للانصياع اليها في بعض الموارد. وفي غيرها يكون الاستثمار الأوسع للمواهب والنعم الطبيعية حقا طبيعياً له. علىٰ هذا الأساس لو هاجم جيش لبلد ما ـ مثلا ـ بلداً آخر وتسلط عليه وتصرف في ثرواته كان مُحقّا في ذلك لانّه ذو رغبات وله القدرة علىٰ تحقيقها ولا يمنعه شيء من الوصول اليها.

جاء في محاورات افلاطون انّ السوفسطائيين أعطوا الحق لخشايارشاه (ملك فارس) حينما أقبل بجيشه من ايران ليهزم اليونانيين لانّه كان مقتدراً ويودّ استخدام قدرته وهذا أمر طبيعي تماماً، ولو كنا مكانه لفعلنا ذلك ذاته.

لقد وجدت مثل هذه الميول لدىٰ المتأخرين من فلاسفة اوربا، يقول نيتشة مثلا: (القوة هي المبدأ في الأخلاق). فعلىٰ الانسان أن يضاعف اقتداره فلا يستساغ كل ما يشير الىٰ الضعف أو يقتضيه ويقول: انّ المفاهيم من قبيل حسن العدل وقبح الظلم ذريعة بيد الاقوياء لترويض الناس، ولا يمكن اعتبار أي أساس آخر لها.

كانت مثل هذه الميول موجودة بشكل أو بآخر في تأريخ الفلسفة وهي تشكّك في القيمة المطلقة للعدل. وانكار قيمة العدل يرجع في الحقيقة الىٰ انكار اصالة الأخلاق، ويعني ذلك انّ القيم الأخلاقية ليست مطلقة ولا أصيلة، بل نسبية وتابعة لرغبات بني الانسان والمجتمعات الانسانية.

وباستثناء المنكرين لأصالة القيم الأخلاقية فانّ مؤيدي النظم الأخلاقية كافة وجميع المقرّين بأصالة الأخلاق يعتقدون بقيمة العدل.

يلزم هنا إيضاحاً للقضايا المبحوث عنها في هذا القسم تبيين الرؤى بشأن أصالة الأخلاق ـ وإنْ ارتبط ذلك بفلسفة الأخلاق أساساً ـ وذلك لمعالجة بعض الشبهات والأمور المبهمة.

إشارة إلى اختلاف المدارس في فلسفة الأخلاق

وحيال السوفسطائيين منكري أصالة الأخلاق سيّما منكري مبدأ العدل توجد اتجاهات مختلفة بهذا الشأن:

أ ـ تعتقد جماعة بانّ القيم الأخلاقية أمور واقعية ويدركها الانسان بعقله بنحو بديهي، أي كما يدرك الانسان فطرياً البديهيات في القضايا النظرية لكونها أموراً ثابتة لا تقبل الشك فانّ العقل يدرك فطريا وتلقائيا الحقائق الثابتة في القضايا القيمية والعملية. قال الحكماء: ان الانسان ذو نوعين من العقل: بالأول يظفر بالادراكات النظرية، وبالثاني يصل الىٰ الادراكات العملية والقيمية. وكما توجد في قسم الادراكات النظرية مجموعة من الادراكات البديهية أو الضرورية التي لا تحتاج الىٰ البرهان للتصديق بها ومجموعة من الادراكات النظرية او الاكتسابية التي تحتاج الىٰ البرهان لإثباتها فانّ لدينا بديهيات في الادراكات العملية ـ كالادراكات النظرية تماماً ـ يدركها العقل بذاته كحسن العدل وقبح الظلم، ولدينا نظريات يثبتها الانسان بالدليل والبرهان. لقد اطلقوا (العقل النظري) علىٰ النوع الأول و(العقل العملي) علىٰ النوع الثاني، واستعمل لفظ (الوجدان = الضمير) بدلاً عن العقل العملي أحيانا. وقالوا ان وجدان الانسان يدرك هذه الحقائق.

وعليه فانّ القيم الأخلاقية في هذه الرؤية من الأمور الواقعية التي تحكي عن الحقائق الثابتة في نفس الأمر وبوسع الانسان أن يدركها بعقله العملي أو وجدانه.

ب ـ تعتقد مجموعة أُخرىٰ انّ القيم والشؤون الأخلاقية من قبيل الآراء المحمودة التي تكون مقبولة لدىٰ المجتمع لأنّها نافعة في الحياة الاجتماعية، وعليه فانّها لا تحكي عن حقائق ثابتة فى نفس الأمر لكي تقاس صحتها وسقمها بتطبيقها علىٰ تلك الحقائق، ولا طريق للصواب والخطأ في هذه الشؤون أساسا لأنّها اتجاهات توجد في اعماق الروح الانسانية فحسب. والمقبول والدائم من هذه

الاتجاهات هو ما كان عامّا وشاملاً وشائعاً بين بني الانسان كـافة والمـجتمعات، فيمكن الاستناد اليها والاستدلال الجدلي بها، وغير العام منها يكـون مـعتبراً فـي مجالات خاصة. يعتقد مؤيدوا هذه النظرية وفي ضوء رؤيتهم الخاصة بأنه لا يمكن اقامة البرهان لاثبات الأمور الأخلاقية لتكون النتيجة يقينية ونقيضها محالاً.

ج ـ المجموعة الثالثة تعتقد بانّ القضايا القيمية ذات جذور واقعية ثابتة فى نفس الأمر فيمكن أيضاً الاستدلال لاثبات القضايا القـيمية اسـتناداً الىٰ تـلك الجـذور الواقعية. ونظراً لاستناد الاستدلال بالأمور القيمية علىٰ الجذور الواقعية فانّه يتوقف علىٰ درجة استناد هذه الأمور القيمية الىٰ تلك الواقعيات أيضاً.

نطاق احكام العقل القيمية

السؤال الآخر الذي ينبغي الاجابة عنه هو: هل تختص الاحكام القيمية للعقل بدائرة المصالح الشخصية أم انها أوسع وتشمل المصالح الاجتماعية أيضاً؟ لقد طـرحت عدة نظريات في الاجابة عن هذا السؤال نذكر بعضها:

يقول البعض: انّ العقل الانساني يقيس علاقة العمل الذي يـؤديه مـع مـصالح حياته الشخصية فيحكم بضرورة القيام بالأعمال النافعة له سواء أكانت المنفعة تعود على جسمه وتوفّر مصالحه المادية والدنيوية أم تعود علىٰ روحه وكمالاته النفسية، وعلىٰ كل حال فانّ كل انسان يلاحظ بعقله مصالحه الشخصية فقط. ويقول بعض أصحاب الرأي: يرغب الانسان غريزيا في التصرف في كل شيء حتى في الآخرين من بني الانسان واستثمارهم لصالحه. ويقال أحيانا ان للانسان غريزة الاستخدام فهو يستخدم حتى الآخرين من بني الانسان لصالحه.

والعقل يحكم بضرورة القيام بالأعمال التي تقتضيها الغريزة أيضاً. ان حكم العقل

طبعاً يكون في الموارد التي لا يتعارض فيها تحقيق هذه الرغبة مع رغبات الانسان وغرائزه الأُخرىٰ، كأن يشكّل استخدام شخص آخر خطراً علىٰ نفس المستخدم أو تصحبه أضرار جسيمة أُخرىٰ.

من هنا يكون عقل أفراد الانسان سببا للاختلاف بينهم، لان كل فرد منهم سيتابع مصالحه الشخصية بحكم العقل الذي يدعم غريزة الاستخدام فيه فيحدث التزاحم نظراً للقيود الموجودة ويؤدي الىٰ الاختلاف والنزاع. كان الذين عاشوا في الغابة من بني الانسان يتنازعون علىٰ الانتفاع بشجرة مثمرة أو اصطياد حيوان لان كل فرد منهم يرىٰ ان حق الانتفاع منه مختصّاً به بحكم العقل. فاستنتجوا انّ العقل ذاته منشأ للاختلاف بين بني الانسان وليس بوسعه طرحُ قِيم تحول دون وقوع الاختلاف. في هذه النظرية يمكن لبني الانسان ترك الاختلاف والنزاع في حالة واحدة وهي في حالة تقييمهم ان ضرر ذلك أكبر من نفعه، وادراكهم ان الاختلاف يستدعي الحرب والقتل والدمار ويقضي علىٰ مصالحهم الأُخرىٰ ويهدّد أمنهم وحياتهم ويقضي علىٰ مصادرهم الحيوية. فيتوصلون هنا الىٰ الوفاق مضطرين.

في هذه الرؤية يكون المبدأ هو الاختلاف والنزاع، ويكون الانصياع للقيود والقرارات والضوابط والقيم الاجتماعية والركون الىٰ التعايش السلمي أمراً اضطراريا وقهريا. فلولا الاضطرار فان العقل في ذاته لا يقتضي الخضوع للقانون والقرارات والتعايش السلمي.

نقد وبحث

لا نروم هنا نقد هذه النظرية ومبانيها والبحث بشأنها، ولكننا نشير بسرعة الىٰ عدة ملاحظات:

أولاً: من الصعب اثبات وجود غريزة مستقلة باسم غريزة الاستخدام منفصلة عن سائر الغرائز. وما يمكن قوله هو ان الانسان يمارس اعمالاً مختلفة تعينه في تلبية متطلباته، ومنها استخدام الآخرين من بني الانسان والانتفاع بهم.

إذنْ لا يمثل استخدام الانسان للموجودات الأُخرىٰ غريزة مستقلة. وما يرومه الانسان أصالة وابتداءاً وبمقتضى الغريزة هو الأشياء التي ترفع حاجاته، فمثلا اذا كانت حوائجنا تُرفع بتناول النباتات فقط لم يكن لدينا دافع لذبح الحيوانات وتناول لحومها. اذن حينما نذبحها ونتناول لحومها فهو بسبب ما فينا من ميل طبيعي لتناول لحوم الحيوانات. واستخدامنا لها لحمل الاثقال هو لاننا نريد تناول اشياء نحتاجها الّا انّها بعيدة عنا، ولانّها ثقيلة نستخدم الحيوانات وأية وسيلة أُخرىٰ لتعيننا في نقلها الىٰ منطقتنا التي نسكن فيها وذلك في ضوء الفكر الذي وهبه الله لنا.

إذنْ غريزة الانسان الأصيلة هي ميله الىٰ الراحة والرفاهية. ولا تقتضي وضعه الحمل علىٰ ظهر الحيوان، بل التفت من خلال التجربة الىٰ ان بالامكان الانتفاع من الحيوان بهذا النحو، ثم أمره العقل باستخدامه كواسطة للحمل والنقل. وعليه لا يمكن القول بوجود غريزة مستقلة في الانسان باسم غريزة الاستخدام الىٰ جانب الغرائز الأُخرىٰ.

ثانيا: ان دفع العقل الانساني الانسانَ لتحقيق مصلحته هو حكم عقلي في دائرة توفير المكاسب الشخصية، أي انّ العقل في هذه الموارد خادم لرغباتنا الغريزية، ولا يقتصر حكم العقل علىٰ دائرة رغباتنا الشخصية، بل انّ العقل قوة مدركة وبوسعه تجاوز رغباتنا والتأمل في المتطلبات الاجتماعية، أي كل فرد منا نحن البشر الذين نعيش في المجتمع ونمثل أعضاءه يمكن أن ننعم بنضج ادراكي فنلاحظ مصالح المجتمع كله ونسعى لتحقيقها بدلاً عن مصلحتنا الشخصية.

رغم اننا من أعضاء المجتمع الّا انّ بوسعنا ملاحظة المجتمع كله، ونفكر بانّ لافراد الانسان الذين يعيشون في مجتمع واحد كمالات وقد خلقهم الله لهدف. وبنو الانسان الذين يعيشون معاً مخلوقات لله ولا يتلخص الهدف من خلقها في وجود أو تحقيق مصالح شخص أو عدة أشخاص، بل يتعلق الهدف الإلٰهي بجميع الأشخاص، والمشيئة الالٰهية هي أن يبلغ جميع الأفراد الىٰ الكمال.

إذنْ يجب تحقيق هذا الهدف الالهي. وأنا من أفراد هذا المجتمع أيضاً ويجب ان أصل الىٰ هدفي، ولكن ليس من الصحيح أن يذهب أفراد آخرون ضحية من أجلي. ان ذلك لا ينسجم مع الهدف العامّ للخلق، والله سبحانه لم يخلق بني الانسان لأجلي، إذنْ لا يصح استخدام بني الانسان لمصالحي.

لقد أراد الله سبحانه ان ينفع بنو الانسان بعضهم بعضا وبناء اسس الحياة الجماعية على التعاون. إذنْ لي الحق في ان انتفع بالآخرين لصالحي، وللآخرين الحق للانتفاع بي لصالحهم أيضاً، الّا انّ هذا غير غريزة الاستخدام، لانني بنسبة اعتبار الحق لنفسي في الانتفاع بالآخرين أعطي الحق لهم للانتفاع بي، في حين لا يتصور في غريزة الاستخدام سوى المنفعة الشخصية وليس بوسع الانسان ان يهتمّ بالآخرين.

الخلاصة ان مثل هذه الغريزة (الاستخدام) لا وجود لها في الانسان ولا ينحصر حكم العقل في مصالحه الشخصية. يحكم العقل طبعاً باهتمام الانسان في تحقيق مصالحه الشخصية الّا انّ هذا لا يعني انّ العقل ليس له حكم آخر. نحن قادرون على استخدام العقل لاشباع غرائزنا الّا انّ العقل لا يكون دائماً في خدمة اهوائنا النفسية وغرائزنا الشخصية، بل ان الادراك العقلي اوسع بكثير من دائرة الغرائز والمصالح الفردية، فنحن بامكاننا الانتفاع بالعقل لتحقيق مصالحنا، ولا ينبغي الظن

بانّ العقل عاجز عن ادراك امور أُخرىٰ خارج نطاق المصالح الشخصية، اذ انّ العقل قادر على معرفة الله والغاية الالهية من الخلق وان على بني الانسان طيَّ مسيرة الكمال، أو ان لهم الحق في الانتفاع المتبادل فيما بينهم. أجل انّ العقل قادر على ادراك هذه والكثير من الحقائق العامة الأُخرىٰ.

إذنْ لو تحرر العقل من الاهواء والرغبات الشخصية لكان مدىٰ ادراكه اوسع من حياته ورغباته الشخصية واستطاع أن يلاحظ نظام الكون والخلق. فهذا العقل قادر على ان يحكم على بني الانسان بان يذعنوا لبعض التحديدات ويتعاملوا بنحو يستدعي تكاملهم بنحو متبادل، وهذا العقل ـ رغم ما يقال من انه منشأ الاختلاف ـ يمكن ان يكون منشأ للوحدة والتماسك الاجتماعي.

وعليه يكون التسليم للقوانين والضوابط الاجتماعية واجتناب الاختلاف والتفرقة وانتهاك القانون وضرورة رعاية الوحدة والتضامن من حكم العقل أيضاً، وليس أن يكون العقل مثيراً للاختلاف دائما ولم يكن لديه حكم في رفع هذا الاختلاف.

علىٰ أي حال فانّ العقل حينما يحكم بحسن العدل فانه يتجاوز حدود الحياة الفردية ويمتلك رؤية أوسع. وهذا هو مقتضىٰ طبيعة العقل وليس شيئا اجنبياً عنه وعارضاً عليه، إذنْ يمكن القول ان عمل العقل هو ادراك القضايا العامة. فاذا حصرناه في حياتنا الشخصية واعتبرناه خادماً لرغباتنا الشخصية فلا ينبغي ان نعتبر ذلك مقتضىٰ الطبيعة الاولية للعقل.

حسن العدل من جملة الاحكام التحليلية

ان قولنا بانّ العقل له احكام في مجال الأخلاق العملية والقضايا القيمية لا يعني انه

يدركها تلقائيا وبلا واسطة، ويحكم في المسائل القيمية بصورة مستقلة تماماً عن الادراكات النظرية. كما انه لا يعني ان الانسان ذو جهازين للادراك العقلي: أحدهما يدرك الواقعيات، والآخر يدرك القيم والاحكام العملية والمفاهيم الأخلاقية، لعدم ثبوت هذه الاثنينية العقلانية التي يذهب اليها بعض العلماء ويطلقون عليها مصطلحي (العقل النظري) و(العقل العملي). في رأينا انّ العقل واحد وترجع كل ادراكاته الى الادراكات النظرية وهي قابلة للاستدلال والبرهان كما اشرنا الى هذه الحقيقة في موارد مختلفة.

هنا وبملاحظة هذا المبنى العام ما هو مفهوم هذا الحكم العقلي: انّ العدل معتبر في العلاقات الاجتماعية كقيمة؟

في الاجابة يجب القول انّ النظم القيمية كافة تذعن في الغالب بحسن العدل وضرورة رعايته الّا انّ لها احكاماً متفاوتة بشأنه:

يعتقد البعض ان حسن العدل حكم وجداني، ويعتقد بعض آخر انه حكم العقل العملي، وفي منظار آخر هو من الآراء المشهورة والمحمودة. ولتوضيح الحقيقة يلزم تحليل مفهوم العدل قبل كل شيء كي ندرك كيفية حكم العقل بضرورة الالتزام به.

في رأينا ان حسن العدل وضرورة رعايته في الادراكات العملية من القضايا التحليلية، ويكمن سرُّ بديهيته في كونه أمراً تحليلياً. ان هذا مبدأ عام وقد أشرنا اليه في مواضع أُخرىٰ أيضاً بان الاحكام البديهية للعقل - اعمَّ من البديهيات في الادراكات العملية كحسن العدل وقبح الظلم والبديهيات في الادراكات النظرية كمبدأ العلية - كلُّها أحكام تحليلية. ان ادراك العقل للبديهيات الاولية بنحو تلقائي لا يعني ان هذه القضايا جزء من طبيعة العقل وقد خلقت كجزء من وجوده، بل يعني

ان مفهوم المحمول في هذه الموارد يمكن الحصول عليه من تحليل مفهوم الموضوع وليس شيئا مفصولاً عنه.

مثلا مبدأ العلية الذي يعتبر من المبادئ البديهية يقول:

(كل معلول فهو بحاجة الى العلة) وقد قلنا ان احتياج المعلول الى العلة، الذي يمثل محمول هذه القضية العامة، يدركه العقل بنحو تلقائي من تحليل مفهوم الموضوع وهو كلمة (المعلول). فالمعلول أساساً يعني الشيء الذي يحتاج الى علة. هنا في مورد الادراكات العملية والقيم أيضاً نؤكد على هذه الطريقة ونقول: انّ المبادئ البديهية من الادراكات العملية هي من القضايا البديهية أيضاً، فمثلاً (العدل واجب) من المبادئ البديهية في الادراكات العملية ومن القيم، ويعتبر من جملة القضايا التحليلية.

لمزيد من الايضاح يجب القول انّ العدل يعني (اعطاء كل ذي حق حقه) ولا يعني التساوي المطلق. فمثلا اذا كان لديك عاملان فعمل أحدهما ساعتين والآخر عمل ثماني ساعات واعطيت الثاني أربعة اضعاف الأول كنت مراعيا للعدالة لان العدل لا يعني التساوي المطلق بل يعني ان يعطى كل انسان حقه مهما كان. إذنْ لإدراك مفهوم العدل بنحو صحيح لابدّ من توضيح مفهوم الحق قبلاً. يستعمل لفظ (الحق) في العلاقة بين موجودين وعلى اساسه يستحق أحدهما استلام شيء او الانتفاع به ويكلّف الثاني بدفعه له أو احترام انتفاعه به دون ان يتجاوز ذلك.

بناء على ذلك انّ العدل يعني اعطاء الحق لصاحبه والحق شيء لابدّ من اعطائه لصاحب الحق.

نستفيد من ضمّ هاتين العبارتين لبعضهما ان عبارة (العدل واجب) تعني: (ان ما

يجب اعطاؤه لابد من اعطائه) وهذه قضية بديهية وتحليلية الّا انّ هذا لا يعالج أية مشكلة في أي نظام قيمي، لان الجميع يقولون: ان رعاية العدل واجبة ولا يجوز ظلم أحد ولا يوجد أي اختلاف او ابهام في أصل هذه القضية، وما فيه ابهام أو يقع مورداً للاختلاف هو تعيين مصاديق العدل، كمسألة ان ارث المرأة نصف ارث الرجل هل هو عدل أو ظلم؟

فالقائلون بأنها مسألة غير عادلة يعتقدون بالتساوي بين حقوق الذكور والاناث في اموال الاب، ولو اعتقدوا بان حق الابن هو اكثر من حق البنت لم يحكموا بذلك. في مقابل هؤلاء يجب بيان معيار تعيين الحقوق لا بيان ضرورة رعاية العدل.

ان مبدأ العدل كما يشبه الأصول البديهية الأُخرىٰ في كونه تحليليا فهو يشبهها في تعيين المصاديق أيضاً. وكما ان مبدأ العلية مبدأ بديهي ولكنه عاجز في ذاته عن تشخيص مصاديق العلة والمعلول، أو الأصل البديهي الآخر القائل بانّ الكل أكبر من الجزء فانه يعجز عن تحديد مصداق الكل أو الجزء، بل اننا نعرف مصاديق العلة والمعلول والجزء والكل من الخارج ثم نطبق هذه الأصول البديهية عليها، فكذلك مبدأ العدل فهو مبدأ بديهي ولكنه عاجز عن تعيين مصداق العدل، فعلينا التعرف عليه من طريق آخر وبعد تعيينه يأمر مبدأ العدل بضرورة رعايته.

بناء على ذلك لا ينبغي ان تتعجّب من قولنا عن العدل بانه لا يعالج مشكلة رغم بديهيته ويعجز عن اعانتنا في تعيين مصداق العدل والظلم، لان كل مبدأ من المبادئ البديهية غير قادر على تعيين مصداقه. من هنا يقال في الفلسفة والمعارف اننا لا نستطيع اثبات وجود الله بمبدأ العلية فقط لانه يقول: اذا كان شيء معلولا في الخارج وجب أن تكون له علة والّا لم يوجد. إذنْ يمكننا اثبات وجود الله بهذا

المبدأ حينما يثبت لدينا معلولية الكون بطريق آخر غير هذا المبدأ.

الإجابة عن سؤال

قد يقال: اذا كانت ضرورة رعاية مبدأ العدل امراً بديهياً ويحكم به الجميع بذاتهم إذنْ لماذا هذه التأكيدات الكثيرة في الآيات والروايات على الالتزام بالعدل كقوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسٰانِ﴾[1].

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ﴾[2].

للإجابة عن هذا السؤال نؤكد على أمرين: الاول انّ القرآن الكريم والروايات الشريفة وعلماء الأخلاق يؤكدون على ضرورة تسليم بني الانسان لحكم العقل، ولذا يصرّون على هذا الحكم العقلي البديهي، وهذا الاصرار مستمر لوجود دوافع قوية في الانسان لمعارضة هذه الاحكام العقلية، فيلزم ان يقوم اشخاص كالانبياء العظامعليهم‌السلام ومربّو المجتمع وعلماء الأخلاق باعانته ليتمكّن من طاعة العقل في مقابل هذه الدوافع.

وعليه فان هذه التأكيدات ليست لتعليم الانسان ضرورة رعاية العدل بل لدفعه للالتزام العملي به دون ان تعصف به الدوافع المعارضة الى هذه الجهة أو تلك.

الثاني ان هذه القضايا القيمية البديهية تلعب دور الكبريات الفطرية البديهية في البرهان، أي ان الانسان لا يلتفت أحياناً الى قضية وحينما يقرن بين قضيتين بديهيتين يلتفت الى تلك القضية التي هي لازم ضروري لهما. وثمرة البرهان اساسا هي إلفات الانسان الى الترابط بين هذه المفاهيم وبين النتيجة التي تستفاد منها.

---

١. النحل ٩٠.
٢. المائدة ٨.

في القضايا القيمية أيضاً يمكن ان يكون للقضايا البديهية هذا الدور، أي حينما تتعرفون على مصداق العدل وتشخّصون عملا عادلاً فبضم كبرى لزوم رعاية العدل تلتفتون الى وجوب القيام بذلك العمل.

إذنْ في مقام النظر والاستدلال يكون لهذه القضايا القيمية دور الكبرى البديهية في الادراكات النظرية، وتترتب ثمرة الاستدلال البرهاني في القضايا النظرية على الاستدلال في القضايا القيمية أيضاً وهي عبارة عن الالتفات الى الترابط بين الصغرى والكبرى كي ينتقل الى نتيجتها.

وعليه هناك حكمتان في تأكيدات القرآن والروايات على رعاية العدل: احداهما حيثيتها التربوية، والأُخرىٰ حيثيتها التعليمية والمعرفية.

رؤية القرآن عن العدل

يذّكر القرآن الكريم المسلمين في هذا المجال بأمرين تحت عنواني (العدل) و(القسط) وهما ـ كما ذكر ـ مفهومان مترادفان ولهما معنىٰ واحد. في هذا المجال يأمر القرآن الكريم أحياناً باقامة العدل مطلقا، كقوله تعالىٰ:

﴿وَ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلىٰ أَلاّٰ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ﴾[1].

وكقوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسٰانِ﴾[2].

ويأمر القرآن في موارد أُخرىٰ بأعمال مختلفة وصفها وقيّدها بالعدل فهو يدعونا في الواقع الى موارد خاصة من العدل كالحكومة العادلة والإصلاح العادل والقول

---

١. المائدة ٨.

٢. النحل ٩٠.

العادل، كقوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمٰانٰاتِ إِلىٰ أَهْلِهٰا وَ إِذٰا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّٰاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[١].

وكقوله تعالىٰ:

﴿فَإِنْ فٰاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمٰا بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٢].

وكقوله تعالىٰ:

﴿وَ إِذٰا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كٰانَ ذٰا قُرْبىٰ﴾[٣].

وكقوله تعالىٰ:

﴿وَ لْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كٰاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[٤].

﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾[٥].

قلنا في القسم الاول من الكتاب: إن في القرآن مجموعة من المفاهيم الأخلاقية التي تشمل بسعتها المفهومية جميع أو أغلب القيم الايجابية أو القيم السلبية، وقد ذكرناها باسم المفاهيم الأخلاقية العامة، واعتبرنا مفهومي العدل والظلم من زمرة هذه المفاهيم.

انّ العدل بمفهومه الواسع يشمل (حقوق الله على الانسان) و(حقوق أبناء الانسان على الانسان) و(حق الانسان على نفسه) و(حق أعضاء الانسان وجوارحه على نفسه) أي يكون مفهوم العدل في هذه الحالة معادلاً لجميع القيم الايجابية تقريبا وان كان موضوع بحثنا في هذا الكتاب هو العدل الاجتماعي وحق الانسان على الانسان فقط حيث ينظم العلاقة بين بني الانسان وليس علاقة الانسان بالله أو

---

١. النساء ٥٨.
٢. الحجرات ٩.
٣. الانعام ١٥٢.
٤. البقرة ٢٨٢.
٥. البقرة ٢٨٢.

علاقة الانسان بنفسه. وعليه تكون النقطة المقابلة للعدل في بحثنا في هذا القسم هو ظلم الآخرين فقط وليس الظلم لله ولا الظلم للنفس.

العدالة الاجتماعية في القرآن

تشير آيات كثيرة في القرآن الى مصاديق مختلفة للعدل الاجتماعي نذكّر هنا ببعضها:

قال تعالىٰ في آية كريمة:

﴿إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسٰانِ﴾[١].

وقال في آية أُخرىٰ:

﴿إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمٰانٰاتِ إِلىٰ أَهْلِهٰا وَ إِذٰا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّٰاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[٢].

وخاطب نبيه ﷺ في آية أُخرىٰ:

﴿وَ قُلْ آمَنْتُ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنْ كِتٰابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللّٰهُ رَبُّنٰا وَ رَبُّكُمْ﴾[٣].

وقال في آية أُخرىٰ:

﴿وَ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلىٰ أَلاّٰ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ﴾[٤].

وقال في آية أُخرىٰ:

﴿وَ إِذٰا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كٰانَ ذٰا قُرْبىٰ﴾[٥].

وقال عن رعاية العدل بين الازواج:

---

١. النحل ٩٠.
٢. النساء ٥٨.
٣. الشورى ١٥.
٤. المائدة ٨.
٥. الانعام ١٥٢.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوٰاحِدَةً﴾[١].

وقال عن الدّين وضبطه:

﴿إِذٰا تَدٰايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَ لْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كٰاتِبٌ بِالْعَدْلِ ... فَإِنْ كٰانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاٰ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُـمِلَّ هُـوَ فَـلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾[٢].

لفظ القسط

في الكثير من الآيات استُعمل لفظ القسط بدلا من العدل ونشير هنا الىٰ بعضها:

قال تعالىٰ عن ضرورة الإصلاح بين فئتين متنازعتين من المسلمين:

﴿فَإِنْ فٰاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمٰا بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٣].

وقد أمر سبحانه في آية أُخرىٰ بالحكم بالعدل بقوله:

﴿وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٤].

ومع ملاحظة استعمال لفظ العدل في آية أُخرىٰ كهذه الآية:

﴿وَ إِذٰا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّٰاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[٥].

يمكن القول ان هذا التشابه بين لفظي العدل والقسط في موارد الاستعمال يدل على وحدة معناهما. في بعض الآيات المتعلقة بالشهادة هناك دعوة لرعاية العدل والقسط، قال تعالىٰ:

﴿يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّٰامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدٰاءَ لِلّٰهِ﴾[٦].

وقال عزّ وجلّ في آية أُخرىٰ:

---

١. النساء ٣.
٢. البقرة ٢٨٢.
٣. الحجرات ٩.
٤. المائدة ٤٢.
٥. النساء ٥٨.
٦. النساء ١٣٥.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ لِلّٰهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ﴾[١].

وقال سبحانه بنحو مطلق في آية أُخرىٰ:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾[٢].

يلاحظ ان نظير الآيات التي تأمر بالعدل بنحو مطلق[٣] قد أمر في هذه الآية بالقسط مطلقا. وورد مايشبه هذه الآية من جهة اطلاق القسط حيث قال في آية أُخرىٰ:

﴿وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[٤].

واخيراً فان الله سبحانه قد دعا الى رعاية القسط مع اليتامىٰ في الآيتين: (٣ و ١٢٧ ـ آل عمران) وفي الكيل والوزن في الشؤون الاقتصادية في الآيات (١٥٢ ـ آل عمران و ٨٥ ـ هود وآية ٩ـ الرحمن) واستعمل (القسط) في الآية (٤٧ ـ الانبياء) والآية (٤ ـ يونس) في مورد حساب الاعمال وأجر الاعمال الصالحة يوم القيامة لا حاجة الى ذكرها.

ارتباط العدالة بالحق

هنا وبعد تبيان مفهوم العدل المستعمل بمعنى (اعطاء الحق لذي الحق) يجب معرفة هذا الأمر كنتيجة لهذا البحث: كيف يمكن تعيين (الحق) وكيف يمكن معرفة ماهية حق كل شخص؟ كي نتمكن في ضوء ذلك من التعامل بحق. اذ انّ هذا بحث مهم جداً وهناك اختلاف بشأنه بين المذاهب الفكرية والنظم الحقوقية، وقد عرضت نظريات مختلفة بهذا الشأن على طوال تأريخ فلسفة الأخلاق والحقوق. ولكن

١. المائدة ٨.
٢. الاعراف ٢٩.
٣. (إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ) النحل ٩٠ و(وَ إِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) النساء ٥٨.
٤. الحديد ٢٥.

المؤسف انّ المفكرين الاسلاميين قلّما اهتموا في هذا المجال، ولو أردنا أن ندرس الموضوع دراسة دقيقة لوجب علينا دراسة قسم واسع من فلسفة الأخلاق وهو لا يتناسب مع هذا المقام، ولكن يمكن الاشارة الى الخطوط العريضة لهذا الموضوع وتقديم رؤيتنا في هذا المجال:

الرؤىٰ المهمة

في هذا المجال توجد عدة رؤى اساسية ومتضادة بصورة عامة:

أ ـ نظرية الحقوق الطبيعية

تعتقد فئة ـ وفي اوساطها اختلافات بسيطة ـ انّ الطبيعة تعيّن حق كل موجود، وقد اشتهرت هذه النظرية باسم (نظرية الحقوق الطبيعية)، ونحن لا نتناول هنا جذور وأسباب ظهور هذه النظرية والتي ترتبط بتاريخ فلسفة الحقوق ولكن نشير اليها كنظرية.

لبيان كيفية تعيين الطبيعة حق كل موجود نقول: افترضوا طبيعة النبات فانها تقتضي الانتفاع بالهواء والضوء والمواد المعدنية في الارض، ولولا توفير ما يحتاجه النبات فان طبيعة النبات لا تتحقق في الخارج ولا يوجد نبات. إذنْ بملاحظة طبيعة النبات يمكن القول انّ الحق الطبيعي للنبات هو ان ينتفع بالاشياء المذكورة وتلبية متطلباته (انّ ذكر هنا المثال هو لتقريب المضمون الى الاذهان ولا نريد القول بانّ النبات ذو حقوق طبيعية).

الحيوانات أيضاً لها طبائع مختلفة فبعضها نباتي وبعضها يأكل الحب، وبعضها يأكل اللحوم. فالتي تأكل النبات يكون من حقها الطبيعي أن تنتفع بالنبات، والتي

تتناول الحب ان تنتفع بالحب، والتي تأكل اللحوم ولها جهاز هضمي خاص لأكل اللحوم من حقّها ان تنتفع بلحوم الحيوانات الأُخرىٰ.

والانسان كذلك فهو كسائر الحيوانات له متطلبات طبيعية اذا لم تـلـبَّ هُـدّدت حياته ولا يمكن ان يواصل حياته. إذنْ الحق الطبيعي للانسان هو أن ينتفع بالهواء والغذاء والضوء والنباتات والحيوانات لكي يواصل حياته. وبعبارة واحدة: ان انتفاع الموجود بكل ما يؤمّن حوائجه الطبيعية هو حق طبيعي له ولا ينبغي لأحد أن يمنعه من هذا الانتفاع.

وقد طرح بعض مؤيدي الحقوق الطبيعية نظريات مثيرة للجدل متشعبة من هذه النظرية العامة، فمثلا قالوا: ان طبائع بني الانسان متفاوتة وبعضهم ذوو مزايا طبيعية، وقد كان بعض قدماء اليونان يعتقدون بانّ العنصر اليوناني هو الأرقى وسائر الناس وحوش وبربر. فالمدنية إذنْ من حق اليونانيين، وعلى الآخرين الخضوع لسلطتهم.

وفي القرن الماضي أيضاً قال بعض العنصريين: ان عنصر الجرمان ارقىٰ العناصر فتجب هيمنته على العالم بأسره. وقد كان فكر الحزب النازي الهيتلري يتابع هذه الفكرة، وتقدَّم الى حد إشعاله نار الحرب العالمية الثانية وخلّف ذلك الحجم الهائل من القتلى والخسائر في العالم. مثل هذه الميول لازالت موجودة وتُنشر كـل يـوم تقاريرُ واخبار عِن النشاط العنصري في مختلف بقاع العالم.

نقد نظرية الحقوق الطبيعية

أشكل البعض على نظرية الحقوق الطبيعية بالقول بان هذا المبدأ غير عملي، فمثلا في مجال الحيوان اذا رغب كل من الحيوانين في ان ينتفع بلحم الآخر فهل يمكن القول ان لكل منهما الحق في ذلك؟

أو اذا شاء بعض الناس في جعل أُناس آخرين عبيداً لهم واعتبروا التسلط عليهم من حقهم لما لديهم من امتيازات وذكاء وعلم وتفوُّق فىٰ الاقتدار الجسمي فهل يمكن القول ان من الحق الطبيعي لهذا العنصر لما يمتلكه من امتيازات ان يتسلط على الآخرين ويستعبدهم؟

يرىٰ المعترضون على نظرية الحقوق الطبيعية ان هذا اللون من التفكير ناشئ من الاحساس بالتفوّق، أي ان أنانية الانسان قد دفعته لأن يرىٰ نفسه فوق الموجودات الأُخرىٰ ويعتقد بانها يجب ان تكون في خدمته ومن حقه الطبيعي ان يسخّر جميع الموجودات الأُخرىٰ لصالحه، الاان هذه المقولة لا أساس لها اذ لعل الموجود الآخر هو اشرف من الانسان!

ب ـ نظرية العقد الاجتماعي

يعتقد انصار نظرية العقد الاجتماعي بانّ أصل الحقوق يرجع إلى العقد الاجتماعي، والطبيعة لا تعطي حقا لأحد،لكن بما انّ الانسان اناني فهو يهدف دائماً لتحقيق مصالحه ويريد التسلط على جميع الموجودات ويسخّر الآخرين من بني الانسان حسب رغبته ويستغلّهم وينفذ ذلك قدر امكانه بدافع غريزي، ولكن بما ان الانسان موجود عاقل أيضاً فهو يدرك ان استخدام الآخرين والتسلط عليهم يستتبع عواقب وخيمة، لان الآخرين سوف لا يستسلمون له وستطاله نفسه وغيره نار الحرب وسفك الدماء والفساد فلا تكون له حياة مريحة أبداً.

ولذا يحصل اتفاق بينهم بان تكون رغباتهم منسجمة ومتوازنة، أي يتنازل كل طرف عن بعض رغباته من أجل الآخرين كي يحظى الجميع بحياة سليمة مقرونة بالاستقرار والراحة ويصل كل انسان الى اكثر رغباته في ظل الاستقرار والحياة الجماعية.

بناء على ذلك فانّ الحقوق إنّما توجد جذوره في العقد الاجتماعي وليس لها أية جذور طبيعية وتكوينية. انّ العقد هو الأساس لحياة الانسان الجماعية وتكون الحقوق من لوازمها، فهي تتشكّل من خلال العقد الاجتماعي وليس لها قبل ذلك أيُّ مبنى عقلاني.

يعتقد انصار هذه النظرية ان لا وجود لاية حقوق أو مبادئ اخلاقية سابقة تحكم العقد الاجتماعي والحقوق المنبثقة منه، فمثلا اذا اتفق أعضاء المجتمع على تسليم ثرواتهم وحصيلة أتعابهم الى الآخرين أو وافق عنصر ما على ان يكون عبداً لعنصر آخر وجب عليه الوفاء بذلك لان هذا هو مضمون العقد الاجتماعي وحقوق المجتمع، وعلى العكس اذا لم يخضع اعضاء مجتمع للذل ولم يتفقوا بشأنه بل استطاعوا تحصيل حقوق مساوية لحقوق الآخرين ففي هذه الحالة تكون حقوقهم هي تلك الحقوق المتساوية ويتمتع جميع الافراد والعناصر بحقوق متساوية. وعليه فانّ الحقوق تكون أمراً نسبياً ومتغيرا حسب العقود وقدرة الافراد وضعفهم ولا يوجد في التاريخ كله مبدأ عامٌّ حاكم على كلّ الحياة البشرية ويكون مطابقا للقيم الأخلاقية الثابتة.

ان نظرية العقد الاجتماعي تمثل الأساس للحقوق الوضعية والمذهب التاريخي للحقوق، ويستنتج من ذلك ان ما رضيه بنو الانسان لأنفسهم واتفقوا عليه يكون بمثابه الحقوق الحاكمة على المجتمع.

ج ـ نظرية الحقوق الالهية

يعتقد المفكرون الالهيون، ونخصّ بالذكر الاسلاميين منهم، بان الله سبحانه هو المنشأ والأساس لحقوق الانسان، ولا خلاف بينهم في التصديق بان لله الحق في

تعيين حقوق الناس، أو اذا عيّنها فعليهم الالتزام بها. ولهؤلاء المفكرين نظريات مختلفة في تفسير الحقوق الالهية وبيانها الفلسفي نشير هنا الى بعضها:

١ ـ نظرية الأشاعرة

يعتقد الأشاعرة بانّ الحق هو ما يقرره الله سبحانه ولا يوجد له معيار آخر غير الامر الالهي، والله هو الذي يعين ما يشاء بالنسبه لكل احد ولا يحق لنا بان نقول: هذا صحيح أو غير صحيح، لعدم وجود ملاك آخر غير الامر الالهي لتحديد صحة الحقوق وخطئها.

اذا أمر الله بان يتسلط بنو الانسان على الحيوانات كان ذلك هو الصحيح، واذا أمر بالعكس بان تتسلط الحيوانات على بني الانسان وعلى ان يكون الانسان مطيعا للحيوان في هذه الحالة تكون المقولة الثانية هي الصحيحة بدلا عن الأُولىٰ. وبتعبير فني تكون القيم تابعة للارادة الالهية.

بناء على هذه النظرية تكون الحقوق اعتبارية بمعنى عدم وجود منشأ عقلاني لها. وبعبارة أُخرىٰ لايوجد حسن أو قبح عقلي بل كل ما اعتبره الله (حسنا) فهو حسن وكل ما اعتبره (قبيحا) فهو قبيح، ودليل حسنه وقبحه هو ما يقوله الله سبحانه. فحتى لو قال الله حيناً انّ الشيء الفلاني حسن وقال حيناً اخر انه قبيح تغير حكم ذلك الشيء واقعا، لان الحسن والقبح ليس لهما منشأ ذاتي.

٢ـ نظرية الحسن والقبح العقليين

وتعتقد جماعة أُخرىٰ بانّ الحسن والقبح في الاحكام الحقوقية ذات ملاكات واقعية ويقرر الله عز وجل الاحكام والحقوق على اساس المصالح الواقعية. ان الارادة

الالهية التشريعية ليست بلا دليل بل لها دعامة واساس تكويني. هذه الجماعة ترى ان جميع الاحكام ثبوتاً مبتنية على المصالح والمفاسد الواقعية، ولكن هناك اختلاف في آرائها اثباتا وتنقسم الى فئتين:

١ ـ انصار الطريق الانحصاري للاثبات في الوحي

يعتقد هؤلاء بان الله سبحانه وانْ كان يعيّن الاحكام على اساس المصالح الواقعية ولكن بما اننا عاجزون عن ادراك الكثير من المصالح والمفاسد الواقعية عن طريق ادراكاتنا الاعتيادية فالمبدأ هو انّ الحقوق من الأمور التعبدية ولابدّ ان تتلقى عن طريق الوحي الالهي فقط، الّا انّ هذا الكلام لا يعني ان يكون اساس الحكم هو الارادة الجزافية الفاقدة للدليل.

على اساس نظرية الاشاعرة المذكورة لا يوجد حق ـ مع غض النظر عن الارادة الالهية التشريعية ـ وتتعين حقوق الافراد بالامر والنهي الالهي التشريعي فقط، ولكن حسب مقتضىٰ هذه النظرية يكون للحق ثبوت وواقعية وجذور في عالم الخلق والتكوين الّا انّ اثباته يتوقف على الوحي. وببيان اوضح ان الارادة الالهية ليست جزافية وفاقدة للدليل بل تنشأ على اساس المصالح والمفاسد الموجودة في عالم التكوين وطبيعة الاشياء وينحصر طريق اثبات ذلك في الوحي.

٢ ـ انصار الطريق الاثبات بالوحي الى جانب العقل

الفئة الثالثة من المفكرين المسلمين كالفئة الثانية تؤيد نظرية الحسن والقبح العقليين وتعتقد بان للحقوق جذوراً واقعية الّا انّها لا تحصر طريق الاثبات للحقوق في الوحي، بل تعتقد بان الانسان قادر غالبا على ادراكها عن طريق ادراكه العادي

والعقلاني، وتكون حجة بمقدار ادراكه لها، ويمكن ان يستدل بها وان يعتبرها السند لصحة اعماله او سقمها. طبعا في بعض الموارد يكون العقل الانساني القاصر عاجزا عن ادراك المصالح والمفاسد الواقعية، وفي هذه الموارد يتحقق ادراكه لها عن طريق الوحي فقط وباتباع الاحكام التي تُتلقى عن طريق الوحي. ولا يعني التعبّد غير ذلك، حيث يتفضل الله ببيانها لنا عن طريق الوحي لقصور عقولنا عن ادراكها.

دراسة وتحقيق

أيُّ النظريات الثلاث المذكورة جديرة بالقبول ويمكن اعتبارها مبدأ لفلسفة الحقوق في الاسلام؟ ليس من المناسب طبعا ان نبدي رأينا الجازم بدون دراسة دقيقة وعلمية وتحقيقية بشأن هذا الموضوع المهم، ولكن بامكاننا بيان رأينا تحت عنوان توجيهي بحيث يمكن توضيحه وفق المبادئ التي أُشير اليها سابقاً.

لو أردنا ملاحظة الحقوق الانسانية بدون التفات الى ارتباطها الوجودي مع الله عز وجل وبعيداً عن العقيدة الاسلامية، أي الايمان بوجود الله وصفاته، فإنا سنعجز عن حلّ مشكلة فلسفة الحقوق وستكون المسيرة متلكئة الى يوم القيامة. كما ان نظرية امكان اثبات الحقوق عن طريق الفاعل والهدف لا تحل المشكلة بعيداً عن العلاقة مع الله ومسألة التوحيد. لو اردنا اعتبار حقوق لموجود ما فلابدّ أن نلاحظ علاقته بعالم الخلق وخالقه. والبحث عن مقتضيات الطبيعة الانسانية وعلاقته بالحيوانات الأُخرىٰ لا يعود علينا بنتيجة برهانية.

افترضوا أننا توصّلنا أخيرا الى هذه النتيجة وهي ان الانسان اكمل من الحيوانات التي نعرفها ونحن علىٰ ارتباط بها، ولكن سؤالنا هو: ما هو مقدار ما يمكن ان يثبته هذا الامر للانسان من حق الانتفاع والتصرف والقضاء على حياة الموجودات

الأُخرىٰ؟ هل ينحصر هذا الحق في مواقع الخطر على النفس الانسانية بحيث تتوقف الحياة على اكل لحم ذلك الحيوان؟ أو يجيز للانسان اضافة الى ذلك الانتفاع بلحوم الحيوانات التذاذاً وتمتعاً اكبر بالحياة؟

الكثير من بني الانسان هم اليوم نباتيون ولا يتناولون لحوم الحيوانات وقوّتهم الجسمية لا تقلُّ عن قوّة آكلي اللحوم. ففي البلدان الاوربية يُعد من الاعمال الرائجة انتاج وبيع انواع المواد الغذائية النباتية وتُقدم للنباتيين.

بملاحظة هذا الامر كيف يمكن ان نقول بان للانسان الحق في أن يتغذى من لحم حيوان غير ضار كالخروف؟ وان يقوم بقسوة بصيد الغزال في الصحراء ليشوي لحمه ويأكله؟ أو ان يصيد طيراً في الهواء له حياته وفراخه لانه يلتذ بأكل لحم الطير؟ ما يقال من ان الانسان اكمل من الحيوانات الأُخرىٰ ويمكنه الانتفاع بها لتأمين حاجته الغذائية لا يمكن لوحده ان يثبت هذا الحق بدون ارتباط مع الله حتى في علاقة الانسان بالحيوان فكيف بالعلاقات الثنائية بين بني الانسان كعلاقة الرجل والمرأة أو العلاقات المتبادلة بين العناصر الانسانية المختلفة.

نعم، لو لاحظنا الترابط الوجودي بين الموجودات وبين الله والهدف من خلقها أمكن ان نحصل علىٰ ملاك لتعيين الحقوق وتشكيل العلاقات. ببيان اوضح: حينما نقول انّ الهدف من خلق الموجودات هو تحقق كمالاتها الوجودية، والحب الالهي يتعلق بذاته اصالة، ومن هنا ترجع العلة الغائية للافعال الالهية الى ذاته الطاهرة الّا انّ هذا الحب الالهي في مراحل ادنى يتعلق بكمالات الموجودات، اذ ان هذا الكمال هو الذي يناسب الذات الالهية الطاهرة والعقل يدرك ان مقتضىٰ الصفات الالهية هو أن يخلق الكون على أحسن واكمل وجه بحيث تظهر فيه موجودات أكمل.

وهكذا القوانين التشريعية يجب تنظيمها بشكل نافع لرشد الانسان وهو الاكمل

من الحيوانات الأُخرىٰ. وعلى هذا الأساس يمكن القول: بما ان تكامل الانسان يتوقف على التضحية ببعض افراد الانواع الأُخرىٰ من أجله فلابدّ ان يكون هذا الفعل مجازاً لكي تتحقق كمالات اكبر في دار الوجود، وبدون هذا الفعل سيكون حجم الكمالات الوجودية أقلّ.

على هذا الأساس يمكن القول: ان تصرُّف الانسان في الموجودات الأُخرىٰ فعل صحيح عقلاً لان غاية الخلق تتحقق بنحو افضل عن هذا الطريق. الحق بهذا المعنى يكون من جانب الله أي بما انه أراد تحقق موجودات اكمل فانه يعطي الانسان حق التصرف في الحيوانات والنباتات والموجودات الأُخرىٰ، بل يعطيه الحق في تسخير بعض بني الانسان بنحو صحيح.

ولذا يقول القرآن:

﴿وَ رَفَعْنٰا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجٰاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾[١].

إذنْ يمكن ان نعطي هذا الحق للانسان في ضوء الحكمة الالهية، وفي غير هذه الحالة فان قولنا بان الانسان موجود اكمل إذنْ يجب ان يتسلط على الحيوانات، أو بما ان فئة من بني الانسان أو ان عنصراً ما اكمل فيجب تسلطه على سائر الفئات والعناصر، لا يكون هذا الكمال دليلا مقنعاً لتبرير هذا التسلط واثبات حقّ لطرف على طرف آخر، أي لا يترشح من هذا التفوق والامتيازات أيُّ وجوب، ولكن اذا لاحظنا اقتضاء الحكمة الالهية بلوغ الموجودات الى كمالاتها بنحو اكبر فلابدّ أن تكون مقدمات هذا التكامل مجازة أيضاً، ويمكن استنباط وجوبات كثيره من ذلك، أي هناك ضرورة بالقياس بين هذه المقدمات التي تشمل الكثير من الافعال الاختيارية للانسان وبين ذلك الهدف والحكمة الالهية، لان تحقق ذلك الهدف

---

١. الزخرف ٣٢.

مطلوب وضروري فتكون مقدمات تحققه قياسا الى تحققه ضرورية أيضاً.

هذه الضرورة بالنسبة للامور الطبيعية ضرورة تكوينية الّا انّها تظهر في نطاق اختيار الانسان على صورة تكليف، وبما ان افعال الانسان يجب ان تصدر بارادته واختياره فستكون الارادة الالهية تشريعية وهي تتفاوت تماما مع ارادته التكوينية.

ان الارادة الالهية التشريعية تتعلق بالافعال الاختيارية لموجود مختار ذي شعور. أي في هذه الصورة لا تتعلق الارادة الالهية بالفعل مباشرة لكي يصدر الفعل تلقائيا وقهرا وبدون وساطة ارادة المكلف، بل ان الله يُفهِم ارادته التشريعية للمكلف ويأمره بالقيام بهذا الفعل وهو مختار في القيام به او عدمه اذ لا توجد حالة الجبر أو الاكراه، ولكن على أي حال فان هدف التشريع ليس شيئا غير هدف التكوين، وببيان أوضح فان الله يقصد في تشريعه وتقنينه الهدف ذاته من التكوين وخلق الكون والانسان.

وبناء على ذلك يمكن القول انّ الحقوق والتكاليف تثبت للانسان في ضوء الحكمة الالهية والصفات الالهية، ولو قال شخص: ان اساس الحق من الله كان قوله صحيحا. إذنْ ليس بوسعنا اثبات حق وتكليف بدون التفات الى الله وحكمته الا في نطاق العقود والأمور الاعتبارية، ولكن بالالتفات الى الله وصفاته وحكمته فانّ بوسعنا اعتبارها دعائم واقعية وحقيقية للحق والتكليف. ان علاقة الانسان بسائر الموجودات تتشكل بصورة مجموعة من المفاهيم الاعتبارية مثل «ينبغي» و«لاينبغي»، «أمر» و«نهي»، وصحيح ان هذه المفاهيم اعتبارية الّا انّها تستند الى جذور واقعية وحقيقية. وما يقوله البعض من ان (يجب) لا يترشح من (يوجد) غير صحيح. وفي الاجابة على الاشكال الموجّه الى العلاقة بين الايديولوجية والرؤية الكونية أو مجموعة (يجب) ومجموعة (يوجد) أوضحنا في المجال المناسب ان

مجموعة (يجب) هذه تحكي في الواقع عن مجموعة واقعيات نفس امرية وهي العلاقات الواقعية بين المعلولات وعللها. أي بما ان هناك علاقة واقعية ونفس امرية بين العلة والمعلول فان (يجب) هو تلك الضرورة التي تترشح من مادة القضية. حينما نقول ان وجود العلة ضروري لايجاد معلولها فان بامكاننا التعبير عن هذه الضرورة بـ(يجب)، وعندما تكون العلة فعلا اختياريا للانسان والمعلول نتيجته فانه يبين بهذا النحو وهو ان صدور هذا الفعل الاختياري ضروري أو واجب لتحقيق النتيجة التي نتوخاها منه.

بناء على ذلك هناك علاقة طبيعية انتاجية بين الفعل الصادر من الانسان وبين نتيجته، ولكن بما ان هذه الافعال داخلة في دائرة اختيار الانسان وانتخابه فان ظهورها يكون على صورة مفهوم اعتباري وارادة تشريعية. اي اذا أراد الانسان ان يصل الى ذلك الهدف الذي يمثل النتيجة لفعله الاختياري فلابدّ أن يقوم بهذا الفعل. إذنْ قولنا (يجب) هو في الواقع مفهوم اعتباري ينشأ من تلك العلاقة الطبيعية بين الفعل ونتيجته ويستند اليه ولا يمكن ان يكون بلا اساس ولا سبب وأمراً جزافيا.

بهذا البيان وفّقنا للعثور على جذور واقعية للحقوق والأخلاق. هذه الجذور الواقعية عبارة عن العلاقات القائمة بين افعال الانسان وبين كماله الوجودي، وبما انّ الكمال الوجودي للانسان مراد إلٰهي، والهدف من خلق الانسان هو بلوغ ذلك الكمال فان الافعال الاختيارية للانسان ستكون لها في تحقيق هذا المراد الالهي دور ايجابي أو سلبي أو تكون مرادة أو مبغوضة عند الله وهي التي توجّه للانسان بالارادة الالهية التشريعية على صورة تكاليف.

ما قلناه يمكن اثباته بالعقل. فالعقل بالبرهان النظري يثبت هذه الحقيقة وهي انّ الصفات الالهية تقتضي تحقق كمالات العالم بنحو اكبر، وبما ان اسمى الكمالات

الانسانية يتحقق عن طريق ارادة الانسان واختياره وبأفعاله الاختيارية فان هـذه الافعال تكون متعلقة للارادة الالهية التشريعية وتتصف بالحسن والوجوب وملاكها هو الضرورة بالقياس.

النتيجة

لو اردنا بسط العدل في المجتمع فلابدّ ان نعرف مصاديق الحق، ولو اردنا مـعرفة مصاديق الحق فلابدّ ان نلاحظ كيف يجب ان تكون العلاقات بين بـني الانسـان بحيث تحقّق كمالهم، أي ان ملاك العدل هو تنظيم العلاقة بين أعضاء المجتمع بنحو يساعد على تكاملهم.

هنا يطرح هذا السؤال: ما هو مدى معرفة هذه الملاكات عن طريق الادراكات الاعتيادية؟ الجواب: على رغم النظرية الثانية التي ترى عدم امكان تشخيص هذه الملاكات عقلا فان الانسان في بعض الموارد قادر بـعقله عـلى تشـخيص هـذه الملاكات، ويمكن ان يفهم أي الاعمال والسلوك يعينه بنحو اكبر في تكامله وأي الاعمال يكون ضاراً بكماله. فمثلا اذا كان من حق كل انسان ان يقتل اي انسـان آخر فلا تكون النتيجة سوى ابادة بني الانسان، الامر الذي يتنافى مع غاية الخلق لان مقتضىٰ الصفات الالهية والهدف من خلقه هو ايجاد الكثير من بني الانسان في الارض وبلوغ كمالاتهم وهذا هو مقتضىٰ رحمته اللانهائية وصفاته الأُخرىٰ مـثل كونه حكيماً وفيّاضاً. إذنْ لا ينبغي قتل بني الانسان على يد الآخرين أو حرمانهم من كمالهم.

ان ملاك الحسن ليس هو ميول الافراد واهواءهم. وليس هو مـقتضىٰ الطـبيعة الانسانية أو طبيعة العالم (اذا كان له مفهوم صحيح) كما لا يمكن اعتبار العواطف

ملاكا للقيم. اذ ان هناك أُناساً يتألمون من قتل الحيوانات أو ان الاطفال يتألمون من ذبح الدجاج في بيوتهم فلا يمكن القول ان لازم هذه العواطف هو عدم جواز ذبح أي حيوان حلال اللحم. إذنْ رغم اعتبار العواطف اساسا للقيم الأخلاقية لدىٰ بعض المذاهب الفكرية نلاحظ ان هذا المبنى غير ناجح ولا يمكن بناء الأخلاق والحقوق الاسلامية على العواطف والمشاعر بل لها جذور اعمق. طبعا لابدّ من رعاية العواطف الى حد كبير ولكن من الطبيعي ان يكون العقل حاكما على العواطف والاحاسيس. إذنْ كما قلنا سابقاً ان ملاك القيمة واساس الحق والتكليف هو ما تقتضيه الأهداف والصفات الالهية.

بناء على ذلك لا يمكن القول ليست هناك مسألة في الحقوق الالهية يفهم العقل فيها مصداق الحق مباشرة، اذ انّ العقل يدرك المسائل التي تم ذكرها ونظائرها وصحيح انّا بحاجة الى وحي الانبياءعليهم السلام لمعرفة الحق وتكليفنا الّا انّ بوسع العقل أن يعرف الحق في الجملة أيضاً.

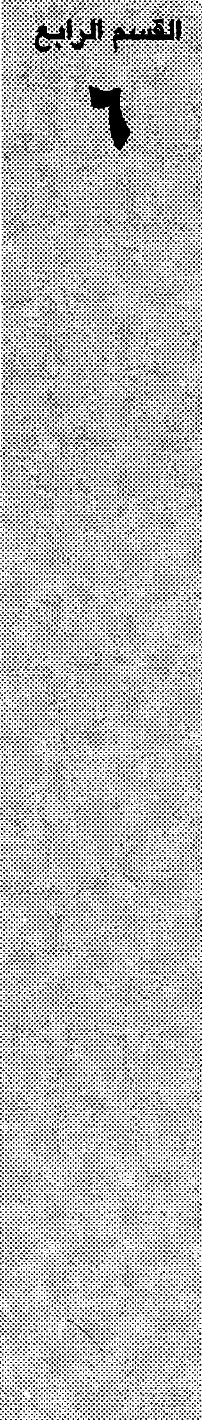
ما قلناه من قدرة العقل على ادراك الحق والتكليف وملاكهما في بعض الموارد لا يعني ان هذه المعرفة مغروسة في فطرة الانسان، أو انه يدركها بميوله الفطرية أو انّ الطبيعة هي التي توجد الحق أو تعيّنه، أو ان لدينا عقلاً مستقلّاً باسم العقل العملي الى جانب العقل النظري يدرك هذه الاحكام، بل يعني كما انّ العقل النظري يحكم بشأن جميع الحقائق فانه حاكم هنا أيضاً، لان القيم والاحكام العملية لا تباين سائر المعارف الانسانية تباينا ذاتيا، والعقل يمكن ان يدرك القيم أيضاً على اساس معرفته لله وهدف الخلق والصفات الالهية، وفي الموارد التي يدرك فيها القيم وملاكات الاحكام يكون حكمه حجة وقابلا للتصديق والتسليم.

وطبعا في الموارد التي لا يدرك فيها العقل الملاكات ولم تتّضح فيها العلاقة

المعقدة بين افعال الانسان وبين كماله النهائي فانّ الوحي يأتي ليُعين العقل. وهذا هو سرُّ حاجة الانسان الى الوحي لاننا لا يمكننا ان نعرف جميع الملاكات في السلوك الصحيح للانسان عبر طريق اعتيادي. ولعله تعبير غير صحيح ان نقول: انّ الوحي ياتي لاعانة العقل، لامكان ان يُفهم منه اعطاء الأصالة للعقل، بينما المراد هو: بما انّ العقل وحده غير كافٍ لمعرفة طريق الكمال النهائي فانّ الحكمة الالهية قد اقتضت وجود طريق اخر لمعرفته وهو طريق الوحي.

إذنْ نستند الى الوحي في مقام اثبات الحقوق والقيم ونعتقد اننا غير قادرين على ادراكها بدون الوحي في بعض الموارد، الّا انّ هذا القول لا يعني النفي المطلق لادراك الحقوق والقيم الأخلاقية بالعقل، وذلك لوجود مجموعة من المستقلات العقلية التي يدركها العقل مستقلا وبدون اعانة الوحي. الّا انّ هذه لاتحلّ المشكلة ولا توصل الانسان الى مقصده، لان الانسان غير قادر على حل المشكلات في كثير من الموارد عن طريق المستقلات العقلية، فتجب الاستعانة بالوحي، ويكون اغلب الموارد الجزئية من هذا القبيل.

النتيجة هي: لمعرفة مصاديق الحق يوجد البرهان العقلي كما يوجد الطريق التّعبدي والوحي ولكن دائرة المستقلات العقلية تكون محدودة ولا تغنينا عن الوحي. إذنْ يلزم لتشخيص الحقوق وتعيين مواردها الخاصة الاستعانة بالوحي، وهو الوسيلة المطمئنة المضمونة والكاملة لمعرفة الحقوق والتكاليف وادراك الأخلاق والقيم الأخلاقية.



الإصلاح والإفساد

مفهوم الاصلاح والافساد ومشتقاتهما

استعمال هذين اللفظين في القرآن الكريم

تبويب آيات الإصلاح

لفظ الافساد في القرآن

الصلاح والفساد الاجتماعي

معالم وشروط المجتمع الصالح

الإصلاح والعدل والاحسان

مفهوم الاصلاح والافساد ومشتقاتهما

الإصلاح والافساد من المفاهيم القيمية العامة أيضا، ويلزم أن نقوم ببحث لغوي عن مفهوم هذين اللفظين، ثم نبيّن استعمالاتهما في القرآن الكريم، ونشير أخيراً الى اقسام الإصلاح والافساد في المجتمع.

الإصلاح والافساد مشتقّان من الصلاح والفساد، ويستعملان في موارد يحصل فيها الموجود على كماله اللائق بنوعه وما يُتوقّع منه الحصول عليه أو فقدانه.

كل موجود في هذا العالم ممّا هو في طريق الحركة والتكامل يمكنه أن يحصل على كمالات تتناسب مع نوعه في ظروف خاصة، فاذا حاز على ذلك الكمال انتزع من هذه الحالة مفهوم الصلاح، وان حالت عوامل دون وصوله الى كماله اللائق به أو جعل استمرار ذلك الكمال بعد نيله أمراً غير ممكن انتزع منه مفهوم الفساد. لاحظوا مثلا شجرة مثمرة ينبغي أن تقدم فاكهتها في فصل معين، ويتوقع تقديمها ذلك الثمر في هذا الفصل، فاذا لم تتعرض هذه الشجرة الى آفة واينعت تلك الفاكهة المتوقعة في وقتها المناسب انتزع مفهوم الصلاح من حالة الشجرة هذه، ومفهوم الإصلاح من البستاني الذي غرس الشجرة حتى اثمرت، واذا أصيبت الشجرة بآفة وفقدت الثمرة حالتها الطبيعية وجودتها الأصيلة، وبكلمة واحدة لم يتحقق الكمال المتوخى من تلك الشجرة انتزع من هذه الحالة مفهوم الفساد ونقول: ان هذه الشجرة أو ثمرها قد

فسد. فاذا وُجد نقص في ثمر الشجرة ولم يحظَ بجودته المتوخاة وحالته الأصيلة في الفصل المناسب أو فسد ثمرها ففي هذه الموارد يصدق فساد الشجرة أو فساد الثمر.

ان حقيقة الفساد إذنْ هي عدم بلوغ الموجود كماله المتوقع في الظروف المناسبة، أو فقده للجودة أو الكمال المتوقع بقاؤه ودوامه. ولفظ (الإصلاح) طبعا مشتق من الصلاح ومعناه الضيق يعني ازالة الفساد، ويستعمل في موضع يكون الشيء قد فسد سابقاً ثم ازيل عنه الفساد والعيب، كتصحيح ساعة عاطلة، ولكنه في معنى أوسع يشمل الموارد التي ليس فيها فساد سابق كي يزال ويتم اصلاحه بل هناك مؤهلات يتم تنميتها لتصل الىٰ الفعلية، ورعاية الشيء الموجود المؤهل لنيل كمال ما بنحو ينال به ذلك الكمال، ولا يتوقف وينحرف عن التحرك نحو الكمال، بل يكون له نمو طبيعي.

قد يقال: كيف يصدق لفظ الإصلاح في حالة عدم وجود فساد سابق؟ ينبغي القول في الجواب: ان اطلاق لفظ الإصلاح في هذه الموارد هو من باب المثل الشهير: «ضيّق فم الركيّة» أي ضيّق فتحة البئر، فلا يعني احفر بئراً واسع الفتحة اولاً ثم ضيّقها، بل المراد: اجعل فتحة البئر ضيقة من البداية. والإصلاح لا يستلزم حتما وجود فساد سابق ثم ازالة ذلك الفساد، بل انّ العمل الذي ينوي الانسان انجازه بنحو صحيح ومناسب يقال: اصلح ذلك العمل، واذا قام بتربية موجود بنحو جيد وصحيح وأوصله الى مستواه المناسب وحال دون فساده من البداية يقال: لقد اصلحه.

ينبغي القول ان الافساد أيضاً يستعمل فيما يقابل الإصلاح وبنحو يتناسب مع معنيين في موردين: الاول في موارد يصل الشيء فيها الى كماله المتوخى ولكن

يسلب منه ذلك الكمال ويصبح فاسدا. الثاني في المورد الذي يُهمل فيه رعاية الشيء بنحو لا يصل فيه الى كماله اساساً بسبب الرعاية الخاطئة.

استعمال اللفظين في القرآن الكريم

استعمل الإصلاح في أحد الموارد في القرآن الكريم بمعنى أداء العمل الصالح، ويمكن القول أن «اصلح» يفيد نفس معنى (عمل عملا صالحا)، واستعمل في مورد آخر بمعنى اصلاح النفس، وفي مورد ثالث بمعنى تصحيح الماضي أي في مورد قد افسد فيه الانسان ثم صحّحه، وأخيراً استعمل في المورد الرابع بمعنى حل المشكلات ومكافحة الفساد الاجتماعي. يطلق (المصلح) على من يكافح هذا الفساد في المجتمع ويطلق (الإصلاح) على عمله سيّما انه قد استعمل في مورد اصلاح ذات البين، ويمكن اعتباره مورداً خامساً.

من البديهي اننا نبحث عن الإصلاح والافساد في العلاقات الاجتماعية المذكورين في المورد الرابع، وعليه فانّ المعنى العام للاصلاح وهو أداء كل عمل صالح وحسن ـ ويطلق على مطلق الاعمال القيمية وان كان متعلقا بعلاقة الانسان بالله أو علاقة الانسان بنفسه ـ يكون خارجا عن بحثنا.

تبويب آيات الإصلاح

ان مجموعة من آيات القرآن الكريم اشارت الى مطلق الإصلاح من قبيل:

﴿فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١].

﴿فَمَنِ اتَّقىٰ وَ أَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢].

---

١. الانعام ٤٨. ٢. الاعراف ٣٥.

﴿وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرىٰ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ﴾[١].

﴿إِنّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾[٢].

وهناك عدد من الآيات وان بدت مطلقة ظاهراً ولكن بعد ملاحظة القرائن المقالية يتّضح أنها ليست مطلقة، بل انها تقصد موارد خاصة مثل قوله تعالىٰ:

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنُوا فَأُولٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾[٣].

ان هذه الآية المطلقة ظاهراً بسبب مجيئها عقيب آية الكتمان القائلة «**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الْهُدىٰ مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنّاهُ لِلنّاسِ فِي الْكِتابِ أُولٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللّٰهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللاّعِنُونَ**»تحمل على هذا المورد ولفظ «بيّنوا» هو قرينة أُخرىٰ تدل على هذا الامر، كما انّ قوله تعالىٰ: «**إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَ أَصْلَحُوا**»[٤] يُحمل علىٰ مورد خاص وهو قذف النساء العفيفات الوارد ذكره في الآية السابقة علىٰ هذه الآية.

وكقوله تعالىٰ:

﴿فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللّٰهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾[٥].

هذه الآية مطلقة ظاهراً أيضا ولكن باعتبار ذكر حكم السارق في الآية السابقة فانها تتعلق بمورد السرقة.

وغير الآيات المذكورة هناك آيات كثيرة أُخرىٰ لا تكون مطلقة بل تتعلق بموارد خاصة من قبيل:

١ ـ الآيات التي تقصد التوبة من المعصية وجبرها:

﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ

---

١. هود ١١٧.
٢. الاعراف ١٧٠.
٣. البقرة ١٦٠.
٤. النور ٥.
٥. المائدة ٣٩.

رَحِيمٌ﴾[١].

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهٰالَةٍ ثُمَّ تٰابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢].

٢ ـ الآيات الناظرة إلى الإصلاح الاجتماعي:

﴿وَ قٰالَ مُوسىٰ لِأَخِيهِ هٰارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لاٰ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٣].

﴿وَ مٰا أُرِيدُ أَنْ أُخٰالِفَكُمْ إِلىٰ مٰا أَنْهٰاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلاٰحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾[٤].

٣ ـ الآيات التي تقصد نوعا خاصا من الإصلاح الاجتماعي:

﴿فَمَنْ عَفٰا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّٰهِ﴾[٥].

هذه الآية التي جاءت عقيب الآية **﴿وَ جَزٰاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهٰا﴾** تقصد العفو والصفح عن الزلة التي ارتكبها شخص آخر بحق الانسان.

﴿وَ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذٰلِكَ إِنْ أَرٰادُوا إِصْلاٰحاً﴾[٦].

انّ المقصود في هذه الآية والآيتان (٣٥ و ١٢٨ ـ النساء) هو التصالح بين الزوجين.

٤ ـ الآيات التي تقصد اصلاح ذات البين والتصالح بين فئتين متخاصمتين من الناس.

﴿وَ تُصْلِحُوا بَيْنَ النّٰاسِ﴾[٧].

---

١. الانعام ٥٤.
٢. النحل ١١٩.
٣. الاعراف ١٤٢.
٤. هود ٨٨.
٥. الشورى ٤٠.
٦. البقرة ٢٢٨.
٧. البقرة ٢٢٤.

﴿أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النّاسِ﴾[١].

﴿وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ﴾[٢].

﴿وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما﴾[٣].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[٤].

٥ ـ والمقصود في أحد الموارد هو اصلاح اموال اليتامىٰ.

﴿وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾[٥].

لفظ الافساد في القرآن

في الكثير من الآيات يذم القرآن الفساد وينهىٰ عنه بتعابير مختلفة، نظير:

﴿وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[٦].

﴿وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾[٧].

﴿سَعىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها﴾[٨].

﴿وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً﴾[٩].

وتنهىٰ بعض الآيات عن اتّباع المفسدين من قبيل:

﴿وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[١٠].

﴿وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ﴾[١١].

---

١. النساء ١١٤.
٢. الانفال ١.
٣. الحجرات ٩.
٤. الحجرات ١٠.
٥. البقرة ٢٢٠.
٦. البقرة ٦٠.
٧. البقرة ٢٧.
٨. البقرة ٢٠٥.
٩. المائدة ٣٣ و ٦٤.
١٠. الاعراف ١٤٢.
١١. الشعراء ١٥١ و ١٥٢.

وينهىٰ بعض الآيات عن الإفساد بعد الإصلاح كقوله تعالىٰ:

﴿وَ لاٰ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاٰحِهٰا﴾[١]

وآيات أُخرىٰ كثيرة تستنكر الفساد والافساد بمختلف التعابير وتشير اليه كأمر مرفوض ذي تبعات ضارة، كقوله تعالىٰ:

﴿زِدْنٰاهُمْ عَذٰاباً فَوْقَ الْعَذٰابِ بِمٰا كٰانُوا يُفْسِدُونَ﴾[٢].

﴿تِلْكَ الدّٰارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهٰا لِلَّذِينَ لاٰ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لاٰ فَسٰاداً﴾[٣].

﴿وَ لاٰ تَبْغِ الْفَسٰادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[٤].

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[٥].

وقد استعمل اسلوب التهديد في بعض الآيات كقوله تعالىٰ:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾[٦].

﴿وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾[٧].

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾[٨].

الصلاح والفساد الاجتماعي

انّ الهدف من تأسيس المجتمع هو تحقيق المصالح المادية والمعنوية لأبنائه، فاذا تحقق هذا الهدف فسوف يوجد المجتمع الصالح، وسيُعتبر الذين يساهمون في تحقيق هذا الهدف ويسعون لاصلاح المجتمع من المصلحين.و على العكس سيتعرّض المجتمع الذي يفشل في تحقيق هذه الأهداف الاجتماعية للفساد حسب

١. الأعراف ٥٦.
٢. النحل ٨٨.
٣. القصص ٨٣.
٤. القصص ٧٧.
٥. الاعراف ١٠٣.
٦. آل عمران ٦٣.
٧. يونس ٤٠.
٨. محمد ﷺ ٢٢.

درجة فشله، أي اذا فشل تماما وفقد جميع الأهداف والآثار المتوخاة من المجتمع الصالح كان فاسداً مطلقاً، واذا لم يكتمل من بعض الجهات ويفشل في تحقيق بعض الأهداف فانه يتعرض للفساد المحدود الذي يمنع من التحقيق الكامل لاهداف المجتمع بتلك الدرجة.

معالم وشروط المجتمع الصالح

يمكن تقسيم علامات وشروط المجتمع الصالح الى عدة مجموعات:

الشرط الاول: هو أن يواصل أعضاء المجتمع وابناؤه حياتهم بدون قلق واضطراب ولا تُهدّد حياتهم ولا سلامتهم وتأمن نفوسهم، فالمجتمع الذي يفقد أعضاؤه الأمن على انفسهم مجتمع فاسد بلا شك.

انّ التهديدات والاخطار التي تتجّه الى حياة أعضاء المجتمع تتخذ أشكالا مختلفة. فالاوضاع الاجتماعية تكون تارة بنحو يقوم فيه المجرمون بتهديد ارواح أعضاء المجتمع وافراده ويرتكبون القتل منتهكين حرمة القانون. وتارة أُخرىٰ لا تُهدَّد ارواح الافراد من قِبل هؤلاء بل تكون القوانين الحاكمة على المجتمع بنحو تُهدّد فيه نفوس البعض بدون حق. هناك في الظاهر سلطة قضائية ومحكمة تتابع الدعاوي وتفتح ملفّاً للمتنازعين والمتخاصمين وتحكم على اساس القانون، ورغم ذلك فانّ الحكم الصادر من المحكمة لا يكون حقا ويُقتل اشخاص أبرياء على اساس حكم هذه المحاكم، ويفقدون ارواحهم بدون حق وتراق دماؤهم الطاهرة على الارض كما لاحظنا نماذج منه في النظام البائد.

وفي درجة ادنى تُهدّد صحة الافراد تارة ويصبحون ذوي نقص وعاهة وتقطّع أيديهم ويتعرضون للعمى أو يعرّض الافراد للمرض أو تلقىٰ السموم في المواد

الغذائية أو يُساق الافراد نحو الإدمان على المخدرات التي تهدّد صحتهم وتبدّلهم الى أعضاء عاطلين ومرضى وطفيليين، أو يلوّث الجو بالغازات السامّة والمواد الكيميائية ليستنشقها الناس، وتارة تمس هذه السموم والادوية الضارة صحة الانسان بأذىٰ مباشر بل تجعله عقيما أو يولد طفله مريضا وذا عاهة وتخلف عقلي.

الشرط الثاني هو أن يحظى أعضاء المجتمع بالأمن على اموالهم. فاذا تعرضت اموال الناس الى الابادة في المجتمع والقيت القنابل ودمّرت منازلهم واحرقت مزارعهم أو أصيبت بساتينهم ومزارعهم بآفة ما لكي لا تؤتي ثمارها بنحو كامل، أو أصيب أعضاء المجتمع باضرار مالية بأي نحو آخر كان ذلك نوعا من الفساد الاجتماعي، ومن يرتكب هذه الخيانة ويمارس هذه الاعمال يكون مفسدا. ان الآية الكريمة ﴿**وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ**﴾[1] ناظرة الى هذه الموارد كلها.

وتارة يسرق «المفسدون» الأموال من مالكها القانوني أو يستولون عليها غصبا وعنوة أو يقومون بالاختلاس وعند المحاسبة ينظّمون وثائق حسابية مزوَّرة، أو يستولون على اموال العاجزين عن الدفاع عن حقوقهم ويصادرونها، أو يقومون بمعاملات ومعاوضات غير عادلة ولا عقلائية، وفي هذه الحالة فانّ الطرف الآخر من المعاملة وان كان راضيا الّا انّ هذا الرضا غير عقلائي ولا يكون دليلا على صحة المعاملة والمعاوضة كالقمار واخذ الرشوة والمعاملات الأُخرىٰ الباطلة شرعا، وقد أشار القرآن الكريم الى هذه المعاملات بعبارة ﴿**وَ لاٰ تَأْكُلُوا أَمْوٰالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبٰاطِلِ**﴾[2]، هذه كلها مظاهر من الفساد المالي والاجتماعي، واصلاح هذا الفساد يساهم في تشييد نظام مالي واقتصادي صالح نزيه عن السرقة والتعامل بالرشوة وامثالهما.

---

١. البقرة ٢٠٥.

٢. البقرة ١٨٨.

الشرط الثالث هو رعاية كرامة افراد المجتمع وحيثيتهم، فان أعضاء المجتمع يهمّهم صيانة أعراضهم وكرامتهم وشخصياتهم وحرمتهم في المجتمع. فالمجتمع الذي لا تصان فيه حيثية افراده سوف تنتهك حيثية البعض فيه بلا حق ويُتّهم الابرياء وتُهدّد كرامتهم، ان مجتمعا كهذا يكون ملوّثاً بنوع من الفساد.

الشرط الرابع: سيادة الوحدة والتعاطف والتوادد المتبادل بين ابناء المجتمع. ففي المجتمع الصالح ينبغي وجود علاقات سليمة بين افراده وفئاته كما هو الحال في الحياة الأُسرية بين الزوج والزوجة، والاب والولد، والأم والولد، والاخ والاخت، و...انّ العلاقات العاطفية كما ذكر سابقاً لها دور بالغ في تلاحم أعضاء المجتمع ويمكن ان تصبح عاملا مهما لتحقيق المصالح الاجتماعية.

من هنا يعتبر الذين يثيرون الاختلاف بين الزوج والزوجة، والاب وابنائه، والام والابناء و... أو يعملون على توتّر العلاقات بين العامل ومدير الاعمال القائمة على اساس صحيح وقانوني ومشروع، أو يثيرون الخصام بين الفئات والطبقات الاجتماعية ويؤلّبون بعضا ضد بعض ـ يعتبر هؤلاء في عداد المفسدين في المجتمع، ويكون مثل هذا المجتمع فاسداً ولا يمكن العيش فيه بسلام.

جاء في القرآن الكريم:

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ﴾[١]

تتحدث هذه الآية عن قصة هاروت وماروت وتذكر أن بني اسرائيل كانوا يتعلمون منهما السحر للتفريق بين الزوج وزوجته.

إذنْ وبصورة عامة يعتبر كل عمل يوهن العلاقات العاطفية بين أعضاء المجتمع فساداً أو مفسدة اجتماعية، وعلى العكس يعتبر كل عمل ينميّ العواطف بين أعضاء

---

١. البقرة ١٠٢.

المجتمع ويخلق أجواء الحب والمودة بينهم اصلاحا أو مصلحة اجتماعية.

الشرط الخامس: رعاية الحيثية المعنوية لاعضاء المجتمع. وللحيثية المعنوية طبعا مفهوم واسع، فيمكن اعتبار الشخصية والعِرض والكرامة حيثية معنوية أيضاً، الّا انّ مقصودنا من الحيثية المعنوية هنا هو الابعاد ذات العلاقة بعقل الانسان ونفسه كالعقائد والآراء ذات العلاقة بالقضايا العقلية والنظرية والأخلاق التي ترتبط بالشؤون النفسية.

انّ المجتمع الذي لا يمتلك أعضاؤه معتقدات صحيحة ولم يؤهِّل جهاز التعليم والتربية والثقافة في المجتمع الافرادَ لامتلاك عقائد صحيحة، أو على العكس اذا وجدت عوامل تسلب العقائد الصحيحة من الناس وتعمل على انحرافهم فكريا وعقائديا فان مثل هذا المجتمع فاسد أيضا، ويكون الفساد الاعتقادي والفساد الأخلاقي من الابعاد بالغة التأثير في الفساد الاجتماعي.

وهكذا اذا وجدت في المجتمع عوامل الانحراف الأخلاقي واشاعة الفاحشة بين الافراد يعدّ ذلك نوعاً آخر من الفساد الاجتماعي الذي يرتبط بالبعد الثقافي للمجتمع. وعليه يصدق الصلاح والفساد والإصلاح والافساد الاجتماعي في القضايا الأخلاقية والاعتقادية أيضا.

الإصلاح والعدل والاحسان

قلنا ان الإصلاح والافساد يستعملان تارة في موارد خاصة كالاصلاح بعد الافساد، واصلاح ذات البين بين فئتين أو فردين متنازعين، والإصلاح بين الزوجة والزوج. وتارة يكون له مفهوم عام أحيانا فيشمل موارد الإصلاح الابتدائي غير المسبوق بالفساد، فيكون جزءاً من المفاهيم القيمية العامة في مطلق القيم المحبذة. وفي

المقابل يكون للافساد مفهوم عام فيشمل الافساد الابتدائي غير المسبوق بالصلاح أيضا. نريد هنا القول بان الإصلاح والافساد المستعملين في الشؤون الاجتماعية بصورة اعتيادية يتطابقان تقريبا مع موارد العدل والظلم، وبعبارة أُخرىٰ لهما مصاديق مشتركة، لان الإصلاح الاجتماعي هو تنظيم العلاقات الاجتماعية بنحو يتحرك فيه المجتمع في طريق الكمال المتوخى والهدف النهائي، واعطاء كل ذي حق حقه، وتطلق العلاقات العادلة على هذا المعنى أيضاً، وفي غير هذه الصورة يكون المجتمع فاسداً والعلاقات الاجتماعية ظالمة.

بناء على ذلك يطلق الإصلاح على اقامة العدل مهما كان متعلقه ونطاقه، كالحياة والصحة والمال والعرض والكرامة والأخلاق والعقيدة، اذ يحق لاعضاء المجتمع ان يتمتعوا بالأمن على النفس والمال والكرامة والأخلاق والعقيدة، وكل عامل يساهم في تحقيق هذه الحقوق يكون قد ساهم في اصلاح المجتمع، وعلى العكس يكون كل عامل يهدّد هذه الحقوق عاملا للفساد الاجتماعي.

ويمكن تارة ثالثة اعتبار معنى اوسع من (العدل) للاصلاح الاجتماعي كي يشمل الاحسان ايضاً. فلو وجدت انسانا عاجزاً عن تدبير شؤون حياته إثر عوامل طبيعية أو غير طبيعية ولم تكن بشخصك مسؤولاً عن تكفل معيشته ورفع حوائجه فقمت في هذه الحالة باعانته علميا أو صحياً أو ماليا كان عملك هذا اصلاحا، ولكنه ليس عدلاً بل احسانا.

يجب على المسؤولين في المجتمع طبعا توفير المتطلبات الضرورية لكل عضو من أعضاء المجتمع. وحتى الفقراء المعوزون الذين يعجزون عن تدبير شؤون حياتهم في المجتمع هم عيال على الحكومة، فعليها تكفُّل معيشتهم، فان لم ترفع حوائجهم رغم قدرتها وامكاناتها فانها تكون قد ارتكبت ظلما. من هنا يدخل اعانة

الحكومة في تدبير شؤون الحياة للعاجزين تحت عنوان العدل لا الاحسان. والذين لم يتحملوا مسؤولية خاصة في تكفل معيشة العاجزين ومع ذلك يقومون باعانتهم فانهم يحسنون اليهم في الواقع، ولا يدخل هذا العمل في دائـرة العـدل لانـهم لا يظلمونهم ان لم يقوموا بذلك. ويعدّ هذا العمل من مصاديق الإصلاح الاجـتماعي أيضاً لانهم قد أوصلوا فرداً آخر الى الصلاح والكمال باعانتهم واحسانهم.

وبذلك يكون مفهوم الإصلاح أوسع مـن مـفهوم العـدل حـتى فـي العـلاقات الاجتماعية، وأما الفساد فيكون معادلا للظلم في كل موضع تقريباً، ويعني مصادرة حق شخص والصد عن رشده وتكامله، ولا يحق لاحد ان يتعامل هكذا مع شخص آخر، فان قام بذلك كان ظالما بحقه.

ان الاحسان أمر ضروري الى جانب العدل في العلاقات الاجـتماعية، ولكـي يتصف المجتمع بالصلاح التام لا يكفي وجود العدل لوحـده. اذ هـناك افـراد فـي المجتمع لا حق لهم على أحد ولا يقدمون عملاً للمجتمع ولكن لكي يكون المجتمع مجتمعاً مثاليا ولا تؤلِم مظاهر الفقر والمجاعة وجدانَ أعضائه يلزم تكفّل مـعيشة هؤلاء أيضاً، ويمكن اعتبار حق لهم على الحكومة. ان الافراد الذين يولدون وهم يعانون من نقص في الخلق والضعف أو يصبحون ذوي عاهة وضعفاء إثـر بـعض الحوادث يكون لهم حق على المجتمع، الّا انّ اثبات هذا الحق ليس أمرا بديهيا بل يحتاج الى تبرير واستدلال. من البديهي ان يثبت الحق للذين يساهمون في تقديم خدمات اجتماعية على المجتمع، ولكن ذوي العاهة الذين يـعجزون عـن تـقديم خدمة للمجتمع يثبت لهم حق على الحكومة في الرؤية الاسلامية. وقد أقرت بعض الانظمة الأُخرىٰ بهذا الحق غالباً، الّا انّه ليس من السهل اثبات حقهم على المجتمع، وانْ اثبتنا حق هؤلاء الافراد على المجتمع آخذين بنظر الاعتبار الهدف من الخلق

والحق الالهي وبمعونة الادلة النقلية.

وكما قلنا إنّ مثل هذا الحق إن ثبت فانه يكون علىٰ عاتق الحكومة، واذا قام افراد آخرون بتكفُّل معيشة هؤلاء الافراد الضعفاء فانهم محسنون بحقهم، ويكون عملهم اصلاحيا في الوقت ذاته.

إذنْ يمكن القول انّ العلاقة بين مفهوم الإصلاح ومفهوم العدل هي علاقة الاعم والاخص. فكل عدل اصلاح ولكن ليس كل اصلاح عدلاً، وحيثما فصلنا بين العدل والاحسان فانّهما من مصاديق الإصلاح.

وطبعا كما قلنا هناك تطابق بين مصاديق الافساد والظلم. جدير ذكره هنا ان اطلاق الفساد على هذا المعنى الواسع لا يستلزم ثبوت الحكم الصادر بحق مفسد ان يكون ثابتاً على اهل الفساد جميعاً ولا يستلزم تعميم ذلك الحكم على الموارد الأُخرىٰ كافة.

وبعبارة أوضح: لقد ثبتت عقوبة الإعدام أو النفي أو... على المحارب في القرآن الكريم بوصفه مفسداً في الارض، والكلام هنا هو أن حكم الاعدام اذا ثبت على هذا المفسد فانه لا يدل على تعميمه ليشمل المفسدين الآخرين كالعاملين بالنميمة والتفريق بين المرء وزوجه بالسحر فنحكم عليهم بالاعدام أيضاً بحجة انهم مفسدون.

لابدّ من البحث الفقهي الدقيق حول هذه الاحكام لكي تُعرف دائرتها من خلال تعيين حدود الموضوع بدقة، وماهية الموارد التي يشملها ومدى اطلاقها. أجل انه بحث فقهي ويلزم القيام به بأسلوب فقهي خاص، ومجرد تعميم مفهوم الافساد لا يستلزم تعميم حكم مورد ونوع من المفسدين على موارد الافساد كافة.

القسم الرابع



الوفاء بالعهد وأداء الامانة

حكم العقل في مجال الوفاء بالعهد وحفظ الامانة

المستقلات العقلية في مجال الاحكام العملية

العهد ذو الطرف الواحد

العهد ذو الطرفين (التعاهد)

الابعاد الفقهية والحقوقية للعهد

البعد الأخلاقي للمعاهدات

نقض العهد في القرآن

العهود الانسانيّة أو العقود الاجتماعيّة

القيمة الأخلاقية والاجتماعية للأمانة

مقدمة

من اكثر القيم الاجتماعية بداهة هو الوفاء بالعهد، وهو يحظى باقرار عام ويتفق عليه جميع العقلاء حتى ان بعض المفكرين الغربيين اعتبر الأصل لجميع القيم الاجتماعية هو العقود والعهود التي تعم العقود العلنيّة والرسمية أو العقود الارتكازية والضمنية.

انّ الديمقراطية والليبرالية الغربية قد شُيدت على اساس نظرية العقد الاجتماعي اذ يعتبر العقد الاجتماعي والعهود أساسا للحقوق. على أساس هذا المبنى يكون الشيء الثابت الوحيد والذي يأبى التغيير هو حق المشاركة في العقد الاجتماعي والعمل في إطاره والالتزام بالعقود الاجتماعية. لهذه الأمور قيمة ثابتة ولا تعرف زمانا ومكانا خاصا، ولكن الحقوق المترتبة على هذه العقود في هذه الرؤية متغيرة بصورة أو باخرىٰ، وتكون الظروف الاجتماعية المختلفة حسب الرقعة الجغرافية والزمان وغيرهما مؤثرة في تغييرها، وباختصار حتى هذه المذاهب القائلة بنسبية القيم الأخلاقية اعتبرت العمل بالعقود والالتزام بالعهود أمراً ثابتا ودائما.

وتشبه قيمة الامانة قيمة العقود والالتزام بالعهود، أي ان وجوب رد الامانة حكم ثابت ودائم لا يتغير مهما كانت الظروف. ومن الممكن القول ان قيمة حفظ الامانة من مصاديق قيمة الالتزام بالعهود والعقود لان عقد الامانة في الواقع هو عقد بين

مودعِ الامانة وبين المستودع حيث يتعهد الاخير على اساس هذا العقد بالمحافظة على الامانة وردها الى مودعها.

حكم العقل في مجال الوفاء بالعهد وحفظ الامانة

ان وجوب رد الامانة والوفاء بالعهد من المستقلات العقلية، أي من الاحكام التي يدركها العقل دون حاجة الى ارشاد شرعي. انّ الشريعة لا تُعمل ولايتها في وجوب رد الامانة والوفاء بالعهد، بل انّ الحكم الشرعي في هذا المجال حكم ارشادي، وحتّىٰ لو لم نملك أي دليل شرعي على وجوب الوفاء بالعهد ورد الامانة فانّ حكم العقل هذا كافٍ لإثبات الحكم الشرعي.

ويعتقد عدد من محققي علم الأصول بانّ المراد من هذا النوع من المستقلات العقلية (اي المستقلات العقلية في دائرة الادراكات العملية كوجوب رد الامانة والوفاء بالعهد، وحسن العدل وقبح الظلم) ليست سوى الآراء المحمودة. ان قولنا: انّ العقل يحكم بهذه الاحكام العملية بدون اعانة من الشارع لا نقصد به ان هذه الاحكام البديهية للعقل العملي كبديهيات العقل النظري واقعا، بل المقصود هو حكم العقل في الأمور الاعتبارية التي لا يمكن اقامة البرهان لاثباتها. انّ المسائل التي تترتب على هذا النوع من الاحكام لها حيثية جدلية لانه كما تمت الاشارة من قبلُ انها من الآراء المحمودة التي هي من مقدمات القياس الجدلي.

تحقيق حول الموضوع

كما أشرنا سابقاً يكون هذا النوع من الاحكام العقلية قابلا للاثبات بالدليل والبرهان العقلي، وقد أشرنا الى طريق اثبات هذا النوع من الاحكام وقلنا: اننا نعتقد بان افعال

الله سبحانه حكيمة وان خلق الكون والانسان له هدف، ثم نصل الى هذه النتيجة وهي ان متعلق الارادة الالهية والهدف من افعاله هو كمال الموجودات، ولكن نظراً لوجود التزاحم في عالم الطبيعة وعدم قدرة جميع الموجودات على الوصول الى كمالها الخاص بها، أو حتىٰ اذا وصلت فانها لاتستطيع البقاء على هذا الكمال، فلابدّ أن تكون مسيرة حل حالات التزاحم هذه بنحو يترتب فيه كمال أكبر في مجموع الحالات، وبعبارة أوضح ان يكون اتجاه المسيرة العامة للموجودات نحو الكمال بصورة عامة، وقد بيّن هذا الامر في الفلسفة بهذه الصورة: يجب ان يكون الخير غالباً على الشر في عالم الخلق.

مثلا لاستمرار وجود الانسان ووصوله الى الكمال لابدّ أن يستمد رزقه من امور أُخرىٰ، والنتيجة هي التضحية بالنبات والحيوان واشياء أُخرىٰ لكي يبقى الانسان ويصل الى كماله، في حين لو كان المقرر بقاء النباتات والحيوانات كلها كان من الطبيعي ان يعجز الانسان من البقاء والنضج ومواصلة الحياة وبلوغه الكمال اللائق به، ولذا نقول: المطلوب هو أن تكون المسيرة العامة لحركة الموجودات نحو الكمال، والنتيجة العامة لها هي الكمال، لان الذات الالهية تقتضي الكمال، ونثبت ببرهان (اللّم) انّ العالم ذو نظام أحسن وتكون مسيرته العامة نحو الكمال.

ان ما يوجد من الافعال والانفعالات والتأثير والتأثرات بين الموجودات الطبيعية لا تكون متعلقا للارادة الالهية التشريعية مادامت تحدث بصورة طبيعية وتكوينية، لان الارادة التشريعية تتعلق بفعل الفاعل المختار، أي تتعلق بفعل ينجز بارادة الفاعل واختياره. ومن بين موجودات العالم يوجد على الاقل نوع واحد منها فاعل مختار، أي بوسعه التحرك نحو الخير والكمال وهكذا نحو الشر والنقص، ولكن بملاحظة الأصل الذي بيناه يجب ان يكون خلق طينة بني الانسان وتنظيم ميولهم

بنحو تتسلط فيه بالتالي اعمالهم الصالحة على اعمالهم الشريرة، وان يكون الصالحون من بني الانسان اكبر عدداً من الاشرار، وان لم يكونوا اكبر عدداً، فعلى الاقل ينبغي أن تتصف الاعمال الصالحة وبنو الانسان المحسنون بجودة عالية ودرجات سامية بحيث لا تجبر الكم القليل للاعمال الصالحة والمحسنين ازاء الاعمال القبيحة والافراد الاشرار فحسب بل تكون بالتالي سببا لهيمنة وغلبة جودة الاعمال الصالحة والافراد المحسنين.

باختصار لقد تعلقت الارادة التكوينية الالهية بتحقق الكمالات الانسانية وغلبتها على الشرور والنقائص، وهذه الحقيقة تستدعي غلبة الخير كما أو كيفا على الشر. وهكذا تتحقق الاراده التشريعية في ظل هذه الارادة التكوينية، لان الارادة الالهية التكوينية قد تعلقت بأن يصل الانسان من خلال اعماله الصالحة الى كماله اللائق به اختياراً، وبما ان وصول الانسان الى كماله اللائق به غير ممكن بدون هداية وارشاد إلٰهي فان الله يهديه ويأمره بسلوك طريق ينتهي الى كماله. وعليه فان الارداة الالهية التكوينية التي تعلقت بالتكامل الاختياري للانسان تكون ممهدة لايجاد نظام تشريعي للانسان يهديه الى كماله وسعادته.

من جهة أُخرىٰ نظراً لتعلق الارادة الالهية التكوينية بتكامل الانسان واستناد تكامل الانسان الى توفُّر بعض الظروف فان الارادة الالهية التكوينية اذن تقتضي توفر تلك الظروف. وكمثال فان تكامل الانسان يتوقف على قدرته على الانتفاع بالموجودات الطبيعية الأُخرىٰ كالنباتات والحيوانات والتغذي منها. نستنتج ان الارادة الالهية التكوينية تستدعي ثبوت حقوق للانسان في الارادة الالهية التشريعية وفي الشريعه المقدسة للتصرف والانتفاع بهذه الموجودات الطبيعية والتمتع بكل ما ينفعه في مسيرة التكامل وان يكون له حق بصورة عامة لتوفير شروط تكامله من خلال التصرف في الموجودات.

المستقلات العقلية في مجال الاحكام العملية

البيان المذكور يشير الى وجود مجموعة من الاحكام والحقوق بصورة مجملة في عالم الثبوت ونفس الامر، ولكن لاثبات مصاديق هذه الاحكام والحقوق يمكن القول في الموارد التي يتعرف فيها الانسان بعقله وادراكه يقينا وبنحو واضح على مصاديق تنفعه في مسيرة تكامله ولا تشكّل مانعا وضرراً في نيله للكمال، يكون قادراً على كشف حقه وتكليفه بادراكه العقلي. ومن البديهي ان جميع الموارد والمصاديق لا تكون متساوية وفي الكثير من الموارد ليس بوسع الانسان تحديد حقوقه وتكاليفه بادراكاته العادية والعقلانية ويعجز عن فهم ان الوصول الى الكمال هل يتوقف واقعا على مثل هذه الحقوق والتكاليف أم لا؟ ويعجز تارة عن ادراك حقوقه وواجباته بسبب وجود حالات التزاحم وعجزه عن ادراك الأهم والمهم والحكم على اساسه.

في الموارد التي يفقد الانسان القدرة على تحديد حقه وتكليفه يكون الوحي هو المحدد، ولكن وفق حكم عام يقول لنا العقل بنحو بديهي انّ الهدف من التشريع والامر والنهي في الدين ومضمون الوحي هو كمال الانسان، وعلى الشريعة اعانة الانسان في طريق الكمال.

هناك طبعا مجموعة من الحقوق التي تثبت للانسان ازاء الطبيعة وفي نطاقها بوسع الانسان ان يتعرف على ما يحق له الانتفاع به من الموجودات الطبيعية الّا انّ هذه الحقوق تتفاوت مع الضوابط الاجتماعية والمصطلح عليها في علم الحقوق. من هنا تثبت في المقابل للموجودات الأُخرىٰ حقوق كهذه الحقوق على الانسان كحق الارض والاشجار والحيوانات. انه المفهوم الاوسع للحق والذي يطرح في الدين،

ولكن في علم الحقوق لا يبحث عن هذا النوع من الحقوق، بل عن العلاقات الاجتماعية والحقوق المتبادلة بين بني الانسان فحسب.

* * *

لقد تعرفنا اجمالاً على منشأ حقوق بني الانسان المتبادلة في المذاهب الحقوقية المختلفة، واتضّح ان لكل منها رؤية من جملة الرؤى الأساسية الثلاث هذه:

١ ـ منشأ الحقوق هو ارادة الحكومة.

٢ ـ منشأ الحقوق هو ارادة الامة.

٣ ـ منشأ الحقوق هو فطرة الانسان وطبيعته.

هنا نريد القول ان أياً من هذه الرؤى الثلاث لا تحظى بتأييد فلسفة الأخلاق وفلسفة الحقوق الاسلامية، فمثلا لا يكون مجرد وجود الجهاز الهضمي والفم والاسنان في خلقة الانسان دليلا دامغاً لاستحقاق الانسان تناول الاطعمة، أي ان هذا (الوجوب) لا ينشأ من ذلك (الوجود).

ما يقال من ان الانسان لامتلاكه جهازاً هضميا وفما واسنانا فيحق له طبيعيا ان يأكل من الطبيعة ما يؤكل كما هو الأصل في الحقوق الطبيعية الأُخرىٰ، فانه يكون من الآراء المحمودة وهي مقبولة في محلها ولكنها ليست بديهية وبرهانية. ان جميع بني الانسان يقرّون بضرورة تناول الانسان للطعام ولكن قد يكون حكمهم هذا هو لطلب المنفعة وليس على اساس الدليل والبرهان والحكم العقلي.

على أي حال فانّ الدليل الذي يستند الى الآراء المحمودة في مقدماته لا يكون برهانا بل جدلا.

ان رؤية القائلين بان ارادة الحكومة هي المنشأ للحقوق خاوية تماما ولا اساس لها، لان الحكومة تتركب من بني الانسان هؤلاء ولا تكون تركيباً منفصلا عنهم. واذا كان بنو الانسان معتدين في طبيعتهم فانّ الجهاز الحاكم لا يكون منفصلا عن الآخرين أيضاً، بل يكون جزءاً من بني الانسان الاشرار وسيئي السريرة هؤلاء.

بملاحظة ما ذكر يتضح ضعف وخواء أقوال اشخاص امثال ميكيافيلي وهابس:(ان بني الانسان ذئاب والعدوانية من ذاتياتهم، وعليه يجب وجود حكومة تحكمهم). انّ المفهوم الواقعي لهذه المقولة هي انّ الناس لما فيهم من صفات الذئب فلابدّ أن يكونوا في قبضة ذئب اكبر أي الحكومة لانها مركبة من هؤلاء الناس حملة صفات الذئب، ولكن يحق لنا ان نسال اذا تسلط ذئب أقوى على الناس باسم الحكومة فلماذا يجب طاعتها من قبل الآخرين منطقياً؟

اذا كان السبب هو قوة الحكومة واقتدارها فينبغي بنا اطاعتها ولا مفر من ذلك، فيجب القول: ان هذا القول لا مفهوم له سوى الاضطرار، أي لا سبيل امام الآخرين الا طاعتهم للحكومة.

الّا انّ هذا الاضطرار لا يعني أبداً لزوم طاعة الانسان للحكومة بنحو دائم، بل مادام هذا الاضطرار قائما فلا مفر للانسان من الطاعة، وعند ارتفاع الحاجة الى الطاعة وزوال الاضطرار بامكانه التهرب من اوامر الحكومة.

ما تحصل هو عدم امكان استنتاج وجوب طاعتنا لاوامر الحكومة من ادلة ميكيافيلي وهابس. النتيجة الوحيدة التي يمكن استنتاجها منها هي وجوب طاعة الحكومة مادمنا مضطرين، ومادامت اعمالنا مشهودة للحكومة وبامكانها ملاحظتها والاطلاع عليها، وفي غير هذه الحالة أي ان لم نكن مضطرين وكانت اعمالنا محجوبة عن انظار الحكومة فلا تجب الطاعة، وعلى هذا الأساس لا يمكن استنباط

اية قيمة اخلاقية وحقوقية من طاعة الحكومة.

وتكون مقولة القائلين بان منشأ الحقوق هو الناس ويعتقدون بانّ الحقوق تنشأ على اساس المعاهدات وجيهة الى حد ما، أي انّ الناس حينما تعاهدوا على انجاز اعمال بنحو متبادل والتزموا بهذا التعاهد عمليا فان هذا التعاهد خاصة اذا كان عادلاً يستدعي الحياة المنظمة والهادئة والمريحة للناس، من هنا يقال: ان وجوب احترام العهود والعقود والامانات من الاحكام العقلية المستقلة.

ولو امعنا النظر فان هذه المقولة ليست أمراً بديهيا عقليا بل هي من الآراء المحمودة أيضاً حيث يقال عادة: يقتضي العقل السليم هكذا، وينشأ في الحقيقة من حاجات الانسان ومتطلباته. بوسعنا طبعا ان نجعل هذه القضايا برهانية بنحو آخر، وبالالتفات الىٰ ما ذكرنا من الملاحظة ذاتها وهي حكمة الخلق والهدف الالهي.

وظن بعض اخر بان الله سبحانه يوجد القيم بالامر والنهي ويكون الامر الالهي منشأ لنشوء القيم والحقوق، أي انّ القيم والحقوق ليس لها واقع ثابت في نفس الأمر مع غض النظر عن الامر الالهي، الّا انّ هذه المقولة لا نقبلها أيضاً.

الرؤية المقبولة عندنا

نحن نعتقد انّ القيم والحقوق ذات واقع ثابت في نفس الأمر، أي ان واقعها الثابت في نفس الأمر هو علاقة العلة والمعلول بين الاعمال القيمية والنتائج التي تترتب عليها والكمالات التي تتحقق معها، وهي النتائج والكمالات المطلوبة ذاتيا وتلقائيا ويجب تحققها.

وأما قولنا:

انّ الكمالات يجب تحققها! فان هذا (الوجوب) ليس (وجوبا) اخلاقياً بل هو

(وجوب) فلسفي، ومقصودنا من هذا الوجوب الفلسفي هو انّ الصفات الالهية تقتضي تحقق تلك الكمالات لا اننا نريد توجيه امر اخلاقي الى الله عز وجل.

كما قلنا طبعا فانّ الصفات الالهية تقتضي ذاتيا تحقق الكمال، ولكن بما ان الانسان موجود مختار، وكماله النهائي يتحقق عن طريق ارادته واختياره فان الله لا يفيض كمالاته للانسان قهراً بل على اساس حكمته، ولهذا قام بهدايته وشرع له احكاما وأبلغها عن طريق الانبياءعليهم السلام لكي ينال كمالاته الاختيارية باختياره والتزامه بتلك الاحكام.

وعليه فانّ السند للقيم الأخلاقية والحقوقية هو علاقة العلة والمعلول الثابتة في نفس الأمر والواقعية بين الافعال القيمية والكمال الانساني، والضرورات القيمية تعابير عن ضرورات بالقياس موجودة بين العلل أي الاعمال الاختيارية ومعلولاتها أي الكمال الانساني.

وظن بعض آخر انّ الكمال مفهوم قيمي ويستمد معناه من ميل الانسان ورغبته، فمثلا حينما نقول: ان لفاكهة الكمثرى كمالاً، فلاننا نحبها ونلتذ بأكلها، واذا تغير طعمها وساءت نقول: لقد فقدت كمالها لانها في هذه الحالة ليست مرغوبة ولا لذيذة. الكمال إذنْ أمر اعتباري ونسبي وتابع لميل الانسان ورغبته ولا واقعية له وراء ميلنا واذواقنا وكونه مطلوبا ولذيذاً لدينا.

هذه المقولة ليست صحيحة أيضاً لان المراد من الكمال هنا هو الكمال الفلسفي بمعنى شدة الوجود، أي انّ الموجود قد يكون ذا رتبة وجودية اعلى من موجود آخر، فمثلا حينما نقيس النباتات الىٰ الجمادات ـ دون ملاحظة الأنفع منها والألذ لدينا ـ ندرك بوضوح ان في النبات اموراً أُخرىٰ لا توجد في الجماد. في النبات نمو وتغذية وتكاثر ولا توجد هذه في الجماد، مما يدل على انّ النبات هو الارقى

والاكمل بالقياس الى الجماد، ولكن هذا الكمال لا يرتبط بميلنا ورغبتنا.

تأييداً لهذه المقولة يحسن بنا ان نلتفت الى هذه الحقيقة وهي ان احتياجنا الى الماء والهواء هو اشد من أي شيء آخر، ولكن لا يقول أحد بان كمال الماء والهواء اكبر من كمال شجرة الكمثرى. إذنْ الكمال مفهوم عقلي واقعي وليس تابعا لرغبتنا وميولنا واذواقنا. حينما يقال لابدّ من نيل الانسان لكماله فالمراد هو الكمال الواقعي هذا، وبالنسبة للانسان يمثِّل القرب الالهي ذروة الكمال له وهو أمر واقعي.

الميل الى الكمال

لقد جعل الله في كل موجود ذي شعور ميلا يسوقه نحو كماله اللائق به ويعتبر ذلك من الحِكم الالهية العظمى، لان كل موجود لابدّ ان يسير نحو كماله، وقد غرس الله سبحانه الميل الى الكمال في فطرته. من هنا فان هذا الموجود يحب كماله وكل ما يكون نافعا له في مسيرة الكمال ويلتذ به، ولكن الكمال في ذاته ذو حقيقة ولا يكون تابعا لميول الانسان.

وعليه حينما نقول: لابدّ من نيل الانسان لكماله فان هذه المقولة ليست ذات مفهوم اخلاقي، بل تشير الى مفهوم تكويني وفلسفي وتبين هذه الحقيقة وهي انّ الذات الالهية المقدسة تقتضي اتصاف العالم بكمال وجودي بحيث تكون جهة تحركه نحو ذلك الكمال. ومع وجود التزاحم فان ملاكنا في رفعه هو نيل الانسان كمالاً اكبر. هذه قضية فلسفية وواقعية، ولكن حينما ندرك انّ الفعل الاختياري للانسان يكون سببا لتحقق الكمال ونشعر بان نيل الكمال يستدعي قيامنا باعمال خاصة وترك اعمال خاصة فانّ المجال يُفسح لطرح الأخلاق والقيمة الأخلاقية.

بناء على ذلك فانّ القيمة تعرض على الفعل الاختياري لانه وسيلة لتحقق

الكمال، ولكن بما انّ الكمال في ذاته ليس فعلا اختياريا بل هو صفة لوجود عيني أو مرحلة وجودية فانه لا يتصف بالقيمة الأخلاقية، لانها تعرض فقط على الافعال الاختيارية للانسان، ولا يمكن طرحها خارج نطاق الافعال الاختيارية.

إذنْ حينما نقول: لابدّ أن يتكامل الانسان، اذا كان المراد هو تحقق ذلك الكمال النهائي فان هذه (اللابدّية) ليست لابدّية اخلاقية لان متعلقها هو الكمال ذاته، وهو ليس فعلا اختياريا، واذا كان المراد هو وجوب القيام بعمل يوصله الى الكمال فان هذه (اللابدّية) لابدّية اخلاقية، لانها تعلقت بالفعل الاختياري ويمكن ان تكشف عن قيمة اخلاقية او حقوقية.

العهد ذو الطرف الواحد

استعمل لفظ (العهد) في القرآن الكريم في عدة معانٍ. فقد استعمل تارة بمعنى التوصية والتأكيد فيستلزم الأمر. وفي مثل هذه الموارد يتعدّىٰ لفظ (العهد) بـ(الى) وتكون له حيثية انشائية.

العهد بهذا المعنى ذو استعمالين: يتّجه تارة الى الناس كافة بصورة عامة، وتارة الى طائفة وفئة أو فرد خاص. والأوّل كالخطاب الالهي لجميع الناس في هذه الآية:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَ أَنِ اعْبُدُونِي هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[1].

ان لفظ العهد في هذه الآية لا يعني التعهد ذي الطرفين، بل انه دعوة ووصيّة من قِبل الله عز وجل موجّهة الى الناس، وان كان من الممكن تطبيقه على (عهد ألست بربّكم) و(ميثاق عالم الذر) المشار اليهما في آية أُخرىٰ:

---

١. يس ٦٠ و ٦١.

﴿وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلىٰ﴾[1]. بأن يُحمل العهد على التعاهد ذي طرفين بين الله عز وجل وبين العباد بان يعرفوه بالربوبية ويسلّموا له بذلك. ولكن في رأينا أن معنى العهد حينما يتعدى بـ (الى) لا يكون سوى التأكيد والوصيّة. وعليه لا ينبغي حمل العهد فى هذه الاية علىٰ (ميثاق عالم الذر).

من هنا فان الآية (ألم أعهد اليكم...) تعني: يا بني آدم! ألم اوصكم واؤكد بان لا تعبدوا الشيطان فانه عدوّ لكم واعبدوا الله فقط فان هذا هو الصراط المستقيم؟

الدليل على انّ العهد في هذه الآية لا يتطابق مع (عهد ألست بربّكم) هو عدم الاشارة الى الشيطان في (عهد ألست بربّكم) ظاهراً، بل جعل الله تعالىٰ عباده شهداء علىٰ انفسهم، وقد شهدوا بمشاهدة أنفسهم على ان الله ربهم. ولازم هذه الشهادة والاعتقاد طبعا ان تكون عبادتهم لله عز وجل وليس لغير الله، لان لازم الاذعان بربوبية الله هو اتخاذه معبوداً ورباً وانكار معبودية غير الله.

ويحتمل أن يكون مصداق هذا العهد الالهي مع بني آدم هو الخطاب الالهي لآدم عند الهبوط الى هذا العالم:

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

في هذا المقام أشار الله سبحانه الى الشيطان وعرّفه عدوّاً للانسان وحذّره من اتّباعه. على أي حال ـ كما ذكرنا ـ فان معنى العهد هنا هو التأكيد على الامر الالهي الموجّه الى عباده وهو عهد ذو طرف واحد.

وقد وجّه هذا العهد تارة الى فئات أو افراد بخصوصهم، منه ما ورد في الآية:

---

١. الاعراف ١٧٢. ٢. البقرة ٣٨.

﴿وَ لَقَدْ عَهِدْنٰا إِلىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[١].

هذا العهد يشير الى الامر الذي نهىٰ الله فيه آدم من الاقتراب من شجرة خاصة، وتعني الآية اننا اكدنا لآدم وأوصيناه بان لا يأكل من ثمرة هذه الشجرة ولكنه نسي ولم نجد فيه عزيمة راسخة.

وفي آية أُخرىٰ وجّه العهد الالهي الى النبي ابراهيم عليه السلام واسماعيل عليه السلام:

﴿وَ عَهِدْنٰا إِلىٰ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْمٰاعِيلَ أَنْ طَهِّرٰا بَيْتِيَ لِلطّٰائِفِينَ وَ الْعٰاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[٢].

من البديهي انّ العهد في هذه الآية ليس سوى الوصيّة والتأكيد، وقد أمر الله سبحانه ابراهيم عليه السلام واسماعيل عليه السلام بأن يطهّرا بيت الله من آثار الشرك تمهيداً لقيام الموحدين بمناسكهم وعباداتهم.

كما ان الله تعالىٰ يحكي في آية أُخرىٰ عن فئة من الكفار بأنهم حينما دعاهم نبي الله الى التسليم لدين الله والايمان به أجابوا:

﴿إِنَّ اللّٰهَ عَهِدَ إِلَيْنٰا أَلاّٰ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتّٰى يَأْتِيَنٰا بِقُرْبٰانٍ تَأْكُلُهُ النّٰارُ﴾[٣].

كان مقصودهم هو أن الاتيان بهذا القربان آية النبوة وحقانية الادعاء بالنبوة، وكانوا يخاطبون الداعي لهم: عليك ان تفعل ذلك أيضاً. اننا لا نتطرق هنا الى البحث عن كلامهم والسبب في ادّعائهم هذا، بل مقصودنا هو ان (العهد) في هذه الآية قد استعمل بمعنى الوصيّة والتأكيد والأمر.

وقد استعمل لفظ (العهد) في بعض الموارد من القرآن باعتباره ذا طرف واحد أيضاً ولكن المراد من ذلك هو أحد المناصب الالهية والمقامات السماوية التي

---

١. طه ١١٥.
٢. البقرة ١٢٥.
٣. آل عمران ١٨٣.

تعطى للانسان كمنصب النبوة أو الامامة. لقد جاء في قصة النبي ابراهيمعليه السلام ان الله حينما اعطاه منصب الامامة طلب ذلك لذريته أيضا، ولكن الله أجاب بان عهدي لا يصل الى الظالمين[١]، والمراد من العهد هنا هو منصب الامامة، وهو أمر ذو طرف واحد وليس حيثية تعاهدية وذا طرفين.

العهد ذو الطرفين (التعاهد)

لقد ورد العهد في بعض الموارد بمعنى التعاقد ذي الطرفين، ويطلق عليه اصطلاحا المعاهدة أيضاً. انّ العهد بهذا المعنى يتم تارة بين فردين أو فئتين أو مجتمعين أو مجتمع وفرد أو مجتمع وفئة أو فئة وفرد، وتارة بين الانسان وبين الله عز وجل.

انّ العهد بين الانسان والله اذا كان انشاؤه من قِبل الانسان فانه يكون بان يشترط الانسان مع الله: اذا حققّت رغبتي الفلانية فاني سوف اقوم بعمل الخير الفلاني أو العبادة الفلانية، أي يكون في الواقع مصداقا للنذر المشروط.

أمّا العهد الذي يعقد بين الفرد والمجتمع فهو بان يقوم أعضاء المجتمع بعقد ميثاق مع فرد واحد بصفته قائداً للمجتمع بان يدافعوا عنه ويطيعوا أمره. وقد عبّر عن العهد بين الفرد والمجتمع في القرآن الكريم والروايات بلفظ (البيعة) أو (المبايعة) وقد جاء في القرآن:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[٢].

وقد ذكر المفسرون معاني مختلفة للعبارة (يد الله فوق أيديهم) منها ما كان مألوفاًعندما يبايع الناس قائدهم حيث كان يمدّ يده ويضع الناس أيديهم تحت يده.

---

١. ﴿وَ إِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ البقرة ١٢٤.

٢. الفتح ١٠.

هذه الآية تقول: انّ البيعة مع النبيﷺ بمثابة البيعة مع الله عز وجل. ولعلّ المعنى الافضل للعبارة المذكورة هو أن الله تعالىٰ يريد القول للناس: حينما تبايعون النبيﷺ فان يد الله تكون فوق جميع الايدي، وانكم تبايعون الله في الواقع، ولكن بعض المفسرين فسر العبارة بنحو مستقل وقالوا: المراد هو أن قدرة الله فوق جميع القدرات.

العهد بين فئتين أو مجموعتين كأن يعاهد المجتمع الاسلامي الدول والشعوب الأُخرىٰ. وللمعاهدة بين مجتمعين انواع مختلفة تم البحث بشأنها في الفقه كمعاهدة الهدنة (وقف اطلاق النار) ومعاهدة الصلح وايقاف الحرب، ومعاهدة التعاون السياسي والعسكري والاقتصادي وغيرها حيث تُعقد مع المجتمعات الأُخرىٰ حسب تشخيص قائد المجتمع الاسلامي.

وأمّا العهد بين الافراد والاشخاص فهو تلك العهود الخصوصية التي تبرم يوميا بين بني الانسان، وحتى الكثير من المعاملات التي يؤدونها تدخل تحت عنوان العهد وان كان لفظ العقد يستعمل غالبا في مورد المعاملات.

و لا تفاوت بين العهد والعقد في الماهية، ويمكن القول ان مورد العقد أخص من مورد العهد في التطبيق والمصداق. وعليه يمكن اعتبار آيات العقد في زمرة آيات العهد كقوله تعالىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[1].

الابعاد الفقهية والحقوقية للعهد

للعقود ذات الطرفين ابعاد مختلفة، ويرتبط أحدها بالجانب الحقوقي والفقهي

---

١. المائدة ١.

للمعاهدات. وتتم دراسة المعاهدات والمعاملات في الفقه من زوايا مختلفة ويجاب على اسئلة بشأنها من قبيل: هل المعاهدة الخاصة جائزة أم لازمة؟ أي هل تكون ملزمة أم لا؟ وفي أية حالة تنفسخ تلقائيا؟ وفي أية حالة يعطى حق الفسخ الى طرفي المعاهدة أو أحد الطرفين؟ أو من يجوز ابرام المعاهدة معه ومن لا يجوز؟ وأخيراً ما هي انواع واقسام المعاهدة؟

البعد الأخلاقي للمعاهدات

ما يهمنا في هذه الدراسة هو البعد الأخلاقي للمعاهدات، أي تدرس المعاهدة هنا من ناحية قيمتها المعنوية ولكونها تستدعي كمال النفس. لدينا آيات عديدة في القرآن تأمر الناس بالوفاء بمعاهداتهم، واكثر الالفاظ استعمالاً في الدعوة الى الالتزام بالعقود والعهود في هذه الآيات هو لفظ (الوفاء) واكثر الالفاظ رواجا في موردها ذاتها هو لفظ (العهد)، جاء في آية كريمة:

﴿وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذٰا عٰاهَدُوا﴾[١].

وقال في آية أُخرىٰ:

﴿وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمٰانٰاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رٰاعُونَ﴾[٢].

وقد استعمل تارة لفظ (العقد) كقوله تعالىٰ:

﴿يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[٣].

بناء على ذلك فانّ التعبير الشائع في القرآن بشأن العهود والعقود هو لفظ (العهد) ولكن استعملت في بعض الموارد الفاظ أُخرىٰ أيضاً كلفظ (العقد) الذي مر نموذج

---

١. البقرة ١٧٧.
٢. المؤمنون ٨.
٣. المائدة ١.

منه أو لفظ (عقدة) في الآية:

﴿وَ لاٰ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكٰاحِ حَتّٰى يَبْلُغَ الْكِتٰابُ أَجَلَهُ﴾[١].

وكلمتَيْ (إلّ) و(ذمة) حيث قال تعالىٰ:

﴿كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاٰ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَ لاٰ ذِمَّةً﴾[٢].

وينبغي الالتفات طبعا الى ان لفظ (إلّ) جاء بمعنى القرابه أيضا، كما يقول سبحانه في آية أُخرىٰ:

﴿لاٰ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَ لاٰ ذِمَّةً﴾[٣].

وقد استعمل في بعض الموارد لفظ الميثاق في تبيان (العهد). ان استعمال الميثاق في مورد العهد هو تأكيد على هذه الحقيقة وهي ان على الطرفين الوفاء بالعهد لكي يترسخ اعتماد كل منهما علىٰ الآخر، لان الميثاق مشتق من مادة (الوثوق) ويعني الاعتماد، أي يعمل الطرفان بنحو يزدادا اعتماداً وطمأنينة فيما بينهما، فيلتزمان بعهدهما ويقسمان أحيانا مع العهد ليكون أرسخ.

من الطبيعي ان كل طرف من طرفي العهد يقسم بما يعتقد به، ومن لا يلتزم بذلك فقد انتهك حرمة مقدساته في الواقع. من هنا يستعمل لفظ (اليمين) أحياناً في مورد العهد أيضا. كما استعمل لفظ (الوعد) في مورد العهد أحيانا من قبيل:

﴿بِمٰا أَخْلَفُوا اللّٰهَ مٰا وَعَدُوهُ وَ بِمٰا كٰانُوا يَكْذِبُونَ﴾[٤].

وهو ما سيأتي لاحقاً.

نقض العهد في القرآن

من اعم الالفاظ المستعملة في القرآن في مورد نقض العهد هو لفظ (النقض)

١. البقرة ٢٣٥.
٢. التوبة ٨.
٣. التوبة ١٠.
٤. التوبة ٧٧.

و(النكث). كما استعمل لفظ (التبديل) أو (الإخلاف) في بعض الموارد أيضاً، فمثلاً يقول تعالىٰ في وصف الاوفياء بعهدهم مع الله عز وجل:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللّٰهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضىٰ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[1].

انهم لا يبدلون عهدهم ولا يغيرونه، المراد هو انهم لا ينقضون العهد. يقول القرآن في ذم المنافقين والناقضين للعهد:

﴿وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللّٰهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصّالِحِينَ * فَلَمّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللّٰهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ﴾[2].

في هذه الآية استعمل تعبير (اخلفوا الله ما وعدوه) في تبيان نقض العهد لدىٰ المنافقين، أي استعمل لفظ (الوعد) في مورد العهد ولفظ (الإخلاف) في مورد نقض العهد.

وإطلاق النفاق والمنافق في القرآن الكريم لا ينحصر في الذين لا إيمان لهم أساسا فقط بل اطلق أيضاً على ذوي الإيمان الضعيف ومن لم يملكوا الايمان الراسخ والقوي، أي للنفاق درجات ومراتب أي انه (قضية مشككة). من هنا يطلق المنافق في الآية المذكورة على الذين عاهدوا الله من قبل بان ينفقوا انْ انعم الله عليهم من فضله ووسّع عليهم من رزقه وان يكونوا صالحين ومتقين شكراً على هذه النعمة الالهية، ولكنهم حينما نالوا الثروة والقوة بخلوا وعملوا بنحو كأنهم لم يبرموا هذا العهد مع الله اصلاً، ونقض العهد هذا ادّىٰ الىٰ نفاقهم.

أجل ان نقض العهد له هذا الاثر، ومن يعاهد الله ثم ينقض العهد فانه سيفقد

---

١. الاحزاب ٢٣.
٢. التوبة ٧٥ ـ ٧٧.

ايمانه بسبب نقضه للعهد وإخلافه للوعد مع الله سبحانه والكذب الذي ارتكبه فيظهر النفاق في قلبه.

اما المؤمنون الحقيقيون الذين عاهدوا الله بأن يصمدوا في سبيل الله حتى الموت، ويدافعوا عن رسول الله ﷺ وقد صمدوا في وفائهم لهذا العهد وقاوموا حتى الموت والشهادة فقد نالوا ثناء الله الخاص وسيجزيهم على صدقهم. من هنا يقول تعالىٰ في حق المؤمنين الذين صدقوا في عهدهم مع الله وصمدوا:

﴿لِيَجْزِيَ اللّٰهُ الصّٰادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾(١).

وقال تعالىٰ بشأن المنافقين الذين كذبوا ونقضوا العهد:

﴿وَ يُعَذِّبَ الْمُنٰافِقِينَ إِنْ شٰاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾(٢).

في بعض الآيات يأمر الله بصورة عامة بان عليهم احترام عهد الله والوفاء به كقوله تعالىٰ:

﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللّٰهِ إِذٰا عٰاهَدْتُمْ﴾(٣).

وقال سبحانه في موضع آخر:

﴿وَ لاٰ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللّٰهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمٰا عِنْدَ اللّٰهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * مٰا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ بٰاقٍ وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٤).

أي حينما تلاحظون نفعا آنياً في نقض العهد فلا تخلفوا العهد، فاذا رجحتم نفعكم على العهد فقد بعتم عهد الله بثمن بخس في الواقع.

وقد جاء في آية أُخرىٰ:

---

١. الاحزاب ٢٤.
٢. الاحزاب ٢٤.
٣. النحل ٩١.
٤. النحل ٩٥ و ٩٦.

﴿وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَ كانَ عَهْدُ اللّهِ مَسْؤُلاً﴾[١].

ان الآية وان كان موردها العهد الذي ابرمه بعض المنافقين مع الله الّا انّ الجملة الاخيرة قد ذكرت كعبارة عامة وهي أعم من ذلك المورد الخاص وتدل على ان أي عهد تعقدونه مع الله فسوف تُسألون عنه، واذا عاهدتم الله فانه سوف يسألكم عن هذا العهد يوم القيامة:

قال تعالىٰ في آية أُخرىٰ مخاطبا بني اسرائيل:

﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيّايَ فَارْهَبُونِ﴾[٢].

واضح ان هذا العهد كان ذا طرفين، أي ان الله قد وعد بني اسرائيل عن طريق انبيائه بانهم انْ قاموا بالدفاع عن انبياء الله واطاعوا أوامرهم فانه سوف يعزُّهم في الدنيا وينزل البركات عليهم. لقد كان ذلك عهداً أبرمه الله مع بني اسرائيل. من هنا تقول الآية: اوفوا بالعهد الذي عاهدتموني به لكي أوفي بالعهد الذي عاهدتكم به.

في آية أُخرىٰ يأمر الله سبحانه:

﴿وَ بِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُوا﴾[٣].

وهو مطلق يشمل كل عهد.

في مجموعة أُخرىٰ من الآيات اشار تعالىٰ الى التبعات السيئة لنقض العهد وذم الناقضين للعهود:

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

---

١. الاحزاب ١٥. ٢. البقرة ٤٠.
٣. الانعام ١٥٢.

وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولٰئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾[١].

وقال في آية أُخرىٰ عن هؤلاء أنفسهم:

﴿أُولٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدّارِ﴾[٢].

وقال سبحانه في موضع آخر:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّٰهِ وَ أَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولٰئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللّٰهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾[٣].

يلزم التذكير بانّ البحث الأساسي وان كان بشأن العهد الاجتماعي ولكن كان من اللازم ذكر هذه الآيات التي تتحدث عن العهد مع الله سبحانه لجهات ثلاث:

الأُولىٰ لتكميل بحث العهد، والثانية انّ العهد مع الله عز وجل في أحد معانيه هو عقد مع الآخرين في الواقع ويشمل العهود الاجتماعية أيضاً، لان العهد مع الغير والعهد الاجتماعي بدوره يعود بصورة ما الى العهد مع الله. كما ذكرنا سابقاً بانّ البيعة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمثابة البيعة مع الله سبحانه، واستفدنا ذلك من العبارة: **﴿يَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾** وقلنا عن العبارة: **﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾** ان هذا عهد ذوطرفين، أحد طرفيه هو نبي الله والطرف الآخر بنواسرائيل، وفي الوقت ذاته اعتبره الله عهده بعبارة (اوفوا بعهدي).

الثالثة انّ العهد مع الله عز وجل يمكن اعتباره عهداً ذا طرفين، اذ ان احد الطرفين هو الله الذي انشأ العهد وطرفه الآخر هم الآخرون الذين يتقبلون ذلك فيتحقق العهد ذو الطرفين، فمثلا يقول تعالىٰ:

---

١. البقرة ٢٧.
٢. الرعد ٢٥.
٣. آل عمران ٧٧.

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾[١].

هذا الكلام الالهي هو انشاء نوع من العهد من قبل الله مع الناس. فمن ينصر الله ودينه فقد قبل هذا العهد.

المثال الآخر هو قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[٢].

هنا أيضاً قد أنشىء هذا لعهد والعقد من قبل الله، أي تم الايجاب من قبل الله عز وجل فاذا قبل الطرف المقابل تمت المعاملة وتحقق العهد ذو الطرفين. فاذا جاهد شخص بنفسه وماله في سبيل الله ولتثبيت دين الله فقد قبل ذلك العقد أو الايجاب الالهي. في هذه الحالة تحقق طرفا الايجاب والقبول وكمل العقد والعهد ذو الطرفين فيجب الوفاء به.

العهود الانسانية أو العقود الاجتماعيّة

استناداً الى ما ذكر، فانّ عهد الله أو العهد مع الله وان كان عهداً ذا طرفين: أحد طرفيه هو الله عز وجل والطرف الآخر هو الناس، ولكن نقوم من الآن ببحث قرآني حول العهد الذي يكون طرفاه من البشر ونسمّيه بـ(العهد الاجتماعي).

في مورد العهود الاجتماعية تأمرنا أو تدعونا مجموعة من الآيات وبتعابير مختلفة الىٰ الوفاء بعهودنا مع الآخرين أو تثني على الموفين بعهودهم، وبذلك تلفت نظر الانسان الى أهمّية الالتزام بالعهد.

في موضع يعدّ القرآن الاعمال الصالحة ويثني على المحسنين بسبب أعمالهم الصالحة ويقول:

---

١. محمد ﷺ ٧.   ٢. التوبة ١١١.

﴿وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذٰا عٰاهَدُوا﴾[١].

في هذه الآية يشير الى الوفاء بالعهد باعتباره أحد الاعمال الصالحة ممّا يستحقّ إيلاء الاهتمام ويستلزم الوفاءُ به الثناء.

وفي آية أُخرىٰ يأمر الله عز وجل بالوفاء بالعهد صريحاً ويعتبر الانسان مسؤولاً تجاه عهوده ويقول:

﴿وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كٰانَ مَسْؤُلاً﴾[٢].

وفي آيتين يقول تعالىٰ لدىٰ التعريف بالمؤمن وبيان صفاته الثابتة البارزة:

﴿وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمٰانٰاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رٰاعُونَ﴾[٣].

ينبغي الالتفات بشأن هذه الايات الىٰ انّ الامانة في الحقيقة مصداق من مصاديق العهد، والامين بتقبُّله امانة الشخص الآخر يكون قد تعهَّد له وتعاقد معه بان يحافظ عليها ويحرسها حتى استردادها. وعليه فان قبول الامانة بمثابة العهد ذي الطرفين، فيكون أداء الامانة بمثابة الوفاء بالعهد، والخيانة فيها بمثابه نقض العهد.

وتذم مجموعة أُخرىٰ من الايات الذين ينقضون العهد ولا يراعون العهود الاجتماعية. في إحدىٰ هذه الآيات ذم بني اسرائيل بقوله تعالىٰ:

﴿أَ وَ كُلَّمٰا عٰاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ﴾[٤].

في هذه الآية استعمل لفظ (نبذ) بشأن نقض العهد ويعني الرمي بعيداً وقد ذمهم بالاستفهام التوبيخي على نقضهم للعهد. قال تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

﴿الَّذِينَ عٰاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لاٰ يَتَّقُونَ﴾[٥].

في الآية ـ كما هو الملاحظ ـ ذم لنقض العهد الاجتماعي بألذع التعابير، ومن

---

١. البقرة ١٧٧.
٢. الاسراء ٣٤.
٣. المعارج ٣٢؛ المؤمنون ٨.
٤. البقرة ١٠٠.
٥. الانفال ٥٦.

خلال ذلك تتضح القيمة السلبية الشديدة لنقض العهد.

لقد تم البحث والالتفات الى قضية العهد والعقد الاجتماعي ونقض العهد في سورة التوبة اكثر من أي‌سورة أُخرىٰ. ان اكثر من عشر آيات في بداية السورة تتعلق بمسألة العهد. الآية الأُولىٰ منها تبدأ بدون البسملة وذكر اسم الله اشارة الى الغضب والسخط الالهي وثقل معصية نقض العهد، وهي تتطرق الى قضية نقض العهد لدىٰ فئة من المشركين كمعصيه كبيرة وعمل قبيح جداً يستدعي براءة الله ورسوله:

﴿بَرٰاءَةٌ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عٰاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١].

جاء في هذه الآية وعدة آيات لاحقة حديث عن المعاهدة التي كانت مبرمة بين المسلمين والمشركين وقد نقضها المشركون. وهكذا اعلن الله سبحانه باننا لا نحترم هذه المعاهدة أيضا وسوف لا نراعي بنودها: قال تعالىٰ في الآية اللاحقة:

﴿إِلاَّ الَّذِينَ عٰاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً﴾[٢].

لقد استثنيت هذه الفئة من المشركين الذين واصلوا الالتزام بالعهد مع المسلمين من الامر العام في الآية الأُولىٰ وأمرت المسلمين صريحا بعبارة «**فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلىٰ مُدَّتِهِمْ**»[٣] بانه يجب عليكم الوفاء بعهدكم معهم حتى ينتهي أجل عهدهم.

في هذه الآية يأمر الله عز وجل بعبارة (اتموا) برعاية العهد والالتزام به، وهذا التعبير الخاص هو بلحاظ الاجل المعين للعهد مع المشركين فيؤكد على اتمام المدة واجتناب نقض العهد حتى نهاية المدة المقررة.

على أي حال فان الله عز وجل يقسّم المشركين في الآيات الأُولىٰ من سورة

---

١. التوبة ١.
٢. التوبة ٤.
٣. التوبة ٤.

براءة الى مجموعتين: الأُولىٰ هم الذين نقضوا عهدهم فيحذر المسلمين من انّ العهد مع هؤلاء لا قيمة له ولا حرمة، وفي المقابل لا يلزم الوفاء بعهدهم معهم، ويؤكد على هذه الحقيقة في عدة موارد. الثانية هم الذين احترموا عهدهم مع المسلمين والتزموا به فيوصي المسلمين بالوفاء بعهدهم في المقابل، والعمل ببنوده حتى نهاية الاجل المعين، ويؤكد على هذا الأمر في آيات عديدة. عن المجموعة الأُولىٰ يقول تعالىٰ في آية كريمة:

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١].

ويقول مرة أُخرىٰ في الآية الثالثة:

﴿وَ أَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ﴾[٢].

وفي الآيات اللاحقة يضيف: كيف يمكن ان يكون للمشركين عهد عند الله والحال انهم ان انتصروا عليكم وأحسوا بالاقتدار لا يلتزمون بأي عهد تجاهكم ولا يعطونكم أي أمان لانفسكم وأموالكم. إذنْ قاتلوا ائمة الكفر الذين ينقضون العهد. وقد اكد الله سبحانه على هذه القضية عدة مرات.

أما بالنسبة للمجموعة الثانية التي التزمت بعهدها وميثاقها مع المسلمين فان الله لم يشملها بأوامر الآيات السابقة، وفي الآية الرابعة يدعو المسلمين الىٰ تنفيذ عهدهم معهم. كما يقول في الآية السابعة: ما دام المشركون يوفون بعهدهم مع المسلمين فعلى المسلمين الوفاء بعهدهم معهم أيضا. ثم يعتبر الله تعالىٰ هذا الوفاء بالعهد من آثار وعلامات التقوى:

---

١. التوبة ١.   ٢. التوبة ٣.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللّٰهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عاٰهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ فَمَا اسْتَقٰامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[1]

القيمة الأخلاقية والاجتماعية للأمانة

من المصاديق الواضحة للعهد والتي اكد الله تعالىٰ عليها وذكرها الى جانب العهد في بعض الآيات هو أداء الامانة. ان رعاية العهد وأداء الامانة محترم لدىٰ جميع العقلاء مهما كان دينهم ومذهبهم. من هنا قال علماء الأصول: انّ الحكم بلزوم رعايه العهد وأداء الامانة من المستقلات العقلية، أي انّ العقل يدرك ذلك بدون اعانة من الوحي.

ان الالتزام بالعهد أحد المصاديق البارزة للصلاح والمعروف والعدل، كما ان نقض العهد والخيانة في الامانة من المصاديق البارزة للظلم والمنكر والفساد. لقد أولى القرآن الكريم اهتمامه بالامانة في آيات كثيرة. في بعض هذه الآيات ورد التأكيد بشكل مطلق على رعاية الامانة قال تعالىٰ:

﴿وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمٰانٰاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رٰاعُونَ﴾[2].

وفي بعض آخر تأكيد على امانات خاصة كقوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمٰانٰاتِ إِلىٰ أَهْلِهٰا﴾[3].

المراد من هذه الامانات هي الامانات الاعتيادية والمالية الشائعة بين الناس قطعا وان امكن تعميم حكم هذه الآية على الامانات الالهية والامانات العمومية أيضا، كأن يضع الناس زمام امور المجتمع بيد القائد حيث يكون له حكم الامانة ولا تجوز الخيانة فيه وبعض الروايات تؤيّد هذا التعميم. وعليه يمكن القول ان حقوق

---

١. التوبة ٧.
٢. المعارج ٣٢؛ المؤمنون ٨.
٣. النساء ٥٨.

الناس في الرؤية الاسلامية امانة إلٰهية بيد وليّ الامر ومسؤولي المجتمع، فعليهم رعاية امانة الناس هذه بنحو كامل. وبعبارة أوضح انّ الحاكمية في الرؤية الاسلامية لله أصالة، وكل حكومة محقة تشكّل في مجتمع اسلامي يجب ان تكون من قبل الله سبحانه. وهذه الحاكمية امّا أن تُمنح بصورة مباشرة من قبل الله سبحانه كحكومة وولاية النبي صلى الله عليه وآله وسلم والائمة المعصومين عليهم السلام واما بالواسطة كنائب الامام، وهو اما منصوب خاص أو عام من قبله.

ان نفوس الناس واموالهم وأعراضهم إذنْ أمانات جعلها الله سبحانه بيد الحاكم الشرعي بواسطة أو بغير واسطة. فاذا قصّر في حفظ هذه الامانات لم يكن مؤديا للامانة. وبعبارة أُخرىٰ يمكن القول انّ الناس حينما يبايعون شخصا فانهم في الحقيقة يجعلون نفوسهم واموالهم بيده ويخضعون لحكومته، الّا انّ البيان الأوّل اكثر انسجاما مع مبادئ الاسلام.

وفي مقابل أداء الامانة ورعايتها تذكر الخيانة في الامانة والتي ذمتهابشدة آيات كثيرة[1]. في هذه الآيات استعمل مفهوم الخيانة بعبارات مختلفة، ولكن في مورد واحد استعمل لفظ (غلّ) بدلا عن لفظ (خيانة) حيث يقول:

﴿وَ مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمٰا غَلَّ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ﴾[2].

---

١. كقوله تعالى:
﴿وَ لاٰ تَكُنْ لِلْخٰائِنِينَ خَصِيماً﴾ النساء ١٠٥ / **﴿وَ لاٰ تُجٰادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتٰانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ مَنْ كٰانَ خَوّٰاناً أَثِيماً﴾** النساء ١٠٧ / **﴿يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَخُونُوا اللّٰهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمٰانٰاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** الانفال ٢٧/ **﴿لاٰ يُحِبُّ الْخٰائِنِينَ﴾** الانفال ٥٨ / **﴿إِنَّ اللّٰهَ يُدٰافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ كُلَّ خَوّٰانٍ كَفُورٍ﴾** الحج / ٣٨.

٢. آل عمران ١٦١.

القسم الرابع



حقوق ومصالح اعضاء المجتمع

- حق الحياة وحفظ النفوس
- دوافع القتل في الرؤية القرآنية
- منشأ ظهور سنّة وأد البنات بين العرب
- قيمة إحياء النفس
- عوامل الردع عن قتل النفس
- حق الحياة وحفظ الأجيال
- صيانة الكرامة والشخصية
- سوء الظن والتجسس والغيبة
- التهمة والبهتان
- الاستهزاء والسخرية
- رؤية القرآن عن الاستهزاء
- السخرية بالانبياء
- البرنامج التربوي للاسلام
- العبوس واللامبالاة
- الضابط الحقوقي والأخلاقي لهتك الحيثية
- مكافحة عوامل الاعتداء على الحيثية
- عوامل وشروط ظهور الحسد
- الرؤية القرآنية
- التأثيرات الاجتماعية للحسد
- العلاج الأساسي

مقدمة

تم البحث عن مفاهيم عامة في العلاقات الاجتماعية والقيم العامة التي يمكن طرحها في هذا المجال. وبالنسبة إلى فروعها يمكن القول: انّ العلاقات التي تقام بين افراد المجتمع وأعضائه، أعمَّ من كونها ذات قيم ايجابية أو سلبية، يمكن تقسيمها الى قسمين عامين:

القسم الاول: العلاقات التي تكون ذات قيمة ايجابية أو سلبية في ذاتها.

القسم الثاني: العلاقات التي تتوقف قيمتها على العقود بين بني الانسان، فتدخل تحت عنوان العهد والعقد. وقد بحثنا سابقاً حول أهمية وقيمة الوفاء بالعهد ووجوب الالتزام بالعقود والعهود.

أمّا بالنسبة إلى القسم الاول، أي العلاقات الاجتماعية ذات القيمة في ذاتها بغضّ النظر عن العقود الاجتماعية، فيمكن تقسيم العلاقات الانسانية والاجتماعية بملاحظة قيمتها الى عدة مجموعات. كما قلنا سابقاً ان قيمة الحياة الاجتماعية تنشأ من المصالح المادية والمعنوية للانسان، لان هذه المصالح تتحقق في نطاق الحياة الاجتماعية فقط، أو انها تتوفر في المجتمع بصورة أفضل على الاقل. فتوفير مصالح أعضاء المجتمع إذنْ هي المحور والأساس للقيم الاجتماعية. ولهذا نقول: ان مصالح بني الانسان وهي الأساس للقيم يمكن تقسيمها بصورة عامة الى عدة مجموعات:

ان اولى المصالح الانسانية في الحياة واكبرها هي حفظ النفس. وعليه سيكون اكبر وأهمُّ شيء يجب بذل جهود كبيرة لحفظه وحراسته من قِبل المجتمع والمسؤولين فيه هو نفوس وأرواح أعضاء المجتمع.

المجموعة الثانية من مصالح الانسان تتعلق بحفظ حيثية أعضاء المجتمع

وأعراضهم وكراماتهم أعمَّ من الحيثيات الفردية وشرف الشخصية وكرامة الافراد انفسهم وكرامة أعراضهم ومتعلقاتهم.

المجموعة الثالثة من مصالح الانسان هي حفظ أمواله، ففي الحياة الاجتماعية ينبغي حفظ اموال كل عضو من الاعضاء فلا يعتدى عليها ولا تهدّد من قِبل الآخرين، لانّ هذا يكون سببا للاضطراب والقلق لدىٰ أعضاء المجتمع.

المجموعة الرابعة من المصالح الانسانية تتعلق برفع الخلافات التي تنشأ بين أعضاء المجتمع في مجال الحقوق المذكورة والأموال والاعراض. وقد ثبتت في كل من المجموعات الثلاث حقوق لكل فرد من أعضاء المجتمع، وعلى جميع الافراد رعايتها. فاذا وقع اختلاف بين أعضاء المجتمع في هذا المجال فهناك مبادئ وضوابط وقيم لابدّ من ملاحظتها والحكم على اساسها من قِبل جهاز القضاء لدىٰ القيام بالمتابعة القضائية والاهتمام بحقوق المظلومين ورفع الخصومات والنزاعات والاختلافات.

النوع الخامس من العلاقات الانسانية والمصالح الاجتماعية هي ان افراد المجتمع وأعضاءه مسؤولون ـ الى جانب حفظ حقوقهم ـ عن رعاية حقوق الآخرين بأنفسهم وحث الناس على حفظ حقوق سائر أعضاء المجتمع ويكونون سببا لشيوع القيم الأخلاقية واستتباب العدل وزوال الظلم والفساد من خلال ذلك.

المجموعة السادسة من المصالح الانسانية والاجتماعية يمكن تلخيصها في التنمية الثقافية ورفع المستوى العلمي والمعرفي لدىٰ أعضاء المجتمع في نطاق التعليم والتعلم والتربية. في هذا السياق ينتفع الافراد انتفاعاً علمياً بنحو متبادل ويزدادون علماً ومعرفة. هذا أيضاً من المصالح الاجتماعية المهمة والقيم الانسانية الأساسية. فينبغي إذنْ توفر اجواء سليمة لتبادل المعارف والمعلومات لتحقيق هذه المصلحة الكبرى. **ان مصلحة الانسان لا تتلخص في حفظ نفسه وماله وعرضه وكرامته بل يلزم الى جانبها تقدمه في المجالات العلمية وازدهار العلوم العقليّة والنقلية والطبيعية وغير الطبيعية وزيادة التخصص لدىٰ أعضاء المجتمع لكي يعتمدوا على أنفسهم ويوفروا حوائجهم المادية والمعنوية ويذودوا عن عزتهم واستقلالهم عبر ذلك.**

حق الحياة وحفظ النفوس

ان حق الحياة وحفظ النفس متقدم على سائر حقوق بني الانسان بنحو طبيعي. انّ الكثير من البحوث توجد في هذا المجال وهي لا تحتاج الى توضيح وتفصيل ولكن لكي يتّضح النظام الأخلاقي للاسلام لابدّ من الاشارة الى أهمها على شكل فهرست.

يجب على جميع بني الانسان حفظ حياتهم وعدم التعدي على حياة الآخرين. وفي سياق هذا الحق الانساني تطرح قيمتان مهمتان جداً إحداهما ايجابية والاخرىٰ سلبية هما: القيمة الايجابية المتعلقة باحياء النفس، والقيمة السلبية المتعلقة بقتل النفس.

لقد طرح موضوع قتل النفس في الكثير من آيات القرآن الكريم بصور مختلفة ويمكن تقسيمها الى ثلاث مجموعات رئيسية:

مجموعة تنهىٰ عن القتل وتبين فداحة هذه المعصية وتبعاتها وأعراضها واقسامها واحكامها كقوله تعالىٰ:

﴿وَ ما كٰانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاّٰ خَطَأً وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلىٰ أَهْلِهِ إِلاّٰ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كٰانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ إِنْ كٰانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثٰاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلىٰ أَهْلِهِ وَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيٰامُ شَهْرَيْنِ مُتَتٰابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللّٰهِ وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزٰاؤُهُ جَهَنَّمُ خٰالِداً فِيهٰا وَ غَضِبَ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذٰاباً عَظِيماً﴾[1].

﴿مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنٰا عَلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسٰادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمٰا قَتَلَ النّٰاسَ جَمِيعاً وَ مَنْ أَحْيٰاهٰا فَكَأَنَّمٰا أَحْيَا النّٰاسَ جَمِيعاً﴾[2].

﴿وَ لاٰ تَقْتُلُوا أَوْلاٰدَكُمْ مِنْ إِمْلاٰقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيّٰاهُمْ وَ لاٰ تَقْرَبُوا الْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ وَ لاٰ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّٰهُ إِلاّٰ بِالْحَقِّ ذٰلِكُمْ وَصّٰاكُمْ بِهِ

١. النساء ٩٢ و ٩٣.
٢. المائدة ٣٢.

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[١].

﴿وَ لاٰ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّٰهُ إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنٰا لِوَلِيِّهِ سُلْطٰاناً فَلاٰ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كٰانَ مَنْصُوراً﴾[٢].

هذه الآيات وآيات أُخرىٰ تشابهها[٣] منعت وذمت قتل النفس عمداً بمختلف التعابير، وقد اعتبرت عقوبة من يرتكب هذه المعصية الكبيرة عقوبة ثقيلة، واشارت الىٰ الأحكام المختلفة لهذه العقوبة من قبيل القصاص والدية والكفارة واقسامها.

المجموعة الأُخرىٰ تذم الذين ارتكبوا قتل النفس. وقد هاجمت هذه الآيات بني اسرائيل الذين قتلوا الكثير من الانبياء والمصلحين ودعاة العدل وعباد الله المخلصين، كالآية:

﴿وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَ بٰاؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللّٰهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كٰانُوا يَكْفُرُونَ بِآيات اللّٰهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[٤].

﴿وَ إِذْ أَخَذْنٰا مِيثٰاقَكَمْ لاٰ تَسْفِكُونَ دِمٰاءَكُمْ وَ لاٰ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيٰارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيٰارِهِمْ﴾[٥].

﴿أَ فَكُلَّمٰا جٰاءَكُمْ رَسُولٌ بِمٰا لاٰ تَهْوىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[٦].

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيٰاءَ اللّٰهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٧].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيات اللّٰهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النّٰاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ * أُولٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَةِ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ﴾[٨].

وهكذا الآيات (١٨١ ـ ١٨٣ ـ آل عمران) والآية (١٥٥ ـ النساء) تشير كلها الىٰ حوادث القتل التي وقعت على طول التاريخ وكانت جماعة ظالمة تلطخ ايديها بقتل

---

١. الانعام ١٥١.
٢. الاسراء ٣٣.
٣. كالاية ٦٨/الفرقان.
٤. البقرة ٦١.
٥. البقرة ٨٤و ٨٥.
٦. البقرة ٨٧.
٧. البقرة ٩١.
٨. آل عمران ٢١ و ٢٢.

أناس صالحين ودعاة للعدل دائماً، لأنهم لم يـروا مـناهجهم الإصـلاحية وديـنهم وعقائدهم التي بيّنوها للناس من قِبل الله عز وجل تتطابق مع اهـوائـهم ومـيولهم النفسية ويشعرون بالخطر على مصالحهم. ولكن في جميع هذه الآيات أشير بصورة خاصة الى بني اسرائيل بوصفهم قـتلة ومـجرمين وظـالمين، وكـانت ضـحاياهم وقتلاهم من بين أنبياء الله ودعاة العدل والصالحين.

المجموعة الثالثة تستنكر قتل نفوس خاصة كقتل الاولاد الذي كان شائعاً بين العرب. هذه الآيات تنقسم أيضاً الى فئتين عامّتين:

الفئة الأُولىٰ: الآيات التي ظاهرها هو قتل الاولاد سواء أكانوا بنين أم بـنات، كقوله تعالىٰ:

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاٰدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1].

﴿وَ لاٰ تَقْتُلُوا أَوْلاٰدَكُمْ مِنْ إِمْلاٰقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيّٰاهُمْ﴾[2].

﴿وَ لاٰ تَقْتُلُوا أَوْلاٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاٰقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيّٰاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كٰانَ خِـطْأً كَبِيراً﴾[3].

الفئة الثانية: الآيات التي تتحدث عن وأد البنات الذي كان سـائداً بـين عـرب الجاهلية أيضا كقوله تعالىٰ:

﴿وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[4].

﴿وَ إِذٰا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُـوَ كَـظِيمٌ * يَـتَوٰارىٰ مِـنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مٰا بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرٰابِ أَلاٰ سٰـاءَ مٰـا يَحْكُمُونَ﴾[5].

يستفاد من هذه الآية انّ الظروف الاجتماعية آنذاك كانت بنحو يشعرون فـيها بعار كبير حينما يرزقون بنتاً وتنتابهم حالة مؤلمة، فإما يحفظونها ويتحملون الذل والعار، وإما يدفنونها في التراب بقسوة.

---

١. الانعام ١٤٠.
٢. الانعام ١٥١.
٣. الاسراء ٣١.
٤. التكوير ٨ و ٩.
٥. النحل ٥٨ و ٥٩.

دوافع القتل في الرؤية القرآنية

يطرح هذا السؤال لدىٰ المتخصّصين في علم النفس بشأن المجرمين: ما هو دافع الانسان في قتل انسان آخر؟ ولماذا يرتكب بعض بني الانسان هذه المعصية الكبيرة؟ ولعله العمل الذي يعتبره القرآن اكبر معصية بعد الشرك بالله حيث يقول:

﴿وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَ غَضِبَ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً﴾(١).

تواجه هذه الآية من يقتل مؤمنا بغلظة وتهدّده بشدة بأن من يقتل مؤمنا عمداً فان عقوبته هي نار جهنم ويبقى فيها معذبا الىٰ الأبد، ويكون مثل هذا الانسان موضعا لغضب الله ولعنه؛ وقد أعد الله تعالىٰ له عذابا عظيما.

ولا شك في ان ارتكاب أي ذنب يكون استجابة لإحدى الرغبات النفسية، وهي مختلفة طبعا، ولكل منها تعلّق بقسم من الأخلاق الفردية والاجتماعية للانسان. وقد أشير في القرآن الى عدة دوافع نفسية للقتل هي:

أ ـ الحسد

يعتبر القرآن الحسد أحد العوامل النفسية للقتل. وقد اعتبر القرآن الحسد عاملاً لأول قتل وقع في الارض حيث يقول:

﴿وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللّٰهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(٢).

يستفاد من هذه الآية وجود منسك الاضحية في عصر النبي آدمعليه السلام، وكان هذان الاخوان حسب نقل الروايات ابنين مباشرين للنبي آدمعليه السلام واسمهما هابيل وقابيل وقد قاما بتقديم الاضحية بأمر والدهما، ولكن لم تقبل الا أضحية هابيل. وقيل: ان علامة قبول الاضحية كانت بان تأتي نار فتُحرق الاضحية.

والذي لم تقبل اضحيته غضب بشدة فشبّت في قلبه نار الغضب تجاه أخيه هابيل ولذا هاجم أخاه ليقتله. فقال له هابيل: السبب لعدم قبول اضحيتك هو أنك لم تكن

---

١. النساء ٩٣.　　٢. المائدة ٢٧.

من أهل التقوى، فان كنت ناويا قتلي فاني لا انوي قتلك لان هذا العمل ذنب عظيم، واني لا ارتكب هذا الذنب، ولكن قابيل قتل أخاه هابيل أخيراً.

يستفاد من هذه الآيات بوضوح انّ الحسد كان المنشأ لأول قتل وقع على الارض على يد قابيل، كما يستفاد ان الأخلاق الفردية ذات تأثير على الأحداث الاجتماعية، وعليه لا ينبغي فصل الشؤون الاجتماعية عن القضايا الفردية بنحو كامل. ان الأخلاق والقيم الاجتماعية تنشأ من الجذور النفسية والدوافع الفردية، وتقسيم الأخلاق الى اخلاق فردية واخلاق اجتماعية انّما هو في الواقع على اساس الموضوعات ومتعلقاتها. ولا فرق بين الأخلاق الفردية والاجتماعية في أنها ذات جذور نفسية وأنها تنبثق عن المبادئ والدوافع النفسية لأفراد الانسان.

ب ـ التمسك بالعقائد والقيم الخرافية

العامل الثاني لقتل النفس في الانسان هو التعصّب لعقائد وقيم وتقاليد وعادات خاصة. وقد تكون أحياناً هذه التقاليد والعادات والقيم والأساليب ظالمة، وتكون هذه العقائد والافكار بلا أساس وغير صحيحة ولذا تُهاجم وتُذم من قبل مصلحي المجتمع. ولكن يمكن ان يبلغ أنس افراد المجتمع بهذه الافكار والتقاليد وارتباط حياتهم معها الى درجة يعتبرون الهجوم عليها ضاراً بهم وانتهاكا لحرمتهم سياسيا واقتصاديا. هذا الامر هو الدافع للتصادم والمواجهة بينهم وبين مصلحي المجتمع والسبب لضربهم وقتلهم ونفيهم، هم واتباعهم. كان هناك اشخاص ينهضون بوجه المعتقدات والافكار والسلوك الخرافي الحاكم على المجتمع ويدعون الى الحق والعدل، امثال الانبياء عليهم السلام واتباعهم الحقيقيين الذين كانوا يحذّرون الناس من عبادة الأصنام والشرك ويدعونهم للتسليم لدين الحق والسلوك الصحيح والمرضي عند الله عز وجل.

وفي المقابل كان ثمة أُناس يواجهونهم بدوافع مختلفة من قبيل حب الجاه والتكبر وحب المال والانانية والاثرة.

كان منطق المعارضين للانبياء عليهم السلام هو: ما لكم ولمعتقدات الناس واعمالهم؟ لكل

شخص عقيدة وطريقة محترمة لديه. لقد كان كلام المعارضين للانبياء عليهم السلام كالنبي شعيب ولوط كما يحكي القرآن من هذا القبيل:

﴿أَ صَلاٰتُکَ تَأْمُرُکَ أَنْ نَتْرُکَ مٰا يَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوٰالِنٰا مٰا نَشٰاءُ﴾[1].

لم يتخلَّ الأنبياء عليهم السلام عن رسالتهم تجاه هذه الاقاويل المعارضة، وكانوا يواصلون مساعيهم بغية الوصول الى اهدافهم الالهية. وفي المقابل كان أُناس يعتبرون تبليغ الانبياء عليهم السلام تهديداً لهم واهانة لانفسهم فيلجأون الى ايذائهم ونفيهم من ديارهم الى مناطق أُخرىٰ، أو يهدّدونهم بالقتل. وكانوا يجتازون مرحلة التهديد أحيانا ويلطخون ايديهم بدمائهم، ومنهم بنواسرائيل الذين قتلوا الكثير من الانبياء عليهم السلام والصالحين حسب نقل القرآن على مدى التاريخ حيث قتلوهم إثر معارضتهم لرغباتهم.

ج ـ الطمع في أموال الآخرين

العامل الثالث للقتل الشائع هو الطمع بأموال الآخرين. فمن قصد الاستيلاء على أموال شخص آخر فانّه لا يبلغ مُناه مادام حيا. هذا الدافع يشتد أحيانا الى حد يدفعه نحو قتل صاحب المال رفعاً للمانع لنيل مراده هذا.

د ـ اثارة العواطف السلبية

العامل الرابع للقتل هو العامل العاطفي الخاص. فحينما يقع خلاف في التعامل بين الافراد وتثار عواطف أحدهم ضد الآخر ينتهي الأمر أحياناً الى الضرب وقتل أحد الطرفين. ان هذه الخلافات متنوعة طبعا ويمكن ان تكون أساساً بسبب قضايا مادية واقتصادية وسياسية وغيرها، ولكن ما يبلغ بالامر الى المرحلة الاخيرة هو ما يحدث من فعل وردّ فعل اثناء الخصام والمواجهة حيث تستعر نار النزاع وتثار عواطف كل طرف ضد الطرف الآخر وبنحو أشدَّ فتصل الى هذه النقطة الخطيرة.

---

١. هود ٨٧.

هـ ـ الخوف من الجوع

كان الخوف من الجوع في المجتمع العربي الجاهلي سببا لقتل بعض المساكين من ابنائهم لتقليل مستهلكي الطعام. ولم يقتصر القتل بهذا الدافع على البنات بل كان شره يطال جميع الاولاد من بنين وبنات.

يقول القرآن الكريم عن هذه الجريمة ومعالجة دافعها:

﴿وَ لاٰ تَقْتُلُوا أَوْلاٰدَكُمْ مِنْ إِمْلاٰقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيّٰاهُمْ﴾[١].

ان ظاهر الآية يشير الى انّ الخوف من القحط والجوع الذي لم يكن قليلا بين عرب الجاهلية قبل الاسلام كان يدفع اشخاصا للتخفيف من العائلة وتقليل عدد مستهلكي الطعام. لقد اعتبرت ثلاث آيات من الآيات المذكورة سابقاً الخوف من الجوع وثقل مؤونة الحياة عاملاً للقتل واستنكرت ذلك واعتبرت هذا الخوف امراً لامبرّر له.

و ـ الغيرة والحمية غير المبرّرة

العامل الآخر هو الشعور بالعار والغيرة غير المبرّرة لدىٰ بعض العرب في الجاهلية تجاه اعراضهم، فيدفعهم ذلك لوأد بناتهم البريئات. لقد استُنكر هذا العامل في آيات عديدة من القرآن ولعله بشدة اكبر وتعابير أغلظ. كان منشأ هذه السنّة الخاطئة بين عرب الجاهلية تفكيراً باطلاً وفكراً خاطئاً، اذ كانوا يعتبرون البنت عاراً ويقتلون بناتهم البريئات أحياناً دفعا لهذا العار.

ان تعبير بعض الآيات القرآنية يدل على وجود هذا التفكير الخاطيء حيث يقول تعالىٰ:

﴿وَ إِذٰا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ * يَتَوٰارىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مٰا بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرٰابِ أَلاٰ سٰاءَ مٰا يَحْكُمُونَ﴾[٢].

بناء على ذلك فان اثبات وجود سنّة وأد البنات واعتبار العلة لذلك هو الشعور

---

١. الانعام ١٥١.

٢. النحل ٥٨ و ٥٩.

بالعار غير المبرّر والاحمق لدىٰ عرب الجاهلية بالنسبة الينا نحن المسلمين لايحتاج الى وثيقة تأريخية مع وجود هذه الآيات الواضحة، حيث انّ الآيات تخبر عن هذه السنّة بصراحة تامة.

منشأ ظهور سنّة وأد البنات بين العرب

هناك تحليلات نفسانية واجتماعية كثيرة عن كيفية نشوء هذه السنّة بين المجتمع العربي يمكن العثور على شواهد تأريخية تؤيدها وان لم تكن يقينية، ولكن يمكن القول ان اشهر وأهم وأول شيء كان السبب لهذا الميل الخاطىء هو انّ النساء والبنات كنّ يمثّلن اغلب الأسرى من الجيش المغلوب حينما يقع الأسرىٰ بيد الطرف الغالب في الحروب الكثيرة التي كانت تنشب بين العرب، هذا من جهة، ومن جهة أُخرىٰ كانت حمية العرب وغيرتهم تتهيّج بشدة إثر وقوع بناتهم وزوجاتهم بيد العدوّ ثم الاعتداء عليهن. كان هذان الامران السبب لان يسعوا لعدم امتلاك البنت من البداية، فاذا وقعت معركة وانهزموا لم يواجهوا هذه المصيبة وهي وقوع أعراضهم بيد الآخرين.

وعليه يمكن القول انّ العلة الأساسية لنشوء هذه السنّة الخاطئة كانت هي الافراط في الحميّة والغيرة غير المبرّرة، لا شك في ان الانسان لابدّ ان يشعر بالغيرة ويدافع عن عِرضه. ان هذا خلق ممدوح وحسن، ولكن بشرط أن لا يصل الى حد الافراط وهو قتل النساء لكي لا يقعن بيد العدو! ان هذه الانحرافات وحالات الافراط والتفريط هي السبب لنشوء هذه السنن الخاطئة، وتبعتها هذه المصائب والفجائع تدريجيا. يدعو القرآن الناس محذّرا اياهم الى ترك هذه السنن الخاطئة والاهتمام باصلاح النفس لمكافحة هذه السنن والنأي بانفسهم عن الحميّة غير المبرّرة والعصبية المفرطة.

قيمة إحياء النفس

جعل القرآن قيمة ايجابية لاحياء النفس قبال القيمة السلبية لقتل النفس حيث يقول:

﴿مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنٰا عَلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسٰادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمٰا قَتَلَ النّٰاسَ جَمِيعاً وَ مَنْ أَحْيٰاهٰا فَكَأَنَّمٰا أَحْيَا النّٰاسَ جَمِيعاً﴾[١]

بديهي ان احياء النفس والناس لا يعني منح بني الانسان الحياة لشخص، لان ذلك فعل إلٰهي ولا قدرة للناس على ذلك، فالمراد من احياء النفس إذنْ هو ابقاء حياتها والحيلولة دون قتلها وهلاكها.

قال بعض المفسرين: المراد من احياء النفس في الآية المذكورة هو احياؤها معنويا. ولكن ينبغي الالتفات الى ان الاحياء الظاهري والمادي ـ مع غض النظر عن الاحياء المعنوي ـ نظراً الى امكان وقوعه بصور مختلفة يمكن ان يكون مراداً، كأن يقوم انسان بتحرير شخص معتقل ويواجه الموت لدىٰ العدوّ وانقاذ حياته من الخطر والهلاك. مثل هذا الانسان يكون في الواقع قد أحيا نفسا معرّضة للهلاك ووفرّ ارضية استمرار حياتها. وهكذا قيام انسان بانقاذ شخص آخر يواجه الموت إثر عوامل طبيعية كأن يكون تحت الانقاض أو مشرفا على الغرق ثم ينجيه من الموت فكأنه قد أحياه في الحقيقة.

عوامل الردع عن قتل النفس

يطرح هنا هذا السؤال: كيف يمكن مكافحة قتل النفس، وما هي الاعمال التي يلزم القيام بها للحيلولة دون ارتكاب هذه المعصية؟ بديهي ان موضوع سؤالنا هنا هو غير المانع الطبيعي كأن يمسك شخص يد القاتل ويمنعه من ارتكاب القتل. المراد من السؤال هو كيفية ايجاد الفكر والدافع في الانسان للاحتراز من ارتكاب هذه المعصية الكبيرة؟

للاجابة عن هذا السؤال ينبغي القول: في رؤية القرآن والمصادر الاسلامية الأُخرىٰ ان أهم ما يمكنه صد الانسان عن ارتكاب هذا الفعل القبيح هو الالتفات الى التبعات الوخيمة والنتائج المرّة التي تترتب على هذه المعصية، والعقوبة التي وضعت في هذا العالم والعالم الآخر وسائر تبعاته الاجتماعية والحقوقية

---

١. المائدة ٣٢.

والاقتصادية المرّة كالقصاص والدية والعزلة عن الناس والفضيحة. أجل، ان الالتفات الى هذه التعبات هو أهم العوامل المانعة القادرة على القضاء على دافع قتل النفس في الانسان أو إضعافه علىٰ أقل تقدير.

العامل المانع الآخر هو الالتفات الى هذه الحقيقة وهي ان الانسان مملوك لله سبحانه فلا يحق لأي انسان التصرف في مملوك الله بدون إذنه، الّا انّ هذا العامل له التأثير فقط على الذين يكون شعورهم بهذه المسؤولية ودافعهم لطلب الكمال والقيم يقظاً وفعالاً، أي يتوفر فيهم حد النصاب من الايمان ومعرفة الله سبحانه، أي لهم معرفة إلٰهية فعالة وحيّة. امثال هؤلاء يلتفتون الى ان سائر بني الانسان ليسوا مملوكين لنا، ولا دور لنا في موتهم وحياتهم. نعم، يمكن طبعا تملّك عملهم باعطاء المال ولكن لا يمكن امتلاك انفسهم بأي طريق. حتى حينما يكون شخص مالكا لانسان آخر فانه لا يعني انه مالك لوجوده وحياته وفكره وسائر شؤونه الوجودية، بل يعني تملكه لعمله فقط ويحق له طلب بعض الاعمال منه والانتفاع بنتائجها.

بناء على ذلك فان الالتفات الى هذه الحقيقة وهي ان الانسان موجود مستقل ومملوك لله تعالىٰ ولا يجوز التصرف في مملوكه بلا إذن منه يمكن ان يمنع الذين يمتلكون حد النصاب من الايمان والمعرفة الالهية من ارتكاب ذلك الفعل. الاسلوب التربوي العام في القرآن الكريم هو انه لكي يصدّ الانسان عن ارتكاب المعصية في مورد ما يقوم بتخويفه من التبعات السيئة والعذاب المترتب عليها، ثم يرغّبه في الآثار الحسنة والثمار الجيدة والطيبة التي تترتّب على ترك المعصية فيشجّعه بهذه الطريقة على ترك المعصية. وهذا الانذار والتبشير أو التشجيع والتخويف يوجدان متقارنين في كل مواضع القرآن وان فاقت موارد الانذار موارد التبشير.

بناء على ذلك في الدرجة الأُولىٰ تكفي الذين لديهم معرفة بالله ويؤمنون به معرفتهم وايمانهم في الردع عن ارتكابهم هذه المعصية الكبيرة، وفي الدرجة الثانية يكون الالتفات الى التبعات المرّة والنتائج السيئة للمعصية والثمار الطيبة لترك المعصية اكبر تأثيراً بالنسبة لعموم الناس، ويحول هذا العامل دون ارتكابهم لهذه

المعصية الى حد كبير، ولكن البعض من بني الانسان يكون ايمانهم ضعيفا الى حد لا يمنعهم التذكير بهذه التبعات من ارتكاب المعصية، وعند الانفعال والغضب تنتابهم أحياناً حالة يفقد فيها هذا العامل تأثيره. لمثل هؤلاء الافراد تكون العقوبة الدنيوية ذات تأثير وردع أقوى.

لقد وضع القرآن الكريم حدوداً أو قصاصا أو دية للكثير من المعاصي، وهناك اشارات في الآيات ذاتها الى ان تنفيذ هذه العقوبات هي للحد من ارتكاب الجريمة، قال تعالىٰ في آية كريمة:

﴿وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ﴾[١].

بديهي ان من يُقتل بحكم القصاص لا حياة له، كما انّ المقتول ليس حيّاً. وعليه فانّ المراد من هذه الآية هو ان تنفيذ القصاص يكون منشأ لحفظ وحياة سائر الافراد وأعضاء المجتمع وبقائها، ويحول دون ارتكاب الآخرين القتل وتهديد حياة الآخرين.

وتقول آية أُخرىٰ:

﴿وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلاٰ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾[٢].

اذا لم يجعل لولي القتيل قدرة قانونية على القصاص فسوف تكثر حوادث القتل يسبب الانتقام المتبادل، إذنْ وجود هذه القدرة القانونية لولي المقتول يمنع الآخرين من ارتكاب هذا الفعل. بناء على ذلك فانّ القصاص والديات والحدود وامثالها وضعت كطرق مختلفة للصد عن هذا الفعل الخطير.

حق الحياة وحفظ الأجيال

قلنا ان اول ما تجب رعايته في المجتمع هو حفظ حياة أعضاء المجتمع. وتبعاً لذلك ينبغي الالتفات الى قضية صيانة الأجيال التى تعتبر من فروع المحافظة على النفس، أي اضافة الى وجوب حفظ حياة افراد المجتمع الموجودين ينبغي الاهتمام ببقاء الأجيال الآتية سالمين آمنين.

---

١. البقرة ١٧٩.   ٢. الاسراء ٣٣.

في هذا السياق تطرح قضايا من قبيل الفحشاء وكل ما يضر بسلامة الجيل البشري وتبين احكامها، ولكن نظراً لطرح هذه الموضوعات سابقاً نقول هنا على نحو الاشارة بانّ هذه القضايا ذات جوانب اجتماعية أيضاً، فالطغيان في الغريزة الجنسية مثلا والافراط في اشباعها واستخدام طرق غير مشروعة اضافة الى منعها لكمالات النفس الأُخرىٰ تكون ضارة بالمجتمع أيضاً وخطراً يهدّد اساس المجتمع ويبيد الأجيال المقبلة.

صيانة الكرامة والشخصية

القسم الثاني من القضايا التي نطرحها هنا هو صيانة شخصية الافراد التي تكون بعد حق الحياة من أهم الحقوق الانسانية. فافراد المجتمع ـ سوى تمتعهم بالأمن على ارواحهم ـ لابدّ من صيانة أعراضهم وكرامتهم وحيثيتهم وشرفهم في المجتمع وعدم الاعتداء عليها من قِبل الآخرين.

في هذا المجال توجد قضايا مختلفة التفت اليها القرآن الكريم وقدتّم التطّرق اليها في كتب الأخلاق، الا اننا نذكرها هنا تحت عنوان (صيانة الكرامة والشخصية).

سوء الظن والتجسس والغيبة

جاء في إحدىٰ الآيات القرآنية:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لاٰ تَجَسَّسُوا وَ لاٰ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ تَوّٰابٌ رَحِيمٌ﴾[1].

في هذه الآية نهي عن ثلاثة افعال وفق ترتيب جميل حيث يمكن القول ان كل واحد منها ذنب أعظم من الذنب السابق عليه.

في المرحلة الأُولىٰ تنهىٰ المسلمين من سوء الظن بحق المؤمنين الذين يمثلون الاعضاء الأصليين للمجتمع الاسلامي، اذ انّ سوء الظن بالافراد يكون منشأ

١. الحجرات ١٢.

للاعتداء على شخصيتهم، أي انه في الواقع يبدأ بصيانة شخصية أعضاء المجتمع من هذه النقطة بأن لا تسيئوا الظن بالمؤمنين حتى في قلوبكم.

في المرحلة الثانية تصل النوبة ـ بعد مرحلة سوء الظن ـ الىٰ مرحلة تتبّع زلّات الآخرين وقد نُهي عنه في هذه الآية أيضاً. بناء على ذلك ينبغي عدم تتبع زلات الآخرين أيضاً اضافة الى الاحتراز من سوء الظن. فهناك اشخاص قد يمارسون اعمالا غير صحيحة في حياتهم الشخصية خفية، فبما انهم يخفون ذلك فلا تجسسوا عليهم لتتعرفوا على عيوبهم.

المرحلة الثالثة هي الغيبة، اذا اطلعتم على عيب شخص فلا تبينوا ذلك للآخرين، ولا تثيروا سوء ظنهم ازاءه ولا تخبروهم عن عيوبه واسراره ولا تهدروا كرامته في المجتمع.

تكمن الحكمة العامة في هذه النواهي في ان أعضاء المجتمع كلما كانت علاقاتهم اكثر ودّية وازدادوا أنسا فيما بينهم كانوا أقرب الى بعضهم، وتتحقق اهداف الحياة الاجتماعية لديهم بنحو أفضل. فلابدّ إذنْ من الحيلولة دون كل ما يثير سوء الظن عندهم تجاه بعضهم ويضعف ودَّهم وأنسهم وتآلفهم.

حينما نلاحظ المجتمع ملاحظة واقعية نستنتج ان أعضاء المجتمع الاسلامي ليسوا معصومين،، فهناك ـ شئنا أم أبينا ـ زلّات وأخطاء ونقائص في شؤون حياتهم. في هذه الحالة اذا تقرر أن يقوم كل شخص بتتبع اخطاء الآخرين بنفسه والإخبار عنها أو بيانها للآخرين فسوف تنعدم الثقة بين افراد المجتمع.

ان الله تعالىٰ لا يرضى أن تهدر كرامات المؤمنين، وكون الله ستاراً يقتضي ان تكون الاخطاء والنقائص مستورة عن انظار الآخرين. كما تقتضي مصالح المجتمع الاسلامي ان تبقى هذه الزلات والنقائص والشؤون الشخصية للافراد مستورة عن الآخرين. وقد علّمتنا التجارب أيضاً اننا حينما نحسن الظن بشخص سيقوى ميلنا القلبي نحوه، وهو ميل ناشئ من العلاقات الايمانية في سبيل الله في طريق الكمال الانساني، وعلى العكس اذا اطلعنا على زلاته وعلمنا بارتكابه بعض المعاصي فان علاقتنا به سوف تضعف طبعا. وفي المقابل سوف تكون له هذه الحالة تجاهنا.

اذا شاعت هذه الحالة في المجتمع فان افراده سوف يفقدون التوادد بينهم، وفقدان المودة والتعاطف العام هذا سوف يكون سببا لتفكك المجتمع الاسلامي. وفي رواية عن امير المؤمنين عليه السلام: «لو تكاشفتم ما تدافنتم»[١].

ان الله سبحانه لا يريد ان يكون الناس سيئي الظن ومتنافرين فيما بينهم وأن تملأ البغضاء والاحقاد قلوبهم. ولكي لا تحصل هذه الحالة ولا تتنافر قلوب المؤمنين ولا تترك آثارها السلبية على حياتهم الاجتماعية عمليا ينبغي السعي لابقاء اسرار الناس مستورة، ولا يكون أحد بصدد الاطلاع عليها. واذ اطّلع عليها صدفة فلا يبيّنها للآخرين.

في هذه الموارد توجد استثناءات كما هو الحال في كل الموارد قد تناولها علماء الأخلاق وهكذا الفقهاء في كتبهم. من موارد الاستثناء مثلا هو التشاور بشأن شخص آخر، فاذا توقفت الرؤية الصالحة للمستشار علىٰ بيان عيب ذلك الشخص فلا يوجد اشكال اخلاقي وشرعي في ذكر هذا العيب وافشاء الأسرار للمستشير.

المورد الآخر هو اذا اقتضت مصالح المجتمع التجسس حول اسرار شخص وذكر معايبه. فعندما يناط منصب الى شخص وتجعل نفوس المسلمين واموالهم بيده فلا ينبغي الاكتفاء بحسن الظن ظاهراً، بل يلزم بذل الدقة اللازمه في انتخابه. وهناك موارد أُخرىٰ أيضاً يجوز فيها ـ حسب الحكم الثانوي ـ التجسس والتحقيق أو افشاء الأسرار والغيبة، الّا انّ الأصل في الحياة الاجتماعية هو ان لا تتكشّف عيوب المسلمين فيما بينهم، وعلى الافراد عدم التجسس علىٰ عيوب الآخرين، وان لا يغتاب بعضهم بعضا فانه عمل قبيح جداً في رؤية القرآن وهو يشبه أكل شخص لحمَ أخيه المؤمن ميتا.

التهمة والبهتان

المرحلة الرابعة هي البهتان وهو افظع من الغيبة، لان الغيبة تعني ان يتحدّث للآخرين عن عيب واقعي في الشخص، ولكن في البهتان يُنسب العيب الى الشخص

---

١. بحار الانوار ٧٧ ص ٣٨١ الباب ١٥ الرواية ١٠.

مع عدم وجوده فيه واقعا. من هنا فان هذا الفعل قبيح جداً وضار شديداً، وقد نهىٰ القرآن الكريم عنه وذمّه في موارد كثيرة. ومن الواضح ان مثل هذا الفعل اذا شاع في المجتمع فسوف يشكّل تهديداً لأمن الافراد وكرامتهم.

في المجتمع الذي يرىٰ جواز اتهام الآخرين واسناد امور كاذبة وغير لائقة بهم فان أعضاءه لا يشعرون بالامان والطمأنينة ويعيشون الاضطراب دائماً، ويشعرون بسوء الظن فيما بينهم، ومع هذه الحاله فانّ المجتمع يتعرض للانهيار. مثل هؤلاء الاشخاص لا يأنسون فيما بينهم ولا يتعاطفون ولا يمكن ان يسودهم التعاون والتعاضد والتعايش الجيد والسعي المشترك نحو تحقيق الأهداف الاسلامية.

قال تعالىٰ بهذا الشأن:

﴿وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَ إِثْماً مُبِيناً﴾[١].

وقال سبحانه في آية أُخرىٰ:

﴿وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَ إِثْماً مُبِيناً﴾[٢].

في اية أُخرىٰ بيّن الله تعالىٰ مورداً خاصا حدث في عصر رسول الله ﷺ أي قصة الإفك المعروفة والبهتان الذي تعرّض له بعض المسلمين، واستنكر ذلك بتعابير شديدة جداً ووجّه تعاليم مربيّة من خلالها:

﴿لَوْ لاٰ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَ قَالُوا هٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾[٣].

في هذه الآية جاءت العبارة (ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا) كتعبير جميل جداً واشارة الى أن على المؤمنين اعتبار أعضاء مجتمعهم كافة ـ وهم اشخاص مؤمنون ـ كأنفسهم، يكرهون لهم ما يكرهون لانفسهم، إذ انّها اعتبرت سوء الظن بسائر المؤمنين سوء ظن بأنفسهم. إذنْ كما يرىٰ المؤمن وضعه بوضوح

---

١. النساء ١١٢.
٢. الاحزاب ٥٨.
٣. النور ١٢.

ولا يظن بنفسه سوء ويدافع بشدة عن حيثيته وكرامته فعليه ان لا يظن سوء بسائر المؤمنين ويدافع عن حيثيتهم بشدة. وعليه يكون الواجب الاول للمؤمن في مثل هذه القضية هو أن يكذّبها ويقول جازما: انه بهتان وافتراء واضح.

وواجبه الثاني هو أن لا يفيض فيها ولا يعمل علىٰ اشاعتها وليعلم ان ذلك ذنب عظيم، قال تعالىٰ عقيب هذه القصة:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوٰاهِكُمْ مٰا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ اللّٰهِ عَظِيمٌ﴾[١].

ان عِرض المؤمن وكرامته محترمة كدمه ونفسه وحريم المؤمن هو حريم الله، وليس أمراً يسهل لكل انسان الدخول فيه فيهتك حرمة المؤمن ويقول ما يشاء. لقد أولى الله سبحانه اهتماماً بالغاً بهذه القضية وقال عقيبها:

﴿وَ لَوْ لاٰ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مٰا يَكُونُ لَنٰا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰذٰا سُبْحٰانَكَ هٰذٰا بُهْتٰانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللّٰهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٢].

تدل الآيات بوضوح على ان كرامة المؤمن متى ما تعرضت للخطر فعلى الآخرين الدفاع عنه وتكذيب ما نُسب اليه بصراحة وحزم، وان يقولوا لا وجود لهذا الأمر ولا يحق لنا التحدث عن ذلك.

وعقيب هذه الآية جاءت آية أُخرىٰ حول صيانة كرامة وشخصية المؤمنين وهو أمر مهم وتربوي جداً، تقول هذه الآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفٰاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَةِ وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ﴾[٣].

الاستهزاء والسخرية

من العوامل التي تهدّد شخصية أعضاء المجتمع هو الاستهزاء بالآخرين، فبعض الناس يحقّرون الآخرين بالسخرية والاستهزاء لتحطيم شخصيتهم من خلال ذلك،

---

١. النور ١٥.
٢. النور ١٦ و ١٧.
٣. النور ١٩.

ويعتبر هذا من الأساليب الشيطانية الشائعة الموجودة في كل المجتمعات.

هذه الفئة من المعتدين حينما يلاحظون عدم وجود من يماشي طبيعتهم، أو من الممكن ان يضايقهم في المال أو المنصب أو سائر شؤون الحياة فلكي لا يسمحوا له ان يحقق تقدما وينال مكانة اجتماعية يبدأون بالاستهزاء به وتحطيم شخصيته بالسخرية والتحقير.

كان هذا الأمر شائعا بين جميع الشعوب حتى انهم كانوا يحاربون الانبياءعليهم السلام بهذا الاسلوب. فعندما يُبعث نبي بين قوم كان أحد ردود الفعل لدىٰ الاقوام كافة هو الاستهزاء به كي لا يحظى بمكانة اجتماعية ولا يصغي الناس إلى أقواله.

بديهي ان الاستهزاء بالانبياءعليهم السلام من أسوء انواع الاستهزاء لان وجود الانبياء من اعظم النعم الالهية، فتحقير شخصيتهم والاستهزاء بهم كفران بأعظم النعم الالهية واعظم خيانة بحق المجتمع، وفي مستوى ادنى فان الاستهزاء بصورة عامة بحق أي انسان له قيمة سلبية. وطبعا كلما كانت شخصية الانسان اكثر احتراما وانفع وارفع عند الله فان الاستهزاء به يكون اكثر ضرراً وذا قيمة سلبية اكبر.

على أي حال فان كل عضو من أعضاء المجتمع له موقعه ويجب الانتفاع منه في سبيل توفير المصالح والمنافع الاسلاميه، وتحقيره يسبب عدم انجاز عمله النافع للمجتمع بصورة صحيحة ولا يستفاد منه الفائدة المتوخاة. وواضح ان هذا الامر يضر بالمجتمع اضافة الى احتمال ترك آثار سيئة في نفوس الافراد واثارة روح الانتقام والرد المقابل في الطرف الآخر، اذ انّ الناس ليسوا كالنبيصلى الله عليه وآله وسلم والامام المعصومعليه السلام ليبدوا حلماً بذلك المقدار وعدم الاكتراث بالاستهزاء والتحقير.

وقد يعرّضهم ذلك الى الغم والحزن الشديد والآلام النفسية الشديدة فلا يفقدون موقعهم الاجتماعي فحسب بل يسقطون في حياتهم الفردية أيضاً.

رؤية القرآن عن الاستهزاء

في القرآن الكريم تأكيدات ووصايا كثيرة حول هذا الأمر يمكن تقسيمها الى عدة مجموعات:

الأُولىٰ: الآيات التي تنهىٰ بصورة عامة كل رجل وامرأة من الاستهزاء بمؤمن آخر من قبيل قوله تعالى:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ﴾[١].

الثانية: الآيات التي تبين الحوادث الواقعة وتذكر بقبحها وخطرها. هذه الحوادث قد وقعت من قبل الكفار في بعض الموارد، ومن المنافقين في بعض آخر، وعلى يد ذوي الايمان الضعيف في بعض آخر. كالآية:

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَياةُ الدُّنْيا وَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ اللّٰهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾[٢].

الدنيا جميلة وذات جلال في نظر الكفار، وعلى العكس فانّ المؤمنين لا ينظرون الى الحياة الدنيا اكثر من حدها بل يعدّونها وسيلة للوصول الى الآخرة، ويكون اهتمامهم بالدنيا بمستوى الانتفاع بها لسعادتهم الأبدية. من هنا كان بين المؤمنين اشخاص قد بذلوا اموالهم في سبيل الاسلام وباتوا معدمين أو افتقروا لاسباب أُخرىٰ وكان الكفار وهم اعداء الاسلام والمجتمع الاسلامي يستهزئون بهم. في الآية المذكورة يصبّر الله سبحانه المؤمنين المقارعين للكفر ـ بعد ذكر هذه القضية المشوبة بالكفر ـ ويدعوهم الى عدم التنازل، وليعلموا ان مقامهم عند الله وفي يوم القيامة اسمى كثيراً.

يمكن استنباط هذه الملاحظة من ذيل الآية (والله يرزق من يشاء بغير حساب) وهي ان علة استهزاء الكفار هو فقر المؤمنين لذا يقول:

﴿وَ اللّٰهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾

والمنافقون أيضاً رغم تظاهرهم بالاسلام وكونهم يعيشون في المجتمع الاسلامي وبين المسلمين كانوا يستهزئون بالمؤمنين الحقيقيين بذرائع مختلفة، خاصةً فيما يرتبط بانفاقهم وصدقاتهم، وبعض الآيات تشير الى هذه الحقيقة كالآية:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاّ

---

١. الحجرات ١١.

٢. البقرة ٢١٢.

جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّٰهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

المستفاد من الآية انّ المنافقين كانوا يستهزئون بفئتين من المؤمنين والصالحين في المجتمع الاسلامي:

الأُولىٰ: بالذين يتصدقون استحباباً فوق المستوى الواجب لكي ينالوا رضا الله بطاعتهم الاستحبابية وانقيادهم الكامل.

الثانية: بالمؤمنين الذين كانت صدقاتهم قليلة جداً وكانوا عاجزين عن الاعانة اكثر من ذلك كالمؤمنين الفقراء في المجتمع الاسلامي الايراني ابّان الحرب مع العراق، حيث كانوا يساندون مصروفات الحرب بأموالهم القليلة. أجل في عصرنا (عصر الثورة الاسلامية) وهكذا في العهد الاول للاسلام كان ثمة افراد يودّون بشدة تقديم ما بوسعهم من مساعدات قليلة بكل رغبة واخلاص. وكان المنافقون الجهلة يستهزئون بهؤلاء الافراد بضحكاتهم ولمزهم بان هؤلاء يريدون اسناد الحكومة الاسلامية باشياء تافهة، ولكن ليعلم المستهزئون بهؤلاء المؤمنين المخلصين بان الله سبحانه سوف يحاسبهم ويستهزئ بهم وقد أعدّ لهم عذابا أليما على أعمالهم هذه.

السخرية بالأنبياء

لدينا آيات تتحدث عن الاستهزاء والسخرية بالانبياء عليهم السلام من قِبل مناوئيهم، ويمكن تقسيمها الى عدة أقسام:

الأُولىٰ: الآيات التي تخبر عن هذه الحقيقة الاجتماعية والتاريخية المرّة بصورة عامة وتقول بانه لم يُبعث نبي في مجتمع على طول التاريخ الا وقد استهزأ به بعض الافراد في المجتمع كقوله تعالىٰ:

﴿يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾[٢].

﴿وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾[٣].

﴿وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاّٰ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾[٤].

---

١. التوبة ٧٩.
٢. يس ٣٠.
٣. الحجر ١١.
٤. الزخرف ٧.

الآيات المذكورة من خلال بيان هذه الحقيقة التاريخية القطعية وهي الاستهزاء بالانبياء من قِبل جهلة الناس تذم هذا الفعل القبيح بتعابير مختلفة.

الثانية: الآيات التي تبين العاقبة السيئة والعذاب المعدّ للذين كانوا يستهزئون بالانبياء عليهم السلام كقوله تعالىٰ:

﴿وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحٰاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾[1].

﴿وَ إِذٰا عَلِمَ مِنْ آيٰاتِنٰا شَيْئاً اتَّخَذَهٰا هُزُواً أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ﴾[2].

وبعض آيات الكتاب تشير الى انّ المستهزئين يتحسرون ويندمون على افعالهم حيث تقول:

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يٰا حَسْرَتىٰ عَلىٰ مٰا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللّٰهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السّٰاخِرِينَ﴾[3].

وبعض الآيات تشير الى الجزاء الحسن الذي أعدّ للمستهزَء بهم ومواساتهم، كقوله تعالىٰ:

﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتّٰى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمٰا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفٰائِزُونَ﴾[4].

وتشير بعض الآيات الى الجذور النفسية لهذا الاستهزاء بان هذا التعامل غيرالعقلائي وغيرالمنطقي مع الانبياء عليهم السلام واولياء الله وآياته ينشأ من السيرة السيئة والتلوث الأخلاقي والعملي وبالتالي سوف يؤدي ذلك الى التكذيب بآيات الله سبحانه والاستهزاء بها كقوله تعالىٰ:

﴿ثُمَّ كٰانَ عٰاقِبَةَ الَّذِينَ أَسٰاؤُا السُّواىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِ اللّٰهِ وَ كٰانُوا بِهٰا

---

١. الانبياء ٤١.
٢. الجاثية ٩.
٣. الزمر ٥٦.
٤. المؤمنون ١١٠ و ١١١.

يَسْتَهْزِؤُنَ﴾[١].

وتشير بعض آيات القرآن الكريم الى موارد معينة من الاستهزاء بـالانبياءعليهم السلام، منها استهزاء قوم نوحعليه السلام، حيث تتحدث عن انّ النبي نوحاًعليه السلام الذي مضى اكثر من ألف عام على عمره الشريف حينما يئس من دعوة قومه بدأ بصنع السـفينة لكـي ينجو المؤمنون واتباعه بركوبها من العذاب الالهـي والغـرق، الّا انّ قـومه حـينما شاهدوه وهو يقوم بصنع السفينة في مكان لا ماء فيه أخذوا بالاستهزاء به. لقد أخبر الله سبحانه عن هذا الحدث بقوله:

﴿وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّمٰا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قٰالَ إِنْ تَسْـخَرُوا مِنّٰا فَإِنّٰا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمٰا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذٰابٌ مُقِيمٌ﴾[٢].

المورد الآخر هو ضحك آل فرعون واستهزاؤهم حيث سخروا من موسىعليه السلام، قال تعالىٰ بهذا الشأن:

﴿فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ بِآيٰاتِنٰا إِذٰا هُمْ مِنْهٰا يَضْحَكُونَ﴾[٣].

ومورد مشابه آخر هو أن القرآن يشير فـي آيـات عـديده الى اسـتهزاء كـفار ومشركي قريش وعبدة الأصنام في مكة برسول الاسلام الكريم صلى الله عليه وآله، فقد قـال تعالىٰ في آية:

﴿وَ إِذٰا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاّٰ هُزُواً أَ هٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللّٰهُ رَسُولاً﴾[٤].

يقول الله تعالىٰ في بعض الآيات[٥] بانهم كانوا يسخرون باقوال النبي وآيات الله، ويخبر في بعض آخر عن انهم كانوا يستهزئون بالمؤمنين وأتباع رسول اللهصلى الله عليه وآله، قال تعالىٰ:

---

١. الروم ١٠.
٢. هود ٣٨ و ٣٩.
٣. الزخرف ٤٧.
٤. الفرقان ٤١.
٥. الصافات ١٢ و ١٤ والجاثية ٩.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَ إِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلىٰ أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾[١].

البرنامج التربوي للاسلام

في القرآن الكريم برنامج تربوي خاص لردع الافراد عن ممارسة هذا الفعل القبيح، فيقول تعالىٰ في مقام تربية المؤمنين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَ لاٰ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَ لاٰ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَ لاٰ تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٢].

في هذه الآية يدعو الله تعالىٰ المؤمنين الى الاحتراز الشديد من السخرية بالمؤمنين. ثم يشير على اساس التحليل النفسي الى الجذور النفسية والسبب الرئيسي لهذا العمل القبيح، ويقول بانّ الكثير من الذين تظنون انهم سيئون وترون النقص فيهم وتسخرون منهم على ذلك هم افضل منكم وأعز عند الله عز وجل.

هذه الآية الكريمة تذكّر بقضية اخلاقية مهمة جداً ذات جانب فردي وجانب اجتماعي، وهي انه لا يحق لأحد أن يعتبر غيره أدنىٰ منه، فان مثل هذا التفكير يعود بالضرر الشديد على المؤمن وروحه الايمانية وتربيته الاسلامية والالهية. فالمؤمن لكي يكون ذا تكامل روحي ينبغي ان يرىٰ نفسه أدنىٰ ويشعر بالذل في أعماقه.

ان قولنا: المؤمن عزيز وينبغي اعزاز المؤمن، يعني ان على الآخرين حفظ عزة المؤمن، ولكن على كل مؤمن ان يرىٰ الحقارة والدناءة في نفسه ويكون متواضعا

---

١. المطففين ٢٩ ـ ٣١.

٢. الحجرات ١١.

ويحس بالذل بين يدي الله تعالىٰ.

يقول الامام السجاد‌عليه‌السلام:(ولا ترفعني في الناس درجة الا حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزا ظاهرا الا احدثت لي ذلة باطنه عند نفسي بقدرها) ـ دعاء مكارم الأخلاق.

انه منهج مؤثر جداً لبناء الذات، وذلك بان لا يرىٰ الانسان نفسه افضل من الآخرين أبداً بل يرىٰ نفسه حقيراً وناقصا ويسعىٰ لإصلاح نفسه وبنائها. يدعو الاسلام دائماً الى هذا المنهج في برنامجه التربوي.

وقد روي ان الله خاطب النبيّ موسى‌عليه‌السلام: اذا أقبلت للمناجاة في جبل الطور مرة أُخرىٰ فاصطحب معك مخلوقا أدنىٰ منك، فأخذ موسى يبحث عن هذا المخلوق بين الناس، وبعد فحص كثير لم يجد من هو أدنىٰ منه، اذ لعله ذو مقام رفيع عند الله وعزيز ولكن الآخرين يجهلونه، وانْ كان عاصيا، اذ ان ذلك لا يدل حتماً على انه سيء، فلعله قد تاب الى الله بعيداً عن انظار الناس. ولذا اتّجه الى الحيوانات لعلّه يجد حيوانا هو الاسوء من بينها ليصطحبه معه، الّا انّه وجدها أيضاً لا تؤذي احدا ولا ذنب لها فكيف يمكن القول انها اسوء؟ مضى حتى وجد كلبا ذارائحة عفنة، فأراد اصطحابه الّا انّه فكّر بانه أيضاً حيوان بريء في حين ان بني الانسان عصاة ويمكن ان يكونوا احط من الكلب بسبب معاصيهم.

واخيرا جاء الى جبل الطور خالي اليدين، فخوطب لماذا لم تعمل بما أمرت به؟ فأجاب: إلٰهي لم أجد مثل هذا المخلوق، فخوطب: لو كنت أتيت بذلك الكلب لمحوت اسمك من سجل الانبياء.

هذه القصة تعلّمنا قضية تربوية مهمة ينبغي ان لا نغفل عنها أبداً. على الانسان ان لا يعتبر أي انسان آخر ـ سيّما المؤمن وان كان عاصيا ـ دونه، وان لا يظن انه افضل

واعلى من الآخرين أبداً، اذ من الممكن ان يتسافل افراد وأُناس طاهرون وذوو مقام رفيع ويصبحوا أحطَّ من اولئك العصاة.

اننا طبعا مأمورون بالظاهر عند أداء الواجبات والتكاليف، فلابدّ أن نحترم المتقين ظاهراً، ونأمر العاصي بالمعروف وننهاه عن المنكر، ولا ينبغي ان نستند الى رؤية هذه الظواهر ونعتبر الآخرين دوننا ونحن افضل منهم. في هذا المجال توجد روايات كثيرة تدعو الى الاحتراز من تحقير أي مؤمن اذ لعله من اولياء الله وهو مجهول وقد اخفى الله عز وجل اولياءه بين الناس. إذنْ يجب ان لا ننظر الى أحد بعين الاحتقار. وتترتب آثار تربوية واخلاقية واجتماعية مهمة على هذين الارشادين الأخلاقيين المهمين:

الاول اعتبار أنفسنا دون الآخرين والشعور بالحقارة في أنفسنا، الثاني ان لا نحقّر اي مؤمن آخر إذ لعلّه من اولياء الله عز وجل. لاننا حينما نعتبر انفسنا أحقر وأدنىٰ نبدأ بالتفكير في تطهير انفسنا وتزكيتها وتعاليها وتكاملها ونضاعف جهودنا وتحركنا في هذا المجال، وحينما نعتقد بان اولياء الله مختفون بين الناس فاننا سوف لا نحقّر أي انسان، بل نقوم باحترام الجميع حتى تترسخ وتقوى علاقاتنا الاجتماعية ويسود أعضاء المجتمع كافة الشعور بالمودة والمواساة والتعاون.

يترتب على تحقير وتسقيط شخصية الآخرين ـ اضافة الىٰ التبعات الأخلاقية ـ خسائر وأضرار اجتماعية كبيرة أيضاً ويُهدّد وجود المجتمع وكيانه. وأقل اضرار ذلك هو ظهور العداء وتعكير الصفاء وزوال التعاطف بين أعضاء المجتمع مما يؤدي الى عدم المواساة والتعاون والتعايش في المجتمع.

الآية المذكورة تمنع ـ اضافة الى السخرية ـ من الممارسات الأُخرىٰ التي تؤدي الى تحقير الآخرين وتحطيم شخصيتهم كاللمز والتسقيط والتخاطب مع الآخرين بأسماء سيئة. ويمكن القول بنحو عام ان الآية الكريمة وان ذكرت موارد خاصة كـ

(لا تلمزوا انفسكم ولا تنابزوا بالالقاب) ولكنه واضح ان هذه الموارد هي مجرد نماذج، والغاية الأساسية هيان لا تتعرض شخصية الآخرين للهجوم من أي طريق. انّ التعرض لشخصية الآخرين في المجتمع بأي نحو كان مدان وممنوع ويكون سببا لتبدل ايمان الانسان الى الفسق والسقوط المعنوي، كما يشهد عليه ذيل الآية (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) حيث يشير الى انّ المؤمن اذا مارس هذه الافعال يصبح فاسقا ويطلق عليه هذا الاسم القبيح.

بناء على ذلك فانّ التعامل الفظ والمهين مع المؤمنين لسانا وعملا يكون مدانا في الرؤية الاسلامية وله تبعات اجتماعية مدمّرة. فاذا تواجه شخصان بالشتم والكلام البذيء أو التضارب فلا يمكن ان يتحابّا أو يشتركا في نشاط اجتماعي.

العبوس واللامبالاة

للعبوس والاهمال تبعات مدمرة على المجتمع والعلاقات الاجتماعية أيضا، ويعملان على تنافر القلوب بين افراد المجتمع، ويضعفان الانس والمودة فيما بينهم وهكذا الشعور بالمسؤولية والمواساة. بناء على ذلك فان على أعضاء المجتمع ان يتعاملوا بصدر رحب وتعاطف وان لايغفلوا عن الاهتمام بمصير الآخرين. خاصة اصحاب المكانة الاجتماعية والذين يقودون ويرشدون الناس نوعا ما أو المعلمون والمربون أو المدراء واصحاب الاعمال ومن يعمل آخرون بإمرتهم فان عليهم رعاية هذه القضية، قال تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿عَبَسَ وَ تَوَلّٰى * أَنْ جاءَهُ الْأَعْمىٰ * وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكّٰى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرىٰ﴾[1]

---

١. عبس ٤-١.

في هذه الآيات يذم الله عز وجل من واجه الأعمى بالعبوس مما يدل على ان هذا الفعل مُدان وسيء اخلاقيا. ولا فرق في هذا الفعل بين فاعل وآخر. فهناك اختلاف في فاعل (عبس) والاعمى الذي عبس بوجهه. المشهور بين مفسري الشيعة ان شخصا كان في مجلس النبي ﷺ فانزعج من دخول الفقير الاعمى الى ذلك المجلس وتنفّر منه ولم يسمح له بالجلوس الى جنبه. وقد ذمّه الله تعالىٰ علىٰ هذا النفور، ولكي يرد عليه بالاهمال كما هو أهمل ذلك الاعمى استعمل لفظ ـ عبس ـ وهو فعل الغائب بدون ذكر فاعله.

وقد اشار القرآن الى هذه الصفات القبيحة أيضاً لدىٰ حكايته نصائح لقمان لولده حيث قال:

﴿وَ لاٰ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنّٰاسِ وَ لاٰ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتٰالٍ فَخُورٍ * وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوٰاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[1].

لقد منع لقمان الحكيم ولده في ارشاداته من العبوس بوجه الناس واهمالهم حيث يسبِّب أذاهم النفسي وتنافر القلوب ويؤكد الله سبحانه علىٰ قبحه بنقله في القرآن الكريم. وذكر هذه الصفة القبيحة بين الصفات القبيحة الأُخرىٰ كالتكبر ومدح النفس والغرور والتبختر يدل على التناسق والسنخية فيما بينها، ويدل على انّ القيمة السلبية الثابتة لها تثبت للعبوس والاهمال أيضاً.

ان للعبوس والاهمال أضراراً معنوية واخلاقية كبيرة ويهدّدان العلاقات الاجتماعية ويعملان على عدم الاهتمام وضعف الشعور بين الافراد. وفي المقابل تعمل البشاشة والتواضع والتعاطف والمودة واللين وامثالها على انجذاب القلوب

---

١. لقمان ١٨ و ١٩.

لبعضها وتكسب مودة الآخرين واهتمامهم المتبادل وتزيد من الشعور بالمسؤولية لدىٰ أعضاء المجتمع بنحو متبادل. قال تعالىٰ مخاطبا نبيه الكريمﷺ:

﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللّٰهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[1].

ان لين النبي وعطفه كان تجليا للرحمة الالهية كي يلتف الناس حوله ويحظوا بالهداية الالهية وارشادات رسول اللهﷺ فيصل المجتمع الى سعادته.

الضابط الحقوقي والأخلاقي لهتك الحيثية

الآن وقد اتضح الدور المهم للحفاظ على الكرامة والحيثية في ترسيخ العلاقات الاجتماعية وتعايش بني الانسان، والتهديد المتّجه الى العلاقات الاجتماعية والتعايش السلمي إثر التعرض لحيثية الافراد يطرح هذا السؤال: كيف يمكن الاحتفاظ على كرامة الافراد وأعضاء المجتمع والحيلولة دون التعرّض لأعراضهم؟

يجب القول في الاجابة: لأجل الاحتفاظ على أعراض الناس وكرامتهم يستفاد من عاملين ودافعين: حقوقي واخلاقي.

أمّا في مجال الحقوق فان جميع النظم الحقوقية تعتبر الاعتداء على حيثية الآخرين وكرامتهم جريمة، وقد شرّعت عقوبات كالسجن والغرامة المالية على من يرتكب ذلك. وقد شرع الاسلام أيضاً عقوبات في بعض الموارد المهمة جداً ويطلق عليها (الحدود) في الاصطلاح الفقهي أو النظام الحقوقي للاسلام، وتُبين كما وكيفا في باب مستقل من الكتب الفقهية باسم (كتاب الحدود).

من الموارد الرئيسية ذات الحد في الفقه الاسلامي هو اتهام الافراد بالفساد

---

١. آل عمران ١٥٩.

والفحشاء ويطلق عليه (القذف) في الفقه.

من اتهم شخصا بفعل قبيح كالزنا أو اللواط وجب اقامة حد القذف عليه شرعا لانه قد انتهك حرمة المتهم بهذا الادعاء واسقط حيثيته حتى يثبت صحة ادعائه بأربعة شهود عدول. وفي غير هذه الحالة حتى لو شهد ثلاثة شهود عدول علىٰ صحّة قوله فانهم يعاقبون اضافة الى المدعي.

وفي الموارد التي لا يوجد حدّ شرعي فيها أذن الاسلام للحاكم الشرعي بان يعاقب المعتدي حسب رأيه وتشخيصه. و يطلق على هذه العقوبة في الاصطلاح الفقهي اسمه «تعزير».

واما من الناحية الأخلاقية والتربوية فيطرح سؤال: كيف يمكن خلق دوافع نفسية في الافراد لاجتناب هذه الافعال تلقائيا بحيث يعالجون هذا المرض في انفسهم؟

وفي الاجابة يقال: ان الاسلام عالج هذا المرض باسلوبين اخلاقيين، أحدهما ذو تاثير أسرع وأوسع، والآخر أعمق وأكثر دواماً.

الاسلوب الاول هو إلفات النظر الىٰ الآثار السيئة والنتائج المرّة لهذه الافعال وتهديدها لسعادة الافراد. ان اهانة الآخرين وغيبتهم واتهامهم اضافة الى تسقيط كرامة المعتدى عليهم فان لها تبعات سيئة وثماراً مرة تلحق الافراد المعتدين انفسهم، فمثلا تكون سببا للنقص في كمالاتهم النفسية وبالتالي تهدّد سعادتهم الاخروية وحياتهم الخالدة.

انّ القرآن في تربيته الأخلاقية يستخدم هذا الاسلوب بنحو جيد. فعن طريق انذار الانسان وتخويفه من نتائج اعماله القبيحة، وتبشيره بالنتائج الطيبة للاعمال الصالحة يدفعه لممارسة الاعمال الصالحة ويبعده عن الاعمال السيئة.

بناء على ذلك فالذي يريد تطهير نفسه من الأدران فان من الطرق المؤثرة هو التفكير في الآثار السيئة للمعاصي والالتفات جيداً الى المفاسد المترتبة عليها سيّما ما يهدّد سعادته الأبدية. بديهي انّ الحياة الأبدية والسعادة الخالدة ذات أهمية بالغة بالنسبة للمؤمن، وحينما يلتفت الى ان الاعتداء على حريم شخصية الآخرين يهدّد سعادته وآخرته وتليه عقوبات أليمة فانه سيجتنب ذلك بنفسه. هذا الالتفات أفضل دافع وعامل قوي يصدّ من يؤمن بالآخرة والأبدية عن ممارسة المعصية.

اذا التفت المؤمن الىٰ ان ثواب الاعمال الصالحة التي قام بها بصعوبة ستنتقل الى من اغتابه أو هتك حرمته وشخصيته أو أسقط كرامته باتهامه فانه لا يميل أبداً الى هذا الفعل الضار ولا يغتاب أحداً ولا يتهم أي انسان لانه يعتقد ويؤمن بأن هذا الفعل يجلب له خسارة كبيرة لا تعوّض، وفي العالم الآخر يعجز عن التمتع بأعماله الصالحة وهو بحاجة الى اصغرها.

الاسلوب الثاني أعمق ويطرح طريقة ارسخ للعلاج وان كانت دائرة تأثيره أضيق. في هذه الطريقة يُدعى الانسان للتفكير في الدافع الذي يسوقه نحو هذا الفعل لكي يعرف لماذا يريد ممارسة هذا الفعل؟ وما السبب في عزمه على الاعتداء على شخصية الآخرين والتلوث بهذه المعصية؟ وبعد التعرف على جذور وعلة هذا الفعل العدواني يقوم بمعالجته، فاذا عولجت العلة فان هذه الافعال والاعتداءات التي تمثل الآثار والمعلولات لها سيُقضىٰ عليها من الأساس تلقائيا.

وبعبارة أوضح: إنّ الاعتداء على الشخصية وإن كان يرتبط بالعلاقات الاجتماعية ولكنّ العلاقات الاجتماعية بأجمعها ذات دوافع فردية وذات أسباب روحية ونفسية ولها جذور في خصوصيات الأخلاق الفردية. وبصورة عامة فان من الحقائق الثابتة انّ الأخلاق الاجتماعية ذات جذور في الأخلاق الفردية دائماً ولا

تنفصل عنها. في الحقيقة انّ القيم الايجابية والسلبية في العلاقات الاجتماعية ثمار لمجموعة من القيم الفردية والملكات التي يكسبها الافراد في ارواحهم، ولها تأثيرها على المستوى الاجتماعي وتترتب عليها ثمار مرّة وطيبة. ان هذه الملكات اذا كانت فاضلة فانها تكون منشأ للاخلاق والخصائل الاجتماعية الحسنة، واذا كانت رذيلة فانها تكون منشأ لافعال وسلوك اجتماعي غير لائق وتعامل خاطىء مع الآخرين. بناء على ذلك ينبغي لمكافحة الفساد الاجتماعي البحث عن جذوره في الخصوصيات الأخلاقية والنفسية للافراد، ومعرفة دوافعهم الفردية من خلال التحليل النفسي.

وقد أُشير الى هذه الحقيقة في القرآن الكريم والروايات أيضاً وهي انّ الفساد الاجتماعي ذو جذور نفسية، ولإصلاح هذا الفساد واشاعة الفضائل الاجتماعية لابدّ من معرفة الجذور النفسية والقيام بالإصلاح الروحي.

وبصورة عامة فان أهم العوامل التي تسبب قيام الانسان بتحقير شخصية الآخرين في المجتمع وتسقيطهم عاملان يوجد بينهما ارتباط وثيق: أحدهما الحسد، والآخر حب الذات.

هذان العاملان لا ينحصر تأثيرهما في العدوان على الشخصية بل لهما التأثير الكبير في اعتداءات الانسان الأُخرى، ولكن لتأثيرهما الخاص والاوضح بالنسبة للغيبة وتتبع العيوب وهتك الشخصية يمكن طرحهما كعاملين اساسيين.

أ ـ الحسد

قلنا إن أحد دوافع قتل النفس هو الحسد، وكان الدافع لأول قتل وقع على الارض ـ أي قتل هابيل على يد قابيل حسب ما ورد في القرآن ـ هو الحسد، وفي قصة

يوسف أيضاً كان الحسد هو الدافع لان يقوم اخوته بالقائه في البئر كما يحكي القرآن:

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلىٰ أَبِينَا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾[1].

فبسبب الحب الشديد الذي كان يكنّه الاب لولده يوسف واخيه من أُمه أخذ الاخوة الكبار من أُم ثانية يحسدونهما وتبدأ قصة يوسف ووقائعها المرّة والطيبة من هذه النقطة. ويستفاد من هذه القصّة انّ الحسد من أهمّ واعمق العوامل لهتك شخصية الافراد من خلال الاتّهام والغيبة وغيرهما. وللحسد ـ وهو العامل الاول لهذه الاعتداءات ـ انواع واقسام مختلفة، وبعبارة أُخرى: انّ الحسد ناشئ من عوامل مختلفة ويدفع الانسان للقيام بأعمال مناسبة لها.

من الموارد الشائعة التي تثير الحسد في الانسان وتدفعه للغيبة وتتبُّع العيوب والاستهزاء وما شاكل ذلك هو الجمال، وهذا النوع من الحسد يلاحظ في النساء بنحو أشدّ. إذ انّهن حينما يرين امرأة أُخرىٰ اكثر جمالاً وجذابية منهنّ ويمكن ان تكون أحب عند الآخرين يسعين للعثور على نقطة ضعف فيها أو يسندن اليها عيبا بهدف ازالة تأثير جمالها وجذابيتها.

العامل الأساسي الثاني الذي يدفع للحسد والغيبة وتتبُّع العيوب هو الخصوصيات العلمية للطرف الآخر. فمن امتلك معلومات اكبر امكن أن يحسده الآخرون فيسعون لزعزعة مكانته لدىٰ الناس، وتشخيص نقاط ضعفه واطلاع الآخرين عليها كي لا ينتفع بثروته العلمية في المجتمع.

---

١. يوسف ٨ و ٩.

في بعض الموارد يكون تقوىٰ الصالحين والمتقين سببا لحسد الآخرين حيث ان الافراد المتقين يحظون ـ بسبب تقواهم ـ بمكانة اجتماعية خاصة ويصبحون محبوبين لدىٰ الناس. فيقوم الحاسدون بالبحث عن نقاط ضعفهم لكي يقللوا من محبوبيتهم والحد من تزايدها، علّهم يجدون عيبا فيهم أو يسندون اليهم نقصا ويشيعونه بهدف الإضرار بشخصيتهم.

بناء على ذلك فإنّ الحسد من أهمّ العوامل التي تدفع الانسان للاعتداء على حقوق الآخرين والإخلال بمكانتهم وإضعاف شخصيتهم، وللوصول الى هذا الهدف يُدفعون لممارسة افعال من قبيل الاهانة والاستهزاء والغيبة والتهمة. وواضح ان هذه الافعال من الذنوب الكبيرة ومن المصاديق الواضحة للاعتداء، وقد حرّمها الاسلام بشدة واعتبر فاعلها مستحقا للعقاب.

ومما يؤسف له أن هذا النوع من المعاصي شائع ورائج بحيث يشمل حتى المستويات العالية من طبقات المجتمع وخاصةً في عالم السياسة، ولاكتساب الاقتدار وعند تنافس الافراد والفئات على المواقع الاجتماعية تستخدم هذه الطرق والوسائل القبيحة والمذمومة وهذه الذنوب الكبيرة. ولذا يجب ان نبتهل الى الله تعالىٰ ونتضرع اليه بان ينقذ المجتمع من هذا الهلاك لكي لا تُسحق القيم الانسانية والاسلامية من أجل الوصول الى المواقع الاجتماعية.

ب ـ حب الذات

العامل الثاني للاعتداء على الشخصية هو حب الذات، فالبعض من بني الانسان يسعىٰ ـ بهدف الظهور بمظهر العظمه لدىٰ الآخرين ـ لإبعاد المنافس من الساحة بأي نحو كان. هذا الاسلوب له مصاديق كثيرة في النشاط السياسي. فالساسة حينما

يشعرون بان منافسهم السياسي يحرز تقدماً عليهم ويكسب موقعا اجتماعيا افضل يقومون باغتيال شخصيته ونشر فضائحه للحيلولة دون تقدمه.

مكافحة عوامل الاعتداء على الحيثية

يأتي السؤال هنا: ما هي جذور وعوامل ظهور الحسد وحب الذات وحب الاقتدار ـ وهي من العوامل المهمة للاعتداء على الشخصية ـ وكيف يمكن مكافحتها؟ قد يتصور أحياناً ان هذه الصفات من الأُمور الفطرية والغريزية في الانسان ولذا تشمل جميع الافراد. كما يمكن الاتيان بشاهد على هذه الدعوى من بعض الروايات بان أي انسان لا يكون مصونا من الحسد. ولا يؤاخذ الله سبحانه المؤمن ما لم يظهر حسده بارتكاب فعل قبيح وعمل محرَّم.

روي عن النبي صلى الله عليه وآله: «رفع عن امتي تسعة: الخطا والنسيان وما اكرهوا عليه وما لا يعلمون وما اضطروا اليه والحسد و...»[1].

وربما يستشهدون بهذه الحقيقة تأييداً لمقولتهم وهي ان هذه الحالة موجودة في الاطفال منذ صغرهم وتظهر على سلوكهم وحتى الطفل الرضيع يشعر بالحسد. إذنْ لا يمكن القول ان هذه الصفة قد ظهرت فيهم إثر التربية الاجتماعية الخاطئة ولها عامل خارجي.

ولكن يبدو انّ الرؤية المذكورة لا تحظى بالدقة اللازمة، وليس بوسعنا اعتبار الحسد جزءاً من الابعاد الفطرية في الانسان ومن رغباته الأصيلة، ولا يمكننا القول أبداً بان الانسان لكونه انسانا يحب ان يرىٰ الآخرين فاقدين لنعمهم ويرغب في زوالها، لان المعنى الحقيقي للحسد هو ان الانسان حينما يرىٰ النعمة لدىٰ الآخرين

١. بحار الانوار ج ٢ الباب ٣٣ ص ٢٨٠ الرواية ٤٧.

يودّ حرمانهم من تلك النعمة. أجل، لا يمكن الادعاء أبداً بان فطرة الانسان تقتضي ذلك.

بناء على ذلك فالحق هو ان نقول: انّ الحسد ليس جزءا من الميول والرغبات الأصيلة في الانسان. بل هو صفة فرعية وثانوية تظهر استجابةً لبعض الرغبات، ويلزم هنا ان نقدم توضيحا اكبر عن هذه الدعوى:

عوامل وشروط ظهور الحسد

الحسد صفة تظهر في مجال خاص ويلزم وجود عوامل وشروط خاصة لظهور هذه الصفة في الانسان بحيث تعيّن الاتّجاه لأعماله.

الاول: من اللازم وجود الانسان المحسود اضافة الى الانسان الحاسد، فلولا المحسود فانه لا تتوفر ارضية الحسد أبداً.

الثاني: ان يحظى الشخص المحسود بنعمة خاصة وملفتة للنظر.

الثالث: ان تكون النعمة التي يحظى بها محدودة نحواً ما وهناك تزاحم عليها، لان النعم اذا توفرت واصبحت في متناول الجميع فانّ النعمة لدىٰ فرد ما لا تثير حسد الآخرين.

بناء على ذلك فانّ الحسد يتحقق في الانسان حينما يلاحظ شخصاً آخر ذا نعمة هي مورد للتزاحم، أو تكون وسيلة لنيل موقع خاص يُتزاحم عليه كأن تُكسب تلك النعمة المحبوبية والموقع الاجتماعي الخاص لصاحبها. هنا حينما يرىٰ الانسان تلك النعمة او الموقع الاجتماعي الخاص بيد غيره يشعر بان نيل ذلك أمر مشكل أو مستحيل ولذا تشب فيه نار الحسد، ويعتبر المحسود ذا النعمة هو العامل في حرمانه من النعمة والموقع ويتمنىٰ فقدان المحسود لتلك النعمة أو الموقع ليتمكن الحاسد من التمتع بهما.

مما ذكر نستنتج انّ الحسد ليس ميلا فطريا في الانسان لان ما يـريده بـنحو فطري هو رفع حوائجه الأصيلة ونيل كمالات يملك مؤهلاتها، فاذا رأى النعمة التي يحتاجها واقعة بيد شخص آخر ثار حسده، فمثلا الطفل الذي يرىٰ طفلا آخر في حضن امه فانه يحسده لانه يرىٰ نفسه مع وجود الطفل الآخر محروما من حنان أمه واهتمامها به.

بناء على ذلك فإن تنعُّم الآخرين لا يثير في الانسان شعوراً خاصا مباشرة، بل لكونه المنشأ لحرمان الانسان يكون سببا لحدوث الحسد.

إذنْ لا يكون الحسد في ذاته شعوراً فطرياً مباشراً، بـل يـمثل النـتيجة لشـعور فطري آخر وتبعا لميل أصيل آخر، ويتصف بالفرعية ويُعد ميلا ثانويا.

قد يُثار سؤال بشأن المثال المذكور: اذا كانت الحاجة الأساسية للطفل هي حنان أُمه فلماذا لا يلتفت الى أُمه في بعض الموارد فـي حـين يشـعر بـالحسد بـمجرد احتضانها لطفل آخر؟

الجواب: ان الأُم حينما تحتضن طفلا آخر ينعطف التفات الطفل الى هذه الحاجة الخاصة، أي انّ حاجة الطفل الى حنان أُمه كانت موجودة قبل ذلك أيـضا وان لم يلتفت الى ذلك. فحينما تبدي امه حنانها تجاه طفل آخر فان ذلك يستقطب التفاته الى احتياجه الى حنان امه فيخشىٰ حرمانه منه.

بكلمة أُخرىٰ انّ العامل على اثارة حالة الحسد هـو النشـاط المـنحرف لحب الذات، فحينما يرىٰ الانسان غيره ذا نعمة هو فاقد لها ويقيس نفسه معه يشعر بانه أقل منه، فبدلاً من السعي لنيل تلك النعمة والارتقاء بنفسه الى مستواه يتمنى زوال نعمته، ويصب اهتمامه في هذا الاتجاه لكـي يـتنزل بـفقدان نـعمته الى مسـتوى الشخص الفاقد لتلك النعمة.

بناء على ذلك فان حب الذات بدلاً من دفع الانسان الى كسب مثل تلك النعمة والكمال أو السعي لنيل كمال اكبر تثور فيه حالة الحسد. وبدلا من القيام بتقوية نفسه وتكامله يتمنى لو يكون الطرف الآخر ضعيفا وحقيرا كي يتساوى معه. الحسد إذنْ ظاهرة حساسة ومعقدة وليس جاذبة طبيعية كي يقال: ان الانسان حسود بالفطرة ويودّ أن لا ينعم الآخرون بالنعمة.

بناء على ذلك تجتمع مجموعة من العلل والعوامل وتتوفر شروط خاصة معقدة لتوجد هذا الميل المنحرف، ولولا هذه الشروط لم ينشأ في الانسان إحساس باسم الحسد، ففي الأمور المعنوية مثلا لا وجود للتزاحم والمحدودية. فالعلم والمعرفة المتوفرة لشخص تكون في متناول غيره أيضاً، أو ان كسب التقوى ممكن لكل شخص فلا يقع مثل هذه الأمور مورداً للحسد بلحاظ ذاتها بل بلحاظ الآثار المادية الضيقة والمتزاحم عليها والتي تترتب عليها.

بناء على ذلك ليس الحسد امراً فطرياً وميلا اصيلا في روح الانسان بل هناك عاملان لهما الدور في اثارته:

الاول: ان يعتقد الانسان الحسود ـ نظراً للتزاحم ـ بان تنعُّم الآخرين هو العامل لحرمانه.

الثاني: حينما يرىٰ شخصا آخر أهمَّ وأجلَّ قدراً منه، فسبب الانحراف الحاصل في نشاط غريزة حب الذات فانه بدلاً من طلب تلك النعمة والموقع لنفسه أيضاً لكي يوصل نفسه اليها يتمنىٰ زوالهما من المحسود كي يسقط ويتساوىٰ معه.

الرؤية القرآنية

في القرآن الكريم آيات التفتت الى هذه الجزئيات وخططت لمعالجتها. فالقرآن

الكريم يحكي عن بعض اهل الكتاب امنيتهم في ان يكون المؤمنون كفاراً ويـقول الى جانب ذلك: انّ العلة في هذه الامنية والرغبة هو حسدهم للمؤمنين.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفّاراً حَسَداً مِنْ عِـنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾[1]

اولئك لم يؤمنوا مع انهم عرفوا سابقاً حقانية نـبي الاسـلام وضـلالهم، وكـانوا يعرفون النبيﷺ جيداً ولكنهم لم يخضعوا لقوله الحق، ويحسدون المؤمنين الذين كانوا في مسيرة صحيحة وتستحكم شوكتهم يوما بعد آخـر، ويـتمنّون لو يـصبح المؤمنون كفاراً ويسعون لإرجاعهم الى جماعة الكفار.

هذه الحقائق ليست من قبيل التحليلات المـرتجلة والتـعليلات المـتخيَّلة، بـل يصرح القرآن بانّ العلة لمحاولات أهل الكتاب لأجل ردّ المؤمنين الى الكفر كانت هي الحسد وليس إرشاد المؤمنين وهدايتهم الى الحق ـ حسب زعـمهم ـ لانـهم ادركوا انّ الحق مع الاسلام والمؤمنين وانهم على ضلال. وبالنسبة للمؤمنين تظهر مراتب ضعيفة من هذا النوع من الحسد أيضا، ويمكن ان يحسد افراد مؤمنون من لهم ايمان اقوى وتقوى ابرز وبالتالي لهم موقع اجتماعي افضل، وبملاحظة موقعهم السامي في المجتمع يتمنون ـ بدلا من السعي لتقوية ايمانهم ونيل كـمالات اكـبر لانفسهم ـ أن يصبح ايمان اولئك ضعيفا ويسقطون من كمالهم وموقعهم الاجتماعي.

التأثيرات الاجتماعية للحسد

يمكن القول بوضوح: أن الحسد كان أحد العوامل الواضحة للاختلاف والعداء بين الفرق الاسلامية المختلفة على طول التاريخ، وقد ترك تأثيراته السلبية ـ بوعي أو

---

١. البقرة ١٠٩.

من دون وعي ـ على العلاقات بينها.

يقوم الانسان أحياناً بتتبُّع عيوب الآخرين بذرائـع مـختلفة، فـيضخم عـيوبهم الصغيرة ويسند اليهم عيبا غير موجود فيهم بل يصوّر امتيازاتهم وكمالاتهم عـيوبا ونقاطهم الايجابية ضعفا. وقد لا ينتبه الانسان أحياناً لمـاذا هـو حسـاس تـجاه الآخرين الى هذا المستوى أو يظن ان له دافعاً صحيحاً في هذه الممارسات بـان يكون عمله بهدف أداء الواجب الشرعي مثلا، أو يضعف الآخرين كي لا يتعرض الاسلام للخطر ولا يتضرر المسلمون، ويهدر كرامتهم كي لا يـقع زمـام المـجتمع بأيديهم ولا يُهدّد الاسلام والمسلمون. ولكنه اذا قام بشيء من التحليل الداخـلي لذاته انتبه الى هذه الحقيقة وهي أن الحسد للآخرين هو الذي دفعه الى هذا النوع من الاعمال المغلوطة والمذمومة، الّا انّ النفس بكيدها وتزويرها العجيب والمعقد تخفي الحسد والافعال المشوبة بالحسد تحت هذه الاغطية الخفية وتـبديها بـهذا اللون والبريق كي يمارس الانسان هذه الافعال بكل يسر ويكون قادراً على تبرير افعاله القبيحة تجاه الآخرين.

بناء على ذلك فانّ الحسد شعور نشط وله دور ملحوظ في تحركات الانسـان واعماله وقراراته، وهو السبب للكـثير مـن الخـلافات والنـزاعـات والمشكـلات الاجتماعية، وتبلغ أهميته حداً اعتبرته بعض الروايات أحد جذور الكفر.

من الواجب علينا ان نواجه هذه الكارثة الأخلاقية الكبرى بشدة وحزم بصفتها خلقاً فردياً مذموماً وصـفة اخـلاقية رذيـلة ولانـها المـنشأ للكـثير مـن الفسـاد الاجتماعي.

ان الامراض النفسية ـ كالحسد ـ التي لها جذور في روح الافراد قد تعمل على حرمان مجتمع من النعم الكبيرة وتزلزل اساس الحكومة الاسلامية وتخلّ في امن

واستقرار المجتمع وتهدّد وتبيد مصالح الاسلام والمسلمين. علينا اذن بذل المـزيد من السعي وبدقة كبيرة لتحرير انفسنا من هذه الصفة القبيحة وتحرير المجتمع من هذا البلاء المبرم.

العلاج الأساسي

اننا وان امكننا مكافحة الغيبة من خلال الالتفات الى مفاسد وتبعاتها الّا انّ العلاج الأساسي للغيبة هو ان نلاحظ ماهية جذورها النفسية، أي بدلاً من الالتـفات الى الآثار والنتائج السيئة للغيبة نلتفت الى عللها وعـوامـلها، فـاذا وفـقنا لاجـتثاث جذورها كانت اصلاحاتنا وبناؤنا النفسي أعمق والتأثير الاجتماعي لهذا الاصلاح اكبر. أجل، ان افضل طريقة لمكافحة الفساد الاجتماعي هي العثور على جـذوره النفسية والفردية. اننا اذا بدأنا من هذه النقطة بمكافحة الحسد وطهّرنا انفسنا مـن أدرانها فان ما سوى الغيبة من الامراض النفسية والآثار العملية القـبيحة المـترتبة على الحسد أيضاً سوف تزول تلقائيا.

وإذا قمنا بمكافحة الحسد فسوف نجد دوراً هامّاً للمعرفة ـ التي لها دور مهم في القضايا الأخلاقية كافة ـ وهكذا للسلوك والتدريب العملي، فإنّ تهذيب النـفس ـ سواء أكان تخلية للنفس من الرذائل أو تحليتها بالفضائل ـ يبتدأ بـالفكر والعـلم والمعرفة، ويستمرّ بالتدريب العملي وبالتالي تبقى آثاره وتترسخ على شكل ملكات ثابتة في نفس الانسان.

الآن ولكي نعرف أي نوع من الافكار والآراء يكون نافعا في هذا المجال ندرس موارد الحسد بنحو اجمالي:

الاول: ينبغي القول في تعريف الحسد: انه عبارة عن تـمني زوال النـعمة مـن

صاحبها. والنعم التي يرجو الحاسد زوالها ذات انواع فيتنوع الحسد بتنوعها.

فتارة يكون منشأ الحسد هو النعم الالهية التي لا دور للافراد في نيلها سواء أكانت هذه النعمة جسمية كالجمال الطبيعي للانسان فانه لا دور له في تحصيل جماله الطبيعي، أو نعمة روحية ونفسية، كجودة الذهن والذكاء، فإنّها من المواهب الإلهيّة، اذ ان الاطفال منذ ولادتهم لا يتساوون تماما في الذكاء. كما انّ التجارب البسيطة فضلاً عن الدراسات العلمية الدقيقة تشير الى ان قابلية الذكاء لدىٰ اطفال الانسان ليست واحدة في بداية ولادتهم.

والذين لهم ذكاء اقل ـ خاصة التلاميذ في بعض الموارد ـ يحسدون الذين لهم ذكاء وفراسة أفضل.

وتارة يكون منشأ الحسد هو النعم المكتسبة التي يحصل عليها الافراد بسعيهم، فمثلا من يكدّ ويسعى في اقتناء الثروة، ويبني بما يدخره من اموال داراً جيدة أو يشتري سيارة جيدة يكون موضعا لحسد الآخرين. طبعا لو كان الاخرون يكدون بهذا المقدار لكان بامكانهم تحصيل مثل تلك الدار أو السيارة، ولكنهم إما أنهم لم يكدوا ويسعوا أو لم يدّخروا المال بصرفه في مصارف أُخرى فلم يتمكنوا من تحصيل مثل تلك الدار أو السيارة، والآن حيث يرون انفسهم فاقدين لهذه النعمة ويحظى بها الآخر يحسدونه ويتمنون فقدانه لها. أمّا طريقة مكافحة الحسد في مجال النعم الالهية فهو الالتفات الى هذه الحقيقة، وهي أن تلك النعمة قد اعطاها الله سبحانه اياه، واذا فكّر الحسود قليلا لوصل الى هذه النتيجة، وهي ان الحسد لهذه النعمة يعود الى الاعتراض علىٰ فعل الله، بانه لماذا اعطاه تلك النعمة ويكون السعي لسلب تلك النعمة من المتنعم بها وصده عن الانتفاع بها من آثار المعارضة والمواجهة مع الله عز وجل في تدبير الكون، ومن الواضح أن المؤمن لا يقف أبداً

بوجه خالق الكون ولا يسعى لمعارضة افعاله، ولكنه نظراً لعدم الالتفات الى هـذه الحقيقة الذميمة وهي ان عداءه يعود الى عدائه مع الله سبحانه فانه يحسد المحسود ويعاديه، ولو كان ملتفتا الى هذه الحقيقة لم يعاده هكذا.

أجل انّ الذين يريدون التخلص من هذا المرض أو تهذيب الحسود فان طريقه هو الالتفات الى هذه الحقيقة بنفسه أو إلفات الشخص الآخر له، وكلما ازداد التدبر في هذا المجال كان عامل الحسد فيه أضعف.

وفي مورد النعم الاكتسابية أيضاً اذا كانت له معرفة تامة نسبياً وبلغ هذا المستوى بان يرىٰ يد الله وقضاءه وقدره حتى في الاعمال الاختيارية والنعم الاكتسابية، كان بامكانه بهذه المعرفة السعي لاصلاح مرض الحسد في نفسه أو الآخرين، فمثلا انّ العلم والمال الذي اكتسبه شخص هو عطاء إلٰهي، وان لم يـنعدم تأثـير النشـاط الاختياري للمتنعم في هذا المجال، ولكن حتى نشاطه الاختياري ينجزه بقدرة الله وتوفيقاته. بناء على ذلك فانّ العداء في هذا المورد يعود بنحو ما الى المعارضة مع القضاء والقدر الالهي.

اما الذين لم يبلغوا هذه الدرجة من المعرفة والايمان فـينبغي انـتهاجهم طـرقا أُخرىٰ فانها اكثر جدوى لهم، كالتفكير بان الآخرين أيضاً يمكنهم تحصيل مثل هذه النعمة وأفضلٍ منها، أو ان زوال نعمة الآخرين لا يعود بـفائدة عـلى الحسـود. ان افكاراً من هذا القبيل يمكن ـ الى حد كبير ـ أن تخمد نار الحسد المستعرة في نفسه وأن تقلّل من العذاب الباطني فيه أو في الشخص الذي يريد اصلاحه.

واحياناً يكون التزاحم بحيث لوكان المحسود غير موجود لكانت النعمة والموقع من نصيب الحاسد، كما هو الحال بالنسبة لبعض المرشحين في الانتخابات للوصول الى موقع اجتماعي ويكون أحدهم ذا امتيازات اكبر. هنا يفكر غيره انه لو لم يكن

موجوداً لوصلت النوبة اليه وكان بامكانه تحصيل هذا الاقتدار والموقع، فـيحسده لان زوال نعمته مقدمة لنيل هذا تلك النعمة.

في هذه الموارد يكون التدبر أكثر تعقيداً وينبغي استخدام معرفة أُخرىٰ. ينبغي ان نفكر هنا هكذا: ان نعم الدنيا وسائل للاختبار، وكل من امتلك نعمة اكبر كانت مسؤوليته أثقل. وعليه فان نفس هذه النعم لا تكون منشأ لسعادة الانسان، ويتوقف الامر على كيفية انتفاع الانسان بها. فقد لا تكون هذه النعمة منشأ لكماله ولا يوّفق للانتفاع بها بنحو صحيح، ففي هذه الحالة لا تكون النعمة بلا فائدة فـحسب بـل تكون نقمة وعذابا عليه.

كما ينبغي ان نفكر هكذا: على فرض أن يكون تحصيل تلك النعمة في صالحنا وسببا لسعادتنا، ولم تكن فساداً وفتنة ونقمة، ولكن الواجب هو تحصيلها بجهودنا وبارادة إلٰهية دون ان نتمنى زوال تلك النعمة من أحد، أي ينبغي ان يكون سـعينا ايجابيا ونافعا لا تخريبيا وضارا. في هذه الحالة يكون سعي الانسان نافعا ويـهتم باصلاح نفسه ورفع نقاط ضعفه واكتساب الامتيازات لنفسه، فيقوم بتوفير المقدمات كي يكون اهلا لامتلاك تلك النعمة. هذا النحو من الارادة والنشاط ـ خلافا للحسد وتمني زوال نعمة الآخرين وهو تمنٍ وجهد مخرب ـ يكون نافعا تماما.

كما ينبغي التفكير بانّ الحسد ضرر عاجل وخسـران يـرد عـليه نـقداً ويـهدّد طمأنينته الروحية وسلامته الجسمية، وبه يكسب صفة اخلاقية رذيلة ويهدّد سعادته الأبدية بنفسه ويسخط الله على نفسه، هذه المـجموعة مـن الافكـار بـمستوياتها المختلفة تكون سببا لان يدرك الانسان مفاسد الحسد، هذه الصفة الذميمة والضارة، ويعزم على تطهير نفسه من هذا الدرن.

طبعاً ينبغي الالتفات الى ان مجرد التفكير والمفاهيم الذهنية لا تكـون مـؤثرة

وكافية في اصلاح سلوك الانسان بل اضافة الىٰ ذلك لابدّ من العـزم عـلى تـغيير اعماله وسلوكه. وليكن له تجاه المحسود سلوك عملي معارض لمقتضى الحسـد. فمثلا حينما يشعر بانه يرغب في تحقيره عليه أن يعزم على احـترامـه بـدلا مـن تحقيره، أو حينما يود أن يتكبر عليه يسعى لان يتواضع له، وليواصل سلوكه هذا حتى يوفّق لاجتثاث جذور هذه الصفة الرذيلة.

وينبغي التذكير بهذه الملاحظة وهي ان ما ذكرناه يتعلق بالموارد التي يحصل فيها الانسان على النعمة من طريقها الصحيح ويحسده آخرون، ولكن في الكـثير مـن الموارد يقوم اشخاص بطرد الآخرين من الساحة بأساليب غيرمشروعة وبـالمكر والتزوير والغيبة والتهمة ويكسبون بدون حقٍّ مواقعَ اجتماعية في المجال السياسي أو الأقتصادي للمجتمع. في هذه الحالة ينبغي التـصدي لهـؤلاء الافـراد والفـئات والطبقات، ولا يرتبط الأمر بالحسد.

بناء على ذلك فان مفهوم الأمور المذكورة ليس هو أن ينزوي المسلم ولا يهتم بأفعال أعضاء المجتمع، بل عليه ان يسعى لان يكون له دافع شرعي واخلاقي في افعاله ونشاطاته، ولا يدفعه الحسد والصفات القبيحة والذميمة الأُخرىٰ لارتكـاب ردود فعل.

القسم الرابع

٩

آداب المعاشرة

القرآن والتحية

أهمية التحية

رؤية القرآن عن النجوىٰ

النتيجة

رعاية الآداب الخاصّة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم

المقدمة

هنا وبعد الحديث عن حقوق الانسان، ومنها احترام شخصية أعضاء المجتمع وحفظ كرامتهم وحيثيتهم. وهي من أهم الحقوق الاجتماعية للانسان في الاسلام، من المناسب ان نذكر ملاحظات عن الآداب التي ينبغي الالتزام بها من قبل أعضاء المجتمع في المعاشرة فيما بينهم، ولها طبعا علاقة وثيقة مع احترام الافراد وصيانة حيثيتهم ومكانتهم، وقد أكّد القرآن الكريم علىٰ الاهتمام بها.

في هذا المجال نلاحظ بصورة عامة مجموعتين من الآيات في القرآن الكريم:

المجموعة الأُولىٰ: الآيات التي ترتبط بعموم الافراد وتشير الى آداب وتعاليم عامة يجب على الجميع رعايتها.

المجموعة الثانية: الآيات التي ليست عامة في أصلها وتطرح آدابا ترتبط بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن كما سنوضح لاحقاً ان هذه المجموعة من الايات قابلة لأن توسّع بحيث تشمل الآخرين أيضاً.

١ ـ تتحدث المجموعة الأُولىٰ عن الآداب العامة وترتبط بعموم الافراد وأعضاء المجتمع، وهي تتحدث عن آداب مختلفة بشأن كيفية الدخول في بيوت الآخرين أو تناول الطعام منهم أو كيفية التعامل واللقاء بهم وامثالها. وتتضمن وصايا وتعاليم يجب علىٰ المسلم والمؤمن رعايتها، أو انها محبذة ومستحسنة على الاقل. نشير

هنا الى بعض هذه الآداب وآياتها على التوالي:

أ ـ التحية والاستئناس

حينما يريد المسلم دخول بيوت الآخرين فانه يوجد في الاسلام آداب ينبغي رعايتها. الادب الاول في الدخول الىٰ بيوت الآخرين والتعامل معهم واللقاء بهم هو السلام والاستئناس معهم.

انّ السلام على صاحب الدار والانس معه والذي يصحبه طبعا السؤال عن الاحوال والمجاملات هو من الآداب الاسلامية الأُولىٰ ومن اهمّ ما ينبغي رعايته عند الدخول الىٰ بيوت الآخرين، فلا ينبغي الدخول فيها فجأة وبدون صوت، بل يلزم في الخطوة الأُولىٰ إلفات صاحب الدار بدخوله بلين وهدوء واقامة علاقة صداقة وانس معه كي لا يستوحش ولا يضطرب ولا يظن به سوءاً ولا يبدي رد فعل غير مناسب، ثمّ إشعاره ـ بالقاء السلام عليه والتحية والشكر ـ بحبه ومودته وطمأنة جانبه تماما.

القرآن والتحية

يدعو القرآن الكريم الى السلام في عدد من الآيات او يذكر السلام ذكراً ممزوجاً بالثناء عليه بنحو ما، فيقول في آية كريمة:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتّٰى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلىٰ أَهْلِهَا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

ويقول سبحانه في آية أُخرىٰ:

---

١. النور ٢٧.

﴿فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

الملاحظة الجميلة التي تجلب الأنظار اليها هي ان الله سبحانه لماذا يأمر المؤمنين في هذه الآية بالسلام على انفسهم لدىٰ الدخول؟

و هناک إجابتان مختلفتان عن هذا السؤال لا يخلوان من ظرافة، ويمكن تأييد كل اجابة منهما بالقرائن والشواهد، قال البعض: انّ المراد الأساسي للآية هو: سلّموا على أهل الدار ولكن بما انّ المؤمنين بعضهم من بعض فانّ السلام على الآخرين بمثابة السلام على النفس. وفي القرآن موارد مشابهة لهذا الاطلاق، فقد اطلق الله سبحانه (انفسكم) على آخرين هم بمنزلة الانسان ذاته من جهة خاصة، كقوله تعالىٰ:

﴿لاٰ تَسْفِكُونَ دِماٰءَكُمْ وَ لاٰ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيٰارِكُمْ﴾[2].

وكقوله تعالىٰ:

﴿فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناٰءَناٰ وَ أَبْناٰءَكُمْ وَ نِساٰءَناٰ وَ نِساٰءَكُمْ وَ أَنْفُسَناٰ وَ أَنْفُسَكُمْ﴾[3].

ففي الآيتين المذكورتين ليس المراد من (أنفس) الاشخاص المخاطبين اذ لا معنى لقتل انفسهم واخراج أنفسهم من ديارهم وطردها، أو دعوة أنفسهم.

واستنبط بعض آخر من المفسرين من عبارة (فسلّموا على انفسكم) بانّ السلام واجب عند الدخول وان لم يكن شخص في الدار، ولكن نظراً لعدم وجود صاحب الدار أو شخص آخر في الدار فالداخل ينبغي ان يسلّم على نفسه كتسليمنا على

١. النور ٦١.
٢. البقرة ٨٤.
٣. آل عمران ٦١.

انفسنا في الصلاة حيث نقول:

(السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين).

القرينة التي تؤيد هذه الرؤية هي ان الآية كلها ظاهرة في دخول الانسان الىٰ دار ليس فيها صاحبها أو دار لا يحضر فيها صاحبها، ففي هذه الموارد التي لا يحضر فيها صاحب الدار قد يشك الانسان في رضا صاحب الدار عن تناوله الطعام أم لا؟ والآية الكريمة تحكم في هذه الحالة بجواز تناول الطعام في هذه الدور. وذيل الآية ظاهر في أنّها متعلّقة بمثل هذه الدور، فيكون مفاد الآية أنّ صاحب الدار وان لم يكن حاضراً فسلّموا على انفسكم.

على أي حال فانّ السلام سلام وتحية مباركة وطاهرة من قبل الله سبحانه. مباركة حيث انّ لها آثاراً طيبة ونافعة في الحياة الاجتماعية للانسان. طاهرة لانها تتلاءم مع طبيعة الانسان وتستسيغها النفس الانسانية. فالناس يحبون السلام وبواسطته يشعرون بالطمأنينة.

وسوى الآيات المذكورة هناك آيات عديدة تذكر كل آية منها السلام بنحو خاص ونشير الى عدة نماذج منها:

هناك مجموعة اخرىٰ من الآيات تتحدث عن السلام على الانبياء عليهم السلام، ونبي الاسلام صلى الله عليه وآله وسلم أو سائر الانبياء عليهم السلام، وفي إحدىٰ الآيات يخاطب الله سبحانه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويأمره بالتسليم على المؤمنين:

﴿وَ إِذٰا جٰاءَکَ الَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِآیٰاتِنٰا فَقُلْ سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ کَتَبَ رَبُّکُمْ عَلیٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْکُمْ سُوءاً بِجَهٰالَةٍ ثُمَّ تٰابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ﴾[1].

---

١. الانعام ٥٤.

قد تقصد الآية المؤمنين المهاجرين من مكة ويلتحقون بالنبي ﷺ في المدينة، ولكن كما نعلم انّ المورد لا يخصص والآيـة تشـمل غـيرهم أيـضا، الّا انّ هـذه الملاحظة جديرة بالتأمل وهي ان في السلام على أي حال ظهوراً أقوى في بعث الأمن والطمأنينة، لانها تتحدث عن المهاجرين الذين يتوجهون من ديارهم أي مكة الى ديار الغربة أي المدينة وليس لهم فيها أقارب وأرحام، فمن الطبيعي ان يشعروا باللاأمن ويكونوا قلقين.

وحتىٰ اذا كانت الآية تتحدث عن جميع المؤمنين فالامر كذلك، اذ ان هـؤلاء الافراد حديثوا الايمان ولم يعملوا سابقاً بالآداب والتعاليم الاسلامية، فمن الطبيعي أن يقلقوا بشأن ماضيهم والمعاصي التي ارتكبوها قبل الاسلام. لذا يشعرهم الله عز وجل بالأمن والطمأنينة على لسان نبيه وبالخطاب (فقل سلام عليكم) كي لا يكونوا قلقين علىٰ ماضيهم. العبارات الاخيرة في الآية والتي تتحدث عن الرحمة والمغفرة الالهية والتوبة شاهدة ومؤيدة لهذه الحقيقة.

عند نقل قصص الانبياء عليهم السلام في القرآن الكريم ورد انّ الملائكة قد سلّموا عليهم، فمثلا في قصة النبي ابراهيم عليه السلام قد تكرر هذا المضمون عدة مرات، وهو انّ الملائكة حينما هبطوا لتدمير مدينة لوط عليه السلام اقبلوا أولاً الىٰ ابراهيم وعند اللقاء معه سـلّموا عليه كقوله تعالىٰ:

﴿وَ لَقَدْ جٰاءَتْ رُسُلُنٰا إِبْرٰاهِيمَ بِالْبُشْرىٰ قٰالُوا سَلاٰماً قٰالَ سَلاٰمٌ فَمٰا لَـبِثَ أَنْ جٰاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمّٰا رَأىٰ أَيْدِيَهُمْ لاٰ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِـنْهُمْ خِـيفَةً قٰالُوا لاٰ تَخَفْ إِنّٰا أُرْسِلْنٰا إِلىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[1].

وكقوله تعالىٰ:

---

١. هود ٦٩ و ٧٠.

﴿وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاٰماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لاٰ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاٰمٍ عَلِيمٍ﴾[١].

وجاء في آية أُخرىٰ انّ النبي ابراهيمعليه السلام حينما أراد الانفصال عن آزر قال له:

﴿سَلاٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كاٰنَ بِي حَفِيًّا﴾[٢].

وهذه الأخيرة من موارد سلام الوداع، أي كما ان الانسان حينما يلقىٰ مخاطبه يسلم عليه في البداية فمن الافضل ان يسلم عليه عند الانفصال عنه أيضاً. وهذا الامر مألوف بين العرب المسلمين حالياً حيث يسلّم أحدهم على الآخر عند الانفصال.

المجموعة الثالثة: الآيات التي سلّم الله عز وجل فيها على عباده. ففي آية أمر الله سبحانه موسىعليه السلام واخاه بأن يذهبا الىٰ فرعون ويقولا له انا رسولا ربك فأرسل معنا بنياسرائيل ولا تعذبهم، وفي ذيل الآية مع ملاحظة المعجزات التي اعطاها لهما كي تكون دليلا على رسالتهما وصدق اقوالهما خاطبهما بان يقولا لفرعون:

﴿قَدْ جِئْنٰاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلاٰمُ عَلىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدىٰ﴾[٣].

وقد ابلغ الله سبحانه سلامه على جميع الانبياء في آيتين، قال في احداهما:

﴿وَ سَلاٰمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾[٤].

وقال في الأُخرىٰ:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ وَ سَلاٰمٌ عَلىٰ عِبٰادِهِ الَّذِينَ اصْطَفىٰ﴾[٥].

وفي آيات عديدة أبلغ الله سلامه الى افراد بخصوصهم فقال في آية عن النبي يحيىعليه السلام:

---

١. الحجر ٥١ ـ ٥٣.
٢. مريم ٤٧.
٣. طه ٤٧.
٤. الصافات ١٨١.
٥. النمل ٥٩.

﴿وَ سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾[١].

وجاء في آية أُخرىٰ على لسان النبي عيسى عليه السلام وهو يتحدّث عن نفسه:

﴿وَ السَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[٢].

وفي عدة آيات وبعد الحديث عن تأريخ بعض الأنبياء عليهم السلام يسلم الله تعالىٰ عليهم:

﴿سَلامٌ عَلىٰ نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ * إِنّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

﴿سَلامٌ عَلىٰ إِبْراهِيمَ * كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

﴿سَلامٌ عَلىٰ مُوسىٰ وَ هارُونَ * إِنّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[٥].

﴿سَلامٌ عَلىٰ إِلْياسِينَ * إِنّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[٦].

وهكذا قال عن النبي نوح عليه السلام بعد انتهاء الطوفان:

﴿قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنّا وَ بَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾[٧].

المجموعة الرابعة من الآيات تتضمن سلام الملائكة على المؤمنين والمحسنين. تتحدث آيات في القرآن الكريم عن انّ المؤمن حينما تقبض روحه أو يدخل الجنة فانّ الملائكة تسلم عليه كقوله تعالىٰ:

---

١. مريم ١٥.
٢. مريم ٣٣.
٣. الصافات ٧٩ ـ ٨١.
٤. الصافات ١٠٩ ـ ١١١.
٥. الصافات ١٢٠ ـ ١٢٢.
٦. الصافات ١٣٠ ـ ١٣٢.
٧. هود ٤٨.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١].

﴿وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدّارِ﴾[٢].

﴿أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَ يُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَ سَلاماً * خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً﴾[٣].

المجموعة الخامسة هناك آيات تقول بان تحية المؤمنين في الجنة هي السلام كقوله تعالىٰ:

﴿وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ﴾[٤].

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾[٥].

هذه الآيات وامثالها تدل جميعاً على أهمية السلام وانه من الآداب الاسلامية المهمة. وهذه الاهمية تبلغ في بعض الآيات حداً يعتبر الاسلام فيه (سلاما) ويطلق على مناهج الاسلام (سبل السلام) كقوله تعالىٰ:

﴿قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾[٦].

في مثل هذه الآيات يريد القرآن بيان أهمية السلام. وبهذا الهدف يقول القرآن الكريم: ان الله يهدي الناس الى طرق السلام والأمن بالقرآن ويعتبر ذلک من أهم خصائص وامتيازات القرآن.

---

١. النحل ٣٢.
٢. الرعد ٢٣ و ٢٤.
٣. الفرقان ٧٥ و ٧٦.
٤. يونس ١٠ و ابراهيم ٢٣.
٥. الاحزاب ٤٤.
٦. المائدة ١٥ و ١٦.

أهمية التحية

من المؤكّد عليه في الإسلام أن يسلّم المؤمنون بعضهم على بعض، وقد كان النبيﷺ يسلّم على النساء والاطفال أيضاً. ومن المعلوم أنّ السلام والسلامة من جذر واحد، ولذلک يفيد هذا المعنى، وهو ان لا خطر ولا تهديد يتّجه من المسلم الى مخاطبه. هذا هو الشعار الاسلامي الذي يؤدى من قبل كل شخص باسم التحية والمجاملة عند المواجهة واللقاء، وقد اكد القرآن الكريم علىٰ ممارسته.

كل انسان يشعر في حياته بألوان القلق والخوف والاضطراب، وعند تعامله مع أي شخص يحتمل التضرر منه فيشعر بنوع من القلق والاضطراب. بناء على ذلك فان اول ما يكون محبذا وطيبا عند اللقاء بين بني الانسان وتعاملهم هو رفع هذا القلق والاضطراب لكي يشعر الانسان بالسكينة ويطمئن بعدم اضرار ذلك الشخص به ولا يهدّده خطر، لانه لا يوجد ما هو أهمُّ من دفع الضرر بالنسبة للانسان، إذ انّه يمكن ان يشعر بالاستقرار بعده ويتعامل ويقرر ما يريد بنحو صحيح، ولعل من حِكم السلام هو تحقيق ما ذكر.

بناء على ذلك فان اول ما ينبغي رعايته بين المسلمين عند بداية اللقاء هو منح الامان والسكينة للطرف الآخر والمخاطب كي يطمئن بان لا ضرر يتّجه اليه من قبل طرفه المقابل. ومن واجب المسلمين انّهم بالسلام على بعضهم عند اللقاء يوجدون هذا الشعور في نفوسهم، وهذه قضية مهمة جدا، وليس بوسعنا ان نقيّم بنحو دقيق مدى أهمية ذلك لحياة الانسان، ولكنّه يمكن القول: انه الأساس لأبعاد الحياة الاجتماعية الأُخرىٰ.

ان أهمية السلام وقيمته تبلغ درجة اطلق فيها على الجنة ـ وهي رمز النعمة والراحة والحياة الطيبة للانسان ـ «دار السلام» مما يدل على أهمية السلام والامان.

ان الامان والسلامة ذات أهمية بالغة لدىٰ جميع مفكري المذاهب السياسية أيضاً، واول وأهم وأعم هدف لدىٰ أي نظام سياسي هو توفير الامان والسلامة والاستقرار لافراد المجتمع، وبعد تحقّقه يمكن العمل من أجل تحقيق الأهداف الأُخرىٰ. من هنا تؤكد المدارس النفسية غير الاسلامية على هذه الحقيقة وتقدم نظريات على هذا الأساس وتوصي بأُمور لدفع القلق والاضطراب وتحصيل السكينة والأمن النفسي، وبعضها ينتهج نهجا افراطيا في هذا المجال، منها ان اتباع مذهب (الوجوديّة) يعتقدون بانّ الحياة مقرونة بالقلق والاضطراب ولا تحقق للحياة خارجاً بدونهما بل يعتبرونهما من لوازم الحياة الانسانية وكفصل مميّز للانسان!

على أي حال فانها حقيقة واضحة بان اول ما يلتفت اليه الموجود الحساس سيّما الانسان ويحظى لديه بقيمة حيوية هو الشعور بالامان والاستقرار في الحياة، وهو الشعور بان نفسه وماله وكل شيء يحبه لا يُهدّد من أي جهة ولا يطاله أي ضرر.

بناء على ذلك فان اول ما يجب توفيره في العلاقات الاجتماعية هو شعور الانسان بالامان والاستقرار. انه الأساس لحياة الانسان ولا قيمة للحياة الاجتماعية لديه ما لم يتوفر هذا الأمر.

والسلام ـ وهو التحية والمجاملة الرسمية في الاسلام ـ يعني في الواقع الدعاء وطلب الامان والسلامة للمخاطب. من هنا تقارن لفظ السلام مع كلمات تتضمن الامان في بعض مواضع القرآن الكريم، وهذا التقارن اللفظي قرينة على التقارن المفهومي بين السلام والامان كقوله تعالىٰ:

﴿هُوَ اللّهُ الَّذِي لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاٰمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبّٰارُ﴾[1].

---

١. الحشر ٢٣.

في هذه الآية استعمل (السلام) و(المؤمن) ويعني معطي الامان من بين الاسماء الالهية بنحو متقارن مما يدل على التقارب بين الاسمين الالهيين. ان الله عز وجل هو الذي يوفر سلامة الافراد ويدفع الخطر عنهم ويوفر لهم الامان.

ونقرأ في آية أُخرىٰ بانّ المؤمنين يخاطبون يوم القيامة:

﴿ادْخُلُوهٰا بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾[١].

ورد لفظ (سلام) هنا أيضاً الى جانب أحد اشتقاقات لفظ (الأمن) بمعنى الامان.

فالانسان بقوله (سلام عليكم) يمكن ان يكون له احد مرادين: تفهيم مخاطبه بان سلامتك مؤمّنة من جانبي، أو لا خطر يهدّدك من جهتي ولا يصلك ضرر منّي؛ أو انني اريد الامان لك وادعو الله لك بالسلامة ودفع الاضرار والاخطار، أي يقول قاصدا الدعاء: (سلام عليكم)، وبعبارة أُخرىٰ يمكن ان يكون مراده هو (سلام مني عليكم) أو (سلام من الله عليكم). المراد بين الافراد المتعارفين طبعا في الغالب هو: لا خطر من المسلّم على مخاطبه. الّا انّ الذي له رؤية توحيدية ويتّجه الى الله في كل حال فانه حينما يسلّم فهو في الواقع يدعو لمخاطبه، ويطلب له السلامة من الله عز وجل ولا يرىٰ نفسه مؤثر في جنب الله. يطلب من الله ان يمنّ بالسلامة على مخاطبه ويصونه من الاخطار، فالسلام في نفس الوقت ابداء للاحترام، ودعاء أيضا.

ب ـ رد التحية

من آداب المعاشرة في الاسلام هو رد السلام حيث يمكن القول: انه يتميز بأهمّية أكبر من إلقاء السلام، وقد أكّد عليه القرآن الكريم. قال تعالىٰ في آية كريمة:

---

١. الحجر ٤٦.

﴿وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللّٰهَ كانَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾[١].

ان لفظ (تحية) في الآية مشتقة من الحياة، وهي في الحقيقة نوع من الدعاء وطلب دوام الحياة للمخاطب. كأنه كان متعارفاً ان يقول بعضهم لبعض عند اللقاء بقصد الاحترام (حيّاك الله). ان لفظ (تحية) في الحقيقة والأصل يعني هذه العبارة (حياك الله) ثم توسعت وأخذت تطلق على كل قول عند اللقاء بهدف الاحترام، بل على كل عمل بهدف الاحترام.

طبعاً في كل ثقافة أو مجتمع يتعارف تقديم كلام خاصّ عند اللقاء أو أداء عمل خاص بهدف ابداء المودة. ويطلق عليها لفظ (التحية) الّا انّ التحية في الثقافة والادب الاسلامي عند اللقاء ليست سوى السلام. ولذا ورد لفظ التحية مع لفظ السلام في آيات عديدة من القرآن الكريم، أو ذكر السلام كمصداق اسلامي رسمي ومعروف. نقرأ في آية كريمة:

﴿وَ يُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَ سَلاٰماً﴾[٢].

وجاء في آية أُخرىٰ:

﴿وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلاٰمٌ﴾[٣].

وفي آية أُخرىٰ:

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاٰمٌ﴾[٤].

و على أي حال فانّ التحية التي عُيّنت كشعار اسلامي هو (السلام)، والقاؤه مستحب وردّه واجب.

---

١. النساء ٨٦.
٢. الفرقان ٧٥.
٣. يونس ١٠ و ابراهيم ٢٣.
٤. الاحزاب ٤٤.

ان رد أية تحية في الآداب والثقافة الاسلامية يجب ان يكون اكمل أو مطابقاً لها على الاقل، فمثلا اذا قال شخص (سلام علكيم)، فينبغي الرد بالقول: (سلام عليكم ورحمة الله)، واذا قال: (سلام عليكم ورحمة الله)، يقال له: (سلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

و كل من يواجهنا بأي نوع من التحية فالافضل هو الرد عليه، ولكن كل من حيّانا بعبارة (سلام عليكم) كان الردّ عليه واجبا شرعا، واذا حيّانا بكلام آخر غير (السلام) فان الردّ عليه مستحب.

تتمة البحث

من التحيات والمجاملات المؤكدة في الروايات هو عبارة خاصة تقال لمن يعطس، يطلق عليها في الروايات وعرف المتشرعين: (تسميت العاطس) ويؤدى بعبارة (يرحمك الله) ويعني الدعاء بالرحمة للعاطس، وهو يقول في الرد: (يغفر الله لك) ويتضمن الدعاء بالعفو لمن ألقى التحية.

وهكذا حينما يشرب الانسان الماء، أو يفقد عزيزا، أو حينما يرد على الافراد غم أو فرح فان هناك تحياتٍ ومجاملات وردوداً خاصة شائعة ومألوفة بين المتشرعين. ويمكن القول بصورة عامة بان أي انسان اذا أبدى مودته واحترم شخصا بأي نحو، سواء أكان هدية أو أبدى مواساته وتهانيه، فانّ المستحب هو رد مودته واحترامه بنحو لائق. ومن الموارد التي تؤكدها الروايات هو الرد على الرسالة، وقد ورد: «ردُّ جواب الكتاب واجب كوجوب رد السلام»[1].

---

١. الكافي ج ٢ ص ٦٧٠ الرواية ٢.

ج ـ الاستئذان

المورد الثاني في الآداب الشرعية للدخول الىٰ بيوت الآخرين هو الاستئذان من صاحب الدار. فلا يحق للانسان المتشرع ان يدخل داراً بدون الاستئذان من صاحبها، بل لابدّ من كسب رضاه اولاً والاستئذان منه. قال تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتّٰى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلىٰ أَهْلِهٰا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهٰا أَحَداً فَلاٰ تَدْخُلُوهٰا حَتّٰى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَ إِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكىٰ لَكُمْ وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[١].

هذه الآية توصي المؤمنين بان لا يدخلوا دور الآخرين بلا إذن، ولو لم يأذن صاحب الدار بالدخول وطلب منهم الرجوع فعليهم الرجوع.

انّ الدخول في دور الآخرين له حالات عديدة:

الأُولىٰ ان يعلم الانسان برضا صاحب الدار بدخوله فيها.

الثانية أن يعلم بان صاحب الدار لا يرضى ويكره دخوله فيها.

الثالثة أن يشك ولا يعلم هل ان صاحب الدار يرضى بدخوله أم لا؟

بديهي أنه اذا علم بعدم رضا صاحب الدار أو سمع بعدم الرضا بعد طلبه منه، فلا يجوز له الدخول فيها بأمر قرآني صريح:

﴿وَ إِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكىٰ لَكُمْ﴾[٢].

كما أنه اذا كان يعلم ـ بأي طريق كان ـ بان صاحب الدار راضٍ بدخوله فانّه يحقّ له الدخول، ولكن عليه ان يعلم ان للدخول آداباً لابدّ من رعايتها، ومنها عدم الدخول المفاجىء. فإذا كانت بين اشخاص علاقات حميمة، أو احتاج اشخاص إلى

---

١. النور ٢٧ و ٢٨.
٢. النور ٢٨.

مراجعة دار فلا يجوز لهم الدخول فجأة وبدون استئذان من صاحب الدار إذ لعلّه غير مستعد لاستقبالهم، أو انه في حالة لا يرغب أن يراه أحد فيها. من هنا أكّد القرآن علىٰ انّه قبل الدخول في دور الآخرين لا بدّ من إلفات اصحابها. واستعمل القرآن في هذا المجال عبارة (حتى تستأنسوا) ويعنى لفظ (الاستئناس) أداء فعل يلفت نظر صاحب الدار بحيث يعرف حضوره بنحو ما. تقول بعض الروايات في توضيح الاستئناس: المراد هو نداء صاحب الدار، أو القيام بالسعال أو نحو آخر كالقول (يا الله) لالفات نظره كي يستعد لاستقبالكم، لانّ دخولكم المفاجىء يبعث على الاستيحاش والقلق.

ولو رام الدخول في دار شخص لا أحد فيها ليسأذنه وهو لا يعلم برضا صاحبها فينبغي ان لا يدخل أيضا لان الآية تقول (فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم).

السؤال هنا: هل على اهل تلك الدار الذين يكثرون الدخول والخروج فيها الاستئذان في كل مرة؟ فإنّ هناك مواردَ يكون فيها دخول الافراد وخروجهم ولقاؤهم فيما بينهم كثيراً جداً، فمثلا ان اهل الدار الواحدة وان كانوا يعيشون في غرف مستقلة الّا انّ بينهم دخولاً وخروجاً ولقاءات كثيرة، حيث يدخل الابناء في غرفة الوالدين أو العكس. فهل على هؤلاء الاستئذان عند الدخول في غرفة الآخر في كل مرة؟ ما هو ارشاد الاسلام بشأن هؤلاء الافراد؟

يقول تعالىٰ عن هؤلاء الافراد في القرآن الكريم:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَ مِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ

طَوّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمُ الْآيٰاتِ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١].

ان ما أوصت به الآية يرتبط بالخدَمة والاطفال غير البالغين، فاذا بلغ الابناء حد التكليف فان عليهم الاستئذان كالآخرين، أي في غير الاوقات الثلاثة المذكورة في الآية لابدّ لهم من الاستئذان أيضاً في أي وقت آخر.

د ـ تناول الطعام في بيوت الآخرين

الأصل العام في تناول الطعام في بيوت الآخرين هو المنع، ولكن في بعض الموارد وان لم يوجد إذن صريح من صاحب الدار الّا انّ الانسان يعلم عادة برضاه، فالاصل هو رضاه عن هذا الفعل، فمن لم يكن راضيا فعليه ابداء ذلك. لقد عدّ القرآن الكريم هذه الموارد قائلا:

﴿وَ لاٰ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبٰائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهٰاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوٰانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوٰاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمٰامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمّٰاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوٰالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خٰالاٰتِكُمْ أَوْ مٰا مَلَكْتُمْ مَفٰاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتٰاتاً﴾[٢].

قال المفسرون انّ المراد من (بيوتكم) هو بيوت الابناء أي ان بيوت ابنائكم كبيوتكم.

يستفاد من هذه الآية بأن الاقرباء ليسوا بحاجة الى الاستئذان لتناول الطعام في دور بعضهم، وهكذا دار الصديق أو الدار التي بيد الانسان مفاتيحها فلا حاجة الى إذن مستقل لتناول الطعام. في الواقع يجب القول: انّه يوجد إذن الفحوى في هـذه الموارد، ويتضمن الاذن بهذه التصرفات.

---

١. النور ٥٨.
٢. النور ٦١.

هـ ـ فسح المجال للداخل في المجلس

من آداب المعاشرة التي اوصى بها القرآن هو الجلوس في المجالس والحفلات بنحو يبقي المجال لجلوس الداخل الجديد في المجلس، أو فسح المجال له ليتمكن من الجلوس.

انّ المجالس والمحافل تكون عادة ذات سعة محدودة، فاذا أراد الجميع أن يجلسوا كيفما شاؤوا فانّ المجال يضيق على الآخرين، وبهذا الشأن يوصي القرآن الكريم بأنكم ان كنتم جالسين في مجلس وقيل «تفسّحوا» فاجلسوا متراصّين وافسحوا المجال للآخرين، فان الله سبحانه سيوسّع عليكم، واذا قيل انهضوا حتى يجلس شخص محترم فانهضوا:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللّٰهُ لَكُمْ وَ إِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَ اللّٰهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[١].

الآية الكريمة تتضمن ارشادين واضحين وارشاداً ضمنيّاً. الارشاد الاول هو أن على المسلمين الجلوس في المجالس والمحافل بشكل متراصّ قدر الامكان كي يتمكن اكبر عدد من الافراد من المشاركة في ذلك المجلس ليستفيدوا من الحضور. وهذا الارشاد يكون عمليا مادام التراص في الجلوس ممكنا، ومع اكتمال المجلس لا يكون عمليا.

الارشاد الثاني أنّه في حالة امتلاء المجلس، وعدم وجود مجال لمن يدخل من جديد، ينبغي للمسلمين أن يؤثروا الذين لهم امتياز في العلم أو التقوى أو الايمان على انفسهم ويقدّموا مكانهم لهم احتراماً لمكانتهم.

---

١. المجادلة ١١.

و الارشاد الضمني الذي يمكن استنباطه من الآية هو رعاية مقام ومكانة واحترام العلماء والمؤمنين والمتقين، باعطائهم المكان اللائق بهم في المجلس، لاننا نعلم من جهةٍ ان علة الحكم الصريح في الآية واعطاء المكان لبعض الافراد هو وجوب احترامهم، ومن جهة أُخرىٰ نظراً لوجود اماكن مختلفة عادة في كل مجلس فاذا كان مقتضىٰ احترام من وجب احترامهم جلوسهم في مكان خاص، فمن اللازم اعطاؤهم ذلك المكان الخاص، وان كان ذلك يتّم بقيام الانسان من مكانه وجلوسه في مكان أخفض منه.

و ينبغي الالتفات طبعا الىٰ ان شأن نزول هذه الآية هو انّ المسلمين كانوا يجلسون في دائرة ضيقة حول النبيﷺ فلا يُوفّق الذين يأتون لاحقا للقاء النبيّﷺ مع حاجتهم اليه. هذا الارشاد الالهي كان في الأساس من أجل ان يكون بوسع الجميع لقاء النبيّﷺ.

و ـ الاستماع الى كلام الآخرين وتحمُّله

من الآداب التي تستفاد من سيرة النبيﷺ وقد أُشير اليها في القرآن الكريم أيضاً ولها أهمية بالغة لمن يتصدَّون للقيادة والادارة، هو الاستماع الى كلام الآخرين وانتقاداتهم وتحمُّلها، وطبيعي ان الآخرين بحاجة الى هؤلاء الاشخاص المبرزين بنحو ما، يرجعون اليهم ويطرحون النقد والاقتراحات ويتحدثون عن المصالح والمفاسد في المجتمع، والكثير منها غير منطقي وغير مقبول عادة.

هؤلاء القادة والمدراء كيف يجب ان يكون ردّ فعلهم ازاء هذه الاحاديث وما هو واجبهم تجاه هؤلاء؟ للإجابة عن هذا السؤال نشير الى آية في القرآن الكريم، ومن خلالها تتضح سيرة النبيﷺ بهذا الشأن، وهو الاسوة والقدوة للمؤمنين. كان

النبيﷺ يستمع الى اقوال الآخرين واذا كانت غير صحيحة فانه لا يـبدي ذلك. كانﷺ كثيرا ما يتبع هذا النهج حتى اعتبر المنافقون ذلك عيبا وقالوا: انّ النـبي «أُذن» ويستمع لكل انسان، وقد بين الله عز وجل هذه الحقيقة بهذه الصورة:

﴿وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّٰهِ لَـهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

ورد في هذه الآية تعبيران متفاوتان (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين)، حـيث ورد (يؤمن بالله) حيث جاء الفعل متعديا بالباء، و(يؤمن للمؤمنين) حيث جاء متعدّياً بـ (اللام). هذا الاختلاف اثار تساؤلاتٍ لدىٰ المـفسرين: لمـاذا وردت (البـاء) فـي أحدهما و(اللام) في الآخر؟

يبدو انّ الفرق بين التعبيرين. هو ان أحدهما يشير الى تصديق الخبر، والآخر الى تصديق المخبر. توضيح ذلک: ان لفظ (يؤمن) الذي يتضمن معنى التصديق اذا تعدى بحرف (الباء) فانه يدل على تصديق واقعية الخبر ومحتواه، فمثلاً ان (الايمان بالله) يعني التصديق بوجود الله تعالىٰ، والايمان بالأنبياء والكتب السماوية يعني التصديق بدعوى الأنبياءعليهم السلام وصحة محتوى الكتب السماوية.

ولكن حينما يتعدى (يؤمن)بـ(اللام) فانه يدل على تصديق القائل سواء اعتبر كلامه مطابقاً للواقع أم لا. معناه إذنْ هو انه لا يسند الكذب العمدي الى القائلين، ولكن ليس معناه تصديق مضمون كلامهم أيضاً. وعليه فان هذا التعامل النبوي ليس تصديقا عاجلا ولا سذاجة، بل انه لطف وعظمة وسماحة. حينما كان احد المؤمنين يخبر النبيﷺ بشيء فحتىٰ لو علم بان ما ذكره غير صحيح فانّه لا يقول له انك

---

١. التوبة ٦١.

كاذب، بل كان يتجاوز عن ذلك بلطف وسماحة، او يقوم بالفحص ان اقتضى الامر ذلك.

إذنْ كان هذا السلوك من الصفات الحميدة للنبيﷺ وتعبير الآية عنه تعبير ثناء.

من هذه الآية ـ وان كانت بشأن النبيﷺ مباشرة ـ يمكن استنباط انّ القادة ومراجع الناس يجب ان يكونوا في تعاملهم مع الآخرين صابرين وحلماء ومستمعين جيّدين للمتحدث معهم وان يظهروا له انهم يحترمون كلامه ويصدّقونه. وحتىٰ اذا علموا بعدم صحة كلامه فانهم يتجاوزون عن ذلك بسماحتهم، ويمكن القول: ان ذلك ـ في الواقع ـ شكر لنعمة القيادة والرئاسة والادارة التي منحها الله عز وجل لهم ومحبتهم لدىٰ الناس.

ز ـ النجوىٰ

من الآداب الاسلامية في المعاشرة هو اجتناب النجوىٰ في المجالس العامة التي يحضرها الآخرون وهم يروننا. ففي اجتماع يحضره مختلف الافراد اذا تناجى اثنان فانه يؤلم الآخرين ويثير تساؤلهم: لماذا يريدان اخفاء بعض الأمور عنهم؟ ولماذا يعتبران الموجودين غرباء عنهما؟

في بعض الموارد يمكن ان يكون هذا الفعل ضروريا كأن تمسّ الحاجة لنقل قضية خاصة لشخص ولا يريد اطلاع الغير عليها، ففي هذه الحالة ينبغي ان ينقلها له في موضع خالٍ من الآخرين، ولكن حينما يكون الوقت ضيقا ويجب نقل الامر اليه سريعا وان كان بين جماعة فلا اشكال في النجوىٰ في هذه الحالة، كما لوكانت القضية مرتبطة بالشؤون الحكومية او الأسرار العسكرية ولا ينبغي اطلاع الآخرين عليها.

رؤية القرآن عن النجوىٰ

في القرآن الكريم وصايا بشأن النجوىٰ قد بيّنها في آيات عديدة، ففي بعض الآيات يوصي بصورة عامة ان التزموا بالتقوىٰ في النجوىٰ، والتفتوا الى ان الله يسمع كلامكم السرّي. اذن لا تقولوا ما يتنافى مع مصلحة الاسلام والتقوى.

في بعض الآيات منع القرآن من النجوىٰ المنافيه للمصلحة وحذّر الناس من ارتكابها. وبالتالي اعتبر النجوىٰ ـ في بعض الآيات ـ جائزة في حالة الضرورة وبدوافع صحيحة وذكر بعض موارد الاستثناء.

نقوم هنا بتصنيف آيات النجوىٰ ونذكّر بالقضايا الضرورية.

أ ـ تحكي بعض الآيات بان الله عليم بأسرار المتناجين وسيحاسبهم عليها. هذه الآيات ذات لحن تهديد غالبا كقوله تعالىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ مٰا يَكُونُ مِنْ نَجْوىٰ ثَلاٰثَةٍ إِلاّٰ هُوَ رٰابِعُهُمْ وَ لاٰ خَمْسَةٍ إِلاّٰ هُوَ سٰادِسُهُمْ وَ لاٰ أَدْنىٰ مِنْ ذٰلِكَ وَ لاٰ أَكْثَرَ إِلاّٰ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مٰا كٰانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمٰا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيٰامَةِ إِنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

وكقوله تعالىٰ:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَ إِذْ هُمْ نَجْوىٰ إِذْ يَقُولُ الظّٰالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّٰ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾(٢).

وكقوله تعالىٰ:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوٰاهُمْ وَ أَنَّ اللّٰهَ عَلاّٰمُ الْغُيُوبِ﴾(٣).

والآية:

---

١. المجادلة ٧. ٢. الاسراء ٤٧.
٣. التوبة ٧٨.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاٰ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوٰاهُمْ بَلىٰ وَ رُسُلُنٰا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾(١).

ب ـ بعض الآيات ظاهرة في الذم أو النهي عن كل نجوى مطلقا، كقوله تعالىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمٰا نُهُوا عَنْهُ﴾(٢).

وكقوله تعالىٰ:

﴿إِنَّمَا النَّجْوىٰ مِنَ الشَّيْطٰانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٣).

وكقوله تعالىٰ:

﴿لاٰ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوٰاهُمْ إِلاّٰ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاٰحٍ بَيْنَ النّٰاسِ﴾(٤).

هذه الآية تذمّ كل نجوى ظاهراً واستثنت بعض الموارد من هذا الحكم.

ج ـ بعض الآيات قسمت النجوىٰ الى قسمين عامّين: تنهىٰ عن أحدهما وتأمر بالثاني كقوله تعالىٰ:

﴿يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا تَنٰاجَيْتُمْ فَلاٰ تَتَنٰاجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ تَنٰاجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوىٰ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(٥).

النهي في هذه الآية مقيد وغير مطلق، كما انها تأمر بالنجوى في الإحسان والتقوى. ومن المحتمل انّها لا تدل علىٰ اكثر من انّ النجوىٰ في هذه الموارد جائزة وغير ممنوعة. وبديهي انّ النجوىٰ في بعض الموارد تتضمن مصالح تستدعي حسنها.

د ـ بعض الآيات تبيّن حكمة النهي عن النجوىٰ، فبعضها يشير الى دافع

---

١. الزخرف ٨٠.
٢. المجادلة ٨.
٣. المجادلة ١٠.
٤. النساء ١١٤.
٥. المجادلة ٩.

المتناجي، وبعض آخر يشير الى السوء الذاتي لمطلق النجوىٰ. والآيتان (٨ و ٩ ـ المجادلة) تشيران الى دافع المتناجي وتنهىٰ عن النجوىٰ القائمة على اساس دوافع سيئة (المعصية والعداء والمعارضة مع الله والنبيﷺ)، الّا انّ الآية ١٠ من السورة ذاتها اعتبرت مطلق النجوىٰ ـ حيث تثير سوء ظن المؤمنين وقلقهم وحزنهم ـ أمراً سيئا وشيطانيا.

هـ ـ بعض الآيات استثنت موارد من النجوىٰ أيضاً ولم تعتبرها جائزة فحسب بل أثنتْ عليها، لان المصلحة فيها تبلغ درجة تطغى علىٰ مفسدة النجوىٰ كقوله تعالىٰ:

﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوٰاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاٰحٍ بَيْنَ النّٰاسِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ ابْتِغٰاءَ مَرْضٰاتِ اللّٰهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾[1].

النتيجة

من الآيات المذكورة نستفيد ملاحظات نشير الى بعضها:

الأولىٰ ان الله حاضر في كل مكان ويرافق بني الانسان وهو مطّلع على اسرارهم .والمراد من المرافقة هو هذا، وليس أن نعتبر الله في عرض الموجودات الأُخرىٰ ومثلها.

الثانية هي ان الاثم والعدوان ومعصية الرسول الواردة في بعض الآيات يمكن القول عنها: ان الإثم معصية قد نهىٰ الله المسلمين عن ارتكابها، الّا انّه ليس اعتداء على الآخرين، كشرب الخمر. والعدوان في مقابل الاثم يعني الاعتداء على الآخرين وتضييع حقوقهم. ومعصية الرسولﷺ التي جاءت مقابل الاثم تعني

١. النساء ١١٤.

معصية الرسول الاكرمﷺ في الأمور الولائية والحكومية.

ايضاح: ان احاديث وأوامر النبيﷺ علىٰ نوعين: تارة هي ابلاغ للرسالة الالهية، وفي هذه الحالة ترجع طاعة الرسول الى طاعة الله، وليس للنبي الّا دور ايصال التعاليم الالهية، وتارة هي اوامر يصدرها النبيﷺ بنفسه، وان كانت هذه ايضاً في إطار الصلاحيات التي اعطاها الله سبحانه له وعلى اساس ولايته الالهية على الناس. ان معصية الرسولﷺ تعني التمرد والمعارضة للنبي في اوامر النوع الثاني، أي الاوامر الحكومية والولائية.

الثالثة ان الآيات تذم فئة مُنعت من الحديث بشكل سرّي والنجوىٰ، ورغم ذلك عادوا وارتكبوا الفعل الممنوع ذاته. والعلة الرئيسية لذمّهم هو أنهم كانوا من المنافقين ويخططون للمعارضة والمعصية والاعتداء على الآخرين ومعارضة الرسولﷺ والتمرد على اوامره. ولذا كانوا عند اللقاء به يسلّمون عليه مستهزئين. وهي تمنع المؤمنين من النجوىٰ ايضاً وتوصيهم بانهم إن قرّروا ان تكون لهم اسرار ونجوى فينبغي ان تكون في افعال الخير وعلى اساس من التقوى والخشية من الله عز وجل.

الرابعة ان الآيات القرآنية في مجموعها تنهىٰ المؤمنين عن النجوىٰ والحديث السرّي اذا كان مضمونه مرفوضاً ومعارضاً للحق والمصلحة. إذنْ ليست كل نجوى مرفوضة، فالنجوى المرفوضة هي أن تكون ارتكابا للمعصية والتمرد على الله أو الاعتداء على الآخرين أو معارضة الاوامر الحكومية لرسول اللهﷺ.

لابدّ أن نلتفت الى هذه الحقيقة وهي اننا وان قسمنا النجوىٰ الى قسمين: قسم ممنوع، وآخر مسموح به أو محبذ، ولكن لابدّ أن نعرف انّ القاعدة العامة هي ترك النجوىٰ حتىٰ وان لم تكن منشأ للاثم والعدوان ومعصية الرسولﷺ، لان النجوىٰ

ـ كما ذكرنا ـ تكون منشأ لسوء التفاهم ولا تكون مثيرة للتساؤل فحسب، بل تنفر القلوب وتخلق سوء الظن بين الافراد وتزرع الكراهية في قلوبهم.

بناء على ذلك تكون النجوىٰ مذمومة بصورة عامة الا الموارد التي تقتضيها المصلحة، واذا كانت منشأ للذنب والعدوان ومعصية الرسولﷺ فانها يشتدّ ذمّها ويصل إلى حدّ الحرمة. من هنا أولاً: نهت بعض الآيات والروايات عن مطلق النجوىٰ. ثانياً: من الافضل في موارد الاستثناء ذاتها التي تكون فيها النجوىٰ ذات مصلحة ان يطرح الكلام في مكان خالٍ من السامع بدلاً من المجلس العامّ، كي لا تترتب عليها التبعات السيئة للنجوىٰ، هذا اذا لم يكن هناك سبيل آخر غير النجوىٰ، وانحصر الطريق بها للقيام بفعل الخير.

ثالثاً: قد أكّدت الآيات في موارد النجوىٰ مع النبيﷺ علىٰ اعطاء الصدقة قبل النجوىٰ، ولعلّ السبب في ذلك هو دفعهم لإعادة حساباتهم، هل يستحقّ هذا الفعل ان ينفقوا من اموالهم عليه؟ وهل يتميّز بهذه الأهمّية ليرتكبوا من أجله هذا الفعل المذموم في الظاهر؟ وهل المصلحة تفوق المفسدة في هذه النجوىٰ؟

اذا لم يكن الأمر كذلك فليتركوا هذا الفعل، وهذا الأمر في ذاته يبعث على تحديد النجوىٰ وبالتالي سيشغل قليلا من وقت النبيﷺ.

الخامسة يتحصل من مجموع الآيات انّ النجوىٰ تكون بصورة عامة على ثلاثة انواع:

١ ـ النجوىٰ التي تكون على اساس الاحسان وخشية الله ومن أجل تحقيق مصلحة اساسية فلاباس بها.

٢ ـ النجوىٰ التي تكون على اساس المعصية والاعتداء على الآخرين والتمرد على أمر رسول الله، وهي من المعاصي قطعا ويجب اجتنابها.

٣ ـ النجوىٰ الاعتيادية التي لا تترتب عليها مصلحة، كما انّها لا تنطوي على معصية واعتداء ومعارضة لرسول الله صلى الله عليه وآله. هذا النوع من النجوىٰ، وان لم يتضمن مفسدة النوع الثاني ولكن يجب ان نعلم انّ النجوىٰ في ذاتها ـ بقطع النظر عن المصالح والمفاسد المترتبة عليها ـ فعل غير محبّذ ويشملها اطلاق الآية:

﴿إِنَّمَا النَّجْوىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1].

فهذه الآية تشمل هذا المورد الاعتيادي أيضاً.

إن تناجي شخصين بصورة ثنائية في مجلس عام وبمحضر الآخرين ـ سواء أكان موضوع النجوىٰ سيئا أم جيدا ـ هو في ذاته يتعارض مع الادب، لان الآخرين يتألمون من هذا اللون من التحدث، ويضر بالوحدة والوفاق القلبي وينفر القلوب، انه إذنْ عمل شيطاني.

السادسة انّ الدوافع الشيطانية والخاطئة التي تدفع الانسان للنجوى مختلفة. فمثلا انّ الدافع لبعض الأفراد فيها هو الرياء. كأن يظهروا بانهم ذوو اسرار وحديث سرّي مع الشخص الفلاني ـ ذي المكانة والاعتبار الخاص في المجتمع ـ ممّا لا ينبغي اطلاع الآخرين عليه.

هذا النوع من الدوافع في ذاته ـ ومع غض النظر عن الآثار السيئة التي تترتب على النجوىٰ ومع غض النظر عن المفاسد التي ترتبط بمضمون النجوىٰ والإثم والاعتداء والمعارضة للنبي صلى الله عليه وآله ـ ذو قيمة سلبية وهو نوع من الامراض الأخلاقية والنفسية.

لقد أشير في القرآن الكريم الى هذه الظاهرة، هو حيث كان الاصرار الشديد لدىٰ البعض للقاء مع النبي بصورة خاصة، ولكن نظراً للمشكلات التي كان يواجهها

---

١. المجادلة ١٠.

النبيﷺ إثر هذا الأمر حيث يتلف وقته ويصده عن أداء افعال أهمَّ، كما ان اولئك كانوا يستغلون هذا الامر وينوون التظاهر بانهم ذوو حديث سرّي مع النبيﷺ، وكان ذلك يثير كراهة الآخرين، لذا أمر الله سبحانه بأن على من رغب في اجـراء لقاء خاص وله حديث سرّي ان يدفع مالاً بعنوان الصدقة.

يُروى انّ الشخص الوحيد الذي عمل بهذا الامر الالهي في القرآن الكريم كان هو امير المؤمنين علياًعليه السلام، حيث كان يدفع درهما كصدقة حينما كان يريد التحدث مع النبي، ولم يعمل به أيٌّ شخص آخر، ولذا نسخ الله سبحانه هذه الآية وقال:

﴿أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوٰاكُمْ صَدَقٰاتٍ فَإِذْ لَمْ تَـفْعَلُوا وَ تٰـابَ اللّٰـهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاٰةَ وَ آتُوا الزَّكٰاةَ وَ أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ اللّٰهُ خَبِيرٌ بِـمٰا تَعْمَلُونَ﴾[1].

على أي حال فإن الآية (١٢ ـ المجادلة) التي تأمر بالصدقة قبل اللقاء الخاص بالنبيﷺ من الآيات المنسوخة، وقليلون هم المشككون في هذه الحقيقة، ولكن ظهر بنزول هذا الامر في الآية المذكورة انّ المصرّين على اجراء اللقاء الخاص مع النبيﷺ لطرح حديث سرّي لم يستحقَّ لديهم هذا اللقاء حتى درهـما واحـدا، واثبتوا عمليا بانهم لا يرون مصلحة مهمة في عملهم.

لقد كان الدافع لدىٰ بعض آخر كما جاء في آيات القرآن الكريم هو المـعصية والتمرد على احكام الله والاعتداء على حقوق الآخرين أو معارضة رسول اللهﷺ الذي كانت له الولاية والحكومة على الأُمة من قِبل الله تعالىٰ. ان قُبح هذا الدافـع واضح وبديهي أيضاً وقد ذمه القرآن في عدة موارد وبيّن قيمته السلبية، ويعدّ هؤلاء في زمرة المنافقين ويحذّر المسلمين منهم بصراحة. اولئك المنافقون الذيـن كـانوا

١. المجادلة ١٣.

يخططون دائما لمعارضة الرسول ﷺ حتى انهم كانوا يتناجون في المجالس العامة للإطاحة بالسلطة الدينية والاعتداء على الآخرين ومعارضة النبي، وحينما يحضرون عنده يحيّونه مستهزئين، حيث كانوا يستعملون لفظ (سام) أحياناً ويعني الموت في اللغة العبريّة بدلاً من السلام وهو تحية الاسلام المعروفة ويتظاهرون بانّهم يحترمونه ويحيّونه.

كما قلنا سابقاً فانّ النجوىٰ عمل شيطاني يثير قلق وحزن الآخرين، سواء أكان للمتناجى هذا الدافع أم لا، ولهذا أكّدنا علىٰ ان للنجوىٰ ـ بذاتها ـ قيمةً سلبيّة بشكل مطلق الّا في الموارد التي تترجح فيها مصلحة محتواها. فاذا كان دافع المتناجي هو التفرقة وإثارة القلق والحزن لدىٰ الآخرين أيضاً وهو ما يترتب على النجوىٰ ـ شئنا أم أبينا ـ فان ذلك دافع سيّء آخر يضاعف من سوء هذا العمل، لانه ينطوي على سوء فاعلي اضافة الى السوء الفعلي، واضافة الى ترتب هذا الفساد على فعل النجوىٰ تلقائيا وبأي دافع كان فان دافع الفاعل والمتناجي هو إثارة القلق والخوف لدىٰ الآخرين، فيكون فعله في هذه الحالة شيطانيا بلحاظين.

السابعة كما ذكرنا سابقاً اننا يمكن ان نستفيد من بعض الآيات بانّ النجوىٰ ذات قيمة سلبية مطلقا، ولكن من المتيقن وجود موارد تترجح فيها المصلحة الرئيسية لمورد النجوىٰ عل مفسدته. وهذا النوع من الموارد يكون مستثنى وغير ممنوع طبعا.

وعليه فان الأصل والقاعدة العامة في النجوىٰ هي قيمتها السلبية، وهذا الأصل نافذ في كل الموارد وحاكم عليها حتى يرد دليل خاص ليستثني مورداً أو موارد خاصة ويخصص هذه القاعدة العامة.

و بالنسبة إلى هذه الموارد المستثناة وادلتها الخاصة التي تُخصص دليل تلك

القاعدة الكلية يمكن الاشارة الى بعض الآيات حيث يقول تعالىٰ:

﴿لاٰ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوٰاهُمْ إِلاّٰ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاٰحٍ بَيْنَ النّٰاسِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ ابْتِغٰاءَ مَرْضٰاتِ اللّٰهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾[1].

ان صدر الآية يعتبر النجوىٰ عديمة الفائدة ويذمها ثم يستثني بعض الموارد. واول مورد للاستثناء هو حينما يناجي الانسان بهدف اعانة الفقراء والعمل لصالحهم فيدعو الآخرين بواسطة النجوىٰ للتصدق واعانة الفقراء مالياً.

من المعلوم أن لا قدرة مالية لدىٰ البعض لدفع الصدقة وتقديم المساعدة المالية للفقراء مباشرة ولكن يملكون لسانا ذربا وكلمة نافذة وبامكانهم حثُّ الاغنياء على التصدق. طبيعي ان هذا العمل ذو ظرافة خاصة وينبغي رعاية جميع الجوانب كي لا يضر ـ وهو خير من الناحية المالية والاقتصادية ـ بالفقراء المحترمين وذوي الشخصيّة والعزة النفسية من نواحٍ أُخرىٰ ولا يهدّد كرامتهم أمام الآخرين، ولذا يضطرون صيانةً لكرامتهم الىٰ التحدث سراً مع الآخرين وحثهم لدفع الصدقات. والا فسوف تنتهك حرمة الفقراء ويزول قبح الاستجداء، وقد يؤدي ذلك الى انصراف اصحاب العفة وإلاباء في الحياة تدريجيا الى الاستجداء في معيشتهم بدلاً عن العمل والسعي، وقد ينصرف الكثير من المعوزين عن هذه الإعانات.

المورد الثاني هو الأمر بالمعروف، فاذا أراد الآمر بالمعروف ان يكون كلامه نافذا فلا ينبغي ان يسبّب للمأمور الخجل بين الناس، بل يفهمه بنحو خاص وسرّي ويناجيه بوجوب أداء عمل الخير أو ترك العمل السيّىء الفلاني. بناء على ذلك اذا رأى من الضروري دعوة شخص الى فعل الخير في مجلس وفي محضر جماعة أو صدّه عن عمل قبيح فلابدّ أن يتحدث معه سراً. والنجوىٰ في هذا المورد ليست ذات

---

١. النساء ١١٤.

اشكال، بل هي عمل مرضيٌّ عند الله عز وجل وله أجر عظيم.

المورد الثالث هو الإصلاح بين الناس ورفع الخلافات، وهو عمل ظريف أيضاً ولابدّ أن يؤدى بدراية خاصة ودقّة كافية، كي يكون مؤثراً على الطرفين، ولذا يضطر للتناجي مع الطرفين والتورية ان اقتضت الضرورة أو نقل قضايا غير واقعية من أحدهما الى الآخر للتقريب بين القلوب واستمالة المشاعر والاحاسيس المتبادلة كي تتم عملية الإصلاح بعد التعاطف بينهما، ولكن اذا طرح تلك القضايا السرّية اللازمة للتعاطف والإصلاح بين الطرفين بصوت عالٍ فانه قد يواجه ردَّ فعل قويّاً من قِبل الطرفين في الخطوة الأُولىٰ وتكون العملية صعبة.

من هنا فانّ النجوىٰ في مثل هذه الموارد لا تكون خالية من الإشكال فحسب، بل تغدو ذات أجر إلٰهي عظيم نظراً للاهداف المهمة التي تتوخاها، نقرأ في آية أُخرىٰ:

﴿وَ تَنٰاجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوىٰ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1].

هذه الآية ذكرت استثناء عاما للقاعدة العامة والآيات التي اعتبرت النجوىٰ عملاً سيئا دون ذكر لمورد أو موارد خاصة، ودعت الافراد الى رعاية الخير والاحسان للآخرين وتقوى الله في احاديثهم السرّية ونجواهم، وان تراعى الملاحظات الخاصة وجميع الجهات في احاديثهم السرية، وفي هذه الحالة لا اشكال في النجوىٰ.

طبيعي ان رعاية هذين الشرطين أي الاحسان للآخرين وتقوى الله تدفع الانسان اولاً الى ان لا تكون نجواه موجبة لمعصية الله عز وجل، وثانيا لا تكون سببا للاعتداء على حقوق الآخرين وثالثاً لا يكون محتواها معارضا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليس فيها تمرد على اوامره والتعاليم الحكومية للولي الحق. ورابعاً لا

---

١. المجادلة ٩.

يكون الدافع لعمله هذا سيئا، وخامسا لا يرتكب هذا الفعل ما لم تستوجبه المصلحة.

بناء على ذلك فان هذه العبارة من الآية الكريمة جامعة مانعة في جميع موارد الاستثناء دون ان تذكر مورداً خاصاً وهي تلاحظ جميع الظروف والجهات.

رعاية الآداب الخاصة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم

تطرّقت مجموعة أُخرى من آيات القرآن الى الآداب الخاصة التي ينبغى رعايتها في حقّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

أ ـ عدم التقدم عليه صلى الله عليه وآله وسلم

قال تعالىٰ في سورة الحجرات:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

ان عبارة (تُقدّموا) في الآية المذكورة تكون بضم (التاء) حسب القراءة المشهورة، وهي من باب التفعيل ومتعدية لمفعول، وتتفاوت مع عبارة (لا تَقدموا) بفتح (التاء) وهو فعل لازم.

قال البعض: ان هذا الفعل وان كان من باب التفعيل ومتعديا، ولكن نظراً لعدم الالتفات الى مفعوله، مثل مفعول افعال أُخرىٰ نظير (يعلمون) و(تعلمون)، ينبغي القول ان هذه العبارة تعني (لا تقدّموا انفسكم) أي لا تقدّموا انفسكم على الله ورسوله، وعليه فانّ الفعل (لا تقدّموا) ذو مفعول مقدَّر وهو (انفسكم)، وبناء على

---

١. الحجرات ١.

ذلك له معنى (تقدموا) بفتح (التاء) وهو فعل لازم ولذا فسّروه بذلك.

وان كان الافضل أن نقول ان (انفسكم) من المصاديق البارزة لمفعول هذا الفعل، ويمكن ان يكون لهذا المفعول مصاديق أُخرىٰ، ويكون مفهوم العبارة: لا تقدموا انفسكم ولا غيركم على الله ورسوله، وعليه فان تشبيه هذه العبارة بعبارات امثال (يعلمون) و(تعلمون) أمر جيّد، ولكن كما قال بعض العلماء بان مفعول هذه الافعال قد حُذف ليكون في ذهن السامع شاملاً لكل مصداق مناسب ولا ينحصر في مصداق خاص. على أي حال، فان أوضح وأجلى مصاديق مفعوله هو (انفسكم) وفيه دلالة ـ قبل كل شيء ـ على انكم لا تقدّموا انفسكم على الله ورسوله.

وقد جاء في تفسير الميزان: ان ما أوصي به المؤمنون في هذه الآية هو في الواقع من جملة افعال وصفات الملائكة حيث قال تعالىٰ في إحدىٰ الآيات القرآنية:

﴿وَ قٰالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً سُبْحٰانَهُ بَلْ عِبٰادٌ مُكْرَمُونَ * لاٰ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[(١)].

هنا يطرح هذا السؤال: ماذا يعني التقدم على الله ورسوله؟ وعلى أي عمل من أعمال الانسان يطلق؟ يجب القول في الاجابة: انّ التقدم على الله ورسول الله ﷺ ذو صور مختلفة بعضها حرام وبعضها مذموم أي من الافضل ان لا يرتكب. وعليه فانّ المسلم ملزم ـ قبل أن يصدر حكما في أي موضوع ـ ان يعرف ما يقوله الله ورسوله بهذا الشأن ويكون مطيعاً لأمرهما.

وعدا ماذكرناه فانّ التقدم على الله ورسوله ذو دائرة واسعة ويصدق على موارد متنوعة أُخرىٰ حتى قال بعض المفسرين بان على المؤمنين ان لا يتقدموا على رسول الله حتى في المشي فانه عمل مذموم، وان لا يجلسوا قبل ان يجلس، وان لا

---

١. الانبياء ٢٦ و ٢٧.

يقفوا امامه في الصلاة وان لا يقفوا متقدمين على قبره ﷺ فيها. وعلى أي حال فانهم اعتبروا رعاية هذه الآداب مع رسول الاسلام استنادا الى هذه العبارة من الآية امراً لازماً، ومن الطبيعي ان يكون احترام النبي أمراً لازماً وان يكون العمل بما يقتضيه الاحترام امراً مستحسناً.

السؤال الآخر هنا يتعلّق بإتيان لفظ الجلالة (الله)، فما معنى التقدم على الله تعالىٰ؟ قال بعض المفسرين: ان مراد الآية اصلا هو المنع من التقدم على النبي، واضافة لفظ الجلالة هو للدلالة على هذه الحقيقة وهي ان احترام النبي هو احترام لله عز وجل.

وقال بعضهم: ان الاحكام الشرعية بما انها من الله اصلا، فاذا أبدى شخص رأيه في موضوع وأصدر حكماً قبل صدور الحكم من الله، كان هذا الفعل في ذاته تقدما على الله، ولا ينبغي للأفراد ـ بحكم الآية الكريمة ـ إبداء آرائهم حول احكام الموضوعات، بل يجب عليهم الفحص عن حكم الله ورسوله فيها.

ب ـ كيفية التحدث مع النبي ﷺ

قال تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لاٰ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ أُولٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ * وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتّٰى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ اللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

---

١. الحجرات ٢ ـ ٥.

اولاً: لا ينبغي في محضر النبيﷺ ان يرتفع صوت المؤمنين على صوته، ولا تكون نبرته أشدّ من نبرة صوتهﷺ، فانه موقف غير مؤدب.

ثانياً: ينبغي نداء النبيﷺ بلين وأدب وليس بصوت عالٍ وبلا أدب، كما كان بعض العرب ينادونه بصوت عالٍ: يا محمد! والاسلام يؤكد في بيانه علىٰ آداب المعاشرة الاسلامية بان هذا العمل عمل خاطىء، ومن يتعامل مع النبي هكذا تحبط اعماله الصالحة. وقد وعد القرآن المؤمنين والذين يخاطبون النبي بلين ويخفضون اصواتهم عنده بالعفو والاجر العظيم، وفي المقابل اعتبر الذين لا يراعون الآداب وينادونه بصوت عالٍ أُناساً غير عقلاء واعمالهم محبطة[1].

ج ـ عدم المزاحمة

من الأمور الأُخرىٰ التي ينبغي رعايتها تجاه النبيﷺ بأمر القرآن الكريم هو الاحتراز من إشغال وقته ومزاحمته. حيث كان البعض يمرون على دار النبيﷺ

---

١. لقد بيّن القرآن في الآية المذكورة بعبارة (ان تحبط اعمالكم) هذه الحقيقة، وهنا يطرح هذا السؤال: ما المراد من حبط العمل هنا؟ قال البعض في الاجابة على هذا السؤال: المراد هو التقليل من الثواب علىٰ اعمال من لا يراعي الآداب مع النبي.

الجواب الثاني هو أن هذا العمل اذا اعتبر اهانة للنبي وموجبا لايذائهﷺ كان ذلك سببا لارتداده، والمرتد تحبط اعماله الصالحة كما قال تعالىٰ: **﴿وَ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَ هُوَ كافِرٌ فَأُولٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ﴾** البقرة ٢١٧.

الجواب الثالث: ان هذا العمل الموهن معصية كبيرة، وبعض المعاصي الكبيرة تحبط اعمال الانسان الحسنة، كما ان الاجتناب على الكبائر يمحو آثار الذنوب الصغيرة للانسان، مما يسمّيه القرآن بـ«التكفير عن السيئات» كقوله تعالىٰ: **﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾** النساء ٣١، أو قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ﴾** هود ١١٤.

يعتقد الشيعة ان بعض الذنوب يمحو آثار أعمال الانسان الصالحة كلها، والبعض الآخر يمحو ثواب بعض الاعمال، وينبغي البحث عن مواردها في الكتاب والسنّة. على أي حال فان أيذاء النبي وايلامه واهانته تعتبر من الذنوب التي تسبب حبط اعمال الانسان وتزيل آثار الاعمال الصالحة الصادرة منه.

في مختلف الاوقات ويشغلون وقته، أو اذا دُعوا الى الطعام في داره ﷺ مثلا فبدلاً من أن يذهبوا ظهراً وان لايمكثوا طويلا بعد تناول الطعام، لكي يتفرغ ﷺ الى اعماله المهمة، كانوا يذهبون بدون تحفظ ويجلسون ويتحدثون، وكان النبي يستحيي من صرفهم ليتفرغ الى اعماله وشؤون المجتمع الاسلامي.

القرآن الكريم يوصي هؤلاء بانكم إن دُعيتم الى دار النبي فعليكم احترام وقته وان لا تشغلوه بلا فائدة قبل وبعد تناول الطعام.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلىٰ طَعٰامٍ غَيْرَ نٰاظِرِينَ إِنٰاهُ وَ لٰكِنْ إِذٰا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذٰا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لاٰ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذٰلِكُمْ كٰانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اللّٰهُ لاٰ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾[١].

ان عبارة (غير ناظرين إناه) في الآية الكريمة تعني لا تنتظروا تقديم آنية الطعام، اشارة الى الذين كانوا يذهبون مبكرين ويجلسون هناك وينتظرون توزيع الطعام ومتىٰ توضع المائدة. فيوصيهم الله في الآية أن يجتنبوا هذا الفعل.

يبدو ان الآية تذكر للمسلمين عدداً من الآداب الاسلامية الواجب رعايتها تجاه رسول الله ﷺ.

الاول ان لا يشغلوا وقت النبي بلا هدف، وان لا يشغلوه بسماع احاديث غير مهمة.

الثاني ان لا يذهبوا الى داره دون استئذان.

الثالث في حالة الدعوة الى تناول الطعام ينبغي لهم ان يكتفوا بوقته ثم يتركوا النبي ﷺ قبل وبعد الطعام حتى يتفرغ الى أعماله المهمة، وان لا يعجلوا بالذهاب

١. الاحزاب ٥٣.

لينتظروا الطعام ولا يزاحموه بعد الطعام.

ينقل عن المرحوم الشيخ محمد كاظم الشيرازي قوله: خرجت من الدار ذات يوم عند صلاة المغرب فوجدت المرحوم الميرزا محمد تقي الشيرازي ـ أعلى الله مقامه ـ يتخطّىٰ امام الدار منتظراً، فتعجبت من ذلك وتقدمت وسلمت عليه وعلمت انه جاء ليسلّمني مبلغا من المال.

قلت: لماذا تجشمتم عناء ذلك؟ لو أمرتم لكنت في خدمتكم. فأجاب: كان لي شغل معك فلزم ان آتي بنفسي. قلت لماذا لم تطرقوا الباب ولم تخبروني؟ فأجاب: علمت أنك تخرج من الدار قريباً من وقت الصلاة فما أحببت ان ازاحمك فانتظرت حتى تخرج.

أجل، ان هذا هو من أجمل الآداب الاسلامية التي يرىٰ اولياء الله أنفسهم ملزمين بها بحيث يأتي شخصية كهذه من مراجع التقليد الى دار تلميذه لتسليم راتبه الشهري ولا يرضى بمزاحمته، ان في ذلك لدرساً كبيراً لنا نحن الذين نقتدي بهؤلاء الرجال العظام.

ما قيل في هذا الفصل كان آدابا أوصى بها القرآن المؤمنين ليلتزموا بها تجاه النبيّ صلى الله عليه وآله، وينبغي الالتفات الى ان رعايتها وان كان واجبا بالنسبة للنبي فان الالتزام بها بالنسبة للآخرين أمر محبّذ وقيّم حتماً سيّما بالنسبة لذوي الخصائص الدينية فان الالتزام بها ذو قيمة اكبر، وكما أشير سابقاً فان مثل هذه الآيات المتعلقة بالنبي اصلا قابلة للتعميم والاتساع لتشمل الآخرين أيضا، ويا حبّذا لو التزم الانسان بهذه الآداب مع الشخصيات الدينية كافة أو الذين يجب احترامهم بنحو ما. حتى ان بعض هذه الآداب يحبّذ الالتزام به مع قطع النظر عن الأشخاص الذين نتعامل معهم، وهي الدليل على تخلّق الفرد بالاخلاق الاسلامية والانسانية.

فالتحدث بهدوء ولين وعدم إشغال وقت الآخرين وما شاكل ذلك من الآداب التي يشهد الوجدان على حسنها الذاتي، فهي مطلوبة بذاتها، وبعض عبارات هذه الآيات شاهد على هذا الأمر، حينما يقول تعالىٰ:

﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوٰاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[١].

فانه ليذكّر بانّ عدم رعاية هذا الأدب الاسلامي قبيح ولا فرق في الاشخاص، وعليه فان آية سورة الحجرات وان كانت ترتبط بالنبيﷺ وتوصي بان لا تخاطبوه بصوت عالٍ ولا تنادوه من وراء الدار، ولكن هذا التعبير يشير الى قبح هذا العمل، ويكون الالتزام بهذا الأمر محبَّذ في ذاته، وعدم الالتزام به قبيح ومرفوض، ويشعر الجميع بقبحه في أعماق قلوبهم وضمائرهم.

---

١. لقمان ١٩.

القسم الرابع



القيم والأخلاق الاسلامية في مجال الأموال

أ ـ العلاقات العادلة وغير العادلة

الاعتداء على اموال الآخرين

بداهة حرمة الاعتداء على اموال الآخرين

حكم القرآن في الاعتداء على الأموال

السرقات الخفية

ب ـ نطاق الاحسان

مصاديق الاحسان في القرآن

اساليب الترغيب في الانفاق

شروط الانفاق

على من يجب الانفاق؟

مقدمة

القسم الآخر من الأخلاق الاسلامية يتمحور حول الشؤون المالية. ولهـذا القسـم ارتباط بالقضايا الحقوقية من جهة، وبالقضايا الاقتصادية من جهة أُخرىٰ، كـما لا يكون بعيداً عن القضايا السياسية والدولية أيضاً. ومع ذلك فنحن نركّز هـنا عـلىٰ القيمة الأخلاقية فقط.

انّ القيم الأخلاقية التي تبحث في هذا المجال تنقسم بصورة عامة الى مجموعتين:

المجموعة الأُولىٰ هي القيم التي تندرج تحت عنوان العدل، ويـمكن التـحدث عنها في ضوء العنوان العام للعدالة.

المجموعة الثانية هي القيم التي تندرج تحت عنوان الاحسان، وتمثل اشـعاعاً عن القيمة الأساسية للاحسان. بناء على ذلك كما ذكر في بيان المعايير العامة في القيم الاجتماعية فانّ المبدأين العامين: (العدل والاحسان) لهما أهمية اساسية في هذا المجال، وخاصة في الشؤون المالية، حيث يمكن ان يكون لهـما تأثـير غـير اعتيادي. وندرس هنا باختصار كلاً من المجموعتين بصورة مستقلة.

أ ـ العلاقات العادلة وغير العادلة

ان موضوع العدل يتعلّق بالعلاقات المتبادلة بين بني الانسان في المجتمع، ويعني

سيادة التوازن فيها كي لا يُظلم أو يُجحف بحق شخص في هذه العلاقات والمعاملات، وأمّا ما يندرج تحت عنوان الاحسان فانه ذو جانب واحد ولا يكون موضوعا للظلم والعدل، بل هو من باب الايثار. فالذين يعينون الآخرين مالياً بدون مقابل فان عملهم يندرج تحت عنوان الاحسان.

ان اساس ومحور البحث في الأمور المالية ممّا يندرج تحت عنوان العدل هو احترام الملكيّة، أي بما أن كل مال له مالك خاص فلابدّ من احترام ملكيّته دون أن يتعرض للاعتداء وتطاول الآخرين، والمبادلات المنجزة يجب ان تكون متناسبة مع ملكيّة الطرفين وحقوقهما.

الاعتداء على أموال الآخرين

انّ القيمة السلبية الأُولىٰ في الشؤون المالية هو الاعتداء على اموال الآخرين، ويتم بأشكال مختلفة منها السرقة والغصب وتندرج تحت عنوان الظلم والمنكر والفساد وسائر المفاهيم العامّة في الأخلاق الاجتماعيّة.

ان الاعتداء على اموال الناس قديحدث علناً وبالقوة والارهاب وأحياناً بتهديد السلاح، والأُنموذج البارز له هو قطّاع الطرق الذين كانوا يسلبون اموال الناس بالتهديد والارهاب والضرب والجرح والقتل. انه احد المصاديق والنماذج البارزة للمحاربة مع الله والافساد في الارض، وقد جعل القرآن الكريم له حداً حيث يقول:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١].

---

١. المائدة ٣٣.

ويتم الاعتداء على اموال الناس أحياناً بصورة سرّية وبعيداً عن نظر صاحب المال، كالسطو على البيوت أو فتح الباب خفية أو كسر القفل ثم سرقة اموال الناس، ويطلق على هذا النوع من الاعتداء المالي عنوان (السرقة).

وأحيانا يسلبون من الآخرين اموالهم حيلة وتزويراً وله اشكال مختلفة.

بداهة حرمة الاعتداء على اموال الآخرين

ان عدم جواز التصرف بأموال الآخرين قضية بديهية وترتبط بالادراكات والاحكام العملية، وهي كالقضايا البديهية الموجودة في مجال الادراكات النظرية.

ان الاجواء السائدة على الافكار الفلسفية هي عدم وجود قضية أو قضايا بديهية في مجال القضايا الاعتبارية أو الادراكات العملية. ولكن يبدو أن هناك قضايا بديهية في الاعتباريات أيضا كما في القضايا النظرية.

و قد ذكرنا في محله انّ البديهيات ـ غير ما يحكى عن الوجدانيات والعلوم الحضورية ـ ترجع الى القضايا التحليلية، أي القضايا التي يمكن الحصول علىٰ مفهوم المحمول فيها من تحليل الموضوع، سواء أكانت القضية مرتبطة بالادراكات النظرية أو الادراكات العملية والاعتبارية، دون تفاوت بينها في هذه الملاحظة.

بناء على ذلك لا اشكال في ان نستخرج مفهوما من تحليل موضوع اعتباري ثم نحمل ذلك المفهوم المستخرج من التحليل على ذلك الموضوع فتحصل قضية بديهية ولكنها اعتبارية.

ان اعتبارية موضوع لا تمنع من استخراج مفهوم آخر من تحليله، أو حمله بعد التحليل على ذلك الموضوع ذاته.

بناء على ذلك لا مانع من ان ندعي وجود قضايا بديهية في الادراكات العملية والأمور الاعتبارية.

كأن نقول مثلا في هذه القضيّة: من كان مالكا لشيء فانّ له تسلّطاً عَلىٰ ذلك الشيء انّها قضية اعتبارية وبديهية في الوقت ذاته، إذ انّنا حينما نعلم بملكية شيء لشخص، فلا معنى لذلك سوى ان هذا الشخص ذو تسلط قانوني على ذلك المال، أي يجوز له قانونيا التصرف فيه كما يشاء، وان لم يكن له تسلط طبيعي على ذلك وكان بعيدا عن متناوله.

على هذا الأساس حينما نقول: (مالك الشيء له تسلط عليه) فانها قضية بديهية، لان مفهوم المحمول فيها وهو التسلط على المال المذكور يستخرج من تحليل الموضوع فيها وهو عنوان (مالك المال).

بناء على ذلك تكون القاعدة الفقهية (الناس مسلطون على اموالهم) قضية بديهية، ولو لم يكن لدينا أيُّ دليل فقهي آخر يدل على اعتبار مضمون هذه القاعدة فانه لاتحدث أيّة مشكلة، لانها قضية بديهية وثابتة في ذاتها ولا تحتاج الى استدلال. فبمجرد الاقرار بالملكية في مذهب فكري ونظام حقوقي فانه يتبعه اقرار بالتسلط على المال ـ شئنا أم أبينا ـ ويستفاد من اضافة (اموال) الى الضمير (هم) في هذه القاعدة انّ المراد من (الناس) هو المالكون والصيغة الأصلية للقاعدة هي (المالكون مسلطون علىٰ اموالهم)، ومن تحليل مفهوم المالك يمكن الحصول علىٰ مفهوم التسلط طبعا.

وهكذا قضية (لا يحل مال امرىء الا عن طيب نفسه)، فانها قضية بديهية واعتبارية اُخرىٰ، لانه كما يمكن ان ندرك من تحليل المالكية بان مالك المال يجوز له كل اشكال التصرف فانه يمكن أيضاً ان ندرك عدم جواز أي تصرف فيه من قبل الآخرين. اذا كما يمكن استخراج جواز أيّ تصرف للمالك من تحليل المالكية يمكن استخراج منع الآخرين من أيّ تصرف بدون رضا المالك من تحليل مفهوم

المالكية ايضا، وليست حقيقة المالكية شيئاً غير ذلك، سواء اعتبرنا هـذه الأمـور جزءاً من المالكية او من لوازمها التي لا تنفك عنها، ولا فرق فـي ذلك ان نـفسر المالكية بانها نوع من التسلط أو نوع من الاختصاص.

على أي حال فان حرمة أو منع التصرف في اموال الآخرين من ارسخ الأصول الأخلاقية في المجتمعات البشرية كافة، ومـن القـضايا البـديهية التـي لا يـتوقف اعتبارها على ان يصادق عليها المقنن أو يقرّ بها الناس، لانه يمثل مضمون المالكية، وما دامت المالكية معتبرة في المجتمعات البشرية فان حرمة التعدي عليها وجواز التصرفات للمالك هما من فروع المالكية وتوابعها ولوازمـها التـي لا تـنفك عـنها فتكون معتبرة. بناء على ذلك اذا كان هناك اختلاف فانه يدور حول أصل المالكية وشروطها، ومثل هذه الاختلافات لا تضر ببديهية هذه القضية.

إذنْ ما دامت المالكية مقبولة فان أحد فروعها الواضحة هو انه في ذلك الحـدّ يكون التعديّ عليها حراماً بشكل واضح وبديهي، من هنا يكون قبح التعدي على اموال الآخرين من الاحكام البديهية والواضحة التي لا يتردد فيها انسان، إذ انّـها نتيجة للمالكية، وأصل المالكية ولوازمها معتبرة فـي المـجتمعات البشـرية حـتىٰ المتوحشة منها، واذا أجاز مجتمع متوحّش لنفسه في أن يتصرف في اموال مجتمع أو قبيلة أُخرىٰ فانه يعني ان من حقه سلب مالكيتها. بكلمة أُخرىٰ ان ما يجيز لهم شن معركة علىٰ الآخرين سيكون مجيزاً لهم لتملك اموال الآخرين أيضاً. الّا انّ هذه القبيلة المهاجمة نفسها تكون ذات علاقات فيما بين افرادها، ويرعى بعض افرادها حرمة البعض الآخر وامواله ولا يعتدي عليها، وحتى السراق الذين يسرقون اموال الآخرين يحكم هذا القانون علاقاتهم الداخلية ولا يعتدون على الأموال فيما بينهم.

حكم القرآن في الاعتداء على الأموال

لم يبحث القرآن الكريم السرقة وقطع الطرق من الناحية الأخلاقية، لان قبحها أوضح من ان تكون بحاجة الىٰ البيان، بل اكتفى ببيان وتعيين العقوبة الحقوقية والحكم الجنائي لها، حيث قال تعالىٰ:

﴿وَ السّارِقُ وَ السّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزٰاءً بِما كَسَبٰا نَكٰالاً مِنَ اللّٰهِ وَ اللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١].

وجاء في آية أُخرىٰ عن السرقة المسلحة:

﴿إِنَّما جَزٰاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسٰاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاٰفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذٰابٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

في هذه الآية ذكرت عدة عقوبات للمحارب والمفسد في الارض الذي يشهر سلاحه ويخيف الناس ويسلب اموالهم، حيث ينفّذ الحاكم واحداً منها بحقّه حسب المصلحة التي يراها.

يحكي القرآن عن انّ النبيﷺ كلما أراد ارشاد فئة من الناس للاسلام كان يبايعهم على أداء أو ترك بعض الاعمال، وأوضحها ترك السرقة، والله سبحانه خاطب النبيﷺ في إحدىٰ الآيات القرآنية:

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذٰا جٰاءَكَ الْمُؤْمِنٰاتُ يُبٰايِعْنَكَ عَلىٰ أَنْ لاٰ يُشْرِكْنَ بِاللّٰهِ شَيْئاً وَ لاٰ يَسْرِقْنَ وَ لاٰ يَزْنِينَ وَ لاٰ يَقْتُلْنَ أَوْلاٰدَهُنَّ وَ لاٰ يَأْتِينَ بِبُهْتٰانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ وَ لاٰ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبٰايِعْهُنَّ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣].

---

١. المائدة ٣٨. ٢. المائدة ٣٣.
٣. الممتحنة ١٢.

على أي حال فانّ السرقة من الاعمال المحظورة التي كـان النـبيﷺ يـأخذ البيعة على تركها من أتباعه وانصاره في الخطوات الاولىٰ وقبل كل شيئ.

السرقات الخفيّة

١ ـ اكل مال اليتيم

كان التعدي على اموال الآخرين وغصب حقوق الناس ـ غير السرقة ـ يتم بصور مختلفة اخرىٰ ولم يكن لها صورة السرقة الرسمية. من هنا نذكرها تحت عـنوان السرقة الخفية، ونظراً الى ان بعض انواع هذه الاعتداءات غير العلنية كان شائعا بين الناس، بشكل أو بآخر، ولم يُلتفت الى قبحه وسوئه، فانّ القرآن الكريم يؤكد عليه بنحو اكبر ويندّد به بنحو أشد.

من هذه الموارد اموال اليتامىٰ التي كانت تتعرض عادة للاعتداء من قبل الكبار وارحامهم واوليائهم. فقد كان في المجتمع العربي عدد كبير من اليتامىٰ، إثر الحروب الكثيرة التي حدثت قبل وبعد الاسلام، ووفق الأعراف القبَلية آنئذ اذا تيتّم الطفل في أُسرة فان كبيرها يصبح وليّه تلقائيا. ولم يكن هناك مرجع قانوني أو سلطة قضائية رسمية لتعيِّن قيّما رسميا عليه.

وكان وليُّ اليتيم ـ الذي يعيش في كنفه ورعايته ـ يرىٰ الخيار التامَّ لنفسه فـيتملك جميع اموال الطفل اليتيم والضعيف أحيانا، ولا يمنعه مانع من هذا العمل وهو الاعتداء على ماله. وكان اليتيم حينما يكبر لايجد شيئاً مما كان يملك ولا يصله شيء من ارث والده. كان هذا الامر شائعا وبصورة عامة، وكان الاعتداء على اموال اليـتامىٰ يـحدث كثيراً كأمر اعتيادي. من هنا يؤكد القرآن الكريم مراراً وبـاصرار عـلى ان لا يـتصرف الكبار في اموال اليتامىٰ أو لا يقتربوا منها الّا لمصلحة اليتيم وبأفضل الصور، قال تعالىٰ:

﴿وَ آتُوا الْيَتامىٰ أَمْوالَهُمْ وَ لاٰ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَ لاٰ تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلىٰ أَمْوالِكُمْ إِنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيراً﴾[١].

يبدو من هذه الآية حدوث كثير من الاعمال غير الصحيحة والاعتداءات على اموال اليتامىٰ في ذلك العصر، من قبيل أخذ ما هو افضل وأجود من مـال اليـتيم وجعل ما هو اردأ وأدنىٰ قيمةً مكانه، أو عدم رعاية الحدود فكانوا ينفقون اموال اليتيم مختلطة مع اموالهم. لقد منع القرآن الناس من هذه التصرفات وحكـم بأنـها معاصٍ كبيرة لا تغفر.

وأوصىٰ في آية أُخرىٰ بصورة عامة برعاية العدل في حق اليتامىٰ حيث يقول:

﴿وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتامىٰ بِالْقِسْطِ﴾[٢].

و هكذا أوصي بعدم التصرف بأموال اليتيم قبل ان يبلغ الّا بأفضل صورة:

﴿وَ لاٰ تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاّٰ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتّٰى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾[٣].

وأمر في آية أُخرىٰ بارجاع الأموال الى اليتيم بعد بلوغه. واذا اردتم ان تعرفوا هل إنه يتمتع بالعقل والنضج والمعرفة الكافية ويتمكّن من ادارة أمواله فعليكم ان تختبروه قال تعالىٰ:

﴿وَ ابْتَلُوا الْيَتامىٰ حَتّٰى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ وَ لاٰ تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَ بِداراً أَنْ يَكْبَرُوا﴾[٤].

اساليب القرآن لحفظ اموال اليتيم

يعتبر القرآن مشكلة اليتامىٰ مشكلة اجـتماعية كـبيرة قـد تـطال افـراداً آخـرين،

---

١. النساء ٢.
٢. النساء ١٢٧.
٣. الانعام ١٥٢.
٤. النساء ٦.

ويستخدم اسلوباً نفسيا اجتماعيا ليجتنب الناس التصرّف الغاصب في اموال اليتامىٰ، فيخيفهم من عقوبات التصرفات الظالمة، ومن سوء معاملة الآخرين مع أيتامهم فيخاطبهم: افترضوا ان هؤلاء يتاماكم ويريد الآخرون الاستيلاء على اموالهم ألا تقلقون في هذه الحالة؟ قال تعالىٰ:

﴿وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّٰهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامىٰ ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾[1].

كأن القرآن يريد القول بانكم ان لم تراعوا حرمة اليتيم وتطاولتم على امواله فان ذلك سيشيع على شكل ظاهرة وسنّة عامة وسيرتكبه افراد المجتمع كافة ويعتدون على جميع اليتامىٰ ويظلمونهم ويزول قبح هذا العمل القبيح.

ويقول في ذيل الآية بانّ الذين يأكلون اموال اليتامىٰ ظلما كأنما يأكلون ناراً، وقد عدّوا هذه الآية من الآيات الدالة على تجسم الاعمال، أي ان الاعمال الصالحة تتجسم في صور جميلة، والاعمال القبيحة والظالمة في صور قبيحة ومقززة ومؤلمة.

على أي حال فان الله عز وجل يريد صد الناس عن التعدي على اموال اليتامىٰ بطريقين: الاول عن طريق الالفات الى العقوبة الدنيوية، اذ من الممكن ان يصنع الآخرون مع يتامىٰ الانسان الظالم ما صنعه هو بيتامىٰ الآخرين.

الثاني عن طريق التذكير بالعذاب الاخروي حيث يقول: ان هذه الأموال هي في الواقع نار يأكلونها، وتظهر حقيقتها في القيامة.

---

١. النساء ٩ و ١٠.

٢ـ التطفيف في الميزان

يعتبر التطفيف في الميزان من أقبح انواع الظلم في التبادل التجاري، وقد شدد القرآن على تركه. وآيات القرآن الكريم تحكي على لسان النبي شعيبعليه السلام عن انّ التطفيف في المكيال كان إحدىٰ المفاسد الشائعة في قومه.

وقد كان كل نبي عند بعثته يكافح المفاسد الشائعة في عصره، وقد كان التطفيف في الميزان من المفاسد الشائعة في عصر النبي شعيبعليه السلام، كما كان اللواط شائعا في قوم النبي لوطعليه السلام، وكان هذا النبي يكافح هذا العمل الشنيع.

كان النبي شعيبعليه السلام يؤكد بشدة على التدقيق في الوزن في المعاملات، ويظهر من تأكيداته انّ التطفيف في الميزان كان شائعا آنئذ ومفسدة اجتماعية كبيرة. والقرآن يؤكد بشدة على ترك هذا الذنب القبيح. من هنا يتحدث بتعابير مختلفة عنه في آيات عديدة وعلى لسان شعيب، كقوله تعالىٰ:

﴿وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزٰانَ بِالْقِسْطِ﴾[١].

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزٰانَ وَ لاٰ تَبْخَسُوا النّٰاسَ أَشْيٰاءَهُمْ وَ لاٰ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاٰحِهٰا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٢].

﴿وَ لاٰ تَنْقُصُوا الْمِكْيٰالَ وَ الْمِيزٰانَ إِنِّي أَرٰاكُمْ بِخَيْرٍ وَ إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَ يٰا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيٰالَ وَ الْمِيزٰانَ بِالْقِسْطِ وَ لاٰ تَبْخَسُوا النّٰاسَ أَشْيٰاءَهُمْ وَ لاٰ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[٣].

أو في آيات أُخرىٰ بتعبير:

﴿وَ زِنُوا بِالْقِسْطٰاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾[٤].

أو بتعبير:

---

١. الانعام ١٥٢.
٢. الاعراف ٨٥.
٣. هود ٨٤ و ٨٥.
٤. الاسراء ٣٥ و الشعراء ١٨٢.

﴿وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾[١].

أو بتعبير:

﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ﴾[٢].

هذه الآيات تتحدّث بشكل مؤكّد عن التطفيف في الميزان، والكثير منها يرتبط بقصة النبي شعيب، ونظراً لشيوعه آنئذ بشدة وتبدّله الى مرض اجتماعي فان الآيات تأتي بتعبيرات مثل قوله (لا تفسدوا في الارض) أو (لا تعثوا في الارض مفسدين).

وغير الآيات المذكورة ونظائرها التي جاءت في مواضع مشتتة من القرآن فان سورة المطففين قد سميت بهذا العنوان وافتتحت بهذا التعبير:

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[٣].

٣ـ التدليس والغش

ان آيات التطفيف في الميزان ناظرة الى المقدار والقضايا الكمية. فاذا لم يكن الغش في الكم وكان المشتري مغبوناً ومخدوعاً في كيفية المبيع لا كميته فما هو الحكم؟

الجواب: ان هذه الآيات وان كانت بأجمعها ناظرة الى الغش في الكم، وقد حكمت بحرمة التطفيف، ولكن ينبغي الالتفات الى ان ملاك هذا الحكم نافذ في سائر معاملات الغش عند التبادل أيضا، أي يمكن اعتبار التطفيف في الكيفية مصداقا لـ (الافساد) الذي استعمل في الغالب بعد النهي عن التطفيف.

انّ الملاك في حرمة التطفيف هو عدم رعاية العدل في المعاملة. الملاك هو أن يُظلم أحد الطرفين، وعليه ينبغي وجود توازن بين الثمن والمثمن، ولا يكون هناك

١. الرحمن ٩. ٢. الرحمن ٨.
٣. المطففين ١ ـ ٣.

أكل بالباطل واخلال بالنظام الاقتصادي واستغلال، وكما ان هذه الملاكات قد بيّنت حكم التطفيف فهي تبيّن أيضاً حكم انواع الغش الأُخرىٰ والابعاد الكيفية، وعلى اساس هذه الملاكات يمكن الحكم بقبح وبطلان معاملة يؤخذ فيها ثمن حنطة جيدة ثم تسلّم حنطة رديئة، أو تخلط الجيدة بالرديئة ويدلس على المشتري بأنها جيدة ولا يلتفت الى اختلاطها بالرديئة.

٤ـ المعاملات غير العقلائية

المجموعة الأُخرىٰ من المعاملات الممنوعة في القرآن الكريم هي المعاملات غير العقلائية التي ذكرت بتعبير (اكل المال بالباطل). ان اساس المعاوضة هو وجود توازن بين العوض والمعوض، وان تكون متوازنة في القيمة. فاذا تمت المعاملة بصورة لم تراعَ فيها هذه الحكمة ـ مهما كان شكلها ـ فانها لا تكون لصالح المجتمع وينبغي التصدي لمنعها.

نعم، انّ المراد من العقد أحياناً هو التسامح كالصلح فالحالة تختلف عندئذ، ولكن اذا كان المراد هو المعاوضة الحقيقية والمقايضة فينبغي عدم الاجحاف بأي طرف في المعاوضة، والّا وجب التصدي لمنعه.

وأحد نماذج المعاملات غير العقلائية القائمة على اساس غاية غير صحيحة وتعتبر المنشأ للفساد والنزاع ودمار الافراد هو القمار الذي نهىٰ عنه القرآن في موردين، أحدهما قوله تعالىٰ:

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾[١].

---

١. البقرة ٢١٩.

والثاني:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللّٰهِ وَ عَنِ الصَّلاٰةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[١].

هذه الآية تشير الى مفاسد شرب الخمر ولعب القمار وكونهما عملين غير عقلائيين، وذلك لانه بواسطة عمل عابث وغير نافع قد يفقد الانسان امواله في لحظات ويحصل الطرف الآخر على اموال مجاناً، ولا يمكن ان يكون هذا عملاً عقلائيا واقعا ولا تترتب عليه فائدة معقولة. من هنا كلما تذكر الخاسر ما يملكه الطرف المقابل من امواله ـ التي تحمل الآلام والصعاب في كسبها ـ بدون تعب وجهد وسعي ثارت في نفسه روح العداء والحقد، وكثيراً ما تترتب مفاسد اكبر على ذلك أيضاً، ويعزم أحدهما على قتل الآخر.

٥ ـ الرشوة

الرشوة هي المال الذي يدفع للقاضي لكي يحكم لصالح الدافع، وباستمالة القاضي الىٰ جانبه يتحقق ظلم للطرف الآخر. قال تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿وَ لاٰ تَأْكُلُوا أَمْوٰالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبٰاطِلِ وَ تُدْلُوا بِهٰا إِلَى الْحُكّٰامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوٰالِ النّٰاسِ بِالْإِثْمِ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢].

ان اثم الرشوة عظيم جداً يطال الراشي والمرتشي ويعرّضهما لنار جهنم والعذاب الالهي. وواضح انها معصية كبيرة حينما يتسلم القاضي الرشوة من احد الطرفين

---

١. المائدة ٩٠ و ٩١.   ٢. البقرة ١٨٨.

ويظلم الطرف الآخر ويحكم بغير حق. وهكذا بالنسبة للراشي فانه بعمله هذا يرغّبه ويعينه على ارتكاب هذا الظلم، وقد حذّر القرآن المؤمنين بصراحة من هذه الاعانة.

٦ ـ الربا

من المعاملات المالية التي نهىٰ القرآن المسلمين بشدة عن ممارستها هي الربا. انّ المعاملة الربوية شائعة بشكل أو بآخر في كل زمان وفي المجتمعات كافة وفي هذا العصر أيضاً. وقد كان هذا العمل شائعا في عصر رسول الاسلامﷺ ويعتبر من المفاسد الاقتصادية في المجتمع الجاهلي.

ان تعامل القرآن مع ظاهرة الربا تعامل شديد ومفعم بالتهديد، ونحن نشير هنا الى نماذج منه قال تعالىٰ:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبٰا لاٰ يَقُومُونَ إِلاّٰ كَمٰا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطٰانُ مِنَ الْمَسِّ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبٰا وَ أَحَلَّ اللّٰهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبٰا فَمَنْ جٰاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهىٰ فَلَهُ مٰا سَلَفَ وَ أَمْرُهُ إِلَى اللّٰهِ وَ مَنْ عٰادَ فَأُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ﴾[1].

وقال في موضع آخر:

﴿يَمْحَقُ اللّٰهُ الرِّبٰا وَ يُرْبِي الصَّدَقٰاتِ وَ اللّٰهُ لاٰ يُحِبُّ كُلَّ كَفّٰارٍ أَثِيمٍ﴾[2].

وجاء في آية أُخرىٰ:

﴿يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَ ذَرُوا مٰا بَقِيَ مِنَ الرِّبٰا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوٰالِكُمْ لاٰ

---

١. البقرة ٢٧٥.
٢. البقرة ٢٧٦.

تَظْلِمُونَ وَ لاٰ تُظْلَمُونَ﴾[١].

في إحدىٰ الآيات القرآنية يقارن الله عز وجل بين الربا والانفاق، ويذكّر الناس بهذه الحقيقة وهي انكم تمارسون الربا لانكم تريدون تنمية اموالكم وتبغون مزيداً من الربح، ولكن اعلموا انّ الربا عند الله تعالىٰ ليس ربحاً بل هو ضرر، وفي المقابل، ان الانفاق ودفع الزكاة والصدقات هو ضرر في ظنكم ولكنه ربح لدىٰ الله عز وجل.

ان ما تدفعونه للناس على صورة ربا لكي تنمو اموالكم لا ينمو عند الله وليس من حقكم ان تستردّوا اكثر من أصل رأس المال، وما تقدّمونه من زكاة وتطلبون به رضا الله فانه يتضاعف عند الله، قال تعالىٰ:

﴿وَ مٰا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوٰالِ النّٰاسِ فَلاٰ يَرْبُوا عِنْدَ اللّٰهِ وَ مٰا آتَيْتُمْ مِنْ زَكٰاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللّٰهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[٢].

إذنْ ان كنتم طلاباً للربح حقا فانفقوا اموالكم كي تتضاعف سبعمائة مرة واكثر، أو اقرضوا القرض الحسن ونالوا الثواب من الله، ولكن اذا اعطيتم اموالكم للربا بأمل مضاعفتها عند الناس واضافة اموالهم الى اموالكم فان الله لا يـرضى بـهذا النـمو وسوف لن يسعدكم هذا العمل في هذه الدنيا أيضا.

قال تعالىٰ في إحدىٰ الآيات المذكورة في تشبيه أو مثال: ان آكل الربا لا يقوم الا كما يقوم الذي مسه الشيطان وجنّنه.

قال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية وتحليل هذا التشبيه: المـراد هـو انّ المرابي لا يخرج من قبره الا كالمجنون، ويحشر مبهوتا ومتحيراً ومجنونا، ولكـن قال بعض آخر: ان حالة البهت والجنون تحصل للمرابي في هذه الدنيا، أي الذين اعتادوا علىٰ اكل الربا تنتابهم حالة الجنون واقعا وهم مشغولوا البال دائما بالصكوك

١. البقرة ٢٧٨ و ٢٧٩.
٢. الروم ٣٩.

والكمبيالات، انهم حتى في حالة المشي في الشوارع كأنهم يمشون في عالم آخر ولا يلتفتون الى ما حولهم، بل حصروا اذهانهم ومشاعرهم وافكارهم في المال وارباحه، ويمكن ان تكون حالتهم في القيامة تحققاً عينيا لهذه الحالة الروحية في هذا العالم. انّ القرآن بهذا التشبيه يلفت انتباه المسلمين حتىٰ لا يتورطوا بهذه الحالة وحتىٰ لا يفقدوا عقولهم.

ان اكل الربا قبيح ومبغوض عند الله عز وجل الى درجة اعتباره كفراً وحرباً مع الله في بعض الآيات، قال تعالىٰ:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعٰافاً مُضٰاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَ اتَّقُوا النّٰارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكٰافِرِينَ﴾[١].

هذه الآية تشير الى قضيتين: الأُولىٰ انّ الربا يؤدي الى تكدس الثروات وتمركزها بدون عمل وجهد وبنحو غير مشروع، الثانية انّ المرابي بمثابة الكافر.

في بعض آخر من الآيات يلوم الله عز وجل اليهود بشدة على اكلهم الربا ويذمهم، إذ انهم علىٰ الرغم من منعهم من أخذ الربا واكل اموال الناس بالباطل كانوا يتعاملون بالربا، انهم يهود في الظاهر وكفار في الواقع ولم يدينوا حتى بالديانة اليهودية.

انّ التعابير التي نقلناها من الآيات كانت شديدة جداً وذات تهديد في تعاملها مع المرابين، ولكن اشد التعابير واكبرها تهديدا هو التعبير القائل:

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ﴾[٢].

ولعله يرجع الى انّ الربا يكون منشأ للخلل والفساد الاقتصادي في المجتمع عدا تبعاته الأخلاقية القبيحة، حيث يدفع مجموعة من الأفراد نحو الكسل وطلب

---

١. آل عمران ١٣٠ و ١٣١.
٢. البقرة ٢٧٩.

الراحة بدلا من العمل والسعي النافع واستثمار رأسمالهم الذي يمثل ثـمرة أتـعاب وجهود الضعفاء المضنية ومضاعفته يوما بعد يوم، وإثارة الأزمة والخلل في النظام الاقتصادي والاجتماعي.

ب ـ نطاق الاحسان

قلنا انّ القضايا الأخلاقية التي تطرح على اساس الشؤون المالية يمكن تقسيمها الى مجموعتين:

الأُولىٰ: القضايا التي تندرج تحت عنوان العدل والظـلم، أي ان مـلاك قـيمتها الإيجابية والسلبية في الأصل هو العدل و الظلم.

الثانية: القضايا التي تندرج تحت عنوان الاحسـان ومـلاك قـيمتها هـو أصـل الاحسان. لقد بحثنا حول قضايا المجموعة الأُولىٰ في الفصل السابق، والآن ينبغي القول في توضيح اعمال المجموعة الثانية التي تقوم عـلى اسـاس الاحسـان: ان علاقات المجموعة الثانية تتكون في موضع يؤدي فيه طرف فعلاً صالحاً للـطرف الآخر ولا يتوقع قيام الطرف الآخر بعمل مالي مقابل ذلك، أي انه عمل مالي ولكنه ليس قائما على المعاوضة والتـبادل المـادي. ان الاعـانات المـالية التـي يـقدمها اشخاص الى فرد خاص أو الىٰ المجتمع تندرج في هذا القسم أيضاً.

مصاديق الاحسان في القرآن

في القرآن الكريم نلاحظ عناوين مختلفة كـالزكاة والانـفاق والصـدقة والاطـعام والعناوين المقابلة لها، ويكون بعضها منحصراً بموارد الاحسان، ومفهوم بعضها أعمُّ من ذلك ويندرج تحت العدل أيضاً. ان مادة (الانفاق) مثلا تعني البذل ودفع الكلفة

المالية، ويشمل هذا العنوان الانفاقات من قبيل النفقة على الزوجة والاولاد وحتى الأموال التي يبذلها الانسان في مصروفاته الشخصية أيضاً، ولكن (الانفاق في سبيل الله) ـ وهو مورد بحثنا ـ سيكون احسانا لانه عمل لا يتوقع فيه عمل آخر إزاءه من قبل الطرف المقابل كما يحكيه القرآن الكريم علىٰ لسان المحسنين بانه عمل يؤدّونه لله سبحانه فقط، كما جاء في الآية الكريمة:

﴿وَ يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّٰهِ لاٰ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزٰاءً وَ لاٰ شُكُوراً﴾[١].

هذه الآية تشير الى ان هذا النوع من الاعمال القائمة على الاحسان تؤدَّى بغية مرضاه الله فحسب، ولا يتوقع فيها خدمة متبادلة أو عمل مادي من الطرف المقابل ازاءه. وعليه يمكن القول ان أحد خصائص الاحسان البارزة هو أن يكون لله، ويعتبر من جملة العبادات لا المعاملات، علىٰ عكس العدل الذي يُطلق على مصاديق المعاملات أيضاً. ومن المناسب هنا ان نذكر باختصار بعض موارد الاحسان:

١ ـ الزكاة

ان عنوان (الزكاة) في اصطلاحنا نوع من الضرائب الشرعية الواجبة والتي عيّن الشارع المقدس حدودها ومتعلقاتها ونصابها ومصارفها، ولكن في الاصطلاح القرآني وفي أصل اللغة لا تنحصر في الضرائب الخاصة. وبعبارة أُخرىٰ انّ الزكاة في القرآن الكريم هي أعم من الزكاة الواجبة المعيّنة في الشريعة ومن احسان

---

١. الانسان ٨ و ٩.

الانسان الى المعوزين كما ورد في القرآن: قال تعالىٰ:

﴿وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاٰةَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ﴾(١).

وشأن نزولها ـ كما يقول المفسرون وجاء في الروايات ـ هو أن امير المؤمنينعليه السلام تصدق بخاتمه علىٰ فقير طلب المعونة من الناس في المسجد.

وعليه فان مصطلح (الزكاة) في القرآن هو اعم من مصطلحه الفقهي والمصطلح الشائع بين المتشرعة، ويشمل الصدقات المالية المستحبة ايضاً، بل له استعمالات أُخرىٰ في الكثير من الموارد التي لا ترتبط بالشؤون المالية.

ان لفظ الزكاة استعمل في القرآن الكريم اكثر من ثلاثين مرة مقرونة مع الصلاة في اغلبها وتم التاكيد عليهما بتعابير مختلفة كقوله تعالىٰ:

﴿وَ أَقِيمُوا الصَّلاٰةَ وَ آتُوا الزَّكاٰةَ﴾(٢).

أو:

﴿لٰكِنِ الرّٰاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَـيْكَ وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلاٰةَ وَ الْمُؤْتُونَ الزَّكاٰةَ وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أُولٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً﴾(٣).

﴿وَ لَقَدْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثٰاقَ بَنِي إِسْرٰائِيلَ وَ بَعَثْنٰا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَ قٰالَ اللّٰهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاٰةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكاٰةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ وَ أَقْرَضْتُمُ اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوٰاءَ السَّبِيلِ﴾(٤).

وجاء على لسان النبي عيسىعليه السلام:

---

١. المائدة ٥٥.
٢. البقرة ٤٣.
٣. النساء ١٦٢.
٤. المائدة ١٢.

﴿وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَ أَوْصانِي بِالصَّلاٰةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا﴾[١].

هذه التعابير تدل على التقارن بين هذين العملين العباديين، وتبيّن أهمية الزكاة في الفقه والأخلاق الاسلامية، أي ان أهميتها الأخلاقية بلغت درجة تعتبر فيها قرينة للصلاة وفي مستواها.

انّ الزكاة وان كانت من مصاديق الاحسان وليست قائمة على اساس المعاوضة المادية، ولكن ترتبت عليها آثار مفهومية مهمة في الآيات القرآنية. قال تعالىٰ في إحدىٰ هذه الآيات بعد الامر بالصلاة وايتاء الزكاة:

﴿وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٢].

يريد تعالىٰ القول بهذا التعبير في الآية: رغم ظنكم بأنكم فقدتم شيئا بايتاء الزكاة وخروج المال من جيوبكم لابدّ أن تعرفوا انكم لم تفقدوا شيئا في الواقع لان ما تقدمونه للفقراء في سبيل الله محفوظ لكم عند الله وسيعاد عليكم حين حاجتكم الماسّة اليه.

لقد بيّن الله عز وجل هذه الحقيقة ليعين معطي الزكاة ويدعم دافعه في اتيان الزكاة فيؤدي واجبه بسهولة ويكون مؤثراً في حل المشكلات الاقتصادية والاجتماعية.

قال تعالىٰ في موضع آخر:

﴿وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النّاسِ فَلاٰ يَرْبُوا عِنْدَ اللّٰهِ وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ

---

١. مريم ٣١.
٢. البقرة ١١٠.

زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللّهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[١].

إذنْ لا يحفظ المال بفضل الزكاة فحسب بل ينمو أيضاً على اساس هذه الآية ويتضاعف، وقد اكد الله عز وجل على هذا الأجر المعنوي في عدة آيات كقوله تعالىٰ:

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[٢].

﴿سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً﴾[٣].

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ﴾[٤].

﴿وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهٰا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ﴾[٥].

كما نلاحظ فان الله ينبىء بهذه التعابير المختلفة عن وجود أجر معنوي للزكاة، ومن خلال ذلك يشير الى ابعاده أيضا وهي انه أجر عظيم أولا، ويجبر الذنوب الماضية لمؤتي الزكاة ثانياً، وهذا الامر مستمر في المستقبل أيضاً ثالثا، حيث ان معطي الزكاة يكون موضعا للطف الالهي ورحمة الله الواسعة.

وعليه فان وجود هذا الاجر المعنوي وان استلزام تصوير ايتاء الزكاة على صورة (معاوضة) الاّ انّها ليست مادية بل سيكون عوضها أجراً معنوياً أولاً، ولا يطلب هذا العوض من الطرف الآخر ـ أي من أحسن اليه واستلم الزكاة ـ ولا يستلمه منه، بل انه يعطي الزكاة للفقير ويتلقى اجره من الله أو يطلبه منه. إذنْ لا منافاة بين أن يتلقى أو يطالب بأجر وثواب مقابل الزكاة وبين ان نعتبره من مصاديق الاحسان، كما انه لا يكون غير منسجم مع اعتبار الزكاة عملاً عباديا واخلاقيا، وان كان العمل الأخلاقي يمكن ان تكون له درجات أعلى أيضاً، الا ان هذا العمل بما انه ذو أجر معنوي لا

---

١. الروم ٣٩. ٢. البقرة ٢٧٧.
٣. النساء ١٦٢. ٤. المائدة ١٢.
٥. الاعراف ١٥٦.

مادي فانه يُعتبر من الاعمال العبادية والأخلاقية.

٢ ـ الصدقة

ورد لفظ (الصدقة) في القرآن كثيراً، والصدقة كالزكاة اكتسبت مفهومها الخاص لدىٰ المتشرعة، وتطلق على المعونات المالية المستحبة التي يقدمها الانسان المتعبد العارف بواجباته الى الفقراء اضافة الى تكليفه الواجب، وتكون في مقابل الزكاة المالية الواجبة، الا ان للصدقة في القرآن مفهوماً واسعاً جداً كالزكاة، فتطلق على الزكاة الواجبة اضافة الى الصدقات المستحبة كما ورد في هذه الآية:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسَاكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْغَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللّٰهِ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١].

هذه الآية استعملت لفظ الصدقة في مورد الزكاة الواجبة وبيّنت موارد صرفها أيضاً.

لقد استعملت الصدقة في الموارد المستحبة أيضاً، حتى في موارد كمهر الزواج قد استعملت فيه وهي من مشتقّات هذه المادة كقوله تعالىٰ:

﴿وَ آتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[٢].

اطلق هنا (صدُقة) بضم الدال على مهر المرأة ويشارك (صدقة) في أصل الاشتقاق. وقد استعمل لفظ الصدقة واشتقاقاتها في اكثر من عشرين مورداً في القرآن مثل: التصدّق والصدقة ومصّدّقين ومصّدّقات ومتصدّقين ومتصدّقات.

لقد استعملت تعابير جميلة في القرآن بشأن الصدقة أو ترتبت عليها آثار جذابة

---

١. التوبة ٦٠.　　٢. النساء ٤.

ترغّب الناس في ممارستها كقوله تعالىٰ:

﴿وَ إِنْ تُخْفُوهٰا وَ تُؤْتُوهٰا الْفُقَرٰاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئٰاتِكُمْ وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[١].

﴿خُذْ مِنْ أَمْوٰالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهٰا﴾[٢].

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَ الْمُصَّدِّقٰاتِ وَ أَقْرَضُوا اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً يُضٰاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[٣].

﴿إِنَّ اللّٰهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾[٤].

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمٰاتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ وَ الْقٰانِتِينَ وَ الْقٰانِتٰاتِ وَ الصّٰادِقِينَ وَ الصّٰادِقٰاتِ وَ الصّٰابِرِينَ وَ الصّٰابِرٰاتِ وَ الْخٰاشِعِينَ وَ الْخٰاشِعٰاتِ وَ الْمُتَصَدِّقِينَ وَ الْمُتَصَدِّقٰاتِ﴾[٥].

٣ـ إقراض الله

من التعبيرات الشائعة في هذا المجال هو إقراض الله عز وجل، ففي ست آيات يرغّب الله الناس بتعابير مختلفة في إقراض الله، أو يثني على الذين يقرضون الله كقوله تعالىٰ:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضٰاعِفَهُ لَهُ﴾[٦].

لقد تكرر هذا الامر في عدة موارد وبتعابير مختلفة في القرآن.

يظن البعض انّ المراد من هذه الآيات هو المال الذي يعطيه الناس للآخرين بصورة قرض، ولكن ينبغي الالتفات الى انّ المراد الرئيسي من إقراض الله في هذه

---

١. البقرة ٢٧١.
٢. التوبة ١٠٣.
٣. الحديد ١٨.
٤. يوسف ٨٨.
٥. الاحزاب ٣٥.
٦. البقرة ٢٤٥.

الآيات هو التصدق والانفاق، وقد استعمل الله عز وجل هذا التعبير ترغيبا للناس في الانفاق والتصدق ليفهم الناس انّ المال الذي يتصدقون به لن ينعدم، بل انهم يعطونه لله قرضا، ويبقى لديه محفوظاً، وسيسترجعونه منه عندما تشتد حاجتهم اليه.

٤ ـ إطعام الفقراء

ان اطعام المسكين هو من موارد الصدقة والزكاة والانفاق، وهو أخصُّ منها. وقد ورد هذا التعبير في عدة آيات واستعمل بنحو خاص وبلغة التهديد في الذين لا يعبأون ويغفلون عن مصير الفقراء والمحتاجين الذين هم بحاجة الى وجبة طعام ولقمة عيش، جاء في آية:

﴿يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾[١].

وقال تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

﴿وَ أَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَ لاَ تَحَاضُّونَ عَلىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[٢].

يستفاد من بعض الآيات ان الأساس في عدم الاهتمام بالفقراء هو عدم الايمان بالقيامة والتكذيب بها، قال تعالىٰ:

﴿أَ رَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَ لاَ يَحُضُّ عَلىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[٣].

أجل ان اطعام مسكين جائع أيام المجاعة والعَوز له قيمة سامية في رؤية القرآن،

---

١. المدثر ٤٠ ـ ٤٤.
٢. الفجر ١٦ ـ ١٨.
٣. الماعون ١ ـ ٣.

وان عدم الاكترات بمثل هذا الانسان على هذه الحالة يثير سخط الله الشديد.

٥ ـ الزكاة بتعبيرات اخرىٰ

في آيات اخرى يؤكد الله عز وجل على هذه الحقيقة من خلال ثنائه على المتقين باعتبارها إحدى الصفات البارزة فيهم بقوله تعالى:

﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ﴾[1]

في هذه الآيات عبّر عن الزكاة أو الصدقة بـ(حق معلوم)، وهو المقدار الواجب دفعه للمعوزين كزكاة واجبة، ويشمل المقدار الزائد الذي يعيّنه الانسـان ويـجعله معلوما ليدفعه كصدقة مستحبة.

التعبير الآخر في هذا المجال هو التعبير بـ(اعطاء) المستعمل في سورة (الليل) قال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطىٰ وَ اتَّقىٰ * وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرىٰ * وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنىٰ * وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرىٰ﴾[2]

اساليب الترغيب في الانفاق

لقد تنوعت تعابير القرآن الكريم بشأن الانفاق. فقد اكتفى في بعض الآيات بالامر بايتاء الزكاة والصدقات والانفاق واطعام الفقراء، أو أثنىٰ على الذين يمارسون هذه الاعمال، بينما استخدم في موارد اخرى اساليب مختلفة لترغيب الناس في دفـع الصدقات والانفاق، نبيّن بعضها:

أ ـ من اساليب القرآن انه يخاطب الناس بعدم القلق من بذل هذه الاموال، لانهم

١. المعارج ٢٤ و ٢٥.
٢. الليل ٥ ـ ١٠.

لا يفقدونها، بل ستبقى محفوظة وستردّ عليهم يوم الحاجة اليها. والمراد به في أكثر الآيات هو رجوعها اليهم في عالم الآخرة.

هذه التعابير استعملت لكي لا يظن الانسان بان المال الذي اكتسبه بتعبه سوف يضيع، وبالتالي يمتنع عن انفاقه حباً في بقائه، بل عليه ان يعلم بان الانفاق افضل وسيلة لحفظ المال. فينبغي القول بعكس ذلك، أي ان المال الذي يُصرف في طرق أخرى يفنىٰ، بينما المال الذي يبذل في سبيل الله الى الفقراء والمحرومين يعتبر باقيا ومحفوظا، وهذا هو أفضل اسلوب لترغيب الناس في الانفاق واعانة المحرومين.

لقد استعمل القرآن هذه الطريقة حيث قال:

﴿وَ مٰا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللّٰهِ﴾(١).

وقال في آية أُخرىٰ:

﴿وَ مٰا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللّٰهِ هُوَ خَيْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً﴾(٢).

﴿وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تُظْلَمُونَ﴾(٣)

ب ـ الاسلوب القرآني الآخر هو اعتبار الانفاق على الفقراء نوعاً من إقراض الله تعالىٰ، كي يرغّب الناس في هذا العمل، وليعلموا انهم حينما ينفقون مالاً على الفقير والمسكين فانهم يقرضون مالهم هذا لله سبحانه، وسيكون مَديناً لهم، ومعلوم ان الله سيؤدّي دينه. اذا علم الانسان بانه يعطي ماله لله وسيرجع الله ماله له ـ لانه امين وليس هناك من هو أكثر أمانة منه ـ فسوف يقوى دافعه للانفاق.

جـ الاسلوب القرآني الثالث لترغيب الناس في الانفاق هو الوعد بالأجر والمغفرة والتسامح مع اخطاء المنفقين، قال تعالىٰ:

---

١. البقرة ١١٠. ٢. المزمل ٢٠.
٣. البقرة ٢٧٢.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ سِرًّا وَ عَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١].

د ـ الاسلوب القرآني الرابع هو انه يعتبر الانفاق منشأ لفلاح الانسان. ان بني الانسان مبتلون بتحديدات وقيود، وكأنهم قد وقعوا في فخ ليس بوسعهم الخلاص منه. انّ العلاقات المادية للانسان وابتلاءاته في هذا العالم تصده وتحرمه عن التسامي نحو كماله وسعادته الأبدية. هذه الميول والتعلقات بمثابة الافخاخ التي يتورط بنو الانسان في الوقوع فيها. وقد عبّر القرآن بـ(المفلحين) عن الذين يتحررون منها. وقد استعمل التعبير ذاته في المنفقين، قال تعالىٰ:

﴿وَ أَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

وقد تكررت هذه الآية في موضعين من القرآن الكريم.

الذين لا ينفقون مرضى ومبتلون بـ(شحّ النفس) أي الانقباض والضيق. انّ البخل وقبض اليد وتجميد المال هو شح نفس في الرؤية القرآنية، وهو نوع من الانقباض والضيق الذي يبتلى الانسان به. والذي يصان من هذا الخطر يكون قد افلح وتحرر من تلك القيود ونجا من ذلك الخطر.

يستعمل تعبير (الوقاية) في موارد الصيانة من الخطر. فحينما يهدّد الانسان خطر فينأىٰ بنفسه عن ذلك الخطر فانّ القرآن يستعمل بشأنه أحد اشتقاقات لفظ (الوقاية) و(الاتّقاء).

انّ العبارة (ومن يُوق) أي الذي يصان من الخطر، مبنية للمجهول ومشتقة من مادة (الوقاية) وفيها اشارة الى ان الله لابدّ ان يصونه، لان طبع الانسان يميل الى هذا الخطر ويتعرض له شاء أم أبى. ولذا لم يقل (ومن يقِ نفسه) أي الذي يصون نفسه،

---

١. البقرة ٢٧٤.

٢. التغابن ١٦ و الحشر ٩.

بل قال على هيأة الفعل المبني للمجهول (من يوقَ) أي الذي يُصان، والمراد هو أن الله يصونه.

هذا اللون من التعبير هو من التعبيرات التوحيدية في القرآن ليلتفت الانسان الى هذه الحقيقة وهي ان كل شيء قائم بالله، واذا وفّق للقيام بأعمال الخير فان الله هو الذي وفّقه للخير، واذا نُجّي من الشر فان الله هو الذي أنجاه. ان (شح النفس) من الصفات التي يبتلى بها الانسان نتيجة لطبيعته الحيوانية الا من صانه الله عز وجل.

ان طريق السعادة والفلاح للانسان إذنْ هو أن ينفق من أمواله على المعوزين، كي يحل مشاكلهم الاقتصادية، ويكون له تمرينا ليصبح قوياً ويحارب نفسه الشيطانية ولا يبتلى بالخبائث والبخل والافكار الضيقة، ولا يبتلى بشحّ النفس حسب الاصطلاح القرآني.

هـ ـ الاسلوب القرآني الخامس لترغيب الناس في الانفاق هو أنه وعدهم بمضاعفة الأجر على انفاقهم وامتيازات أُخرىٰ، قال في آية كريمة:

﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً يُضٰاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللّٰهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[1].

ونقرأ بهذا الشأن في آية أُخرىٰ:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضٰاعِفَهُ لَهُ أَضْعٰافاً كَثِيرَةً وَ اللّٰهُ يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

إذنْ لا ينقص الله المال الذي يأخذه، ليس هذا فحسب بل يضاعفه له، اضافة الى غفران ذنوبهم ويؤمّلهم بما هو اكبر من ذلك، ويكون ذلك طبعا لاهل المعرفة حيث يقول:

---

١. التغابن ١٧.

٢. سورة البقرة ٢٤٥.

﴿وَ اللّٰهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[١].

أي يشكرهم أيضاً. ولهذا الامر قيمة تفوق جميع ما ذكر. قال سبحانه في آية أُخرىٰ:

﴿لَنْ تَنٰالُوا الْبِرَّ حَتّٰى تُنْفِقُوا مِمّٰا تُحِبُّونَ وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللّٰـهَ بِـهِ عَلِيمٌ﴾[٢].

كل انسان يطلب البر والاحسان، ويود الجميع ان يكونوا صالحين ومحسنين. في هذه الآية استثمر الله سبحانه هذه الرغبة الفطريه في الانسان لترغيبه في الانـفاق والاحسان.

و ـ الاسلوب القرآني الآخر للترغيب في الاطعام والانفاق هو ذم البخل وضيق الافق. يذم القرآن البخلاء خصوصا الذين لا يؤدّون واجباتهم، ويـحذّر المـؤمنين بعدة تعابير من البخل والامتناع عن الاحسان والانفاق، قال تعالىٰ في موضع:

﴿هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَ مَنْ يَـبْخَلْ فَإِنَّمٰا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ اللّٰهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَرٰاءُ﴾[٣].

من يبخل فانه يبخل عن نفسه في الواقع، وكأنه يضيّق على نفسه في المأكـل والملبس والضروريات الأُخرىٰ ويحرم نفسه من هذه النـعم. انّ المـال يـنتفع بـه الانسان لرفع حوائجه في الحياة ويوفر وسائل راحته. بناء على ذلك فان عمل من يبخل حتى علىٰ نفسه ولا ينتفع بثروته لراحته هو عمل الحمقى. وكـأن الذيـن لا ينفقون يبخلون على انفسهم في الواقع لانهم سوف يحتاجون بشدة الى هذا الانفاق في الشدائد، أي في عالم الآخرة، فان كانوا قد انفقوا في هذا العالم فانه سيردّ عليهم

١. التغابن ١٧.
٢. آل عمران ٩٢.
٣. محمد ﷺ ٣٨.

مضاعفا على صورة الثواب في ذلك العالم ويرفع حاجتهم، وان لم يكونوا قد انفقوا فان ايديهم هناك خالية ولا يمكن لشيء ان ينقذهم في تلك الاحوال، إذنْ كأنهم قد ظلموا أنفسهم بعدم الانفاق هنا وبخلوا على انفسهم وحرموا أنفسهم من هذه الأموال.

المنع من الخير

الأسوء من هؤلاء هم الذين يمنعون الآخرين من الخير ولا يبخلون فحسب بل يصدّون الآخرين عن الانفاق واعانة الفقراء أيضا. لقد عبّر الله عز وجل عن هذه الفئة تعبيراً شديداً يتضمن التهديد بقوله تعالىٰ:

﴿أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفّارٍ عَنِيدٍ * مَنّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ﴾[١].

البخلاء في الغالب لا يمتنعون عن الانفاق فحسب، بل ينصحون الآخرين بعدم بذل اموالهم في هذا الطريق، كالمنافقين الذين لم ينفقوا وينصحون الآخرين بقولهم:

﴿لاٰ تُنْفِقُوا عَلىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللّٰهِ حَتّٰى يَنْفَضُّوا﴾[٢].

أو يستهزئون بالمؤمنين لانهم ينفقون اموالهم على الآخرين، وهناك دافع سياسي أيضاً وراء البخل إذ انّهم كانوا في الواقع في معركة مع رسول الله ﷺ ودين الله.

قال تعالىٰ في آية اُخرىٰ:

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النّٰاسَ بِالْبُخْلِ وَ يَكْتُمُونَ مٰا آتٰاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ عَذٰاباً مُهِيناً﴾[٣].

كان البخلاء يسعون لجعل الآخرين مثلهم تبريراً لعملهم وإشراكاً للآخرين في

---

١. ق ٢٤ و ٢٥.
٢. المنافقون ٧.
٣. النساء ٣٧.

جريمتهم لكي لا يكون بخلهم ملفتاً في ظل مشاركة الآخرين لهم، ولكي لا يُقبل الفقراء عليهم أو لا تطالبهم الحكومة بالضرائب كانوا يخفون اموالهم. لقد اعتبرهم القرآن كفاراً وسيواجهون عذاب الكافرين. لقد استعمل الكفر في القرآن بمعناه العامّ، فقد جاء بمعنى كفران النعمة تارة، وبمعنى الكفر العقائدي تارة، وبمعنى الكفر في الفروع تارة أُخرىٰ، كالذي لا يحج أو لا يصلي حيث استعمل الكفر في حقهما، والعذاب يلازم الكفر، قال تعالىٰ:

﴿وَ أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ عَذٰاباً مُهِيناً﴾[١].

ذم اكتناز الثروة

استعمل القرآن في آيات أُخرىٰ لفظ (الكنز) في هذا المجال، ويحدث نتيجةً للبخل وترك الانفاق، قال تعالىٰ:

﴿وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لاٰ يُنْفِقُونَهٰا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمىٰ عَلَيْهٰا فِي نٰارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوىٰ بِهٰا جِبٰاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هٰذٰا مٰا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[٢].

ونظيرهما الآيتان:

﴿وَ اللّٰهُ لاٰ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتٰالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النّٰاسَ بِالْبُخْلِ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[٣].

وعليه فانّ الذين ينفقون في سبيل الله فان الله يحفظ اموالهم ويردّها عليهم بنحو افضل واكثر، واما الذين يكنزون المال والذهب والفضة فان هذه الأموال ستكون

---

١. النساء ٣٧.
٢. التوبة ٣٤ و ٣٥.
٣. سورة الحديد ٢٣ و ٢٤.

سببا لعذابهم، ويشتد عذابهم كلما كثر اكتنازهم وغصبوا اموال الآخرين أو لم يعطوا حقوقهم، ويقال لهم: هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون.

واستعمل تعبيراً آخر يشبه هذا التعبير في آية أُخرىٰ لدىٰ بيان النتيجة المرّة لجمع المال والبخل واكتناز المال، قال تعالىٰ:

﴿وَ لاٰ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمٰا آتٰاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مٰا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ وَ لِلّٰهِ مِيرٰاثُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[١].

ز ـ الاسلوب القصصي

لترغيب الناس في الانفاق يتبع القرآن الاسلوب القصصي أحياناً، ونـنقل هـنا مثالاً لذلك فقد جاء في سورة القلم أنّ اخوة كانوا يملكون بستانا فيه ثمار، واتفقوا على الذهاب اليه صباحاً مبكرين لقطفها قبل وصول الفقراء حتىٰ لايضطروا لتقديم شيء اليهم، وعقاباً على هذه النية انزل الله تعالىٰ البلاء فاحترق البستان، فلما اتوا اليه صباحا لم يجدوا ثماراً، قال تعالىٰ:

﴿إِنّٰا بَلَوْنٰاهُمْ كَمٰا بَلَوْنٰا أَصْحٰابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهٰا مُصْبِحِينَ * وَ لاٰ يَسْتَثْنُونَ * فَطٰافَ عَلَيْهٰا طٰائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نٰائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنٰادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰارِمِينَ * فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ يَتَخٰافَتُونَ * أَنْ لاٰ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ * وَ غَدَوْا عَلىٰ حَرْدٍ قٰادِرِينَ * فَلَمّٰا رَأَوْهٰا قٰالُوا إِنّٰا لَضٰالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾[٢].

كان هؤلاء على غفلة من ان الله هو المالك الأصلي، وكل شيء تحت قـدرته فيجب ان يكونوا امناءه، وأرادوا أن يحرموا الفقراء من هذه النعمة الالهية ولكـنهم

---

١. آل عمران ١٨٠.
٢. القلم ١٧ ـ ٢٧.

أدركوا خطأهم اخيراً حيث واجهوا بستانا محترقاً.

قال اخوهم وكان من أهل الخير: انها عقوبة تآمركم وسوء نيتكم في منع الفقراء، من هنا أقرّ الجميع بخطئهم والتفتوا الى ان سوء نيتهم وبخلهم هـو الذي أدى الى حرمانهم من ثمار البستان.

هذه القصة مربية جداً لذوي الابصار والاسماع الواعية. ان نعم الدنيا كلّها بيد الله، فاذا فرض الله حقوقا في اموالهم فلا يظننّ انها غرامة إلٰهية، بل ان الله عز وجل هو الذي سخّر لهم كل هذه النعم كي يختبرهم، وهو قادر على استردادها، فمن الافضل إذنْ ان يراعوا حقوق الآخرين كي تُصان اموالهم من آفات الدنيا ويـنالوا الثـواب مضاعفا في الآخرة.

شروط الانفاق

ليس كل انفاق محبّذاً في الرؤية القرآنية، بل لابدّ من رعاية شروط خاصة نذكرها هنا:

الشرط الاول هو أن لا يمنّ المنفق بما انفقه على من انفق عليه ويكون سـببا لاذى الفقير وشعوره بالالم، لان المنّ يفقد الانفاق قيمته، وعليه لا يـنتفع المـنفق بانفاقه، ليس هذا فحسب، بل لعله يكون مذنبا بسبب أذىٰ المؤمن واهانته.

قال تعالىٰ في القرآن:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ ثُمَّ لاٰ يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَـنًّا وَ لاٰ أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً وَ اللّٰهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَـنُوا لاٰ تُـبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النّٰاسِ وَ لاٰ يُؤْمِنُ بِـاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ

الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللّٰهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾[١].

بناء على ذلك فان احد شروط الانفاق هو أن يكون مصحوبا بالاحترام وعدم المس بكرامة الطرف الآخر، والّا فلا قيمة لهذا الانفاق عند الله. وهذا أحد موارد الحبط، أي ان بعض الاعمال القبيحة يمحو آثار الاعمال الصالحة.

الشرط الثاني للانفاق هو أن لا يؤدّىٰ رياء والفاتاً لانظار الآخرين، وترك الرياء طبعا معتبر في كل الافعال العبادية والأخلاقية، ولكن بما انّ الرياء وتلوُّث النية كثيراً ما يقع في موارد الانفاق فانّ القرآن الكريم يحذّر منه بشدة ويدعو الى مراقبة الاخلاص في النية، خاصةً في الانفاق المستحب، اذ انّ الرياء آفة كبيرة لاعمال الخير وخاصة الانفاق. وما أعظمها خسارة ان يبذل الانسان مالاً صرف جهوداً وأتعابا لكسبه طوال عمره في طريق الخير، ثم يبطله بدافع الرياء. اعتبر القرآن في بعض الآيات الانفاق المحبّذ ما كان لله عز وجل، فقد أثنى مثلا على الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله فقط حيث قال تعالىٰ:

﴿إِنَّمٰا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّٰهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزٰاءً وَ لا شُكُوراً﴾[٢].

تشير روايات الشيعة والسنّة الى ان هذه الآيات الكريمة مرتبطة بأهل البيت عليهم السلام الذين كانوا يطعمون اليتيم والفقير والمسكين ولكن ماكانوا يتوقّعون أيَّ أجر وتقدير من أحد وكان دافعهم الوحيد هو رضا الله تعالىٰ.

جاء في آية أُخرىٰ:

﴿وَ مٰا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوٰالِ النّٰاسِ فَلاٰ يَرْبُوا عِنْدَ اللّٰهِ وَ مٰا آتَيْتُمْ مِنْ

---

١. البقرة ٢٦٢ ـ ٢٦٤.
٢. الانسان ٩.

زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللّٰهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[١].

إذنْ اذا رغبتم في مضاعفة اموالكم عند الله والربح الذي تبغونه من هذا المال فعليكم بإنفاقه في سبيل الله وبنّية خالصة. هذه الآية تشير الى انّ الشرط لمطلوبيّة الزكاة ومضاعفتها هو الاخلاص.

يقول القرآن حينما يبيّن قيمة عمل المؤمنين الذين ينفقون من أجل الله:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنٰابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللّٰهُ يُضٰاعِفُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ اللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٢].

علىٰ العكس من ذلك فاقدوا الاخلاص الذين ينفقون رياء ولا يؤمنون بالله ويوم الجزاء، فان انفاقهم لا قيمة له ولا يعود عليهم بشيء. ان عملهم كمن يزرع علىٰ الصخر الذي عليه شيء سن الغبار والتراب، فان قليلا سن المطر لا يبقي منه شيئا.

اذا آمن الانسان بالله ويوم الجزاء فانه لا يجعل الله عز وجل في عرض الناس، فضلا عن تفضيلهم عليه والانفاق لكسب رضاهم. من هنا يشير القرآن الى هذه الحقيقة ويذكر الرياء مع الالحاد بالله ويوم الجزاء.

من يؤمن بالآخرة ويتمتع بمعرفة اللّه تعالى يعمل بنحو يكون عائداً عليه بالثواب الاخروي والابدي ولا يلتفت الى استحسان الآخرين ورضاهم. والمال الذي ينفق رياء كبذرة تزرع على صخرة ذات قليل من التراب، ويرغب الانسان في ان تبقى وتنمو وتثمر، في حين انّ المطر يغسل هذا التراب والبذرة على الصخر، والذي يبقى هو الصخر الاملس الذي لا أثر للتراب والبذرة عليه، ولا يحصل علىٰ ثمرة ذلك، ليس هذا فحسب بل سوف يفنىٰ من أصله. ويقول في آية أُخرىٰ عن قيمة الاخلاص والانفاق باخلاص:

---

١. الروم ٣٩.
٢. البقرة ٢٦١.

﴿وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللّٰـهِ وَ تَـثْبِيتاً مِـنْ أَنْـفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ وَ اللّٰهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

الذين ينفقون من أجل الله كأنهم يملكون بستانا مثمراً في ارض رابية وتصيبها الأمطار المفيدة وتعطي ثماراً كثيرة يانعة ومتنوعة.

جاء في آية أُخرىٰ:

﴿وَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النّٰاسِ وَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لاٰ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً﴾[2].

يستفاد من هذه الآية ملاحظات رائعة:

الأُولىٰ ان الآية تشعر بانّ المرائي لا يؤمن بالله ويوم الجزاء، وان كان ذا ايمان فهو ضعيف، ولو كان قويا لم يؤدِ عمله لكسب رضا غير الله عز وجل، ولهذه العلاقة بين الرياء والالحاد أو ضعف الايمان يذكر القرآن الرياء في عدة موارد مقرونا مع الالحاد، وليس هذا صدفة، بل يحكي عن العلاقة بين هاتين الظاهرتين.

الثانية ولعلها مستمدة من الملاحظة الأُولىٰ هي انّ المرائين قرناء الشيطان الذي يجر الانسان نحو التيه، ولا يملك المرائي ايمانا صلباً كي يحميه ويمكنه من الدفاع عن نفسه تجاه الشيطان.

الشرط الثالث للانفاق في رؤية القرآن هو اخفاؤه، فعلى المسلمين السعي لدفع الصدقة خفية، ولا تكون اعانتهم للفقراء في محضر الناس لان العمل خفية ذو حسنين:

الاول هو أن الانسان يبقى مصوناً من الرياء، اذ ان الانفاق لا يكون في محضر الآخرين ليبتلى بالرياء وحبط العمل بالتالي.

---

١. البقرة ٢٦٥.   ٢. النساء ٣٨.

الثاني ان شخصية الفقير الذي يتقبل الانفاق ستحفظ بنحو افضل ولا تهدر كرامته أمام الآخرين.

وعليه فان للصدقة في السّر فائدة شخصية للمنفق، وهي انه لا يبتلى بالرياء ويكون اقرب للاخلاص، وفيها فائدة اجتماعية حيث تحفظ كرامة الفقراء المؤمنين في المجتمع، قال تعالىٰ بهذا الشأن:

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقٰاتِ فَنِعِمّٰا هِيَ وَ إِنْ تُخْفُوهٰا وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَرٰاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئٰاتِكُمْ وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1].

ودفع الصدقة علناً قد يكون حسنا من هذه الجهة طبعا وهي انه سيرغّب الآخرين في هذا العمل، أي فيه فائدة اجتماعية. على أي حال فان الاحوال تختلف ويرتبط الأمر بدافع الانسان الذي يتصدق علناً.

الشرط القرآني الرابع للانفاق هو أن يكون المال المنفق مرغوبا فيه، أي لا ينبغي الانفاق من الاشياء الدنيئة القيمة وعديمة الفائدة ولا يرغب فيها المنفق نفسه. ولا يعني هذا طبعا ان لا يعطي ما لا يحتاجه الى الفقير، بل يعني ان لا يفكر دائما بتقديم امواله الرديئة وعديمة الفائدة، بل عليه أن يسعى لإنفاق ما يحبه ومن الأموال المفضّلة والمحبّبة لديه.

قال تعالىٰ بهذا الشأن:

﴿لَنْ تَنٰالُوا الْبِرَّ حَتّٰى تُنْفِقُوا مِمّٰا تُحِبُّونَ وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللّٰهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[2].

تؤكد هذه الآية علىٰ هذا الشرط وهو ان اولياء الله كانوا حينما يعجبهم مال فانهم ينفقونه في سبيل الله.

---

١. البقرة ٢٧١.

٢. آل عمران ٩٢.

جاء في آية أُخرىٰ:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبٰاتِ مٰا كَسَبْتُمْ وَ مِمّٰا أَخْرَجْنٰا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ لاٰ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاّٰ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[١].

يستفاد من هذه الآيات اننا لا ينبغي ان نهدي اموالاً لا رغبة لنا فيها أو نقدم للفقراء شيئا عديم الفائدة. إذنْ ما نهديه يجب ان لا يكون معيبا وناقصا الّا انّ يكون العيب والنقص جزئيا ويمكن التغاضي عنه. الانفاق البنّاء والموجب لكمال الانسان هو أن يكون من اموال مفضّلة ومحبّبة.

و جدير بالذكر ان الله سبحانه في مثل هذه الموارد يلفت المنفق الى غناه كقوله تعالىٰ في الآية الاخيرة **﴿وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ﴾**، ولعله يرجع الى انّ المؤمن حينما ينفق شيئا لله على الفقراء فكأنه يسلّمه الى الله عز وجل. ولعله لهذا السبب يعبّر عن ذلك بـ (اقرضوا الله)، وهذا تحذير للمنفق بان لا يظن ان طرف الانفاق انسان ضعيف وفقير ويقدم له كل ما تناله يده فلا يراعي حيثيته وكرامته، بل عليه ان يعلم بان طرفه الآخر هو الله الغني الذي لا يُهدى اليه أي شيء، بل لابدّ من انفاق المحبَّب، كما عليه ان لا يظن انّ التأكيد الالهي على الانفاق هو لاحتياجه الى انفاق الناس وعجزه عن رفع حاجات عباده المحتاجين!

علىٰ من يجب الانفاق؟

هناك افراد ينبغي تقديم الزكاة اليهم ويستحقونها، وقد عرّف القرآن هذه الفئات كما يلي:

﴿وَ آتَى الْمٰالَ عَلىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبىٰ وَ الْيَتٰامىٰ وَ الْمَسٰاكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ

١. البقرة ٢٦٧.

السّائِلِينَ وَ فِي الرِّقابِ﴾[1].

﴿قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتامىٰ وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ﴾[2].

﴿وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ بِذِي الْقُرْبىٰ وَ الْيَتامىٰ وَ الْمَساكِينِ وَ الْجارِ ذِي الْقُرْبىٰ وَ الْجارِ الْجُنُبِ وَ الصّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ﴾[3].

في مجموع هذه الآيات ذكرت فئات وافراد كثيرون ينتفعون بالصدقات والزكاة بصورة عامة واجمالية، وعدا ذلك هناك ملاحظة أُخرىٰ أيضاً قد تستفاد من الآيات القرانية وهي (مبدأ رعاية المراتب) أي انّ المذكورين في الآيات السابقة وان استحقوا استلام الزكاة ولكن هناك مراتب لابدّ من رعايتها عند شحة الزكاة.

من أراد الانفاق وكان والداه معوزين فالواجب في المرتبة الأُولىٰ ان يهتم بهما ويحسن اليهما، ثم يصل الدور الىٰ الارحام والاقارب المعوزين. ومع وجود هؤلاء فان الدور لايصل الى الغرباء. وهكذا يكون للجيران والأصدقاء الاولوية بعدهم، وحينما لا يوجد من المذكورين محتاج الى الانفاق عليه وقد وصل الدور الى الآخرين فان الاولوية تكون للأشد احتياجاً والمبتلىٰ بقلة ذات اليد والمشكلات، كاليتامىٰ الذين لا وليّ لهم والمحتاجين لضروريات الحياة كالغذاء و... أو ابناء السبيل الحيارى في الغربة ولا طريق للخلاص أمامهم.

على المؤمن ان يلتفت الى هذه الأمور الظريفة لدىٰ الانفاق، ومن هنا يكون الوالدان في آيات عديدة في الصدارة في هذا المجال. وقد دعي الى الاحسان اليهما

---

١. البقرة ١٧٧.
٢. البقرة ٢١٥.
٣. النساء ٣٦.

أولاً ثم الاقرباء ثم الذين هم اكثر استحقاقا واحتياجا.

هذه الملاحظة جديرة بالالتفات الى درجة ان الله حينما يدعو للاهتمام بالجار نجده قد راعى الترتيب أيضاً فيذكر أولاً الجار من الارحام ثم الجار الغريب (والجار ذي القربى والجار الجنب).

و يمكن القول: ان هذا نوع من النظام وتقسيم المسؤولية لو راعاه الجميع فسوف لا يبقى معوز وينتفع الجميع من بركات هذا الاحسان والانفاق، ولو لم يراع هذا النظام والمراتب فقد يكون بعض المستحقين مورداً لانفاق عدة افراد واحسانهم ويصلهم ما يفوق احتياجهم، والى جانبهم يبقى البعض الآخر محروماً دون ان يعبأ به أحد.

انّ التفصيل في بحث مستحقي الانفاق ورعاية المراتب والشروط و... موجود في الكتب الفقهية، ونحن نكتفي هنا بهذا المقدار ونرجع من أراد التفصيل اليها.

القسم الرابع



القيم الأخلاقية في الحوار

أ ـ الأخلاق الاسلامية في الكلام

القرآن والكلام

مفهوم الصدق في القرآن

الافتراء على الله

النفاق

كتمان الحق

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

مراتب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

حدود الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

النهي عن المنكر ومكافحة الفساد

الامر بالمعروف والاقتدار والآمريّة

هل الكذب مذموم دائماً؟

الكلام الفارغ أو اللهوي

ب ـ الأخلاق الاسلامية في الاستماع

انواع الاستماع

العلاقة بين الحق واهل الحق

الاعتماد على الأكثريّة

الاستماع الى اللهو واللغو

ج ـ النقاش أو الحوار متعدّد الأطراف

مقدمة

قلنا سابقاً، ان الأخلاق الاجتماعية تقوم على أساس المصالح والمفاسد للمجتمع، ويتم تصنيف الشؤون الأخلاقية الاجتماعية وفق العلاقات الاجتماعية المختلفة بين بني الانسان.

من العلاقات المهمة بين بني الانسان هو تبادل المعلومات، الذي يرتبط بنحو أشد بالخصائص الانسانية والبعد العقلاني للانسان. من هنا يمكن القول: انه ذو أهمية اكبر بالقياس الى العلاقات الاجتماعية الأُخرىٰ، لان ما يرتبط بالمتطلبات المادية والجسمية للانسان تكون مشتركة في الغالب بينه وبين الحيوانات الأُخرىٰ، أما ما يتعلق بوعيه ومعرفته ومتطلباته العقلانية فانها تمثّل جزءً من خصائص الانسان وبُعده الانساني الخاص، وبهذا اللحاظ تكون المنافع المتبادلة بين بني الانسان في هذا المجال اكبر من المنافع الأُخرىٰ، وتكون العلاقات بهذا الشأن أرفع من العلاقات الأُخرىٰ، ويكمن أحد اكبر المصالح الاجتماعية للحياة الانسانية في هذه المنافع العلمية والمعرفية، وأهمُّ الوسائل لتبادلها هي علاقة الحوار ولذا نبحث عنها في قسمين منفصلين:

قسم الكلام وقسم الاستماع:

أ ـ الأخلاق الاسلامية في الكلام

ان أول وأهم وسيلة لتبادل المعلومات بين بني الانسان هو الكلام، وعليه فانّ الكلام ظاهرة اجتماعية، فلو كان الانسان يعيش وحده لم يحتج الى الكلام، ولا يدفعه دافع للتكلّم، ولعله لم يكن في هذه الحالة قادراً عليه، لان الكلام على احتمال كبير

ظاهرة اجتماعية وجدت إثر حاجة الانسان الى تبادل المعلومات. وصحيح انّ اهلية الانسان وقدرته على التكلم أمر إلٰهي أودعه الله فيه عند خلقه، ولكن فعليته وتبلوره الى صور مختلفة وظهور اللغات المتعدّده يكون على نحو الاعتبار والتعاقد، وقد وضع بنو الانسان ـ لدىٰ شعورهم بهذا الاحتياج ـ الفاظاً معينة لمعانٍ خاصة لنقل مقاصدهم الى الآخرين عبر هذه الوسيلة، وللاطلاع على الافكار والخطط والارادة فيما بينهم. إذنْ بما ان هذه القريحة قد منحها الله للانسان فانها أمر تكويني فردي، وان كانت فلسفتها الوجودية هي المتطلبات الاجتماعية للانسان في تبادل المعلومات، واما اللغات المختلفة في الكلام فانها أمر تعاقدي واعتباري وظاهرة اجتماعية محضة.

القرآن والكلام

الكلام من خصائص الانسان المهمة التي اعتمد عليها القرآن أيضا، قال تعالىٰ:
﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[1].

فالكلام من النعم الكبرى التي تفضَّل الله سبحانه بها على الانسان، وقد التفت الانسان الى أهميته منذ القِدم، وكأنه بهذه المناسبة اطلق (الناطق) كعلامة خاصة وفصل مميز للانسان ويعتبر معادلاً للعاقل.

لقد طرحت قيم مختلفة للكلام في القرآن الكريم تتعلق تارة بماهية الكلام، وتارة بالعناوين العرضية الطارئة عليه، ونشير هنا الى بعضها:

القيمة الأُولىٰ للكلام هو الصدق والكاشفية عن الواقع. وهناك قيم أُخرىٰ ترتبط بكيفية التكلم كأن يكون الكلام مؤدبا أو غير مؤدب، فظاً أو لينا وهي أمور عرضية للكلام، أي هي من القيم والعناوين التي تعرض على الكلام وغيره، كسلوك الانسان، نظير التواضع والرحمة والعطف والادب والفظاظة والسخط والتكبر، وعليه فانها قيم تعرض الكلام وغيره، وهنا نشير الى بعض القيم القرآنية:

---

١. الرحمن ٣ و ٤.

١ ـ الصراحة

الصراحة في الكلام تقابل الابهام والاجمال، فالكلام يُلقى مجملاً تارة، خاصة بالنسبة للسياسيين حينما يتحدثون بكلام يحتمل تفسيرات مختلفة، وبالتالي لا تتّضح افكارهم ومقاصدهم ونياتهم الباطنية وصداقتهم أو عداؤهم ورفضهم أو تأييدهم، ويُلقى تارة على العكس حيث يعلن الانسان ويصرّح للمخاطب بما يريده بنحو لا يمكن حمله على معاني أُخرىٰ.

يمكن القول انّ الصراحة في الكلام مطلوبة في بعض الموارد. حينما يرتبط الامر بمصالح الانسان والمجتمع الأساسية، فلابدّ من الكلام الصريح لوضع حد للتفسيرات والتحليلات الشخصية الخاطئة التي تتطابق مع المصالح الفئوية أو الشخصية.

ان الانبياء لم يلجأوا الىٰ الاجمال في ابلاغ رسالتهم وبيان الغاية من تحركهم أبداً، بل كانوا يصرّحون حينما يواجهون من يعارضهم بان عقيدتنا تخالف عقيدتكم. كان النبي ابراهيم يقول بصراحه لاعداء الله وعبدة الأصنام:

﴿وَ بَدا بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً حَتّٰى تُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ﴾(١).

كانوا يُفهمونهم بان هذا الامر يمثل مسؤولية اساسية وغايتنا الأُولىٰ ولا يتحمل المساومة والتفاوض أبداً.

وكان الكفار في عصر النبيﷺ يرغبون في مداهنة المسلمين اياهم، ولعله كان بين المسلمين والمؤمنين من يفضّل الراحة ويتحفظ ولا يحب وقوع الحرب، وقد أشار الله عز وجل الى ذلك في القرآن حيث يقول:

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾(٢).

---

١. الممتحنة ٤.　　٢. القلم ٩.

ولكن ينبغي الالتفات الى انّ القضايا الأساسية لا تحتمل اللين والتسامح، ولابدّ من التأكيد الجازم على هذه القضايا بصراحة، وهكذا يشير القرآن في موارد مختلفة الى عدم امكان التنازل والضعف والمداهنة في بعض القضايا نظير قوله تعالىٰ:

﴿قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ * لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ * وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ * وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ * وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ﴾[1].

في هذه السورة يأمر الله النبي بأن يقول لهم بصراحة: ليس الدين امراً يجوز لنا التصالح معكم بشأنه، بأن نعبد الأصنام يوما ونعبد الله في يوم آخر! انّ القضايا المبدئية ترتبط بالمصير الواقعي لبني الانسان وكمالهم الحقيقي، فلا ينبغي التفريط بها نتيجةً للتساهل والتنازل والتحدث بالمجملات. نعم، قد تستدعي المصلحة أحياناً عدم التحدث بصراحة ويكون الخطاب مقرونا بلون من الاجمال واللين، لكن مثل هذه الموارد قليلة جدّاً، والضرورات تتقدّر بقدرها.

٢ ـ اللين

وهو من الصفات والقيم الايجابية في مجال الكلام، ويعتبر في مقابل الفظاظة والحدة ويمكن القول: ان لهاتين الصفتين المتضادتين جانبين:

الاول هو الجانب الروحي والنفسي، ويؤثر في الكيفية المعنوية للكلام وانتخاب العبارات واسلوب المواجهة مع المخاطب.

الثاني هو الجانب الصوري والظاهري للكلام، والذي يؤثر في لحنه والاطالة فيه أو الاختصار.

عن الجانب الاول ينبغي القول: كان الانبياء مأمورين بالتحدث بلين حتى لدىٰ

---

١. الكافرون ١ ـ ٦.

مواجهتهم لاعداء الله والمشركين والفراعنة لكي يستميلوا قلوبهم القاسية. عندما خوطب النبي موسى وأخوه هارونعليهما السلام بالتوجه الى فرعون لدعوته الى عبادة الله أوصاهما الله سبحانه:

﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾(١).

ان خصلة اللين مطلوبة في كل الموارد عدا موارد الاستثناء، قال تعالىٰ وهو يثني على النبيصلى الله عليه وآله وسلم:

﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(٢).

بديهي ان هذه الآية لا تهتم بليونة الكلام فقط بل تشمل جميع الجوانب، ولكن من المسلّم به انّ الكلام من أبرز وأهمّ الشواهد للين الانسان أو فظاظته واكثرها شيوعا. إذنْ حينما يحكي الله عز وجل عن لين النبي كخصلة بارزة في شخصيته وعامل لاجتذاب الناس فمن الممكن حمله على اللين في الكلام الذي يمثل أوسع وأعمق وسيلة للعلاقات الانسانية والاجتماعية.

وعن الجانب الثاني للين او الفظاظة والذي يرتبط بلحن الكلام ويتعلّق بالشكل فانّ القرآن يدعو المسلمين الى الكلام الهادىء وعدم رفع الصوت، وفي بيانه لنصائح لقمان لابنه يحكي القرآن قوله له:

﴿وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(٣).

انّ الكلام بصوت مرتفع والصراخ سلوك مرفوض، لان الكلام يلقى لإسماع المخاطب، فرفع الصوت فوق الحد المطلوب لا يترتب عليه غير الضرر والآثار السيئة، مضافا الى انه عمل باطل يؤذي المخاطب ويتعبه ويزاحم الآخرين ويمنعهم

---

١. طه ٤٤.
٢. آل عمران ١٥٩.
٣. لقمان ١٩.

من التحدث، وقد بيّن الله في الآية الاخيرة قبح كلام الانسان بلحن مرتفع من خلال التشبيه والمثال القصير البليغ.

٣ ـ التواضع والادب

من القيم الأخلاقية عند الكلام هو رعاية التواضع والادب سيّما وانّ القرآن قد أكّد عليهما في موارد خاصة نظير التخاطب مع الوالدين، قال تعالىٰ:

﴿وَ قُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾[1].

ومراد هذه الآية من القول الكريم هو الكلام المؤدب. انّ التواضع والادب في القول والسلوك مطلوبان في اي مكان. ان كلام الانسان إذنْ سيّما مع ذوي الحقوق عليه وبالاخص مع الوالدين يجب ان يكون متواضعا، لان المصلحة الاجتماعية وحقوق افراد المجتمع وأعضائه تُضمن بنحو افضل عن هذا الطريق.

ان الادب والتواضع في الكلام يؤلف بين القلوب ويبعد المتكلم عن الغرور والتكبر والانانية التي تضر بكماله الروحي والمعنوي، وعليه فان من اللازم رعاية الادب في كل عمل ومنه الكلام، الا في موارد استثنائية حيث يكون رعاية الادب فيها ذا تأثير سلبي فتجب الفظاظة والشدة. يوجد هنا أيضاً استثناء كأي مجال آخر.

ففي العلاقات الاجتماعية قد توجد موارد يحسن فيها الصراخ والتحدث بصورة الأمر، فتكون رعاية التواضع في تلك الموارد عديمة الفائدة أو مرفوضة، فمثلا من ظُلم وسُلبت أمواله أو ضُرب وأراد الاستنجاد بالآخرين كي ينقذوه من ظلم الآخرين وتعسُّفهم، فلو كان كلامه هادئاً ومؤدباً لتناقض ذلك مع هدفه ولا يغيثه أحد، قال تعالىٰ بهذا الشأن:

---

١. الاسراء ٢٣.

﴿لاَ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ﴾[1].

من كان مظلوماً فلابأس في أن يرفع صوته ويعلن عن ظلامته، الّا انّ مثل هذا مورد استثنائي، ويكون الالتزام بالادب واللين واللطف في الكلام مبدأ وقاعدة عامة مطلوبة في كل مكان.

٤ ـ الصدق

ان الاحتياج الى الكلام يمثل ميل الانسان لإعلان ما في ضميره وبيان معلوماته حتى ينكشف للآخرين ما يجهلونه، سواء أكان هذا المجهول أمراً باطنيا وكامناً في ذهن الانسان وفكره وباطنه، ويريد المتكلم إعلام الآخرين عن احاسيسه وافكاره أو حالاته الداخلية، أو كان أمراً خارجيا وعينياً ومحسوساً لم يطلع عليه الآخرون ولم يشاهدوه، وهو يريد بيانه لهم لانه قد شاهده.

الكلام إذنْ وسيلة لكشف أمر واقعي مجهول، ويستفيد بنو الانسان بعضهم من بعض حينما يكون الكلام كاشفا عن الواقع والحقيقة وصادقا ومطابقا للواقع. فاذا كان الكلام وسيلة لكتمان الحقائق بدلا عن كشفها أو لقلب الحقائق فان الكلام يكون قد انحرف عن طريقه الواقعي وفلسفته الوجودية ويصبح نقضاً للغرض. من هنا تكون القيمة الايجابية والحسنة للصدق من البديهيات التي يدركها كل انسان. ويقال انّ العقل يدرك حسن الصدق وقبح الكذب فطريا، وكل انسان يدرك ـ على الاقل ـ بنحو ارتكازي انه يود التعرف على الواقع كما هو عليه، ويعتقد انّ الكلام يكشف عن الواقع وانه وسيلة للاعلان عنه، ويرغب بشدة في ان يفهم الأمور الواقعية عن طريق الاستماع. وبناء عليه اذا تجلى له عكس الواقع في الكلام كان

---

١. النساء ١٤٨.

ذلك على خلاف ما يحتاج اليه، كما انه لاينسجم مع المصلحة الاجتماعية لبني الانسان في الحياة الاجتماعية التي ينبغي قيامها على اساس الواقع والصدق.

المطلوب أصالة إذنْ والمنسجم مع الحاجة الفطرية والمصلحة الاجتماعية لحياة الانسان هو الصدق وكون الكلام كاشفاً عن الواقع. لدينا آيات وروايات كثيرة بهذا الشأن، ولكن كما قلنا فانّ القيمة الايجابية للصدق من البديهيات، ولا حاجة الى ادلة تعبدية لإثباتها.

ورغم ذلك نشير الى عدة آيات كأُنموذج:

فقد قال تعالىٰ واصفاً العباد الصالحين مثنيا عليهم:

﴿الصَّابِرِينَ وَ الصَّادِقِينَ وَ الْقَانِتِينَ وَ الْمُنْفِقِينَ وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾[١].

وقال في وصف القيامة:

﴿هٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٢].

أجل، ان ما ينفع الانسان في القيامة ويستتبع فلاحه هو الصدق.

وفي آية اخرىٰ أمر المؤمنين بالتقوى ومرافقة الصادقين، قال تعالىٰ:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[٣].

وفي آية أُخرىٰ وعد المؤمنين لما فيهم من صفات مميزة، ومن جملتهم وعد النساء والرجال الصادقين بالمغفرة والاجر العظيم، قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمَاتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ ... وَ الصَّادِقِينَ وَ

---

١. آل عمران ١٧.
٢. المائدة ١١٩.
٣. التوبة ١١٩.

الصَّادِقَاتِ ... أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً﴾[١].

ان للصدق طبعا قيمة معنوية خاصة في الثقافة القرآنية خاصة حينما يذكره بإجلال وثناء كبير وأجر عظيم، وليس المراد صدق الانسان في عبارة بسيطة، فالله تعالىٰ يذكر الصادقين في بعض الآيات بعلامات عقائدية واخلاقية وسلوكية خاصة. ويشير الى انه ليس من السهل ان يكون الانسان صادقا، قال تعالىٰ:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[٢].

هذه الآية تصف الصادقين بخصائصهم نظير الايمان بالله ورسولهﷺ والجهاد بالاموال والانفس وتقول بان هؤلاء هم المؤمنون في الواقع وهم الصادقون في ايمانهم.

مفهوم الصدق في القرآن

للفظ (الصدق) استعمالان في القرآن هما: الصدق في القول والصدق في السلوك. الصدق في القول يعني مطابقة الكلام للواقع. وحينما نقول: الكلام صادق فانه يعني مطابقته للواقع حتى لو لم يعتقد القائل به ويعتقد انه كذب، وان فقد هذا الكلام القيمة الأخلاقية، وهكذا العكس اذا كذب مخطئا ظاناً انه صدق فانه لا قيمة سلبية له، لان مثل هذا الصدق والكذب خارج عن دائرة اختيار الانسان ولا يرتبط بالفاعل المختار، في حين يكون الارتباط مع الفاعل والحسن الفاعلي امراً معتبراً في القضايا الأخلاقية.

الصدق العملي أو السلوكي يعني تطابق اعمال الانسان وسلوكه مع قوله

١. الاحزاب ٣٥.
٢. الحجرات ١٥.

واعتقاده، أي يكون سلوك الانسان مصدقاً لقوله أو اعتقاده وان لم يتكلم. وعليه فانّ الصادق يطلق على من يعتقد بشيء ثم يعمل حسب ما يقتضيه اعتقاده، و(الصدّيق) صيغة مبالغة من الصادق.

لقد اكد القرآن على هذا الصدق في موارد قال تعالىٰ:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[١].

واضح انّ الجهاد في سبيل الله في هذه الآية، والذي اعتبر شرطاً لصدق الانسان، لا علاقة له مع الكلام. ان اعتبار هذه الشروط لصدق الانسان يعود الى ان الايمان بالله ورسوله يعني العمل بلوازمه. وعليه فانّ الذين يدّعون الايمان أو يعدّون انفسهم في زمرة المؤمنين لابد ان يلتزموا عملياً بلوازمه، واما اذا خالفوا فانه يعلم ان قولهم أو عملهم غير مطابق للواقع. ووفق هذا المعنى فانّ الصدّيق هو الذي يكون سلوكه مطابقا بدّقة لما يقتضيه ايمانه، ولذا يطلق الصدّيق على المعصوم غالبا، لان المعصوم لا تبدر منه أية مخالفة للدين والايمان، وقد استعملت عبارة **﴿وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾**[٢] بحق ام عيسىعليه السلام وتدل على عصمة السيدة مريمعليها السلام، كما اعتبر ذلك من القاب السيدة الزهراءعليها السلام التي كانت تحظى بمقام العصمة أيضاً.

انّ الصدق بمعناه الثاني، اي الصدق العملي والسلوكي، أوسع من الصدق القولي، وتشمل دائرته القول وانحاء السلوك الانساني الأُخرىٰ.

٥ ـ القيمة السلبية للكذب ومراتبه

في مقابل القيمة الايجابية والثابتة لـ (الصدق) تكون القيمة السلبية للكذب عقلا

---

١. الحجرات ١٥.　　٢. المائدة ٧٥.

ونقلا وبصورة قطعية أيضا. على الانسان إذنْ أن يكون صادقا في قوله ويـجتنب الكذب، وحتّىٰ انه في بعض الموارد ليس فقط يجب عليه ان يجتنب الكذب بل لا يجوز له السكوت أيضاً، فمن اللازم كسر الصمت وبيان الحقيقة.

هنا يطرح هذا السؤال: هل الكذب سيّء دائما وله قيمة سـلبية؟ وهـل قـيمته السلبيّة بدرجة واحدة في كل موضع؟ أو ان حكمه يختلف بحسب موضعه؟

نقول في الاجابة: ليس الكذب مرفوضا في كل موضع، ولا يكون اثم الكذب واحداً في كل مجال، بل يتوقف ذلك على اختلاف الظروف، فتترتب عليه احكام وقيم مختلفة. ان اختلاف مراتب الاثم والقيمة السلبية للكذب يتوقف عـلى آثـار الكذب ودوافع المتكلم. انّ الكذب في الموارد الاعتيادية التي لا يترتب عليه ضرر أو يستتبع ضرراً طفيفا يكون اثمه أخف طبعا، ولكنه اذا كان سببا للفتنة والفساد ووقوع قتال بين الافراد، أو كان مصداقا للنميمة والبهتان فان اثمه سيصبح اعظم وأكبر.

الافتراء على الله

ان اسوء انواع الكذب هو الكذب على الله ورسوله ﷺ، لأن المهم هنا هو مصلحة الانسان والمجتمع ومصيرهما، والذين يكذبون في هـذا المـجال يـلحقون أفـدح الأضرار بالمجتمع ومصلحة أُناس آخرين. قال تعالىٰ في القرآن:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾[1].

ان قبح الافتراء على الله ورسوله هو بدرجة بحيث يبطل صوم الصائم في شهر رمضان فيما لو ارتكب هذا الكذب.

وهكذا قلب اقوال الانبياء واولياء الله المحقة وخلطها بالكلام الباطل أو تحريف

---

١. الانعام ١٤٤.

اللفظ أو معناه فانه يعدّ نوعاً من الافتراء على الله. لقد ذم القرآن الذين يرتكبون هذه الاعمال بشدة، قال تعالىٰ:

﴿إِنَّمٰا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِآيات اللّٰهِ وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْكٰاذِبُونَ﴾[١].

أي ان اسوء الكذب هو ما حصل نتيجةً لفقدان الايمان. قال تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

﴿إِنَّمٰا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشٰاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ﴾[٢].

بناء على ذلك فانّ القيمة السلبية لا تنحصر في إلقاء الانسان كلاماً يعلم انه غير واقعي، بل حتى لو نسب قولاً الى الله جهلا وبدون علم ويقين فانه يُعدّ مرتكبا للقبيح أيضاً.

النفاق

النفاق من أسوء مراتب الكذب حيث يتضمن ويتقارن مع رذائل أُخرىٰ كالخديعة للمؤمنين أيضاً. وقد جاءت آيات كثيرة بهذا الشأن وبصورة رئيسية في سورة (المنافقون والانفال والتوبة والبقرة) وسور قرآنية أُخرىٰ، نذكر هنا عدة آيات منها.

ذكر الله تعالىٰ في مفتتح سورة البقرة أهمَّ الخصال لدىٰ المؤمنين وقال عن المنافقين:

﴿وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مٰا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخٰادِعُونَ اللّٰهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ مٰا يَخْدَعُونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ وَ مٰا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزٰادَهُمُ اللّٰهُ مَرَضاً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ بِمٰا كٰانُوا يَكْذِبُونَ * وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ لاٰ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قٰالُوا إِنَّمٰا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلاٰ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لٰكِنْ لاٰ يَشْعُرُونَ * وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمٰا آمَنَ النّٰاسُ قٰالُوا أَ نُؤْمِنُ كَمٰا آمَنَ

---

١. النحل ١٠٥.   ٢. البقرة ١٦٩.

السُّفَهٰاءُ أَلاٰ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهٰاءُ وَ لٰكِنْ لاٰ يَعْلَمُونَ * وَ إِذٰا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قٰالُوا آمَنّٰا وَ إِذٰا خَلَوْا إِلىٰ شَيٰاطِينِهِمْ قٰالُوا إِنّٰا مَعَكُمْ إِنَّمٰا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ﴾[١].

لقد بيّن الله في هذه الآيات خصالاً مهمة لدىٰ المنافقين، هي انهم يظهرون الايمان كذبا. ويخادعون الله والمؤمنين، وهم مرضى القلوب ويزدادون مرضا يوماً بعد آخر. ويفسدون ويعتبرون انفسهم مصلحين. ويصفون المؤمنين بالسفه والجهل. ويتكلمون بكلام جميل ويظهرون انفسهم اصدقاء مخلصين ولكنهم هم العدوُّ الاكبر، قال تعالىٰ:

﴿وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ يُشْهِدُ اللّٰهَ عَلىٰ مٰا فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصٰامِ﴾[٢].

وحبّهم للعزة والاقتدار يسوقهم للتمرد على احكام الله وأوامره، قال تعالىٰ:

﴿وَ إِذٰا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّٰهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾[٣].

ان هذه وعشرات الخصال والصفات القبيحة الأُخرىٰ تمثل علاماتٍ ومميزات للمنافقين مما قدتّم بيانه في الآيات القرآنية، ولكن ما نقصده هنا هو كذبهم واقوالهم الفارغة التي تكون منشأ اساسيا لمفاسدهم الأُخرىٰ.

كتمان الحق

هناك آيات عديدة تتحدث عن كتمان الحق تحت عنوان (لبس الحق بالباطل) أي لبس الحق بلباس الباطل كتمانا للحقيقة نشير الى بعضها، قال تعالىٰ:

﴿وَ لاٰ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبٰاطِلِ وَ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٤].

---

١. البقرة ٨ـ ١٤.
٢. البقرة ٢٠٤.
٣. البقرة ٢٠٦.
٤. البقرة ٤٢.

﴿أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَ قَدْ كٰانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاٰمَ اللّٰهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مٰا عَقَلُوهُ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ﴾[١].

كان أهل الكتاب يسمعون كلام الله ثم يحرّفون الحقائق عن جهتها الأساسية لفظا ومعنى.

جدير ذكره ان هناك مراتب من الكفر والشرك والنفاق حتى في المؤمنين، قال تعالىٰ:

﴿وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ﴾[٢].

جاء في احد تفاسير هذه الآية ان هناك مراتب ضعيفة من الايمان مقرونة مع مراتب من الشرك عند بعض الناس. إذنْ يجب علينا في اقوالنا وسلوكنا ان نسعى لئلا نكون مشمولين لهذه الآية وامثالها، فلا نكتم الحق ولا نخلط الحق بالباطل، ولا نلبس الحق بالباطل. ولا نستخرج من الحق تحليلات وتفاسير غير صحيحة، ولا نفسره لصالحنا بدون حق، إذ اننا في هذه الحالة سنكون مشمولين لآيات كتمان الحق ولبس الحق بالباطل وآيات النفاق.

لم تكن نُسخ التوراة والانجيل ـ خاصة في العصور السالفة ـ كثيرة وفي متناول جميع الناس، بل كانت هناك عادة نسخة واحدة في كل مدينة كبيرة وهي محفوظة عند عالمها الكبير، واذا أراد الناس تعلّم شيء من هاذين الكتابين السماويين كان عليهم الاستماع الى علمائهم. ولذا كان من السهل عليهم بيان امر كاذب للناس باسم التوراة والانجيل والناس يصدّقونهم فيها، وقد وقعت مثل هذه الاعمال فعلاً، قال تعالىٰ:

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتٰابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذٰا مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ لِيَشْتَرُوا

---

١. البقرة ٧٥.
٢. يوسف ١٠٦.

بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمّا يَكْسِبُونَ﴾[١].

وقال في آية أُخرىٰ:

﴿وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

وجاء في آية أُخرىٰ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مٰا أَنْزَلْنٰا مِنَ الْبَيِّنٰاتِ وَ الْهُدىٰ مِنْ بَعْدِ مٰا بَيَّنّٰاهُ لِلنّٰاسِ فِي الْكِتٰابِ أُولٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللّٰهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللاّٰعِنُونَ﴾[٣].

كانوا يكتمون الآيات والحقائق الالهية دفعا للضرر أو جلبا لمنفعة شخصيّته ولا يتركونها تصل الى اسماع الناس. ولذا جاء في الروايات:

«اذا ظهرت البدع في امتي فليظهر العالم علمه فمن لم يفعل فعليه لعنة الله»[٤].

وقال تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ الْكِتٰابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولٰئِكَ مٰا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النّٰارَ وَ لاٰ يُكَلِّمُهُمُ اللّٰهُ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ وَ لاٰ يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ﴾[٥].

قلّما استعمل في آية قرآنية مثل هذا التعبير بهذا اللحن الشديد والالفاظ المتضمنة للتهديد بحق الذين يكتمون آيات الله والحقائق الالهية كي يكسبوا ثمنا قليلا. ولا تعني الآية انهم لو اكتسبوا مالاً كثيراً فلا بأس في ذلك، فالتعبير (ثمنا قليلا) هو بالقياس الى الاثم الكبير الذي ارتكبوه وحتىٰ لو استلموا مليارات الدولارات وهكذا كل ثروات العالم لكان ذلك ثمنا قليلاً.

---

١. البقرة ٧٩. ٢. البقرة ١٤٦.
٣. البقرة ١٥٩.
٤. وسائل الشيعة ج ١٦ الباب ٤٠ ص ٢٦٩ الرواية ٢١٥٣٨.
٥. البقرة ١٧٤.

جاء في آية أُخرىٰ:

﴿يـا أَهْـلَ الْكِـتابِ لِـمَ تَـلْبِسُونَ الْـحَقَّ بِـالْباطِلِ وَ تَكْـتُمُونَ الْـحَقَّ وَ أَنْـتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١].

ان ذلك من اكبر المصائد الشيطانية لاضلال الناس، اذ انّ الباطل لو قيل بصراحة للناس لادركوا بطلانه سريعا ولم يضلوا. لقد تم اضلال الناس على طول التـاريخ غالبا نتيجة لاختلاط الحق بالباطل.

يشير امير المؤمنين عليه السلام الى هذه الحقيقة المرّة بقوله:

«فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يخفَ على المرتادين، ولو انّ الحـق خلص من الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومـن هذا ضغث فيمزجان»[٢].

انّ السبب في ضلال الناس هو ان اشخاصا يمزجون بعض الحق ببعض الباطل ويلبسون الباطل بلباس الحق فيثيرون الفتنة والضلال.

وقد اشار الله عز وجل في آية أُخرىٰ بلحن اكـثرَ ظـرافـةً الى هـذه الظـاهرة الاجتماعية القبيحة بقوله:

﴿وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَ ما هُـوَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ وَ ما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٣].

كما أشار في آيات كثيرة أُخرىٰ الى هذه الحقيقة المرّة وعِظم هذه المعصية التي تسبِّب الفساد والضلال بقوله تعالىٰ:

---

١. آل عمران ٧١.

٢. نهج البلاغة ـ الخطبة ٥٠.

٣. آل عمران ٧٨.

﴿وَ إِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ﴾[١].

وقال تعالىٰ:

﴿مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ﴾[٢].

وعليه يعدّ كتمان الحق واخفاء آيات الله من اكبر مصاديق الكذب ومن اكبر الذنوب، وقد كانت الآيات المذكورة بأجمعها حول اهل الكتاب، ولكن هذه الآيات والحوادث التاريخية الخاصة بأهل الكتاب يمكن ان تعلّمنا الكثير. ان حكاية هذه الحوادث بنحو واسع يشير الى شيوع هذا الذنب بنحو كبير بين اهل الكتاب. وفي نفس الوقت لعلّ كل هذا التأكيد الشديد هو لكي نتّعظ ونحترز من كتمان الحقائق الضار بنا، وبذلك تتم مكافحة موفقة للفساد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من الموارد التي يجب قول الحق فيها هو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. فانهما من ضروريات الاسلام وهناك آيات كثيرة بهذا الشأن نذكر بعضها كقوله تعالىٰ:

﴿وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣].

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾[٤].

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ

---

١. آل عمران ١٨٧.
٢. النساء ٤٦.
٣. آل عمران ١٠٤.
٤. آل عمران ١١٠.

يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ أُولٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[١].

﴿وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ يُطِيعُونَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ أُولٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّٰهُ إِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

وفي آية أُخرىٰ بعد الوعد الاكيد بنصرة من ينصر الله قال تعالىٰ توضيحا وتعريفا للذين ينصرون الله:

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاٰةَ وَ آتَوُا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلّٰهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[٣].

في هذه الآيات يؤكد أهمية هاتين الفريضتين ويرغّب الناس في ادائهما والاهتمام بهما بتعابير ظريفة مفعمة بالثناء على الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر نظير:

(اولئك هم المفلحون، وكنتم خير امة اخرجت للناس، واولئك سيرحمهم الله)، كما يبين بتعابير ادبية ظريفة وجميلة أضرار ترك هاذين العملين، مثل انّ التاركين لهاتين الفريضتين بعيدون عن الفلاح، وليسوا أمة صالحة، ويفقدون الصلاح ولا تشملهم العناية والرحمة الالهية.

ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ذو أبعاد ومسائل لابدّ من دراستها في علم الفقه، ولكن ينبغي الاشارة الاجمالية هنا الى بعض هذه المسائل.

مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

تتعلق إحدىٰ المسائل المشار إليها بمراتب الامر بالمعروف واقسامه، فقد ورد في

١. آل عمران ١١٤.
٢. التوبة ٧١.
٣. الحج ٤١.

بعض الروايات بأن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر درجاتٍ ومراتبَ مختلفة.

المرتبة الأُولىٰ تبدأ من القلب، فعلى كل انسان اذا لاحظ ارتكابا للمنكر أو تركاً للمعروف ان يستنكر ذلك في قلبه، وهذا هو مقتضىٰ ايمانه. ان آثار الاستنكار والكراهة القلبية تظهر على وجه الانسان، أي انّ المؤمن حينما يرىٰ عملا منكراً أو تركاً للمعروف فانه ينزعج قلبياً ويعبس وجهه. وقد عبّر عن هذه الحالة بـ(اكفهرار الوجه) في الروايات، كما جاء فيها بان من لا يعبس وجهه عند مشاهدة المنكر وترك المعروف يغيّر وجهه نار جهنم.

المرتبة الثانية ترتبط بلسانه، اي ان المؤمن لابد ان يظهر تألّمه لمرتكب المنكر وتارك المعروف فينهىٰ ذاك عن المنكر ويأمر هذا بالمعروف، أو ينصحهما ويعظهما أو يرشدهما ويهديهما، ويسوقهما في كل الاحوال نحو الطريق الصحيح.

المرتبة الثالثة ترتبط بالعمل، حيث يقوم المؤمن بالمنع من ارتكاب المنكر عمليا وبالقوة. وقد ورد هذا المضمون في الكثير من الروايات وتطرح بشأنه بحوث واسئلة من قبيل:

هل المراتب الثلاث: القلبية واللسانية والعملية واجبة على جميع المكلفين، أو ان بعضها كالمرتبة العملية ومنع المنكر بالقوة يرتبط بالحكومة ويختص بالسلطة الحاكمة، ولا ينبغي للناس العاديين استخدام القوة والشدة للصد عن المنكرات؟

يمكن القول: ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر اذا أدى عملياً الى الاخلال بالنظام الاجتماعي فالواجب هو العمل بهما باذن مسؤولي الدولة الاسلامية، وان كان الحاكم العادل غير مبسوط اليد فلابدّ من استئذان الفقيه الجامع للشروط والعالم بمصلحة المجتمع.

حدود الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

من جهة أُخرىٰ تطرح هذه المسألة: هل تشمل دائرة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ارشاد الجاهل وتعليمه أم انهما من مقولة أُخرىٰ لا علاقة لها بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

قال بعض العلماء ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يصدقان على موارد ارشاد الضال وتعليم الجاهل، ولا يشملان حتى موارد نصيحة المؤمن وموعظته لفاعل المنكر أو تارك المعروف، لما للامر بالمعروف والنهي عن المنكر من شروط لا تتوفر في الارشاد والتعليم والنصيحة والموعظة. وكمثال: من الشروط ان يؤدى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بصورة الاستعلاء، أي ان يقول الآمر باقتدار: قم بهذا العمل الواجب أو اترك ذلك العمل المنكر، في حين لا يتصور في الارشاد والتعليم والموعظة والنصيحة حالة الآمرية والاستعلاء. وعليه لا يمكن ان تدخل نطاق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ولها احكام مستقلة.

من جهة أُخرىٰ يطرح هذا السؤال: هل منع المنكر بالقوة يدخل دائرة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وتشمله؟ أم انهما يقتصران علىٰ الكلام فقط ولا يشملان المنع العملي القهري من المنكرات؟

في الاجابة نقول: في الاسلام واجبات يطلق عليها أحياناً عنوان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، بصورة حقيقية أو مجازية وتوسعةً في التعبير، أحدها تعليم الجاهل وارشاد الضال.

وقد تردد بعض العلماء في وجوبه طبعا، ولكن ينبغي الالتفات الى انّ الهدف من بعثة انبياء الله والكتب السماوية هو هداية الناس، وتعتبر الاحكام والمعارف الاسلامية امانة بيد العلماء والفقهاء وعليهم ابلاغها للناس كي يتحقق الهدف الالهي

السامي ويهتدي الناس، فاذا قصّروا في أداء هذه المسؤولية فسرعان ما يضيع هدف الانبياء وينقض الغرض الالهي من بعثتهم.

بناء على ذلك لا شك في ان ارشاد الضال وتعليم الجاهل واجب عقلاً في الجملة، وهناك روايات كثيرة وكذا بعض الآيات القرآنية تدل على وجوب ارشاد الضالين وتعليم الجهلاء، ولكن مع غض النظر عن هذه الآيات والروايات نعلم ويحكم عقلنا قطعا بان الله تعالىٰ قد أراد منا أداء هذه المسؤولية بنحو إلزامي، واحتمال ان الله قد أراد ايصال احكامه للناس بواسطة الانبياء فقط، وأمّا بعد وفاتهم فهو لا يريد وصول تلك الأحكام الىٰ الأجيال اللاحقة فهو احتمال باطل وغير عقلائي ولا قيمة له.

وعليه حتى لو لم يكن لدينا دليل تعبدي فان هذا الواجب يكون ثابتاً عقلا سواء أطلقنا عليه الامر بالمعروف وقلنا انه يدخل دائرة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أو قلنا انّه شيء آخر.

و ربما يستظهر من بعض الآيات القرآنية أن للامر بالمعروف والنهي عن المنكر من جهة وللدعوة الى الخير وارشاد الضال وتعليم الجاهل من جهة أُخرىٰ احكاماً مستقلة. ومفهوم هذا الكلام هو ان ارشاد الضال وتعليم الجاهل خارجان من دائرة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر كما تقول الآية:

﴿وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[١].

في هذه الآية ذكر عنوان الدعوة الى الخير مستقلا عن عنوان (الامر المعروف والنهي عن المنكر).

---

١. آل عمران ١٠٤.

النهي عن المنكر ومكافحة الفساد

ان مكافحة الفساد ومواجهة الظلم واجب شرعا في بعض الموارد كي يحفظ اساس الدين، فاذا أراد اشخاص القضاء على المقدسات الدينية فانه يجب مواجهتهم يقينا. ومع الالتفات الى الهدف من بعثة الانبياء عليهم السلام لا يبقى مجال للشك في وجوب مكافحة الفساد علينا، وان لم نملك دليلا شرعيا على وجوب هذه المكافحة. حينما يتعرض اساس الاسلام للخطر فانّ المواجهة تكون واجبة مهما كان الثمن، وهكذا مواجهة أي خطر في هذا السبيل، سواء أصدق عليه عنوان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أم لم يصدق. في هذه الموارد لا يجب علينا انتظار العثور على دليل تعبدي، ولا نبقى أسرى العناوين وتطبيقها، لان الطريق واضح والهدف محدد ويكون واجبنا هو المواجهة.

يقول المرحوم كاشف العطاء في مثل هذا المجال: (على الفقيه ادّخار الادلة الظنية لموارد الشك). إذنْ حينما يتعرض كيان الاسلام الى الخطر لا ينبغي اعتبار مكافحة الفساد في المجتمع الاسلامي مسألة مشكوكة كي نحتاج الى التفكير باثباتها عن طريق الادلة الظنية.

ولكن نلاحظ في بعض الروايات اطلاق عنوان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على هذه الافعال. قال سيد الشهداء عليه السلام مبيّنا الهدف من ثورته بكربلاء:

«خرجت لآمر بالمعروف وأنهىٰ عن المنكر».

في هذه الروايات اعتبرت ثورة الامام الحسين عليه السلام من مصاديق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مع انها انتهت بالقتال ومقتل أعزّ الاعزاء في الاسلام.

السؤال الآخر هو: هل ان اطلاق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على هذه الموارد اطلاق حقيقي أم مجازي؟ في الجواب يمكننا القول: ان الأمر بالمعروف

والنهى عن المنكر بالمعنىٰ الحقيقى لايشمل هذه الموارد، ويصدق عـليها عـنوان الجهاد اكثر. وعليه فان اطلاقهما يكون من باب التوسع في التعبير، أو قد يكـون المراد منها في كلام الامامعليه السلام حسب مفهومهما الحقيقي هو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في الكلام وفضح مركز الفساد، وكانت قضية الحرب والجهاد والقتل من التوابع اللاحقة لهما.

الامامعليه السلام إذنْ لم يطلقهما على هذه الواقعة الدامية، بل جاء للامـر بـالمعروف والنهي عن المنكر ومكافحة الفساد، ولكن نظراً لطغيان العدوّ وبغيه أقدم على قتال الامام وقتله وقتل اصحابه بدلاً عن الخضوع للحق.

الامر بالمعروف والاقتدار والآمرية

هل الامر بالمعروف مشروط بالآمرية والاستعلاء، أم يكـون عـمليا عـلى نـحو الموعظة والنصيحة والطلب؟

في الاجابة عن هذا السؤال يمكن القول: مـن خـلال مـوارد اسـتعمال الامـر بالمعروف في الآيات والروايات نصل الى هذه النتيجة وهي انّ الهدف الرئيسي لدىٰ الشارع المقدس هو اقتدار أعضاء المجتمع على التأثير على تاركي المـعروف أو مرتكبي المعصية وصدّهم بأي نحو ممكن عن المعصية ودفعهم باتجاه أداء واجبهم. ومن الطبيعي ان هذا الفعل ذو مراحل:

المرحلة الأُولىٰ في مورد الجاهل الذي يرتكب المعصية نتيجةً لجهله. في هذه الحالة يكفي ارشاده وتعليمه الواجبَ الشرعي، فيترك الفعل حينما يعلم انه معصية أو يمتثل واجبه الشرعي حينما يعلم بوجوب فعل ما.

المرحلة الثانية في مورد من يعلم واجبه ولكنه يرتكب المعصية أو يترك واجبه.

المناسب هنا هو تذكيره بالموعظة والنصيحة والانذار والتبشير والعواقب المرّة والمؤلمة التي أُعدّت له لتركه الواجب أو ارتكابه الحرام، لكي يقوى فيه دافع ترك المعصية وأداء الواجب فيترك المعصية أو يؤدي واجبه بنفسه.

في المرحلة الثالثة يأتي دور الشدة والآمريّة اذا كان مؤثرا، فينبغي زجره عن ارتكاب المعصية أو دفعه لاداء الواجب باستعلاء وآمرية.

بناء على ذلك فانّ المهم هو صدُّه عن المعصية بأي نحو كان أو دفعه لاداء الواجب، وينبغي ملاحظة الاسلوب الاكبر تأثيراً ايجابيا والانفع والافضل ولا ينبغي الاستناد الى مادة (الأمر) فقط لنقول: نظراً لاستعمال لفظ الامر هنا فلابدّ من الآمرية والشدة والفظاظة، بل ينبغي الالتفات الى التعابير الأُخرىٰ الواردة في الروايات أيضاً. علينا السعي للوصول الى هذا المقصود بالطريق الافضل والانسب والاقل ضرراً، ويختلف ذلك باختلاف الظروف فيمكن تارة بالارشاد والتعليم والموعظة والنصيحة وتارة بصورة الامر وإعمال القوّة.

ولعل السبب في انتخاب عنوان (الامر والنهي) في هذا المجال هو انّ الناس كانوا ملتزمين بالاسلام ويؤدّون الواجبات ويتركون المنكرات، والمفروض ان نبي الاسلامﷺ وخلفاءه قد بينوا احكام الاسلام كلها ويعرف عامة الناس واجباتهم، فالذين يرتكبون المعاصي عالمين كان عددهم ضئيلاً فلا يوخذ بنظر الاعتبار بين الملتزمين بالاسلام، وكان المسلمون مسلطين عليهم. في هذه الاحوال ينبغي امرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر بقوة.

ولكن ينبغي الالتفات الى ان هذه الظروف لا تتحقق في أي زمان ومكان، ففي المناطق البعيدة عن مركز الاسلام تختلف الاحوال فيوجد من لا يعرف المعروف والمنكر أو لم يتلقَ تربية جيّدة ولهذا اعتاد علىٰ ارتكاب المعصية. فواجب الآخرين

تجاه هؤلاء الافراد في المرحلة الأُولىٰ هو الارشاد والتعليم والموعظة والنصيحة، وحتى لو كان الدليل منحصراً في ادلة وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ما كنّا نستطيع القول بوجوب أدائهما بلحن الامر وان استتبع ذلك أثراً سلبيا واعطى نتيجة معكوسة ومرفوضة بدلا عن النتيجة المطلوبة، لاننا نعلم انّ الهدف هو ركون الناس الى الحق واداؤهم للمعروف وتركهم للمنكرات، وينبغي أداء هذا العمل بطريق مؤثر ونافع وليس بالتعامل الفظّ والتأمّر والقسوة والغضب فانه يثير اللجاج وردّ الفعل لدىٰ المخاطب. ولا يمكن ان يحتمل احد بان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر امران تعبديان محضان ومصلحتهما مجهولة، فنقوم في أي حال نواجه فيه المذنب بامتثال هذا الامر التعبدي بلا هدف وبلحن الامر، وان كان ذا أثر معكوس لديه ويسوقه نحو العناد واللجاج.

هل الكذب مذموم دائما؟

السؤال الآخر هو: هل الكذب مذموم دائما وفي كل مكان وله قيمة اخلاقية سلبية؟ أو انّ الكذب ليس مذموماً في بعض الموارد، ليس هذا فحسب بل قد يكون حسنا بل قد يكون واجباً؟ في الاجابة ينبغي القول: في بعض الموارد يكون الكذب جائزاً بل واجبا، نذكر هنا بعضها:

١ ـ التقية

لابأس في الكذب في موارد التقية وقد طرح بحث التقية في الكتب الفقهية، ولكن نظراً لكونها مسألة مهمة وفيها زوايا مبهمة فهي بحاجة الى مزيد من الدراسات الفقهية.

لألفاظ: (تقوى وتقية وتقاة) كما اشرنا سابقاً معنى واحد، ويستعمل بعضها بدلاً عن البعض الآخر. وقد استعمل لفظ (تقية) في بعض الموارد من نهج البلاغة بدلا عن التقوى[١]. على أي حال فان لفظ (تقية) قد استعمل فياللغة والاستعمالات القرآنية ونهج البلاغة وكلمات امير المؤمنينعليه السلام، وقد ظهر اصطلاح فقهي خاص في موردها واصبح لها مفهوم غير مفهوم التقوى. لقد لوحظت الصيانة من الخطر في مفهوم هذه الالفاظ الثلاثة المشتقة كلها من مادة (الوقاية) بمعنى الصيانة. إذنْ يفرض وجود الخوف من الخطر في مواردها. ولذا تعتبر التقوى تارة بمعنى الخوف من الله، لان الانسان حينما يخاف العقاب الالهي في الدنيا أو الآخرة فلكي يبقى بعيدا عن العقاب وصائنا لنفسه فانه يعزم على أداء واجباته وترك المعاصي.

وهكذا يمهد الخوف الارضية للتقية التي يصطلح عليها الشيعة مع فارق هو ان خوفا خاصا أُخذ بعين الاعتبار في التقية المصطلحة لدىٰ الشيعة، أي بدلاً عن الخوف من الله يلاحظ الخوف من انسان آخر لو اطلع على عقيدته ومذهبه فسوف يؤذيه، أو يخاف من تعرُّض نفسه أو ماله أو عِرضه للخطر أو احاطة الخطر بالاسلام والمسلمين، ولكي يدفع هذه الاخطار والتهديدات يراعي الاحتياط فيقوم بأعمال أو يتركها أو يكتم اعتقاده، ويطلق على هذا الاحتياط اصطلاح: (التقية) قال تعالىٰ في القرآن:

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِيمٰانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمٰانِ وَ لٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللّٰهِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

قيل: ان هذه الآية نزلت في عمّار حينما قُتل والداه (ياسر وسميّة) في محضره تحت التعذيب، وقد أظهر براءته من الاسلام حتّىٰ لا يتعرض للتعذيب والقتل فنجا،

١. نهج البلاغة، الخطبة ٨٣.
٢. النحل ١٠٦.

ولكنه كان حزينا دائما من عمله هذا، حتى جاء الى المدينة وأعـرب عـن قـلقه لرسول الله ﷺ قائلا: لقد هلكت واعلنت براءتي من الاسلام صونا لنفسي، فقال له ﷺ: لا تجزع، فقد عملت بواجبك، ثم نزلت الآية.

ويستفاد منها انّ الكذب والبراءة من الاسلام في الظاهر تقيةً وصيانة للنفس أمر جائز، وقد يكون واجبا في بعض الموارد.

طبعا اذا كان ترك التقية ضروريا في بعض المراحل التـاريخية بـهدف انـتصار الاسلام فإن كانت التقية سببا لانهيار الدين فلا يجوز العمل بالتقية. من هنا اذا كانت التقية جائزة بل واجبة في بعض الموارد وكانت حراما في بعض آخر فان تـعيين موارد الجواز أو الوجوب او الحرمة بدقة يحتاج الى دراسة الظروف والفهم الصحيح لمصلحة الاسلام والمسلمين.

في بعض الموارد يكون لبيان الحق وترك التقية ـ وان عرّض نـفس الانسـان للخطر ـ آثار اجتماعية نافعة ومهمة، ويكون سببا لانتصار الدين والمذهب الحق. ولذا عرّض بعض العظام انفسهم للخطر في بعض المراحل وبيّنوا الحق علناً رغـم التهديدات كلها. أحدهم سعيد بن جبير حيث كان من المسلمين الطيبين ومن عشاق الامام علي عليه السلام وشيعته، فرفض اعلان براءته منه أمام الحَجاج فقتله. لا يمكن القول أنَّ سعيد بن جبير كان جاهلا بحكم التقية وعرّض نفسه للخطر جهلا. من الممكن القول ان ياسراً وسمية لم يتّقيا آنئذ، اذ لم تنزل آية التقية بعدُ فلم يطلعا على هذا الحكم، ولكن سعيد بن جبير لا يمكن القول انه لم يعلم بحكم التقية بعد سنوات من نزول الآية. كان على علم بحكم التقية حتما ولكن امثال هؤلاء المسلمين والشيعة العاشقين قد سقوا شجرة الاسلام بصمودهم على طول التـاريخ واصـبحوا عـاملاً لانتصار الدين والمعرفة الالهية وعبادة الله سبحانه.

اجابة عن سؤال

توصّلنا الى هذه النتيجة وهي انّ الكذب وان كان حراما كحكم أولي ولكـن فـي بعض الموارد قد تكون هناك مصلحة تجيز الكذب بل توجبه. قد يصبح هذا الكلام سبباً لسوء فهم وهو اننا نعتقد ـ كما تعتقد بعض المذاهب الفكرية ـ بانّ الغاية تبرّر الواسطة، والمقولة المذكورة تلتقي مع الشعار الذي نعارضه، لان غايتنا فـي هـذه الموارد هو ان نصون نفوسنا واموالنا أو أعراضنا أو المسلمين الآخرين، ولصـونها نعتقد بوجاهة الكذب رغمَ انه غير وجيه اصلا.

انّ الرد الكامل على هذه الشبهة يتطلب تفصيلا يضيق به هذا البحث، ولكن نقول اجمالاً بان هناك تفاوتاً واضحاً بين المسألتين، فالذين يعتقدون بانّ الغـاية تـبرر الواسطة يتلقون ذلك كقاعدة عامة ـ مع التغاضي عن الأهداف المادية والدنيوية التي يتابعونها ـ ويرون جواز ارتكاب أي عمل غيرخلقي بغية تحقيق الأهداف الفردية أو الفئوية أو السياسية، ولكن الاسلام بريءٌ من هذه القـاعدة العـامة، فـليس فـي الاسلام فعل أو حركة أو سكون دون ان يكون له حكم على اساس ما فـيه مـن مصلحة أو مفسدة واقعية.

وقد يحصل تزاحم بين المصلحة في حكم مع المصلحة في حكم آخر حـيث يستلزم العمل بأحدهما ترك الآخر أو يكون ترك أحدهما مقدمة لاداء الآخر، في هذه الحالة اذا كان أحدهما أهمَّ من الآخر، وحصل التزاحم بين الاهم والمهم، فلا تجوز التضحية بالأهم من أجل المهم، بل تجب التضحية بالمهم من أجل الأهم عقلا وشرعاً. اذ ان حكم الأهم ذو مصلحة اكبر، وتقديم الأهم على المهم حكم بديهي عقلي. فمثلا اذا واجه شخص خطر الغرق في البحر وكان المـركب الوحـيد الذي يمكن الاستعانة به ملكا لشخص لا يجيز استخدامه، هنا لا يحق لنا أن ندعه يغرق

ولا نستعين بالمركب احتراما للمالكية، لان حفظ نفس المسلم أهمُّ من احترام مالكية الآخرين.

في هذه الحالة يجوز التصرف بالمركب غصبا، وليس في ذلك قيمة سلبية، لانه المقدمة الوحيدة لتحقيق مصلحة أهمَّ وهو حفظ نفس المسلم. هذا في حالة ادراكنا لأهمية أحد الحكمين بحكم عقلي قطعي أو طبقا لنص حكم شرعي، أما اذا شككنا في أهمية أحد الحكمين أو وجد طريق آخر لتحقيق الهدف الأهم فلا يمكن القول انّ الغاية تبرر الواسطة فنتخذه ذريعة لارتكاب عمل غير اخلاقي.

بناء على ذلك هناك تفاوتان أساسيان بين قاعدة (الأهمّ والمهمّ) حيث نضحّي بالمهم من أجل الأهم استناداً اليها وبين مقولة (الغاية تبرّر الواسطة):

الاول هو ان قاعدة الأهم والمهم أضيق دائرةً، فلا تحكم بتبرير كل واسطة لتحقيق ايّ هدف ممّا هو مستفاد من عموم (الغاية تبرّر الواسطة).

الثاني هو ان الأهداف التي نقصدها هنا لا تنحصر في الأهداف المادية وانّما هي اهداف إلٰهية ومعنوية نوعا ما.

٢ ـ اصلاح ذات البين

من الموارد التي يجوز الكذب فيها هو مورد الإصلاح بين الناس ورفع الخصومات بينهم. لعلنا كنا نعجز عن اليقين من هذه الحقيقة وهي ان مصلحة الإصلاح بين مسلمين هي اكبر من مفسدة الكذب الّا انّ الشارع المقدس قد أجاز الكذب بصراحة بهدف رفع الخصومات.

ان للكذب ذي المصلحة حكما واضحا في الشريعة سواء أكان الكذب للاصلاح بين شخصين أو لإنقاذ نفس المسلم أو ماله أو لتحقيق مصلحة مهمّة اخرىٰ.

الكلام الفارغ أو اللهوي

من الامور التي يكون الكلام بسببها ذا قيمة سلبية هو اللهو أو اللغو في الكلام. فاللغو يعني العمل الباطل وعديم الفائدة الذي لا مصلحة فيه لدنيا الانسان ولا لآخرته. واللهو يعني العمل الذي يشغل الانسان عن غاية معقولة وقيّمة.

انّ الهدف الأساسي في حياة المؤمن الذي يريد طي مسيرة تكامله الحقيقي هو التقرب الى الله والاستقرار في جوار رحمته. وعليه فانّ اللهو ـ حسب الاصطلاح الشرعي ـ يطلق على العمل الذي يشغل الانسان وفق مقتضىٰ طبعه ويصدّه عن ذكر الله والتقرب اليه والالتفات الى الهدف الأساسي من الحياة.

انّ اللغو واللهو أعمٌّ من الكلام الباطل فيشملان العمل أيضا، ولكن من مصاديقهما الكلام اللغوي او اللهوي الذي يجعل الانسان في غفلة عن الله طبعا. قال تعالىٰ في سورة لقمان:

﴿وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[١].

المقصود من لهو الحديث في هذه الآية هو الألفاظ والأصوات اللهوية. ولذا اعتبر الغناء في الروايات من مصاديق لهو الحديث. إذنْ كل قول لهوي يصد الانسان عن سبيل الله ويضله هو مصداق للهو الحديث. وقد أشير في آية أُخرىٰ بصورة اوضح الى صفة الصد في اللهو، قال تعالىٰ:

﴿وَ إِذٰا رَأَوْا تِجٰارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهٰا وَ تَرَكُوكَ قٰائِماً قُلْ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجٰارَةِ وَ اللّٰهُ خَيْرُ الرّٰازِقِينَ﴾[٢].

ومن المصاديق الواضحة للّهو هو الغناء وقد تناوله الفقهاء في بحث المكاسب المحرمة، وللّهو مصاديق أُخرىٰ كما قال تعالىٰ:

---

١. لقمان ٦. ٢. الجمعة ١١.

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[١].

وقد أطلق القرآن في موارد مختلفة اللهو على الدنيا والاولاد والأموال والتجارة وغيرها، والمقصود هو ان نراعي الحدود بدقة في كل مورد منها، فاذا أفرطنا في التعامل معها وتجاوز اهتمامنا بها الحد المطلوب، فانها تصدُّنا عن الهدف الأساسي من حياتنا وتتخذ حالة اللهو. وعليه رغم الأهمية الخاصة للاهتمام بهذه الموارد في وصولنا الى الهدف، فانها اذا فقدت صفتها كوسيلة وحلّت محل الهدف الأساسي وصدّتنا عن هدفنا الأساسي الواقعي فإنها ستكون مصداقا للّهو، ويذمنا الله على هذا الاهتمام الكبير بها لانها سوف تدمّر مستقبلنا.

الّا انّ اللغو ليس محرَّما في نفسه وبصورة عامة، بل يحسن ويترجح تركه، قال تعالىٰ في سورة المؤمنون:

﴿وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[٢].

يستفاد من هذه الآية أن الإعراض عن اللغو ممدوح مطلقا، سواء أكان اللغو في الكلام أو السلوك والعمل. وقد تأكد تركه في الروايات تحت عنوان (مالا يعني) أي العمل الباطل والمهمل.

ب ـ الأخلاق الاسلامية في الاستماع

كان بحثنا في القسم الماضي عن الشؤون الأخلاقية ذات الصلة بالكلام، ويستلزم الكلام وجود مستمع، ولذا ينبغي بيان امور حول الشؤون الأخلاقية ذات الصلة بالاستماع للكلام.

---

١. التكاثر ١ و ٢.

٢. المؤمنون ٣.

انواع الاستماع

يكون الاستماع الى كلام الآخرين على انواع: الاول هو أن يعلم الانسان بانّ المتكلم يريد بيان حق وأمر صحيح، في هذه الحالة يكون الاستماع نافعا للتذكير فقط أي لكي تتضح لدىٰ السامع المفاهيم التي يعلمها ويلتفت اليها.

النوع الثاني هو أن يعلم الانسان بانّ المتكلم يريد بيان كلام باطل وليس في الاستماع اليه أية فائدة.

النوع الثالث هو أن يجهل المستمع كلام المتكلم تماما، ويستمع الى كلام يجهل بأنه حق أو باطل. أي ما لم يلقِ المتكلم كلامه فانه يجهل صدقه أو كذبه وسيدرك ذلك بعد الاستماع اليه.

للنوع الثالث عدة صور: في الصورة الأُولىٰ يستمع الانسان الى كلام من يصدّق بحديثه ثقة به، وللوثوق بالمتكلم تأثير في التصديق بحديثه.

في الصورة الثانية يستمع الانسان الى كلام المتحدث كي يفكّر بشأنه بعد الاستماع اليه ويدرك الحقيقة بفكره وادراكه، لا أن يصدّق بما يلقيه المتكلم تعبداً، نظير الكثير من التعاليم التي يتلقاها التلميذ من استاذه مما له حيثية ارشادية لا تعبدية، بل ان استناده الأساسي يكون على تدبره وتفكيره.

في الصورة الثالثة لا يثق المستمع بالمتكلم، ولا يكون بنفسه قادراً على ادراك الحقيقة بعقله وتدبره، ويعجز عن تشخيص الحق والباطل في كلام المتحدث.

نبادر هنا الى البحث بشأن هذه الصور المختلفة.

١ - استماع الكلام الحق

حينما يستمع الانسان الى كلام يعلم بحقانيته فان فعله هذا صحيح ونافع وان كان عالما بحقانيته من قبلُ، لان الانسان يكون في هذه الموارد التي يعلم بانّ الكلام

حق وصحيح غافلا في الغالب، ويكون استماعه هذا سببا لالتفاته الى الحقائق التي غفل عنها. وعليه فان الاستماع وان لم يكن فيه عائد علمي، الّا انّه نوع من التذكير والإيقاظ من الغفلة وتجديد الالتفات، الأمر الذي له تأثير نفسي وسلوكي كبير على المستمع بنحو طبيعي.

اننا نعلم بالكثير من القضايا ولكنّنا لا نلتفت اليها ولا نتفاعل عملياً بهذه المعلومات المغفول عنها في سلوكنا. في هذه الحالة يكون استماع هذه القضايا من الآخرين سببا لإحياء معلوماتنا المغفول عنها والتأثير على سلوكنا.

افضل الكلام النافع لدىٰ الاستماع اليه في كل حال هو كلام الله في القرآن الكريم، ثم أحاديث النبي الاكرمﷺ والائمة المعصومين عليهم السلام الواردة في الروايات، وفي المرتبة الثالثة نصائح العلماء والحكماء واولياء الله ومواعظهم، حيث لها أهمية بالغة في ترسيخ المفاهيم الذهنية والعقائدية والأخلاقية، ولها التأثير الكبير على سلوكنا. ولذا يؤكد الاسلام بشدة على الاستماع الى هذه الاحاديث، قال تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[١].

أجل، يكون السكوت والاستماع الى القرآن عند تلاوته ـ سوى ما فيه من إجلال لكلام الله ـ سبباً لتركيز الحواس والالتفات الى مضمون الآيات ومعانيها، ويجعل المستمع موضعا للالطاف والرعاية الالهية.

٢ ـ استماع الكلام الباطل

حينما يعلم المستمع انّ المتكلم يريد التحدث عن أمر باطل فمن الطبيعي ان يكون

---

١. الاعراف ٢٠٤.

الاستماع اليه فعلا خاطئا، وأقلُّ ضرره هو تضييع الوقت، الّا انّ هناك آثاراً سيئة أُخرىٰ تترتّب علىٰ هذا الاستماع نشير الى بعضها:

الاول هو ان استماع الآخرين الى هذا الكلام الفارغ يروّج لسوق أهل الباطل، أي انّ المتكلم اذا لم يجد مستمعا فانه سيفقد الدافع للكلام، اذ لا يريد عاقل ان يتحدث مع نفسه أو مع الباب والجدار، وان فعل ذلك فلا يضر الآخرين. فالمستمع إذنْ يعين المتكلم على الكذب والكلام الباطل. وعليه سيكون استماع الكلام الباطل نوعا من الإعانة على المعصية، وقد حظر الله سبحانه ذلك في القرآن بعبارة:

﴿وَ لاٰ تَعٰاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ﴾[1].

الثاني ان الاستماع للكلام الباطل والفارغ قد يجرّ الانسان نحو الضلال ويحرفه عن الحق والحقيقة، لان المستمع وان علم ببطلان الكلام، الّا انّ المتحدث قد يقوم بتزويقه والقائه بنحو جميل فيتأثر به السامع وينحرف بسببه.

اننا قد جرّبنا هذه الحقيقة غالبا وهي أن الاستماع الى موضوع ما وان كان باطلا وخاطئا حينما يلقى بعبارات جميلة ومزوّقة أو يكرر فانه لا يكون غير مؤثر فينا تماما.

من هنا منعَنا القرآن من الاستماع الى الكلام الفارغ والباطل حيث يقول:

﴿وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتٰابِ أَنْ إِذٰا سَمِعْتُمْ آيٰاتِ اللّٰهِ يُكْفَرُ بِهٰا وَ يُسْتَهْزَأُ بِهٰا فَلاٰ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتّٰى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللّٰهَ جٰامِعُ الْمُنٰافِقِينَ وَ الْكٰافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾[2].

هذه الآية تهدّد بشدةٍ الذين يستمعون الى الكلام الباطل بأنهم سيبتلون بالنفاق وتلين قلوبهم للكفار ويميلون اليهم ويتأثرون بذلك الكلام ويضعف ايمانهم

١. المائدة ٢.
٢. النساء ١٤٠.

ويضمحل تدريجيا. وينهىٰ المؤمنين من الجلوس مع الكفار للتحدث معهم والاستماع الى الكلام الباطل حتىٰ ينصرفوا عن طرح مثل هذا الكلام.

يظهر من الترابط بين صدر الآية وذيلها وعباراتها أن المؤمنين اذا جلسوا مع الكفار واستمعوا اليهم فانهم سيكونون مثلهم وينتهي أمرهم الىٰ النفاق والإلحاد، كما حدث لأشخاص جالَسوا أهل الباطل بعد انتصار الثورة الاسلامية واستمعوا الى كلامهم فاصبحوا من جماعة المنافقين أخيراً.

قال تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

﴿وَ إِذٰا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيٰاتِنٰا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتّٰى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَ إِمّٰا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطٰانُ فَلاٰ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ﴾[1].

٣ـ الثقة بالمتحدث في تصديق كلامه

حينما يجهل الانسان انّ الكلام حق أو باطل ويستمع الىٰ المتحدّث كي يصدّقه ثقةً به ويتأثر به فانّه يمكن افتراض عدة حالات مختلفة لذلك، فلا ينبغي الثقة بأي انسان بل يجب ان يكون اهلاً لذلك.

وللوثوق بالمتحدث موارد مختلفة: فيكون تارة في موارد اعتيادية وفردية، وتارة في موارد ترتبط بالشؤون الاجتماعية، وتارة في الأمور الدينية المحضة.

اذا اردنا الوثوق بشخص فيما يتعلق بالدين وسعادة الانسان وشقائه والتصديق بقوله فلابدّ ان يكون مرتبطا بمصدر الوحي الذي لا ريب فيه، أي بأشخاص نظير رسول الله ﷺ والائمة المعصومين عليهم السلام أو الصادقين الثقاة الذين ينقلون كلامهم

١. الانعام ٦٨.

ويستنبطون المعاني منه، اذ انّ التصديق بكلام شخص غير موثوق به فعل غير معقول.

في الاحداث الاعتيادية واليومية خاصةً ذات الصلة بـالشؤون الاجـتماعية لا ينبغي الاعتماد على كلام أيّ شخص. طبعا لا نريد القول بضرورة تكـذيب كـلام الآخرين بلا دليل، ولكن للتصديق به والاستناد اليه لابدّ من التحقيق هل القائل أهل للوثوق به أم لا؟

أفضل أُنموذج من الآيات في هذا المجال هي الآية التي يستدلون بمفهومها على حجية الخبر الواحد، قال تعالىٰ:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلىٰ ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ﴾[١].

جاء في شأن نزول هذه الآية في كتب التفسير والحديث بانّ الحارث بن ضرار الخزاعي قد أسلم فأرسله رسول الله ﷺ الىٰ قبيلته ليبلّغ الاسلام ويجمع الزكـاة منها. مرت مدة من الزمن ولم يرسل النبي ﷺ أحداً فظن الحارث ان هناك سوء فهم، فاتّجه الى المدينة مع جماعة من قبيلته، ومن جهة أُخرىٰ ارسل النـبي ﷺ الوليد لأخذ الزكاة وحملها الى المدينة. غادر الوليد المدينة والتـقى فـي الطـريق بجماعة الحارث فرجع الى المدينة وقال لرسول الله ﷺ كذبا بأنهم غير مستعدّين لدفع الزكاة.

ارسل النبي جماعة لاخذ الزكاة من الحارث فـالتقوا بـه خـارج المـدينة مـع جماعته فسألوه عن الاوضاع فأجاب باننا انتظرنا مدة ليأتي شخص فيأخذ الزكاة منا فلم يأتِ، ولذا اقبلنا الى المدينة لنقدّمها الى النبي ﷺ، فعلم أن خبر الوليد كان كذبا. فالآية المذكورة نزلت لتقول: انّ الفاسق اذا أخبركم فلا تعملوا بمضمون خبره

---

١. الحجرات ٦.

من دون تحقيق وتثبُّت. وقد نقل شأن النزول هذا في اخبار مستفيضة بطرق الشيعة والسنّة، وصرّح بانّ المقصود من الفاسق في الآية هو الوليد، وكاد أن يسبب كذبه وقوع أحداث مُرّة تستتبع الندامة. كان للوليد هذه الشخصية ثم تبوّأ مناصب مهمة في الحكومة الأموية.

استدل الأصوليون بمفهوم هذه الآية على حجية الخبر الواحد، وهو انّ المخبر اذا كان ثقة ويعتمد عليه ولم يكن من اهل الفسق والفجور فانه يمكن الاستناد اليه في الخبر وتصديق قوله.

بناء على ذلك إننا نصدّق بقسم من الكلام بصورة مباشرة على اساس الثقة بالقائل، ومن دون تدقيق في أصل الكلام ومن دون تحقيق حول صحته وسقمه، والتصديق بهذا القسم من الكلام يستند الى ثقتنا بالقائل، ولكن من جهة أُخرىٰ ليس بوسعنا الوثوق بأيّ شخص، بل يتوقف ذلك على توفرُّ بعض الشروط الروحية والنفسية والخصال الأخلاقية، وبدونها يكون الوثوق في غير محله وبلا أساس، وقد يسفر في بعض الموارد عن نتائج مُرّة وندامة.

٤ ـ الاستماع من أجل الاتّباع للأحسن

الحالة الأُخرىٰ هي أن نستمع للكلام ونتدبر بشأنه ونستند اليه بتشخيصنا صحته أو سقمه ونصدّق بما رأيناه صحيحاً. قال تعالىٰ في هذا المجال:

﴿وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَ أَنابُوا إِلَى اللّٰهِ لَهُمُ الْبُشْرىٰ فَبَشِّرْ عِبادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللّٰهُ وَ أُولٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾[١].

١. الزمر ١٧ و ١٨.

يبدو أن المراد من (القول) في هذه الآية هو القرآن، وقد أسلفنا في محله بـان عنوان (القول) من الاسماء والعناوين التي اطلقت على القـرآن، وهـنا أيـضاً مـن شواهده وموارده، وعلى فرض ان يكون المراد من (القول) هو الأعم بحيث يشمل كل كلام، وكان معنى الآية والامر الالهي المتوجه للنبيﷺ في الآية هـو: بشّـر الذين يستمعون أيّ كلام فيتبعون أحسنه، فحتّى بناء على هذا الفرض يكون مـن الشروط والأمور المفروضة في الشخص المقصود في الآية الكريمة هو امـتلاكـه القدرةَ على التشخيص، كي يستطيع معرفة الاحسن من بين ما يستمع اليه من اقوال ثم يتّبعه. إذنْ اذا لم يمتلك قدرة التشخيص بين الحق والباطل فانه لايكون مشمولا للآية، وهذه الآية لا تشجعه أبداً في الاستماع الىٰ جميع الاقوال. انّ المخاطب في هذه الآية هو من يحظى بدرجة مـن الادراك والتشـخيص تُـمكّنه مـن تشـخيص الاقوال والكلمات الطيبة والسيئة فيتمكن من فرز الطيبة والعمل بها، خـاصةً مـع الالتفات الى الآيات الأُخرىٰ التي تؤكد عدم الاستماع الى القول الباطل وتحذّر من الابتلاء بالنفاق فيما اذا استمعتم الى القول الباطل، وتكونون مع الكفار في جهنم. في ضوء ما ذكر كيف يمكن استنباط وجوب استماع ايّ انسان لكل قول؟

لا يريد القرآن الكريم أن يقول استمعوا لكلِّ كلام من كل قائل قطعا، بل لابدّ ان يكون القائل ثقة وصالحا، أي في الكلام الذي تريدون تلقّيه من القائل وتستندون اليه ان كان مرتبطا بشؤون الحياة الاعتيادية فينبغي ان يكون القائل ثقة وصـادقا، واذا كان مرتبطا بالامور الفنية ويحتاج الى الاجتهاد فلابدّ أن يكون القائل ـ علاوة على ذلک ـ أهلا ومتخصصا وخبيراً في ذلك الفن.

العلاقة بين الحق واهل الحق

ينقدم هنا هذا السؤال في الذهن: هل يجب أولاً معرفة الحق لكي نعرف أهل الحق

بواسطة كلامهم الحق، أو العكس حيث يجب معرفة اهل الحق كي نستمع لقولهم ونصدّق به؟

نقول في الإجابة: ذكرت هذه العلاقة من الطرفين في الروايات وخاصةً نهج البلاغة. ففي بعض الموارد قيل: «اعرف الحق تعرفْ أهله» وقالوا في موارد أُخرىٰ: لا يمكن معرفة الحق حتى تعرفوا أهل الحق قبل ذلك[1]. ويبدو وجود تناقض بين هذين الأمرين. ولكنه يجب الالتفات الىٰ ان هذا تناقض ظاهري، ومن أجل حلّه يجب القول: لا شك في ان على كل انسان ادراكَ بعض الأمور بعقله ومنها ماهية الذين يمكن الاستناد اليهم وأي اشخاص يجب الاخذ بقولهم.

ويمكن طبعا أن نعتمد على الاشخاص بتعريف الآخرين، وهؤلاء يجب تعريفهم من قِبل آخرين، ولكن ينبغي الانتهاء بأشخاص نيتقن بأنفسنا بوثاقتهم وحقانيتهم وليس بتعريف الآخرين، والّا فانّ القضية ستبتلى بالتسلسل.

فمثلا اننا نقلد المجتهد جامع الشرائط وقد عرفناه عن طريق اهل الخبرة، وهؤلاء يجب ان نعرفهم بتعريف الآخرين، وهذه التعريفات لابد ان تنتهي بأشخاص نثق بهم بأنفسنا ونحرز وثاقتهم بصورة مباشرة.

من جهة أُخرىٰ يكون السند في اعتبار قول المجتهد هو كلام الامام المعصوم عليه السلام، ونعرف حجية قول الامام بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو قول الله، واما وجود الله وصحة قوله فنحن ندركه بالعقل.

لا شك إذنْ في ان مجموعة من الحقائق الاولية ينبغي معرفتها من قبل كل شخص استناداً الى عقله وادراكه فقط، ولا يمكن الاستناد الى أي شخص آخر في معرفتها.

---

١. نهج البلاغة ـ الخطبة ١٤٧.

من جهة أُخرىٰ لا مفرّ من الاعتماد على الآخرين في معرفة بعض الأمور في حياتنا، سواء أكانت ذات صلة بشؤون الحياة الاعتيادية أو المسائل الشرعية، ونحتاج الى اجتهاد المجتهدين والمتخصصين واهل كل فن وعلمهم واختصاصهم وتجاربهم، ولا يوجد سبيل آخرُ لتحريك عجلة الحياة، وبدون هذا الاستناد لا تنتظم حياة الانسان ولا يبلغ الى الهدف في حياته الاجتماعية.

بملاحظة البيان المذكور ندرك انّ المجموعتين من الاحاديث المتعارضة ظاهراً تقصدان مرتبتين من المعرفة:

في المرتبه التي لا نعرف فيها الحق ولا الشخص الثقة فلا يمكن ان نستند الى قول شخص بصورة عمياء بل لابدّ أن نعرف مجموعة من الحقائق بعقولنا كي نعرف أهل الحق بتلك المعرفة.

ولكن بعد التعرف الاجمالي على اهل الحق بمعلوماتنا يمكن ان نستند في الحقائق التي لا ندركها بعقولنا أو نفقد الاهلية العلمية فيها الى من هو أهل لذلك، أي الذين ادركنا حقانيتهم بعقولنا ومعرفتنا.

بناء على ذلك يكون الامران صحيحين ولا تناقض في الامر، فنعرِف الحق من اهل الحق في مواضع، كما نعرف اهل الحق من الحق فی مواضع أُخرى.

التوازن في الاعتماد

يسلك البعض سبيل الافراط في الاعتماد علىٰ الآخرين ويتخذون اموراً غير عقلائية اساساً لاعتمادهم. هذا النوع من الاعتماد المفرط ينشأ من روح صبيانية، كالاطفال الذين يتبعون والديهم بدون دليل. ان هؤلاء في الوقت الذي يجب فيه تشخيص الحسن والسيء من خلال الاستناد الىٰ عقولهم ومنطقهم وقوة ادراكهم

يتّبعون الآخرين بدون استناد الى عقولهم ومنطقهم في شؤون الحياة المهمة.

هذه الحالة منتشرة ولا زالت موجودة في جميع المجتمعات، خاصةً المنحطة منها، وقد صرح القرآن مراراً في هذه القضية بأن منطق المجتمعات المنحطة ثقافيا وعلميا تجاه الانبياء عليهم السلام كان اتّباع طريقة آبائهم، أو انهم كانوا يجيبونهم حينما يدعون الناس الى الدين الحق بأن طريقة آبائنا تكفينا. وقد ذمّت آيات كثيرة هذه الظاهرة الاجتماعية المنحطة، كقوله تعالى:

﴿وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ قٰالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مٰا أَلْفَيْنٰا عَلَيْهِ آبٰاءَنٰا أَ وَ لَوْ كٰانَ آبٰاؤُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لاٰ يَهْتَدُونَ﴾[١].

﴿وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ تَعٰالَوْا إِلىٰ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قٰالُوا حَسْبُنٰا مٰا وَجَدْنٰا عَلَيْهِ آبٰاءَنٰا أَ وَ لَوْ كٰانَ آبٰاؤُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لاٰ يَهْتَدُونَ﴾[٢].

﴿وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ قٰالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مٰا وَجَدْنٰا عَلَيْهِ آبٰاءَنٰا أَ وَ لَوْ كٰانَ الشَّيْطٰانُ يَدْعُوهُمْ إِلىٰ عَذٰابِ السَّعِيرِ﴾[٣].

﴿وَ كَذٰلِكَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاّٰ قٰالَ مُتْرَفُوهٰا إِنّٰا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا عَلىٰ أُمَّةٍ وَ إِنّٰا عَلىٰ آثٰارِهِمْ مُقْتَدُونَ * قٰالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدىٰ مِمّٰا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبٰاءَكُمْ قٰالُوا إِنّٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كٰافِرُونَ * فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[٤].

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ * إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبٰاءَهُمْ ضٰالِّينَ * فَهُمْ عَلىٰ آثٰارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾[٥]

هذه الآيات تستنكر بشدةٍ اتّباع الآخرين والطاعة العمياء لهم وعدم الاستعانة

---

١. البقرة ١٧٠.
٢. المائدة ١٠٤.
٣. لقمان ٢١.
٤. الزخرف ٢٣ ـ ٢٥.
٥. الصافات ٦٨ ـ ٧٠.

بالعقل والادراك الفطري، وتذم الافراد والفئات على هذه الصفة وتسعى مستدلة لإيقاظ عقولهم وفطرتهم، وتحذر بني الانسان بشدة من خلال التهديد بالعواقب الوخيمة والمرّة لهذه الطاعة العمياء والاتباع جهلا، خاصة في الموارد المؤثّرة في تقرير مصير الانسان، وهي تؤدي الى تكذيب الله تعالىٰ والانبياء عليهم السلام والاديان الإلهية.

الاعتماد علىٰ الأكثريّة

يعتمد البعض الآخر علىٰ الأكثرية ويجعلون الكمية ملاكاً لتشخيص الحق والباطل، أي يستندون الى ما يقوله جميع الناس أو أغلبهم.

لو كان الاعتماد علىٰ جميع الناس أو اغلبهم في شؤون الحياة الاعتيادية ولم يكن له دور في سعادة الانسان وشقائه ومصيره لم تطرأ مشكلة كبيرة، ولكن في القضايا المصيرية ذات الصلة بحياة الانسان الأبدية وسعادته وشقائه لا يمكن أبداً الاعتماد علىٰ ما يقوله الناس خاصة اذا وجد طريق للتحقيق وكانت الادلة والبراهين ترشد الى ما يتنافى مع قول الأكثريّة.

ان الأكثرية من حيث أنّها أكثرية لايمكن ان تكون نافعة، وهناك آيات تذم الذين يتبعون الأكثرية بدلاً من الاعتماد علىٰ عقولهم وادراكهم وتفكيرهم، كقوله تعالىٰ:

﴿وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾[1].

وعليه لا يصح الاعتماد علىٰ اكثر الناس أو جميعهم مع امكان التحقيق العقلي. ينبغي تشخيص الحق أو الباطل في أمر ما بالاستعانة بالعقل والبرهان العقلي. طبعا

١. الانعام ١١٦.

في المسائل الخاصة وتفصيل الاحكام التي لا سبيل للبرهان العقلي اليها لابدّ أن تتلقّى من النبيﷺ والامامعليه السلام. إذنْ تقليد الآخرين يكون صحيحا في حالة عدم كون القضية من القضايا الأساسية والأصولية أولاً، واحراز اهليتهم للتقليد وامتلاك حجة شرعية أو عقلية على انهم اهل للاعتماد واقوالهم قابلة للتصديق ثانيا. في غير هذه الحالة لا يكون التقليد مبرّراً، فاذا اتبع الانسان الآخرين بدون دليل وضلّ فلا يلومنّ الّا نفسه.

وقد اتّضح من خلال ما ذكر لماذا يجب علينا تقليد المجتهد في فروع الدين ان لم نكن مجتهدين، اذ كما قلنا اننا اذا عجزنا عن استيعاب جميع القضايا التي نحتاجها بالتحقيق، فلابدّ من تلقي جملة من المسائل من الآخرين والاعتماد عليهم، وهذه طريقة عقلائية أي ان جميع العقلاء في الموارد التي لا يمتلكون فيها معلومات كافية يراجعون اهل الفن في تلك الموارد.

من جهة أُخرىٰ اتّضح ان بوسعنا تقليد الآخرين في المسائل الفرعية، واما المسائل الأساسية للدين المرتبطه بمصير الانسان فيجب اثباتها بعقولنا وتفكيرنا أو بالطريق الذي ينتهي الىٰ الدليل والبرهان العقلي كالآيات القرآنية التي ثبتت حجيتها بالعقل.

الاستماع الىٰ اللهو واللغو

ان استماعنا لكلام نعلم بلغويته وعدم تأثيره على حياتنا بل يعدّ لونا من التسلية مذموم ومكروه في الرؤية القرآنية وتشمله الآية الكريمة:

﴿وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[1].

---

١. المؤمنون ٣.

وهي الآية الواردة في الثناء على المؤمنين والصالحين. هذه الآية وان كانت تثني على المؤمنين في لفظها ومنطوقها لعدم استماعهم للّغو والكلام الباطل وإعراضهم عنه، الّا انّها تدل على ذم استماع اللّهو بدلالة الموافقة.

وجاء في آية أُخرىٰ ان أهل جهنم يُسألون:

﴿مٰا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قٰالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَ كُنّٰا نَخُوضُ مَعَ الْخٰائِضِينَ﴾[1].

انّ الكلام اذا كان لغوا فقط فانه وان كان استماعه مذموماً اخلاقيا ـ لانّه مضيعة للوقت واشغال للانسان بأمور لا تنفعه في الحياة الدنيا والآخرة ـ ولكنه لا يوجب كفر الانسان وشركه ونفاقه، أمّا اذا كان الكلام باطلاً ومؤدّياً الىٰ الانحراف فان الاستماع اليه يستتبع تلك التهديدات والاخطار الكبيرة على الانسان.

لقد ذم القرآن الكريم اتّباع الشعراء الذين ليس لهم غاية حكيمة في اشعارهم وانّما هم من اهل اللغو والباطل، قال تعالىٰ:

﴿وَ الشُّعَرٰاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغٰاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وٰادٍ يَهِيمُونَ * وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مٰا لاٰ يَفْعَلُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَ ذَكَرُوا اللّٰهَ كَثِيراً وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مٰا ظُلِمُوا﴾[2].

إذنْ لا ينبغي الاستماع لكلام الشعراء اللغو والفارغ واقوالهم الباطلة. نعم، اذا كان الشاعر من اهل الايمان والعمل الصالح وهادفا وقد نظم الشعر تظلّما وطلباً لاعانة نفسه أو المظلومين واستخدم فنه لتبيين الحقائق واعانة المظلوم والانتقام من الظالم فلا بأس في ذلك، وهكذا الاستماع اليه، وقد استثنى القرآن ذلك. ولعل ذيل الآية يشير الى تأثير هذه الأشعار في فضح الظالمين وقمعهم.

---

١. المدثر ٤٢ ـ ٤٥.
٢. الشعراء ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

جـ النقاش أو الحوار متعدد الاطراف

انّ النقاش يعني الحوار بين شخصين أو عدة اشـخاص وتـبادلهم الافكـار بشـأن موضوع ما وطرح الاشكالات وتوضيح المبهمات والاجابة عنها. فالانسان قد لا يصل بتفكيره حول موضوع ما الى نتيجة فيدخل في نقاش وحوار مع الآخـرين للانتفاع من أفكارهم حول ذلك الموضوع. والاشخاص يهدفون فـي نـقاشهم الىٰ أهداف نشير الى بعضها:

١ ـ رفع الابهام عن الحق

المشاركون في هذا الحوار ينتفعون بأفكار وعلوم ومعارف يبيّنها بـعضهم لبـعض بنحو متبادل، كبحوث العلماء والمحقّقين وحوارهم حيث يقومون بـبحث النـقاط المبهمة والموضوعات المقصودة كي ينتفعوا بأفكار الآخرين، وتصبح افكارهم اكثر نشاطا وعمقا حين البحث.

انّ النقاش أمر محبّذ ونافع. وينشّط افكار افراد الانسان بالبحث، وتترتب عليه آثار وبركات وفوائد أهمُّ، ولذا اعتبر عبادة.

وفي الروايات ارشادات وردت عن ائمتنا بشأن تبادل الافكار والانتفاع بالآراء فقد روي عن امير المؤمنين عليه السلام قوله:

«اضربوا بعض الرأي ببعض يتولد منه الصواب».

٢ ـ ارشاد الطرف الآخر

يكون الهدف من الحوار أحياناً هو ارشاد الآخرين، أي ان الامر يكون واضحا لدىٰ المحاور ولا يشك فيه ولا يريد الانتفاع من غيره بل يريد توضيح الامر للآخرين،

أو يستجيب لدعوتهم اياه للبحث والحوار ويشارك في المناقشة والتباحث معهم لانه يرىٰ ان هذا الاسلوب هو الأنفع في ارشاد الآخرين وتعليمهم، ويعتقد ان اجابة دعوة الآخرين تجلب رضىٰ الله تعالىٰ اكثر. وعليه يكون هذا الدافع ارفع وهذا النقاش والحوار محبّذا ونافعا.

٣ ـ الجدال والتعصب المرفوض

قد يصّر الانسان على أمر ما رغم علمه ببطلانه ويدخل في المناقشة والجدال، وهدفه هو عدم التنازل للطرف الآخر والتغلب عليه في الحوار واثبات قوله واغواء الطرف الآخر أو تبرير سلوكه أو خداع شخص ثالث يتابع المناقشة، أو للزهو بتفوُّقه على الطرف الآخر في المعلومات، أو هناك دوافع شيطانية اخرىٰ تدفعه للجدال والحوار العقيم.

من البديهي ان تكون هذه المناقشات والحوارات بهذه الأهداف مرفوضة ومذمومة، إذ انّها اضافةً الى تضييع الوقت تكون سببا لتقوية خصلة التعصب والانانية والرياء في الانسان، واضافة الى هذه النتائج المرّة التى ذكرناها اذا كانت سببا لاضلال الغير أيضاً فانها تُعد معصية كبيرة وخطأ عظيماً حيث انها توجب ضياع نفسه وضلال الآخرين، وسيكتب اسمه في زمرة الضالين المضلين.

هناك آيات قرآنية كثيرة حول الجدال والاحتجاج، ومن جملة ذلك احتجاج الانبياءﻉ مع اقوامهم والضالين والمعارضين بهدف هدايتهم وارشادهم، وتعتبر شاهداً على صحة هذا الامر وضرورته.

من جهة أُخرىٰ هناك آيات أُخرىٰ في القرآن الكريم تذمّ الجدال، وبألتامل فيها يتّضح ان هذه الآيات ترتبط بأشخاص أرادوا اثبات اقوالهم أيّاً ما كانت وكانوا

يتعصبون حتى في الموارد التي يعلمون ببطلان كلامهم فيها أو كـان هـدفهم هـو اضلال الناس.

في هذه الموارد وبهذه الدوافع لا يكون الدخول في المناقشة والحوار مذموما فحسب، بل من الخطأ أيضاً الاستجابة لهؤلاء الاشخاص والدخول في المـناقشة معهم. من هنا يخاطَب النبيﷺ في بعض الموارد بان لا يجادل هؤلاء الاشخاص. نذكر هنا بعض آيات الجدال:

﴿وَ يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ اتَّـخَذُوا آيَـاتِي وَ مَـا أُنْذِرُوا هُزُواً﴾[1].

﴿وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾[2].

﴿وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لاٰ هُدىً وَ لاٰ كِتَابٍ مُنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِـزْيٌ وَ نُـذِيقُهُ يَـوْمَ الْـقِيَامَةِ عَـذَابَ الْحَرِيقِ﴾[3].

واعتبرت آية أُخرىٰ انّ المنشأ لهذا الجدال هو التكبر وتمحور الذات، قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللّٰهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِـي صُـدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾[4].

هذه الآيات وآيات أُخرىٰ تخطّىء الجـدال العـقيم والمـضرّ، وتـعتبره اتّـباعا للشيطان ووسيلة لاضلال الناس عن سبيل الله، وترى ان منشأه هو التكبر وتتوعّد عليه بالعذاب. وذمت آيات أُخرىٰ الجدال واعتبرته مـنشأ لغـضب الله والمـؤمنين ومساويا للضلال.

---

١. الكهف ٥٦.
٢. الحج ٣.
٣. الحج ٨ و ٩.
٤. غافر ٥٦.

كما في قوله سبحانه:

﴿الَّذِينَ يُجٰادِلُونَ فِي آيٰاتِ اللّٰهِ بِغَيْرِ سُلْطٰانٍ أَتٰاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللّٰهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّٰارٍ﴾[١]

وقوله تعالىٰ:

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِهٰا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهٰا وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلاٰ إِنَّ الَّذِينَ يُمٰارُونَ فِي السّٰاعَةِ لَفِي ضَلاٰلٍ بَعِيدٍ﴾[٢]

وقد أمر الله المسلمين في آية بقوله تعالىٰ:

﴿وَ لاٰ تُجٰادِلُوا أَهْلَ الْكِتٰابِ إِلاّٰ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٣].

ويأمر النبيﷺ في آية أُخرىٰ بانتهاج الاسلوب الليّن والجدال بالتي هي أحسن مع أهل الكتاب والذين يريدون معرفة الحق، قال تعالىٰ:

﴿ادْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جٰادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٤].

عليك ان تدعوهم الى الحق باخلاص ولين. فالجدال بالتي هي احسن أمر محبَّذ ولا يذمُّه القرآن، ولكن اذا اتصف الجدال بالتعصب المرفوض واللجاج وحب الاستعلاء وسائر الدوافع الرديئة فانّ الكلام سوف يفقد تأثيره ويغدو مذموماً من وجهة نظر القرآن الكريم، وعلى المؤمن الاحتراز منه.

---

١. غافر ٣٥.
٢. الشورىٰ ١٨.
٣. العنكبوت ٤٦.
٤. النحل ١٢٥.

القسم الرابع



الأخلاق الاسلامية تجاه السلوك غير الاخلاقي

نحن والسلوك غير الاخلاقي السرّي

نحن والتعدي على حقوق الآخرين

مسؤوليتنا تجاه المعتدين على المجتمع

دور الحكومة

التغاضي أو استيفاء الحق؟

قيمة العفو والصفح

القيمه الأخلاقية في طلب العدل

سلوك الحكام والقيم الأخلاقية

القرآن والقضاء

أسباب الانحراف والزلل في القضاء

القيمة في سلوك طرفي الدعوى

القيمة في شهادة الشهود

الشهادة وحق الناس

المقدمة

القسم الآخر من المسائل الأخلاقية يدور حول محور رد فعل الانسان تجاه السلوك غير الاخلاقيّ الصادر من الآخرين. فالسلوك غيرالأخلاقي والافعال المضّادة للقيم تنقسم الى انواع مختلفة نظراً لسعة مفهوم الأخلاق ونطاق السلوك الأخلاقي.

فمن ناحية يمكننا تقسيم السلوك غير الأخلاقي الىٰ ثلاثة أقسام بحيث تتناسب مع أقسام السلوك الاخلاقي، وهي: الاخلاق الالهية والأخلاق الفرديّة والأخلاق الاجتماعيّة.

ففي القسم الاول يكون المراد من السلوك غير الاخلاقي هو العمل المعارض لواجب الانسان تجاه الله سبحانه كأن لا يصلي أو لا يصوم أو لا يحج حجّه الواجب أو يقصّر في أداء واجباته الالهية الأُخرىٰ.

وفي القسم الثاني يكون المراد من السلوك غير الأخلاقي هو السلوك الذي يرتبط بالانسان نفسه ويعود بالضرر عليه، وان كان بالتالي ذا صلة بالله سبحانه ويكون في هذه الحالة بلحاظ القسم الاول غير أخلاقي أيضا، ولكن في هذا القسم يكون الملاحظ هو البعد غير الاخلاقي الشخصي والضرر الناشئ منه مثل الضرر الناشيء من قلة الأكل أو كثرته ومن الانزواء.

في القسم الثالث يكون المراد من السلوك غير الاخلاقي هو الفعل الضار

بالآخرين والمسبب لضياع حق من حقوقهم، كالإهانة والتعدي على اموال الآخرين وانفسهم وأعراضهم.

ينقسم القسم الثالث الى مجموعتين صغيرتين:

المجموعة الأُولىٰ هي الافعال التي تعتبر تعدّياً على حق فرد أو فئة من أعضاء المجتمع كغصب اموال الآخرين.

المجموعة الثانية هي الافعال التي تعتبر اعتداء على حق المجتمع بصورة عامة بعنوان انه بلد واحد أو حكومة واحدة أو امّة واحدة، نظير التآمر على نظام المجتمع بهدف القضاء على الاسلام والنظام الاسلامي.

مرة أُخرىٰ يمكن ان نجعل أقسام الافعال غير الأخلاقيّة المذكورة في صفّين مستقلّين وتقسيمها الى قسمين:

القسم الاول هو الافعال غير الأخلاقية المذكورة التي تمارس في الخفاء وسرّاً ولا يطلع الآخرون عليها. والمراد من هذا البحث هو معرفة تكليف من يطلع صدفة على مثل هذا الفعل السّري غير الأخلاقيّ؟

القسم الثاني هو الافعال غير الأخلاقية المذكورة التي تمارس علناً.

وعليه فان الافعال غير الأخلاقية ذات انواع مختلفة وعلينا بيان قضايا نراها ضروريّة حول الاقسام المهمة التي تم ذكرها.

نحن والسلوك غير الأخلاقي السرّي

اذا كان سلوك الانسان غير الأخلاقي مرتبطا بالله سبحانه أو بنفس الفاعل ويمارسه بنحو سرّي فالسؤال هو: ما هو واجبنا تجاه هذا السلوك؟ في الاجابة يجب القول: هنا نواجه قيمتين متقابلتين ومتزاحمتين بحيث لا يمكن الالتزام بهما معا، اذ يجب

ان لا نكون ـ من جهة ـ بلا موقف تجاه سلوك الآخرين، ففي النظام الاسلامي يجب على أعضاء المجتمع الرقابة المتبادلة لسلوك الآخرين، وهناك واجبات وضعت على عاتق المسلمين في النظام الاسلامي نظير وجوب ارشاد الناس ودعوة بني الانسان لممارسة افعال الخير والتواصي بالحق والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، الأمر الذي لا ينسجم مع الحياد تجاه افعال الآخرين.

ومن جهة أُخرىٰ يمارس الطرف الآخر فعلا غيرخلقي سرّاً وبعيداً عن عيون الآخرين ولا يودّ ان يطّلع الغير عليه أبداً، وعليه ينبغي رعاية كرامة الانسان وحفظ ماء وجهه ولا يرضى الله أبداً بانتهاك كرامة الانسان وان كان عاصيا.

بناء على ذلك لا يجوز كشف سرّه من جهة، وتجب معالجته وانقاذه من الهلاك من جهة أُخرىٰ.

ولو أمكن الجمع بين القيمتين بفعل ما وبدون هدر كرامة هذا الانسان حتّىٰ عند المرشد بان ينتبه ويترك فعله القبيح فلا تحدث مشكلة في هذه الحالة، كأن يدعوه المرشد الى مطالعة كتاب أو يعظه وينصحه بصورة عامة ويذكّره بأضرار ذلك الفعل دون ان يلتفت الى انه مطّلع عليه لكي يحفظ كرامته ويلفت نظره الى عمله القبيح.

ولكن مع بالغ الاسف يجب القول ان هذا الامر غير ميسور في الغالب ولا يمكن الجمع بين هاتين القيمتين عملياً. اذ ان الانسان اذا أراد ارشاد شخص عاصٍ فانه ـ شئنا أم أبينا ـ سوف ينتبه الى انه مطلع على معصيته. وعليه لا شك في اننا يجب ان نقوم بفعل لا يلفت نظر شخص ثالث الى الفعل السرّي للعاصي وينكشف سرّه لدىٰ الآخرين.

السؤال الآخر: مع افتراض عدم امكان الجمع بين كتمان السرّ وارشاد العاصي هل المناسب في ارشاده هو اخباره بانه مطلع على معصيته السرّية أو يتحدث معه

بنحو يدرك فيه انه مطلع على سره؟

في الجواب يمكن القول: اذا انحصر طريق الإصلاح في ابداء هذا العلم أو القول أو السلوك الدال على اطلاعه عليه فان مصلحة إنقاذه ترجح على حفظ سره، لانه ان لم يقل شيئا فانه سيواصل معصيته ويكون استمرارها سببا لهلاكه. وعليه ينبغي في هذه الفرضية الاخذ بيده وإنقاذه من الهلاك، ولكن مع المحافظة على كرامته وعدم فضحه قدر الإمكان، والاّ فانّ المرشد سيكون مرتكبا لذنب آخر ويحتاج الى ارشاد الآخرين.

نحن والتعدي على حقوق الآخرين

اذا كان السلوك غير الأخلاقي مرتبطا بحقوق الآخرين وكان اعتداء على حقوق فرد أو فئة فله حكم، واذا كان اعتداءً على حق المجتمع والنظام الاجتماعي فله حكم آخر.

نتحدث هنا بصورة مستقلة عن هذين الموردين:

١ ـ المسألة الأُولىٰ أي التعدي على حقوق الآخرين (فرد أو فئة) وله أبعاد متنوعة وجهات مختلفة لابدّ من ملاحظتها، فمثلا نواجه عدة مسائل تجاه شخص يسرق اموال الآخرين سراً.

الأُولىٰ: الذين تُعدّي على اموالهم دون علمهم كيف نرجع اليهم هذه الأموال المسروقة، أو نحول دون تكرار هذا التعدي على الاقل؟

الثانية كيف نتعامل مع من ارتكب هذه السرقة؟

في المسألة الأُولىٰ بالنسبة لإعادة الحقوق المضيَّعة والأموال المسروقة، اذا تمكّن شخص ان يرجع أموال الآخرين الضائعة اليهم دون مراجعة المحاكم واخبار

الآخرين فلا مشكلة في ذلك، كأن يكون المال المغصوب بيد شخص ثالث وكان قادراً على أخذه وارجاعه لصاحبه، ففي هذه الحالة يجب عليه القيام بـذلك لانـه يعلم بانه مال مغصوب ويعرف صاحبه ولا تحدث مشكلة عند ارجاعه لصـاحبه، وليس فيه هدر لكرامة سارق المال ولا مفسدة أُخرىٰ.

في المسألة الثانية بالنسبة للشخص المعتدي الذي سرق المال أو هتك حـرمة الآخرين هل يجوز فضحه او انّ الواجب شيء آخر؟

في الوهلة الاولىٰ قد يخطر بالبال فكرة التـمهيد لعـقوبته مـن خـلال فـضحه والاعلان عن ذلك. طبعا لا شك في هذه الحقيقة وهي امكانية اخـبار المـحاكـم والمسؤولين المخوّلين عن ذلك بصورة عامة كي يعاقبوه، وهكذا جواز اقامة الشهادة لدىٰ القاضي من قِبل الذين شاهدوا المعصية والتعدي كي ينفذ الحكم والحد الالهي، ولكن من جهة التربية الاسلامية والارشادات الموجودة في هـذا المـجال يـمكن استنباط عدم رجحان هذا الفعل دائما وفي كل مكان، فلا ينبغي لكل شخص اطلع على معصية كبيرة وتعدٍ ارتكبه شخص بحق الآخرين ان يقوم بافشاء سرّه أو يدلي بشهادته عن معصيته وتعدّيه.

دليلنا على الادعاء المذكور هو ان الإدلاء بالشهادة وإفشاء سرّ الآخـرين فـي بعض الموارد لا يكون مرفوضا فحسب ولا يرتّب القاضي عليه أثراً بل قد يعاقب الشاهد على شهادته وافشائه اسرار الآخرين وهدره لكرامتهم، فمثلاً في اثبات الزنا شرعا يلزم شهادة اربعة شهود عدول، فاذا ادلى ثلاثة شهود بشهاداتهم لدىٰ القاضي على ارتكاب هذه الجريمة ولم يأتِ الشاهد الرابع ليؤيد كلامهم فـانّ الجـريمة لا تثبت بحق المتهم، ليس هذا فحسب بل يُجرىٰ على الشهود الثـلاثة حـد القـذف واتهام عبد من عباد الله بما لا يليق.

يستفاد من هذه الاحكام بوضوح ان الاسلام لا يجيز للمسلمين افشاء اسرار الآخرين سريعا. نعم، يجب طبعا الحيلولة دون الفساد ولكن ليس بأي نحو كان، اذ من الممكن ان يكون هذا بنفسه سببا لفساد آخر، بل تجب مكافحة الفساد حسب النهج الذي قرره الاسلام.

وعليه يستفاد من الآداب والتعاليم الاسلامية في هذا المجال ان المشاهدين لأمثال هذه المعصية التي يحتاج اثباتها الى اربعة شهود عدول اذا كانوا اربعة عدول فلا بأس في شهادتهم، ولكن اذا اطلع أقلُّ من اربعة على المعصية فيجب كتمانها، ويعتبر افشاؤها معصية قد قرر لشاهدها حد القذف، مما يدل على انّ الشهادة على المعصية وافشاء اسرار الآخرين في المحاكم وان كانت محبّذه ومجازة في بعض الموارد لكنها معصية ومرفوضة في موارد أُخرىٰ.

السؤال الآخر في هذا المجال: هل يجب كتمان هذا السرّ حتى عن ذي الحق ومن تُعدّي عليه، أي يجب ان لا يقال حتى لزوج المرأة التي زنت أو صاحب المال المسروق، أو انّ الكتمان مختص بالآخرين ويقال لذي الحق كالزوج أو صاحب المال ان فلانا قد تعدّىٰ على حقك وسرق مالك؟

في الاجابة على هذا السؤال نقول: ان لم يتوقف استرجاع حق الآخرين أو الحيلولة دون تكرار التعدي على علم ذي الحق فلا ينبغي القيام بذلك لكي لا يفتضح سرُّ مسلم بدون مبرّر، ولكن اذا كان استيفاء الحق أو منع تكرار التعدي غير ممكن الا عن طريق اطلاع ذي الحق فلا بأس في إخباره.

ويجب علينا أيضاً ارشاد المعتدي، ولكن كما ذكر في المسألة السابقة: ان لم يكن سرُّه متفشياً فان ارشادنا يجب ان يكون بنحو لا يلفته الى اننا على علم بمعصيته وتعدّيه.

خلاصة القول ان علينا ثلاثة واجبات عند التعامل مع المعتدي:

الاول ارشاده كي نصدَّه عن المعصية ونسعى لمعالجة هذا المرض النفسي لديه. ينبغي القيام بهذا الواجب فيما يرتبط بالمعتدي كما هو حال العاصي سراً في المسألة السابقة بنحو لا يؤدي الى افشاء اسراره ولا تهدر كرامته لدىٰ المرشد ما تيسر ذلك.

الثاني يلزم ارجاع حق الآخرين ـ المعتدى عليهم ـ اليهم ونمنع تكرار التعدي، ولكن يجب كتمان السرّ قدرَ الإمكان أيضاً، ونُضطرّ لإفشاء السر في حالة امتناع استيفاء الحق والمنع من تكرار التعدي بكتمان السر.

الثالث فيما يرتبط بعقوبة المعتدي فانها ـ كما قلنا ـ تتوقف على الشروط الأُخرىٰ. ففي بعض الظروف لا حاجة ولا يجب علينا السعي في هذا المجال، واذا قمنا بذلك فسوف نستحق تنفيذ الحدود الالهية بحقنا، ولكن في بعض الموارد يجب علينا القيام بذلك ونمنع وقوع فساد اجتماعي كبير، وعلى أي حال يجب علينا اتّباع الاحكام الالهية والتعاليم السماوية، وأن لا نقوم بعمل دون دليل فنتعرض ـ لا سمح الله ـ الىٰ سخط الله عز وجل.

مسؤوليتنا تجاه المعتدين على المجتمع

اذا قام شخص بعمل يسبب شقائه وهلاكه المعنوي ويضر بالمجتمع والنظام الاجتماعي، ولا يكون ضارّاً بفرد أو فردين، بل يعرّض اساس المجتمع الاسلامي الصالح الى الخطر فالواجب هو التصدي لمنع هذا التعدي مهما بلغ الثمن، ويكون التجسس بصورة عامة جائزاً في هذا المورد، إذ انّ من الواجب ان نقوم بالتحري ومراقبة الاوضاع لدىٰ احتمال قيام اشخاص بالتآمر على النظام الاجتماعي، فضلا عمّا اذا علمنا بوجود اشخاص قد عزموا على الاخلال بالنظام الاجتماعي.

ينبغي التأكيد هنا على ان جواز التجسس يتوقّف علىٰ اذن الحاكم وولي الامر، ويجب القيام به بأمره اذ لا يجوز التجسس الابتدائي بدون اذن الحاكم الشرعي. لقد نهىٰ القرآن الكريم عنه صريحا بقوله تعالىٰ:

﴿وَ لاٰ تَجَسَّسُوا﴾[١].

وهو مطلق يشمل كل الموارد الا الموارد التي يرىٰ الحاكم فيها وجوب هذا الفعل صيانةً لمصلحة النظام، اذ بدونه يتعرض اساس النظام الاسلامي الى الخطر، وهذا مورد استثنائي يؤيده الدليل العقلي والنقلي.

التدقيق في الامر بالمعروف

ينبغي الالتفات هنا الى ملاحظة هي ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والارشاد قد لا يؤدَّى بنحو مناسب نتيجةً لتدخل الاهواء النفسية والوساوس الشيطانية، فمثلا قد يكون شخص على خلاف مع شخص آخر ويفكّر في الانتقام منه ويودُّ هدر كرامته وافشاء سره لدىٰ الناس بحجة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أو يتعامل معه بفظاظة ويطلق على فعله هذا عنوان الامر بالمعروف.

ويقوم هوى النفس بدوره أحياناً بطريقة اكثر ظرافة حيث لا يهدر كرامته لدىٰ الآخرين ولكن يحطم شخصيته لدىٰ نفسه، أي ينكّل به باطلاعه على ارتكابه المعصية الفلانية فيفخر عليه بتفوقه واظهار سيئاته وحسنات نفسه فيؤدي الى خجله.

ان اقل ضرر في هذا التعامل هو ان الفاعل لا ينال الاجر والثواب الذي يناله الشخص من الامر بالمعروف، لان القيمة الأخلاقية لكل فعل تابعة لنية الفاعل، فاذا

---

١. الحجرات ١٢.

كانت نية الانسان في القيام بفعل الخير فاسدة لم يكن ذلك الفعل نافعاً له. بعبارة أُخرىٰ ان هذا الفعل وان كان يحظى بالحسن الفعلي ولكن نظراً لعدم طهارة دافع الفاعل وعدم خلوصه فان عمل الخير هذا لا يعود بثمرة على الفاعل، ليس هذا فحسب بل قد يكتب معصية في سجل المرشد لانه يهدر كرامة مؤمن ويخجله.

إذنْ ينبغي ان نعمل بدقة تامة في موارد الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونلتفت الى دافعنا ونُخلص نياتنا، ويكون تعاملنا مع مرتكبي المعاصي تعامل الطبيب أو الممرِّض المخلص مع المريض، نسعى لمعالجته ونكظم غيظنا و بغضنا، ونحترز من الانتقام. نسعى قدر الامكان لعدم اهدار كرامته وعدم التفاته الى اننا نعلم بمعصيته. لتكن نياتنا ودوافعنا طاهرة وإلٰهية لكي ننتفع معنويا واخلاقيا من أداء تكليف الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي عبارة واحدة: علينا رعاية جميع الشروط المطلوبة.

ولكن المؤسف ان في الكثير من الموارد لا تراعى الشروط الشرعية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يوجد اخلاص في النية. ومع ذلك يظن الانسان انه قد قام بواجبه، في حين انه بفعله هذا قد أفسد بدل الإصلاح وجعل عامل السيئة لجوجا ودفعه للاصرار على فعله، لانه يرى كرامته قد هدرت في المجتمع فيجرأ على ارتكاب المعصية و تكرارها.

ينقل انّ المرجع الدينيّ الجليل المرحوم الميرزا الشيرازي (ره) كان حاضرا في مجلس فقام الخطيب بنقل رواية أو قرأ رثاء بدون سند صحيح، فلم يقل شيئا ولم ينبّه الخطيب، فاعترض أحد رفاقه قائلاً: لماذا لم تنهه عن المنكر؟

فأجاب بقوله: ان حفظ كرامة المسلم أوجب من النهي عن المنكر المباشر. من الممكن ان اقول له سرّاً ان ما ذكرته غير صحيح، فلا موجب لإهدار كرامته بين الناس.

بناء على ذلك يجب ان نعلم من جهة بأن طريق التقوى طريق دقيق، فيجب الالتفات حتى لا تخدعنا اهواء النفس، ولكن من جهة أُخرىٰ يجب علينا الانتباه حتىٰ لا يؤدّي بنا الاحتياط المفرط في هذه القضايا الى ترك واجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا تحول الوساوس واهواء النفس من نوع آخر دون اداء الانسان واجباته. مثل الخوف من انّ النهي عن المنكر يجعل الناهي مبغوضا لدىٰ العاصي، أو يقلل من منافعه المادية، أو نظير ذلك من اهواء النفس التي تصد الانسان تلقائيا عن أداء واجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. إذنْ لابدّ من مراقبة النفس بنحو دائم وحفظها بين حدّي الافراط والتفريط في هذه العوامل والدوافع المختلفة التي تجر الانسان الى هذه الجهة أو تلك، واختبار الدوافع لمعرفة أيّ دافع يدفعه الى هذا القول أو السلوك.

اضافة الى ما ذكر ينبغي رعاية امور أُخرىٰ في مجال الأمر بالمعروف:

الاول هو أن ينتبه الانسان تماماً عند الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بأن لا يتلوث ويتأثر بالمجرمين، فيقع في فخ المعصية بدلاً عن المنع منها وإبعاد الآخرين من الجريمة والمعصية، وان لا تكون أحواله أسوء من الماضي. من الطبيعي ان تخفف مشاهدة المعصية ـ كارتكابها ـ من قبحها في نظر الانسان، كما انّ الكثير من المعاصي لا تخلو من اللذة. فمن الممكن ان يُثار المشاهد للمعصية ويرغب في ممارستها. اضافة الى الدوافع الأُخرىٰ التي قد تقرّب الانسان من الانزلاق، كأن يكون المجرمون من اصدقائه فيرغب في معاشرتهم أو تدفعه العوامل العاطفية والصداقات لمشاركتهم في المعصية. اذن من الواجب ان يراقب الشخص الذي يريد القيام بالأمر بالمعروف نفسه حتّىٰ لايقع في فخّ المعصية.

الثاني ان يكون سلوكه بنحو لا يرغّب الآخرين في ارتكاب المعصية، فعليه

اضافة الى عدم ارتكابها أن لا يرغب الآخرون والذين معه في ارتكابها.

الثالث هو ان يلتفت الى ان لا يكون اسلوبه فظّا وشديداً بحيث يسوق الآخرين نحو اللجاج والمعارضة والاستمرار فى المعصية، بل ينبغي ان يدفعهم بسلوكه الطيب الى تركها.

قال تعالىٰ في وصف عباده الصالحين:

﴿وَ إِذٰا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرٰاماً﴾[1].

يستفاد من هذه الآية ان على المسلم التزامَ الوقار والمروءة مع أهل المعاصي والسلوك غير الأخلاقي، ومن المحتمل أن يكون المراد من هذه العبارة هو أن لا يتأثر نفسه بالعصاة أولاً، وأن يعِظهم ويرشدهم بسلوك صحيح لائق ثانيا، كي لا يرغّبهم في المعصية أو يسوقهم نحو اللجاج والاصرار على المعصية.

وتقول آية أُخرىٰ في وصف الصالحين من عباد الله:

﴿وَ إِذٰا خٰاطَبَهُمُ الْجٰاهِلُونَ قٰالُوا سَلاٰماً﴾[2].

ليس المراد انهم يسلمون على الجهلاء فقط، بل ان تعاملهم مع الجهلاء واقوالهم السيئة هو التحدث بكلام سليم ويكون سلوكهم ليّنا ولائقا.

للمزيد من الايضاح للآيات المذكورة نستعين بهذه الآية التي تقول:

﴿وَ إِذٰا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قٰالُوا لَنٰا أَعْمٰالُنٰا وَ لَكُمْ أَعْمٰالُكُمْ سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ لاٰ نَبْتَغِي الْجٰاهِلِينَ﴾[3].

تقول هذه الآية في وصف المؤمن: انه حينما يسمع قولاً لغواً فانه يعرض عن ذلك القول ـ لا عن الجاهلين ـ ولا يتزّمت ولا يحقّرهم بأقوالهم، بل يقول: لنا

---

١. الفرقان ٧٢.
٢. الفرقان ٦٣.
٣. القصص ٥٥.

سلوكنا ولكم سلوككم. ومراده هو انه لا يشاركهم في هذا السلوك وليس من اهله بل له منهج آخر في حياته الدينية والعقائدية، انّه لا يؤذيهم أيضاً وهو المستفاد من عبارة (سلام عليكم) الّا انّ طريقه مستقل ولا يسلك سبيل الجهلاء.

و الحاصل أنه يستفاد من هذه الآية أُمور تساعدنا في تفسير عبارة (مرّوا كراما) في الآية السابقة، وهي: ان لا يشارك الانسان الجهلاء ولا يماشيهم أولاً، ولا يثير لجاجتهم ولا يخلق فتنة كبيرة بسلوكه الفظ والشديد ثانيا، ويردّ اقوالهم المهينة الصادرة عن جهل بأسلوب عقلائي رصين ثالثاً. وقد دعت الى ذلك آيات أُخرىٰ بصراحة، تقول آية كريمة:

﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ**﴾[١].

أو تقول آية اخرىٰ:

﴿**وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ**﴾[٢].

وتقول آية أُخرىٰ بنحو افضل واوضح:

﴿**وَ لاٰ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدٰاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَ مٰا يُلَقّٰاهٰا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَ مٰا يُلَقّٰاهٰا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾[٣].

توضح هذه الآية الآيات السابقة وتبيّن الحكمة في هذه الوصيّة. ينبغي بالمسلم أن يتحلى بالاخلاق المحمدية في تعامله مع الآخرين وتربيتهم وارشادهم وهدايتهم، فعليه أن يكون ليّنا ورحيما ومخلصا وكالطبيب في معالجة المريض، وان يجتنب القسوة والحدّة كي ترقّ قلوبهم لكلامه وتميل اليه حتىٰ في غيبته. ولكن

١. المؤمنون ٩٦.
٢. الرعد ٢٢.
٣. فصلت ٣٤ و ٣٥.

ليس كل انسان قادراً على مثل هذا السلوك، بل الذين سلكوا الطريق وبلغوا مقام الصبر ونالوا نصيبا وافراً من الكمال الانساني اللائق هم القادرون على القيام بـرّد فعل مثل هذا في مقابل الآخرين.

الدفاع عن حق النفس

القسم الآخر هو رد فعل الانسان ازاء سلوك غير خلقي لشخص يريد هتك حرمته أو يصادر حقا من حقوقه، ويمكن القول ان هذا أهمُّ بلحاظ ما فيه من حيثية دفاعية اضافة الى حيثية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، كأن يعزم شخص على غصب مال الانسان أو هتك حرمته أو التعدي على عرضه أو مصادرة حقه. السؤال عندئذ: ما هو موقف الانسان المعتدىٰ عليه إزاء هذا الشخص وماذا يكون رد فعله؟

في الاجابة نستطيع القول: انه يمكن تصور فرضيتين في هذا المورد:

الأُولىٰ ان يكون الشخص بصدد التعدي ولم يتعدّ بعد، فعلى الانسان ان يدافع عن نفسه ويحول دون وقوع الاعتداء عليه ولا يسمح بضياع حقه.

الثانية ان يكون الشخص قد تعدى وغصب حق هذا الانسان، ويريد المعتدى عليه استرجاع حقه أو الاقتصاص منه أو عقابه بأي نحو ممكن.

في الفرضية الثانية يمكن القول: انّ الخضوع للظلم مذموم اجمالاً في الرؤية الاسلامية، وهذه القاعدة صحيحة بشكل عامّ، الّا انّ تطبيق هذا العامّ على موارده الخاصة وكيفية التعامل مع الظالم وتحديد السلوك ورد الفعل بصورة دقيقة يحتاج الى دقة ودراسة اكبر.

يستفاد من احاديث النبيﷺ والائمة الاطهارعليهم السلام انّ الدفاع عن النفس أمر حسن حتى ان بعض الروايات تنص على ان من مات دفاعاً عن ماله كان له أجر

الشهيد، وأجازت بعض الروايات قتل من أراد الاعتداء على عِرض الانسان، على الاقل في حالة عدم امكان منعه من الاعتداء الا بالقتل، وتوجد مثل هذه الاحكام والروايات بشكلٍ أو بآخر في الفقه.

في مورد الحقوق المرتبطة بعِرض الانسان وكرامته وما يتعلق بشخصيته يثبت له حق الدفاع عن النفس ولا بأس في ذلك.

وهنا تخطر في الذهن عدة اسئلة تستدعي الإجابة عنها:

دور الحكومة

السؤال الاول: في الموارد التي يعتدى فيها على حقوق الانسان من قِبل الآخرين هل يحق له المباشرة في استرجاع حقه ويتعامل بالمثل ويقتص أو يسترجع حقه بأي نحو كان، أو ان عليه مراجعة الحكومة والجهاز المسؤول للاقتصاص واسترداد الحق؟

نقول في الاجابة: في الرؤية الاسلامية جعل استرجاع هذه الحقوق وتنفيذ هذه القوانين علىٰ عاتق الحكومة، لانه اذا كان من حق كل شخص ان يدخل مباشرة في الساحة ويسترجع حقه من المعتدي فقد يصبح ذلك سببا للاستغلال في الكثير من الموارد ويؤدي الى مفاسد اجتماعية أُخرىٰ ويكون منشأ للتعدّي والانتقام بما يزيد علىٰ الحق وبالتالي تحدث الفوضى، أو ان يقوم اشخاص بأفعال خاطئة وغير مبرّرة بحجج واهية. سيكون هذا الأمر منشأ للخلل في النظام الاجتماعي جزماً ويتزعزع أمن أعضاء المجتمع. وعليه يلزم ان يراجع أعضاء المجتمع الجهات القانونية لاسترجاع حقوقهم من المعتدين عليها، الأمر الذي يمثل أحد الادلة على ضرورة وجود الحكومة.

اضافة الى ذلك فانّ المظلوم والمعتدى عليه لا يملك في الكثير من الموارد القدرة على استيفاء حقه والقصاص في الجريمة التي ارتكبت بحقه. وعليه لابدّ لاحقاق الحق ومنع أي تعدٍ وانتقام غير مبرّر من وجود جهات قانونية وحكومية، وتختص متابعة هذه الأمور بالحكومة فلا ينبغي للآخرين المباشرة فيها، ومن واجب الحكومة متابعة ذلك وتكون عونا للمظلوم وخصما للظالم.

التغاضي أو استيفاء الحق؟

السؤال الثاني: مع وجود هذا الحق في القانون أيهما أفضل اخلاقيا: استيفاء الحق أو التغاضي عنه؟

نقول في الاجابة: لقد أقرت جميع النظم الأخلاقية بهذه الحقيقة وهي حسن العفو والتغاضي، ولكنها تختلف في مقداره المناسب. يتضمن النظام الأخلاقي في الاسلام نصائح كثيرة تدعو للعفو والصفح عن الآخرين، والى جانب ذلك تطرح هذه الحقيقة أيضا وهي: اين ينبغي العفو والصفح وأين يجب الانتقام؟

نظراً الى اعتبار العفو والتغاضي خضوعاً للظلم في بعض الموارد فلا مجال لهما في الرؤية الاسلامية، اذ ان الاسلام لا يدعو كقاعدة عامة: اعفوا عل كل ظالم، ولا يقول بنحو مطلق: انتقموا من كل من ارتكب جريمة بحق غيره واقتصوا منه. بل يدعو الى القصاص واستيفاء الحق في بعض الموارد رعاية لبعض الحِكم والمصالح، ويأمر بالعفو والصفح في موارد أُخرىٰ استناداً الى حِكم ومصالح أُخرىٰ، ولكي تتّضح هذه الموارد يمكن مراجعة الآيات ذات العلاقة، قال تعالىٰ في آية كريمة:

﴿وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولٰئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ * وَ

لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[١].

هذه الآية تثبت للمعتدى عليه حق الانتقام من المعتدي كما تدل على حسن العفو والتغاضي عنه. فهل يكون العفو والتغاضي حسناً في كل الموارد أم هناك استثناء أيضاً؟ ينبغي الاستعانة بالادلة الأُخرىٰ والجمع بينها، قال تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

﴿لاٰ يُحِبُّ اللّٰهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاّٰ مَنْ ظُلِمَ وَ كٰانَ اللّٰهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾[٢].

لا يحب الله ان ينادي الانسان بصوت مرتفع ويخاطب الناس بالسوء ولا يحترمهم الّا انّ يكون مظلوما بحيث لا سبيل أمامه لرفع هذا الظلم الا بالنداء عاليا، فلا بأس بذلك في هذه الحالة، اذ ان الله لا يريد ان يترعرع بنو الانسان اذلّاء بذريعة الالتزام بالوقار والهدوء وان لا يقولوا شيئا بوجه الظالم.

إذنْ في بعض الموارد لا بأس في النداء عاليا والاستعانة بالآخرين والانتقام.

وعليه فان الآية المذكورة تدل على جواز استيفاء الحق، وان لم تدلّ آية من الآيات المذكورة على اكثر من جواز ذلك ولا دلالة فيها علىٰ انه امر مطلوب وذو قيمة أخلاقية، بل تدل فقط على ان ليس في ذلك قيمة سلبية من الناحية الأخلاقية.

وقد جاء في آية أُخرىٰ بشأن القصاص:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصٰاصُ فِي الْقَتْلىٰ﴾[٣].

وجاء في الآية أيضاً:

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبٰاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَدٰاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسٰانٍ﴾[٤].

---

١. الشورى ٤١ ـ ٤٣.
٢. النساء ١٤٨.
٣. البقرة ١٧٨.
٤. البقرة ١٧٨.

ينبغي الالتفات الى ان (كُتب) في الآية لا يدل على وجوب القصاص، لانها استحسنت في ذيلها العفو من وليّ الدم وصفحه عن القصاص. وعليه فانّ الوجوب المستفاد من لفظ (كتب) مشروط بارادة القصاص من قِبل ولي الدم، أي اذا أراد وليّ الدم القصاص فتنفيذه يكون واجبا.

بناء على ذلك ان الآية تعني في مجموعها ان طلب القصاص ليس واجبا على ولي الدم الّا انّ له الحق في ذلك، فاذا أراد القصاص وجب على الحكومة تنفيذ حكم القصاص، الّا انّها قالت بعد ذلك:

﴿وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ﴾[1].

وقال تعالىٰ في موضع آخر:

﴿وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصّابِرِينَ﴾[2].

تؤكد الآيتان الكريمتان في مجموعهما على أمرين لدىٰ الاعتداء على حقوق المؤمنين:

الاول: بامكانهم استيفاء الحق والأخذ بالقصاص، فان أرادوا ذلك فينبغي لهم رعاية الاحتياط تماما بان لا يتجاوزوا الحق وان يعاقبوا المجرم بمقدار تعدّيه لا اكثر.

الثاني: العفو ما امكن عن معصية المجرم وعدم الاقتصاص منه فانه خير. والملفت أنّ الله عز وجل لا يدعو الى العفو والصفح فحسب بل يستميل بعبارات جميلة مشاعرَ ولي الدم ازاء المجرم لكي يتخلى عن القصاص.

وبصورة عامة يمكن القول:

١. البقرة ١٧٩.

٢. النحل ١٢٦.

حيثما كان العفو والتغاضي عن تعدي الآخرين سببا لشعورهم بالندم واجتنابهم التطاول على حقوق الآخرين فان الافضل هو الصفح عن معصيتهم واستثمار العفو والتغاضي كوسيلة لتربيتهم.

وعليه يستفاد من مجموع هذه الآيات انّ الصبر والعفو والصفح عن تعدي الآخرين ذو قيمة اخلاقية ودليل على مروءة الشخص المعتدى عليه، ولكنّه من جهة أُخرىٰ ينبغي الالتفات الى انه لا يمكن ترجيح العفو والتغاضي كقاعدة عامة رغم ما ذكر، اذ انّ الصفات الروحية والنفسية والتربوية للمجرم والمعتدي تكون في بعض الموارد بنحو يصبح بالصفح عن معصيته اكثرَ جرأةً وأسوء عملاً ويواصل تطاوله على حقوق الآخرين بل يزداد في ذلك. ان بعض المجرمين لا يمكن منعهم عن التعدي الا بالقوة والعقاب.

نستنتج انّ العفو وان كان قيّما الّا انّ قيمته ليست مطلقة فلابدّ من تنفيذ القصاص في بعض الموارد كي ينال غير المؤدبين جزاءهم. اذا لم يعمل بالقصاص في كل موارد الجريمة، وحل العفو محل القصاص دائما فان قانون القطعاص سيفقد تأثيره ويواصل المجرمون أعمالهم دون قلق. ان وجود قانون القصاص واحتمال تنفيذه هو الذي يقلقهم في الحقيقة ويصدهم عن افعالهم الخبيثة والعدوانية ويجعل الناس في راحة من شرهم، ولذا قال تعالىٰ:

﴿وَ لَكُمْ فِي الْقِصٰاصِ حَيٰاةٌ يٰا أُولِي الْأَلْبٰابِ﴾[١].

في ظل قانون القصاص تضمن حياتكم، ولكنّه القانون الذي يحتمل تنفيذه بحق الانسان ولمعاقبته على فعله القبيح، ويكون هذا في حالة تنفيذه في بعض الموارد على الاقل ان لم ينفذ في جميعها، ويجعل كل مجرم يفكر في انه لو ارتكب جريمة

---

١. البقرة ١٧٩.

فانه قد يعاقب عليها، وهذا الاحتمال المعقول هو الذي يصده عن ارتكاب الجريمة.

قيمة العفو والصفح

من الآيات السابقة وآيات كثيرة أُخرىٰ ندرك قيمة العفو والصفح والصبر، ونظراً لتأثير الظروف والدوافع المختلفة على العفو فان تقييمه بحاجة الى تفصيل اكبر نشير هنا الىٰ جانب منه:

للعفو انحاء مختلفة: فتارة يفقد الانسان القدرة على الانتقام والقصاص ويضطر للعفو، وتارة يمتلك القدرة على ذلك ولكن بما ان ذلك يستدعي التعب والخصومات وهو شخص يطلب الراحة والعافية فيتنازل عن القصاص والانتقام. وتارة ثالثة يمتلك القدرة على الانتقام ولا يطلب الراحة بل يتنازل عن الانتقام والقصاص بغية مرضاة الله.

كما يمكن تقسيم العفو والتغاضي من زاوية أُخرىٰ: فتارة يتنازل الانسان عن الانتقام تربية لنفسه ولكي يتمرن على تحمل الصعاب وينال كمال الصبر والصمود ولا يفرّ من المشكلات ويتبدل ضعفه في هذا المجال الى القوة والحلم كي يكون موفقا في امور الدنيا والآخرة.

ويكون للعفو تارة حيثية سياسية أي حينما لا تكون الظروف مناسبة للقصاص والانتقام فلابدّ من انتظار اليوم الذي يضعف فيه العدوُّ أو يقوى فيه طالب القصاص وتتهيأ له الظروف، فلا مفرّ من التنازل عن الانتقام والقصاص في هذه الظروف بأمل القيام بذلك في ظروف مناسبة.

وتارة أُخرىٰ لا يترك الانسان الانتقام تربيةً لنفسه ولا لحيثية سياسيه بل يتركه دائماً لكي يربي المعتدي ويصده عن ارتكاب هذا العمل القبيح مرة أُخرىٰ، فعندما

يصفح الانسان وهو في قمة الاقتدار عن تعدي شخص أضعفَ منه فمن الطبيعي ان يكون مؤثّراً عليه بحيث يوقظ وجدانه الأخلاقي، وبديهي ان يكون هذا الدافع دافعا إلهياً وساميا.

وقد يكون العفو تارة لتحقيق مصلحة للمسلمين، كأن يقوم العدو الذى يراد الانتقام منه بايذاء مسلمين آخرين أو ايذاء اقربائه، فيتنازل عن حقه للحيلولة دون هذه المفاسد.

اذن هذه المسألة ذات حالات مختلفة ولا يمكن تقييمها على نسق واحد، بل ينبغي تقييم الموارد المختلفة بصورة مستقلة وتشخيص المقتضى الأخلاقي وموضوع القيمة الأخلاقية في كل مورد بنحو أفضل. ان حق القصاص محفوظ طبعا في كل موارد التعدي على الحقوق الانسانية وليس له قيمة سلبية، الّا انّ السؤال هو: هل لذلك قيمة ايجابية؟ ومع وجودها ما هي درجة القيمة الايجابية؟ للاجابة عن هذا السؤال نحن بحاجة الى دقة وتعمّق في دراسة العلل والدوافع والظروف، لان القيمة الايجابية للعفو ودرجاته تتبع العوامل المتغيرة التي ذكرنا الكثير منها حيث تتغير بتغيرها ولا يتعلّق بها حكم واحد.

القيم الأخلاقية في طلب العدل

مقدمة: قلنا سابقاً ان الافعال غير الأخلاقيّة ذات انواع مختلفة، أحدها الافعال التي تسبب تضييع حقوق الآخرين وتلحق بهم الخسائر والأضرار، فمن ضاع حقه في هذه الاحوال ثبت حقه في القصاص أو العفو عن المعتدي.

نقول هنا: ان أصل العفو وان كان ذا قيمة اخلاقية سامية الّا انّ العفو والتسامح مع المعتدين على حقوق الآخرين يؤدي في بعض الموارد الى ترويج الفساد في المجتمع،

فما لم يُتشدّد مع مرتكبي الجريمة فسوف تتكرر أو ترتكب جرائم افظع. من هنا يمكن ان يرجح القصاص والانتقام بصورة معقولة وعادلة ويكون افضل من العفو والصفح.

في هذه الموارد يكون القصاص عملا قيّما حيث ينقذ المجتمع من الدمار ويضمن الحياة والامن الاجتماعي. من هنا قال تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ﴾[1].

ينبغي الالتفات الى انّ القصاص وان كان حقا شخصيا ويرتبط بولي الدم الّا انّ تنفيذه يجب ان يكون بيد الحكومة أو الحاكم، وذلك لانه:

أولاً: اذا أراد اولياء الدم استيفاء هذا الحق بصورة مباشرة فانّ المجتمع سوف يتجه بالتالي نحو الفوضى وقد يستغل كل انسان بعض الموارد أو يعتدي علىٰ حقوق الآخرين فوق حقه ويرتكب جريمة بدل القصاص بذريعة حق القصاص.

ثانيا: قد يحصل في بعض الموارد خطأ في التشخيص ولا يُعلم انّ الحق مع أيّ واحد من الشخصين أو الفئتين، اذ ان كلاً منهما يدعي الحق علىٰ الآخر. في هذه الموارد يستغل بعض الافراد هذه العناوين فيحصل الخلل والفوضى ويحدث فساد أعظم في المجتمع. من هنا يؤسّس جهاز للقضاء والدعاوي في جميع النظم الاجتماعية لمتابعة هذه الاختلافات.

ثالثاً: انّ الحق واضح في الكثير من الموارد ولكن ذا الحق وولي الدم عاجز عن استيفاء حقه، وبما انّ الجناة عادة ذوو اقتدار وبأس ولا يخضعون للحق فان وليّ الدم يعجز عن أخذ حقّه.

وعليه فمن حِكم وجود الجهاز الحاكم خاصة السلطة القضائية في مثل هذه الاختلافات هي:

---

١. البقرة ١٧٩.

اولا: تشخيص ان الحق مع أي طرف من طرفي الدعوى في كل اختلاف وتنازع.

ثانيا: ان يكون عادلاً ويرجع الحق المشخص الى صاحبه.

هي أنّ في كل دعوى يكون الدور الأساسي لثلاثة عناصر إنسانية، وهي:

ثالثا: ان يكون ذا اقتدار كافٍ فيستوفي الحق لاعضاء المجتمع من المعتدين.

ومن اللازم توفُّر هذه الخصال الثلاث في السلطة القضائية، أي قدرة التشخيص والعدل والحياد وقدرة التنفيذ. الملاحظة المهمة الأُخرىٰ هي ان يكون الدور الأساسي في كل دعوى لثلاثة عناصر انسانية هي:

الاول: طرفا الدعوى اي الاشخاص المختلفون الذين يريد كل منهم اثبات الحق لنفسه واستيفاءه من الآخر.

الثاني: القاضي أو الحاكم الذي يفضّ الخصومة ويسعى لرد الحق الى صاحبه.

الثالث: الشهود الذين يؤثرون في كيفية حكم القاضي بشهاداتهم، لان فض الخصومة في اكثر الموارد يتم بمعونة شهادة الشهود. وعليه ينبغي التحدث عن القيم الأخلاقية المرتبطة بسير الدعوى في ثلاثة اقسام مستقلة:

الاول: القيم المرتبطة بسلوك القضاة والحكام، الثاني القيم المرتبطة بسلوك طرفي الدعوى، والثالث القيم المرتبطة بسلوك الشهود.

الملاحظة الثالثة هي انّ المحور لجميع القيم المذكورة هو العدل لا الاحسان، لان الحكمة من تأسيس السلطة القضائية والحكومة هو رد الحق لصاحبه واقامة العدل. وعليه لا مجال هنا لقيم أُخرىٰ نظير الاحسان. يجب هنا تشخيص أصل العدل والعمل به.

ان طرفي الدعوى لو أرادا الاحسان لم يختلفا ولم يتنازعا ولحُلّت المشكلة بتنازل أحد الطرفين عن حقه، وفي هذه الحالة يخرج عملهما من نطاق العدل ليعدّ

من مصاديق الاحسان ،الّا انّ فرض الاختلاف والنزاع والشكوى والدعوى يقتضي انهما لا يريدان العفو والاحسان بل يطلبان العدالة. إذنْ هناك قيم في مورد طرفي الدعوى أيضاً وهي تندرج تحت عنوان العدل.

وعن الشهود ينبغي القول انهم يريدون اثبات الحق أيضاً وارجاعه الى صاحبه، وبذلك يتحقق العدل لانهم عرّفوا العدل بانه اعطاء الحقّ لصاحبه. بملاحظة ما ذكر نؤكد مرة أُخرىٰ علىٰ ان محور جميع القيم فيما يرتبط بالدعوى وبسط العدالة هو الحق والعدل ولا مجال للاحسان وسائر القيم الأخلاقية العامة.

سلوك الحكام والقيم الأخلاقية

في مورد سلوك القضاة هناك عدة انواع للقيمة:

الأُولىٰ: ان يكون قضاؤهم على اساس مجموعة من المقرّرات والقوانين المعتبرة في المجتمع، والقوانين المعتبرة في الحكومة والمجتمع الاسلامي هي القوانين الالهية. إذنْ فالقيمة الأُولىٰ الحاكمة على سلوك القاضي هي ان يقضي في إطار التعاليم الالهية والقوانين الاسلامية بحيث تمثّل الاحكام الشرعية اساساً لقضائه.

هذه المسألة واضحة طبعا ولا تحتاج الى بحث ولكن القرآن الكريم يؤكد بشدة على الانسجام والتلاؤم مع الاحكام الالهية، وفي الاحداث الواقعة بعد وفاة الرسولﷺ أو في عصره أحياناً شاهد على ضرورة هذا التأكيد ووجوبه.

القرآن والقضاء

عند الرجوع الى القرآن الكريم نجده يبين ان من اهداف بعثة الانبياءعليهم السلام وأحد واجباتهم المهمة هو أن يقضي القضاة والحكام بين الناس على اساس الحكم

الالهي، قال تعالىٰ في آية كريمة:

﴿كٰانَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّٰاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[١].

هذه الآية ان لم تختص بالقضاء ومتابعة خلافات الناس في الحقوق الاجتماعية فانها تشملها قطعاً وتدل على ان كتاب الله عز وجل يجب ان يكون حاكما في موارد الاختلاف، قال تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلَنٰا بِالْبَيِّنٰاتِ وَ أَنْزَلْنٰا مَعَهُمُ الْكِتٰابَ وَ الْمِيزٰانَ لِيَقُومَ النّٰاسُ بِالْقِسْطِ﴾[٢].

هذه الآية تدل على انّ الهدف والحكمة من بعثة الانبياء والكتب السماوية هو سيادة القسط والعدل في المجتمع بحيث يشمل انحاء السلوك والعلاقات الانسانية، ولاشك في أن موارد الاختلاف والدعوى من أوضح مصاديقه.

ومن جهة أُخرىٰ يذم القرآن الكريم بشدة الذين لا يحكمون على اساس القانون الالهي وينعتهم بأنهم الكافرون والظالمون والفاسقون حيث يقول:

﴿وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْكٰافِرُونَ﴾[٣].

﴿فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ﴾[٤].

﴿فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ﴾[٥]. هذه الآيات النازلة على التوالي في سورة المائدة تحكم بالكفر والظلم والفسق على من لا يقضي في إطار القوانين الالهية (بما انزل الله)، ونقول بدقة اكبر: اذا لم يكن قضاؤه في إطار القوانين الشرعية فانه يساوي عدم القضاء، اذ عبّرت عنه الآية بـ(ومن لم يحكم) فانه من باب عدم الملكة. ويعني ذلك ان الذي

---

١. البقرة ٢١٣.
٢. الحديد ٢٥.
٣. المائدة ٤٤.
٤. المائدة ٤٥.
٥. المائدة ٤٧.

يقضي وكان من شأنه القضاء ولم يكن قضاؤه في إطار الشرع فانه كافر وظالم وفاسق.

وقد خاطب الله عز وجل رسوله الاكرمﷺ عقيب هذه الآيات في هذه السورة:

﴿وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ إِلَيْكَ﴾[1].

يطلب الله سبحانه من النبيﷺ ان يقضي في إطار الحكم الالهي ولا ينخدع ولا يغفل عن الاحكام الالهية، وذلك لانّه يوجد اشخاص يتآمرون لكي لا يطبَّق حكم الله، فعلى النبي ان ينتبه ولا ينخدع بهم.

على أي حال فقد تمّ التأكيد علىٰ هذه القضية بشدة في القرآن وهي انّ القوانين الالهية يجب ان تكون اساساً لحكم الحاكم لا الأمور التي يحبها الناس أو الحاكم ولا امور أُخرىٰ.

القيمة الاخرىٰ التي ينبغي التفات الحاكم اليها في سلوكه هي ان يراقب نفسه حذراً من الانحراف لدىٰ تطبيق هذه القوانين علىٰ الموارد الخاصة، فقد يحكم القاضي في القضايا العامة والرئيسيّة في إطار القوانين الالهية ويكون هدفه العام ـ كما قيل في الخطوة الأُولىٰ ـ هو الحكم على اساس (ما انزل الله)، ولكنه في القضايا الجزئية يتأثر أحياناً بأحاسيسه ومشاعره واهواء نفسه والدوافع غير الالهية.

في هذه الحالة لا يقول بصراحة وبنحو جازم بأني اقضي على اساس القانون غير الاسلامي الفلاني ولكنه ينحرف في مقام تطبيق القانون العام على مورده الخاص.

أسباب الانحراف والزلل في القضاء

تكون العوامل التي تسبب الانحراف في القضاء في الموارد الخاصة بصورة رئيسية

١. المائدة ٤٩.

عبارة عن المصالح المادية حيث يقترحها علىٰ القاضي أحد طرفي الدعوى كرشوة ليحكم لصالحه بدون حق. وهذا الفعل من اقبح واسوء القيم السلبية في سلوك القاضي وقد تحدثنا عن ذلك سابقاً بنحو اجمالي.

ينبغي الالتفات طبعا الى انّ الرشوة من القيم السلبية العامة للقضاء ولا ينحصر ذلك في سلوك القضاة وان كان هذا الأمر اوضح فيما يتعلق بسلوكهم، اذ كما ان أخذ الرشوة قبيح وحرام فان تقديمه حرام وسيء أيضاً. وعليه فانّ القيمة السلبية للرشوة ترتبط بسلوك القضاة فلا يجوز أن يصدروا حكما بدون حق تأثراً بالرشوة، كما ترتبط بسلوك طرفي الدعوى فلا يجوز لهما التأثير على حكم القاضي بتقديم الرشوة اليه ومشاركته في أكل اموال الآخرين. كما يمكن القول انّ القيمة السلبية للرشوة ترتبط بشهادة الشهود أيضاً، اذ انّ القاضي كما يمكن أن يصدر حكما بدون حق باستلام الرشوة، فانّ الشاهد أيضا يمكن ان يدلي بشهادة خاطئة وبدون حق باستلام الرشوة ويؤثر في انحراف حكم القاضي.

ومن الممكن أحياناً ان لا تكون المصلحة المادية هي العامل في انحراف القاضي بل السبب في ذلك هو خوفه من احد طرفي الدعوى، أو توقّع حماية أحدهما في بعض الموارد، وعلى أي حال طلب رضاه فيكون ذلك سببا للحكم لصالحه.

ويمكن أحياناً ان تكون المشاعر الشخصية كالعلاقات الأُسرية والعشائرية سببا للحكم لصالح أحد الطرفين، ويمكن أحياناً ان يظن ان قيمة اخلاقية تدفعه للحكم لصالح أحد الطرفين ضد الطرف الآخر، كأن يتخاصم اثنان على مال، أحدهما غني والآخر فقير ومحتاج، وكانت القرائن والأمارات والشواهد تدل على انّ الحق مع الغني، ولكن القاضي ـ حمايةً للمحروم المستضعف ـ يحكم لصالح الطرف الآخر.

هذه مجموعة العوامل التي يمكن ان تحرف القاضي عند إصدار الحكم والقضاء

عن النهج الصحيح، وبعبارة واحدة يمكن إطلاق هوى النفس على جميع هذه الموارد لأن ما يخالف الحق هو هوى النفس، سواء أكان المشاعر أو الخوف او المال أو العواطف الأُسرية والاجتماعية، ولا فرق بينها في انها اتّباع لهوى النفس ومعارضة للحق. من هنا نؤكد ـ خاصةً بالنسبة للقاضي ـ علىٰ ان يكون مراقباً لنفسه حين إصدار الحكم لئلا يكون تابعا لهوى النفس ومنحرفا عن الحق.

ينبغي للقاضي ان يكون في أعلى المستويات في التقوى والفضيلة. إذ انّه الشخص الذي يريد اقامة العدل في المجتمع ومنع الظلم والجور. إذنْ لابدّ ان يكون عادلاً قبل غيره، فاذا كان مثل هذا الشخص عاملاً بالظلم والجور في المجتمع فانها كارثة ومصيبة وفتنة اجتماعية كبيرة.

لقد أشار الله سبحانه في القرآن الكريم الى هذه العوامل تحت عنوان هوى النفس، وقد حذّر القضاة بصورة غير مباشرة من اتباع الهوى حيث خاطب الله سبحانه النبي داود عليه السلام:

﴿يا داوُدُ إنّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ﴾[1].

في هذه الآية يخاطبه الله بأنا جعلناك خليفة لنا في الارض، ويحذره من اتباع الهوى إذ انّه يصدّه عن الحق ولا يمكن ان يقضي حينئذ قضاء صائباً.

على القاضي ان ينتبه دائما الى وجود من سوف يحاسبه وهو لا يخطئ أبداً ويعاقب الظالم بشدة ولا يتأثر بالمال والرشوة وعوامل أُخرىٰ.

و قد ذكر في القرآن الكريم عدة امور تتعلق بقضية اتباع هوى النفس فيما يرتبط

---

١. ص ٢٦.

بالقاضي، ومن جملتها ما جاء عن الرشوة في قوله تعالىٰ:

﴿وَ لاٰ تَأْكُلُوا أَمْوٰالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبٰاطِلِ وَ تُدْلُوا بِهٰا إِلَى الْحُكّٰامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوٰالِ النّٰاسِ بِالْإِثْمِ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١].

و النوع الآخر لهوى النفس المؤثّر على القضاء هو الرغبة في المحافظة علىٰ العلاقات مع ذوي المكانة الاجتماعية وهي الرغبة التي تدفع القاضي للحكم بغير حق قدرَ الإمكان، قال تعالىٰ بهذا الشأن:

﴿وَ لاٰ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النّٰارُ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ أَوْلِيٰاءَ ثُمَّ لاٰ تُنْصَرُونَ﴾[٢].

هذه الآية لا تختص بالقاضي طبعا، الّا انّه لو حكم بغير حق صونا لعلاقاته مع الآخرين كان مشمولاً للآية قطعاً.

القيمة في سلوك طرفي الدعوى

العنصر الانساني الثاني في القضاء هو الطرفان في الدعوى وهما اللذان يطالبان بتطبيق الحق والعدل. ففي بعض الموارد يطالب الطرفان بالحق، أي في المواضع التي يشتبه فيها الحق مع الباطل ولا يَعرف الطرفان ما هو الحق وماذا يجب أن يصنعا؟ إذنْ لا يمكن القول كقاعدة عامة ان احد الطرفين ظالم دائماً وقد تعدى على الطرف الآخر، اذ من الممكن ان يظن كل طرف بانّ الحق معه، أو لا يعلم انّ الحق مع من، ولكن في الكثير من الموارد يعلم الطرفان انّ الحق مع من، ورغم علم احد الطرفين يودّ أن يظلم الطرف الآخر.

العنصر المشترك بين الفئتين هو انهما تابعان للحكومة الاسلامية في كل الاحوال

---

١. البقرة ١٨٨.

٢. هود ١١٣.

ويخضعان لحكم المحاكم والقضاء الاسلامي، اذ من الممكن ان يرغب شخص في بعض الموارد أن يغشّ في معاملته أو يدلّس تبعاً للهوى والميول النفسية الّا انّه لا يودّ محاربة النظام الاسلامي. فكثيراً ما يحدث ان يكون في بعض الاشخاص انحراف عن الحقّ ولكن حينما يرتبط الامر بالمصلحة العامة للمجتمع الاسلامي فانهم يطيعون الحق ويدافعون عنه، كماانّ الكثير من الاشخاص يبيعون البضائع بأسعار باهظة أو يطففون في الميزان، ولكنهم حينما يتعرّض المجتمع الاسلامي للخطر فانّهم لا يبخلون بأموالهم ويقدّمونها للحكومة الاسلامية.

هذه الأمور تشير الى ان بعض أعضاء المجتمع ـ رغم تساهلهم واتّباعهم لأهواء النفس في الموارد الجزئيّة ـ مستعدّون للتضحية بمصالحهم الخاصة في سبيل المجتمع وقضاياه المهمة.

يريد الاسلام في المرحلة الأُولىٰ ان يمنع الناس من هذه الانحرافات بصورة عامة. ولكنّ النظرة الواقعية تقتضي التسليم بهذه الحقيقة وهي امكانية انحراف بعض أعضاء المجتمع مهما كان التعليم والتربية قويا وكان فيه مربّون كالانبياء والائمة عليهم السلام.

في المرحلة الثانية يؤكد الاسلام علىٰ ان هؤلاء الاعضاء المنحرفين مهما بلغ انحرافهم يجب ان يخضعوا للحكومة الاسلامية وان لا يتمردوا علىٰ الاقل على حكم القضاة في المجتمع الاسلامي، فان تمردوا فانهم سيواجهون الحكومة الاسلامية فلا يجوز ان يُتركوا وشأنهم، لان إطلاق سراح هؤلاء المتمردين على الحكومة والقضاء والنظام الاسلامي وغير العاملين بحكم السلطة القضائية يعني الفوضى، وهذا يعني التنصل عن أصل النظام. ان معنى سيادة النظام إذنْ هو أن يُتعامل باقتدار مع هؤلاء الافراد وينفَّذ حكمه بحقهم.

لا نريد طبعا الاستنتاج مما ذكر انّ القضاة على صواب في الاحكام التي يصدرونها كافة، اذ من الممكن إذنْ ان يتعارض حكم القاضي في بعض الموارد مع الواقع ونفس الامر.

انّ القاضي يحكم على اساس شهادة الشهود والقرائن والأصول الأُخرىٰ، فمن الممكن ان يخطئ الشهود، أو يدلوا بشهاداتهم بذون حق عمداً، وان يصدر القاضي حكما بغير حق استناداً اليها فلا يردّ الحق الى صاحبه. والإفدح من ذلك انه لا ينتفي عقلاً احتمال ارتشاء القاضي فيحكم بغير حق رغم صلاحه الظاهري ورعايته للتقوى والدقة والمراقبة. رغم هذه الاحتمالات يجب على طرفي الدعوى إطاعة هذا الحكم الظاهري للقاضي وعدم التمرد على حكم السلطة القضائية.

في هذه الموارد تكون القضية ذات طرفين: أحدهما هو ما قلناه من ان الافراد ليس بوسعهم التمرد على الحكم الصادر ضدهم بذريعة هذه الاحتمالات والادعاءات، ولكن من جهة أُخرىٰ مَن علم انّ الحق ليس معه في هذه المحكمة وانّ المال الذي دُفع له بحكم القاضي ليس مالَه واقعا وقد صدر الحكم لصالحه بواسطة دفع الرشوة وشهادة الزور مثلاً فانه لا يحق له التصرف في ذلك المال أو تنفيذ ذلك الحكم بغير حق لصالحه، بل عليه ارجاع ذلك المال لصاحبه الحقيقيّ والعمل بمقتضى الواقع، والا فانه سيواجه محكمة العدل الالهي.

ان ما يدفعنا للخضوع لحكم القاضي في كل الاحوال ـ وان كان بضررنا ونعتبره بغير حق ـ هو المصلحة العامة لنظام المجتمع، إذ انّنا لو لم نخضع للحكم الظاهري للمحكمة ولم نحترم السلطة القضائية تعرَّض نظام المجتمع الى الخلل. ان مصلحة المجتمع الاسلامي تقتضي ان يكون للسلطة القضائية اعتبار في المجتمع ويخضع لها الناس، وبدون ذلك سوف تعجز عن استيفاء حق المظلوم من الظالم، ولا يمكن ان

تكون سنداً جيداً للضعفاء وأعضاء المجتمع بصورة عامة.

من هنا يؤكد الله عز وجل على هذا الامر بشدة ويدعو الناس لطاعة السلطة القضائية وعدم الشعور بالقلق ازاءها.

قال تعالىٰ بهذاالشأن:

﴿فَلاٰ وَ رَبِّکَ لاٰ يُؤْمِنُونَ حَتّٰى يُحَكِّمُوکَ فِيمٰا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاٰ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّٰا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[١].

هذه الآية اوضحت جيداً واجب أعضاء المجتمع ولم تدعْ مجالاً لأي ذريعة، اذ المطلوب ليس فقط الخضوع الجسدي لحكم القاضي الاسلامي بل المطلوب ايضا هو عدم الشعور بالرفض حتى في القلب. فمن نُصّب للقضاء من قبل الله عز وجل بنحو مباشر أو غير مباشر فالواجب هو الخضوع لحكمه بدون أي ذريعة، وحتى لو شعر الانسان بضياع حقه في هذه المحكمة فان عليه التسليم لحكمها، في هذه الحالة يمكن التصديق بوجود نظام سائد ومجتمع متحضّر.

هناك قيمتان بالنسبة للمتخاصمين: الأُولىٰ هي ان عليهما الرجوع للمحاكم الاسلامية لفضّ الخصومات والدعاوي والاقرار برسمية جهاز القضاء الاسلامي لحل هذه المشكلة والتسليم لحكم المحاكم الاسلامية.

الثانية: على مِن صدر بحقه حكم ان يسلّم له وان كان بضرره، وان لا يشعر بالسخط على السلطة القضائية الاسلامية حتى في قلبه.

قال تعالىٰ في ذم الذين يتبعون مصالحهم بدلاً من اتباع الحكم الصادر من قبل اجهزة القضاء المعتبرة:

﴿وَ إِذٰا دُعُوا إِلَى اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذٰا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَ إِنْ

---

١. النساء ٦٥.

يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ بَلْ أُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[١].

ولكي يشير الى ان هؤلاء ليسوا مؤمنين بل هم منافقون يتحدث بعد ذلك عن المؤمنين وانقيادهم للمحكمة الالهية والاسلامية فيقول سبحانه:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

وقال في آية أُخرىٰ:

﴿أَ فَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّٰهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٣].

هذه الآيات تبين بصورة عامة قيمتين مهمتين في سلوك طرفي الدعوى:

الأُولىٰ: الاعتراف برسمية السلطة القضائية الاسلامية وارجاع الخصومات والاختلافات اليها لفضها وحلها.

الثانية: الخضوع القلبي لحكم المحكمة عند الرجوع الىٰ المحكمة وان كان ضدّه، وحتّىٰ لو ظنّ انّ القاضي قد أخطأ في إصدار الحكم ضده، وعدم اساءة الظن بالسلطة القضائية حتى في القلب، وعدم الشعور بالسخط عليها.

القيمة في شهادة الشهود

العنصر الانساني الثالث في القضاء هم الشهود الذين لهم الدور المهم في كيفية صدور الحكم، اذ بدونهم لا يمكن في الكثير من الموارد إثبات الحق لصاحبه. وبالنسبة للشهود قد أكّد القرآن الكريم علىٰ سعيهم في ان تكون شهادتهم بحق دون ان تضيّع حق أحد:

---

١. النور ٤٨ ـ ٥٠.
٢. النور ٥١.
٣. المائدة ٥٠.

اولا: عند الاطلاع على الحقيقة وتوقف إثبات الحق على شهادتهم يجب عليهم أداء الشهادة على وجهها وعدم الامتناع من الحضور في المحكمة وتأييد صاحب الحقّ.

ثانيا: السعي لأن تكون الشهادة حقة ومطابقة للواقع.

السؤال هنا هو: هل يجب أداء الشهادة في كل مكان عن كل ما يعلم؟ نقول في الاجابة: بالنسبة للحقوق الالهية ـ كما أُشير الى ذلك ـ لا يجب على الشاهد بيان كل ما اطلع عليه، فمثلا اذا شاهد جماعة شخصا يشرب الخمر سرّاً وبعيداً عن الانظار فليس من الواجب أداء الشهادة لكي يعاقب، بل لا يجوز افشاء سره الّا إذا أوجب فساداً في المجتمع.

طبعا اذا كانت احوال المجتمع بنحو يشعرون فيها بان عدم أداء الشهادة وعدم تنفيذ الحدود الالهية على مثل هؤلاء الاشخاص سيؤدي الى شيوع الفساد في المجتمع وسرايته الى الآخرين أو استمراره وتصبح الاوضاع الاجتماعية وخيمة، في هذه الحالة يترجح اداؤها ويمكن القول: انه من مصاديق النهي عن المنكر وهو عمل واجب ولابدّ من الاهتمام به، أو كان العمل من قبيل الإدمان على المخدِّرات وهو البلاء الذي يحطم العوائل ويقضي على الانسان بسرعة، فاذا لم يتم افشاؤه فانه يفوت أوان اصلاحه ويسري من المدمِن الى أُسرته واصدقائه، فلا تتيسّر السيطرة على هذه المشكلة. في مثل هذا المورد تكون التوقّي من شيوع هذا الفساد أمراً ضرورياً، ويجب على الذين اطلعوا على هذه الافعال القبيحة الإدلاء بشهادتهم للحيلولة دون انتشار هذا المرض وأن لا يهملوا القضية حتّىٰ يتعذّر حلها ويتعرض المجتمع الى الدمار نتيجة للمرض والفساد.

الشهادة وحق الناس

اما بالنسبة لحق الناس فاذا كان حق شخص سيضيع نتيجةً لعدم أداء الشهادة فعلى العالم بالأمر ان يشهد بما يعلم، خاصةً اذا طُلب منه لكي لا يضيع حق صاحب الحق.

في الآداب الاسلامية هناك تأكيد في الكثير من الموارد على إحضار الشهود علىٰ بعض الأعمال، كإقراض المال حيث تؤكد اطول آية قرآنية على انكم ان اقرضتم شخصا فاطلبوا من المَدين ورقة استلام وأحضروا شاهدَين على ذلك.

في موارد أُخرىٰ غير الاقراض ايضاً يحسن احضار الشهود، ويكون ذلك واجباً في بعض الموارد. أي هناك موارد يكون قوامها بحضور الشاهد وشهادته كالطلاق حيث يجب حضور الشاهدين فقهيا، لكي يُستفاد من شهادتهما فيما يحدث في المستقبل، كحدوث الاختلاف بين الزوجين بعد الطلاق فيمكن الاستعانة بالشهادة لحل الاختلاف بينهما. في هذه الموارد اذا لم يدلِ الشاهدان بالشهادة على حدوث الطلاق في محضرهما استتبع الامر فساداً كبيراً.

و في جميع الموارد التي دعت فيها الشريعة الاسلامية الى احضار الشاهد فانه يعني ان على الشاهد الإدلاء بشهادته عند الحاجة دون تعلّل، ومن يتخذ الآخرين شهوداً على أمر ما فانه يعني اني أتخذكم شهوداً لكي تؤدّوا شهادتكم حين المطالبة بها على ما شاهدتم، لا أن تشهدوا ثمّ لايترتب اثر علىٰ ذلك. فمن يوافق على ان يكون شاهداً على قضية فان موافقته تعتبر بمثابة العهد على أداء الشهادة عند الضرورة، وتحمُّل الشهادة في الواقع مقدمة لادائها، وتتّجه الى هؤلاء الاشخاص مسؤولية ثقيلة في ادائها. فالذين يتحرّجون من ادائها ويأبَون ذلك فان عليهم عدم تحمُّلها أصلاً حتى يتوسّل الانسان بوسيلة أُخرىٰ لحل مشكلته.

قال تعالىٰ بهذا الشأن:

﴿وَ لاٰ تَكْتُمُوا الشَّهٰادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْهٰا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[١].

وقال سبحانه عن الخصال الحميدة في المؤمنين:

﴿وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهٰادٰاتِهِمْ قٰائِمُونَ﴾[٢].

تشير هذه الآيات الكريمة الىٰ قيمة مهمّة في مجال سلوك الشهود، فتؤكد علىٰ اداء الشهادة وعدم كتمانها في ايّ مجال يعلمون فيه الحقيقة وتكون هناك ضرورة لاداء الشهادة حتّىٰ لا يضيع حق احد.

هذه هي اول قيمة تتعلّق بسلوك الشهود.

القيمة الثانية المرتبطة بسلوك الشهود هو الانتباه الكامل والدقة لدىٰ أداء الشهادة لتكون بحق ولا تكون بالباطل. هناك آيات أُخرىٰ في القرآن تشير الى هذه القيمة كقوله تعالىٰ:

﴿كُونُوا قَوّٰامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدٰاءَ لِلّٰهِ﴾[٣].

وقال في آية أُخرىٰ مع تغيير في مواضع الكلمات قال تعالىٰ:

﴿كُونُوا قَوّٰامِينَ لِلّٰهِ شُهَدٰاءَ بِالْقِسْطِ﴾[٤].

يطلب في الموردين من الشهود والذين تحمّلوا الشهادة واطّلعوا على واقع ما بان يشهدوا على اساس القسط والعدل، وان لا يشهدوا شهادة ظالمة وغير واقعية، وان لا يشهدوا على شيء باطل ولا حقيقة له ولم يحدث أو حدث بنحو آخر. وفي آية أُخرىٰ يثني الله سبحانه بعبارة أُخرىٰ على المؤمنين لرعايتهم القيمة الثانية، قال تعالىٰ:

---

١. البقرة ٢٨٣.
٢. المعارج ٣٣.
٣. النساء ١٣٥.
٤. المائدة ٨.

﴿وَ الَّذِينَ لاٰ يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾[١].

(الزور) يعني الباطل، والمؤمنون لا يشهدون شهادة الزور أي لا يشهدون بالباطل وبدون حق، ولا يضيعون حق أحد بشهادتهم.

وغير الآيات المذكورة الخاصة بالشهادة هناك آيات أُخرىٰ لا تختص بالشهادة ولكن بإطلاقها وسعتها تشملها أيضاً، منها مطلقات العدل والقسط خاصة في الموضع الذي قال فيه تعالىٰ:

﴿وَ إِذٰا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾[٢].

إنّ (قلتم) في الآية عامٌّ وشامل لكل قول، خاصة القول الذي يلقى عند أداء الشهادة ،او عند اصدار الحكم والقضاء.

---

١. الفرقان ٧٢.
٢. الانعام ١٥٢.

القسم الرابع



الأخلاق الدولية

تصنيف الكفار

العدالة مع غير المحارب

الاحسان لغير المحارب

التوازن في العلاقات مع غير المحارب

علاقة المسلمين مع المحاربين

حق الدفاع عن النفس

التدخل في شؤون الآخرين

اهداف وخصائص الجهاد الابتدائي

شروط الدخول في الحرب

الآداب والقيم في أثناء الحرب

مقدمة

الفصل الأخير من البحوث الأخلاقية يتعلّق ببحث القيم الأخلاقية في العلاقات الدولية. والمراد هو: كيف تكون علاقة المجتمعات الاسلامية مع المجتمعات الأُخرىٰ التي لا تؤمن بالعقيدة الاسلامية وقيمها؟

اما البحث في كيفية العلاقة بين المجتمعات الاسلامية فلا ضرورة له، اذ انّ العقيدة تمثل إطاراً للمجتمع الاسلامي ثغراً لبلاده، فيشكّل جميع المسلمين مجتمعاً واحداً، وعلى هذا فإنّ البحث يكون بلا موضوع.

والذي يحتاج إلى البحث هو كيف يكون تعامل المسلمين مع غير المسلمين؟ وللاجابة عن هذا السؤال يجب القول: لهذه المسألة ابعاد مختلفة، كأن يقال: ما هي اصناف المجتمعات غير الاسلامية؟ وما هي الاحكام الفقهية والسياسية الاسلامية ازاء كل مجتمع منها؟ ومثل هذه البحوث تطرح في المباحث الحقوقية في الاسلام.

تصنيف الكفار

نقول هنا باختصار وبصورة عامة: لا تخرج المجتمعات غير الاسلامية عن أحد صنفين: الاول: المجتمعات غير المسلمة ولكنها تحترم حقوق المسلمين، الثاني: المجتمعات التي لا تحترم حقوق المجتمع الاسلامي، بل تتعارض معه وتخطّط

للقضاء على النظام والدين الاسلامي.

الصنف الاول يسمى بـ (الكفار غير المحاربين) والصنف الثاني: هم (الكفار المحاربون). الصنف الاول يحترم حقوق المسلمين بشكل أو بآخر كالكفار الذميين أو المعاهدين، الذين يمكن دراسة علاقاتهم مع المسلمين وفق المعايير العامة التي تناولناها في القيم الاجتماعية تحت احد عنواني العدل أو الاحسان.

العدالة مع غير المحارب

ما يتعلق بمبدأ العدل هو ان من الطبيعي أن يتوقع الكفار الذين يحترمون حقوق المسلمين أن يحترموا حقوقهم، ان هذا أحد مصاديق العدل وهو أمر معتبر في الاسلام. لقد أوضحنا هذه الحقيقة في بحث الصداقة مغ غير المسلمين وفي بحث العهود والالتزام بها حيث قلنا: ان الاسلام يأمر المسلمين بالوفاء بالعهود بينهم وبين الكفار ما داموا ملتزمين بعهودهم.

و يمكن القول بعبارة واحدة: انّ القيم التي يُهتم بها في الشؤون الاجتماعية ـ كاحترام النفس والمال والعِرض والكرامة ـ تكون مورداً للاهتمام بالنسبة لهذا الصنف من الكفار أي غير الحربيين، وينبغي رعاية هذه الحرمات بالنسبة للكفار غير الحربيين كما هو حال المسلمين، عدا موارد الاستثناء التي يمكن فيها رفع هذا الاحترام من الافراد كموارد تنفيذ حكم القصاص. انّ المبدأ العامَّ والحاكم على العلاقات بين المسلمين والكفار غير المحاربين هو رعاية العدل والاحترام بنحو متبادل.

الاحسان لغير المحارب

كما هو الحال في المجتمع الاسلامي حيث ينبغي للمؤمنين الاحسان الى الفقراء والمحرومين فان الاحسان الى المجتمعات الخارجة عن المجتمع الاسلامي أي غير

المسلمين الذين هم غير محاربين أمر جدير بالاهتمام، فمثلا اذا تعرض مجتمع غير حربي له معاهدة مع المسلمين الى الجفاف أو السيول والزلازل وامثالها من المشكلات فان من المناسب جداً ان يحسن المسلمون بأفراد ذلك المجتمع ويعينوهم في تلك الايام العصيبة. على أي حال فان قيمة الاحسان كما هي مهمة بالنسبة للمسلمين فانها مهمة بالنسبة للكفار غير الحربيين أيضاً.

التوازن في العلاقات مع غير المحارب

فيما يرتبط بعلاقة المسلمين مع غير المحاربين الذين تُحترم نفوسهم واموالهم في الرؤية الاسلامية لا توجد مسألة خاصة عدا ان تكون هذه العلاقات متوازنة والتوازن في العلاقات له وجهان:

الاول: هو ان لا تكون علاقة المجتمع الاسلامي مع الكفار غير المحاربين بنحو يكون المسلمون فيه تحت هيمنتهم وتحت نوع من السيادة والعلوّ للكفار. في المجتمع الاسلامي لو علا بعض المسلمين على بعض آخر فليس كثير بأس في ذلك، ولكن في العلاقات الدولية بين المسلمين وغير المسلمين يجب الاحتفاظ بسيادة الاسلام وسلب علوّ الكفار على المسلمين، فقد قال تعالىٰ بصراحة في القرآن الكريم:

﴿وَ لَنْ يَجْعَلَ اللّٰهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾[1].

هذا الموضوع طبعا واسع جداً ومعقد، والأهداف التي نتوخاها اليوم كالاستقلال الاقتصادي والسياسي والاكتفاء الذاتي تدخل جميعها تحت هذا العنوان، وفي كل الاحوال لا يجوز ان يكون المسلمون عالة على الآخرين ولا يجوز أن يمدوا

١. النساء ١٤١.

ايديهم الى الكفار بحيث يستشمّ ذل المجتمع الاسلامي من علاقاتهم مع الكفار.

وعليه أولاً: لا يجوز بالمجتمع الاسلامي ان يقع تحت نير مجتمعات الكفر والاستبداد، وثانياً اذا اصبح المجتمع الاسلامي تابعاً للمجتمع الكافر في ظروف اضطرارية أو إثر الكسل أو لعِلل أُخرىٰ فان عليه السعي والجدَّ للتخلص من هذه التبعيّة فوراً وارجاع السيادة الاسلامية الى المجتمع، لان الأصل في الاسلام والمجتمع الاسلامي هو عدم التبعيّة للكفّار.

الثاني: لو هيمن المجتمع الاسلامي على المجتمع الكافر فلا يجوز التعامل معهم بظلم والعمل على تشويه سمعة الاسلام والمسلمين، بل يجب الفات انظارهم الى الاسلام من خلال السلوك الطيب والعادل مع الكفّار.

هناك طبعا قيم في المجتمع الاسلامي كالحجاب يعتبرها الآخرون متعارضة مع ما يعتبرونها من القيم. الكلام هنا حول تعامل المسلمين بنحو حسن وليس تركهم هذه القيم تحاشيا لنقد الآخرين، فلابدّ ان تراعى القيم الأصيلة للاسلام. ومن المؤسف ان سلوك بعض الملوك المسلمين مع الكفار كان فظاً وغير حميم بحجة أنهم كفار، فأصبحوا سببا لتشويه سُمعة المجتمعات الاسلامية. ومثل هذا السلوك اضافة الى كونه مرجوحاً في نفسه فهو يتنافى مع القيم ويشتدّ قبحه بالعنوان الثانوي، لانّه يؤدي الىٰ تهديد مكانة المسلمين في قلوب غير المسلمين ويضعفها، فيجب علىٰ المسلمين ان لا يمارسوا هذه الاعمال.

علاقة المسلمين مع المحاربين

انّ العلاقة بين المجتمع الاسلامي وبين الكفار الحربيين توفّر الأرضيّة لطرح بحوث كثيرة نشير هنا الىٰ بعضها:

حق الدفاع عن النفس

اذا دخل اشخاص في قتال مع المجتمع الاسلامي واعتدوا على حقوق المسلمين فان للمسلمين حقَّ الدفاع من حيث الفهم العامّ والقيم التي يسلّم بها جميع بني الانسان، وسيكون الدفاع عن النفس عملاً صحيحاً ووجيها، الّا انّ المشكلة في وجود الجهاد الابتدائي في الاسلام حيث لا يمكن تبريره على اساس النظام القيمي المعترَف به في العالم المعاصر. ولذا حاول الكثير من المفكرين المسلمين في هذا العصر تصوير الحروب الاسلامية كحروب دفاعية كي يمكن تبريرها في إطار المبادئ والمعايير والقيم الفعلية المسلّم بها، ولكن الحقيقة هي ان هذا الاختلاف يرجع الى الاختلاف في فلسفة القيم بين الرؤية الاسلامية والمذاهب الأُخرىٰ. ان موضع هذا البحث التفصيلي في البحوث الحقوقية والسياسية، ولكن نذكر هنا بعض القضايا اجمالاً بنحو يتناسب مع هذا البحث:

الجهاد الابتدائي والنظام القيمي المعاصر

النظام القيمي الحاكم على عالم اليوم والذي يعترف به اكثر الشعوب هو عبارة عن مبادئ تطرح في إطار التحرر واالييبرالية ونظام الحكم الديمقراطي.

ان اعلان حقوق الانسان واشباهه والمعتبر في النظام القيمي في العالم المعاصر مبني على اساس النظام القيمي المتحرر والليبرالي، وهو يدّعي ان لكل انسان ـ لحيثيته الانسانية ـ حقوقا ثابتة لا تتغير، ومنها وجوب احترام حرية كل فرد وكل فئة في المجتمع بين المجتمعات العالمية وازاء المجتمع الآخر، بحيث لا يتعرض لتعدي الآخرين.

على هذا الأساس يقال في العلاقات الدولية ان على جميع المجتمعات رعاية

الحقوق بنحو متبادل وعدم التدخل في شؤونها الداخلية. وفي البيانات الصادرة بعد لقاء الرؤساء يتّم التأكيد علىٰ هذين المبدأين غالباً، أي (رعاية الحقوق المتبادلة) و(عدم التدخل في الشؤون الداخلية للطرف الآخر).

ان الأساس في هذه القضايا هو ما للانسان من حقوق ـ بما انه انسان ـ بنحو طبيعي أو فطري، وعلى الجميع رعايتها، فمادام الانسان لا يضرّ بالآخرين فإنه حرّ في سلوكه ولا يحقّ لاحد أن يسلبه هذه الحرية.

وعليه اذا قبل مجتمع ما الكفر، وجعل النظام القائم على الكفر والشرك حاكما على سلوك أعضائه فانّه لا يحقّ لأي مجتمع آخر التدخل في ذلك المجتمع وتحريض شعبه على حكومته واسقاط نظام الشرك فيه.

الخلاصة: ان (حق الحياة الحرة لكل فرد ومجتمع في داخله) و(سلب حق التدخل في الشؤون الشخصية للآخرين والمجتمعات الأُخرىٰ) هما مبدآن قيميان مسلّم بهما في النظام الحاكم على عالمنا المعاصر، وطبيعي ان هذين الأصلين يتعارضان بوضوح مع الجهاد الابتدائي في الاسلام، والإقرار بهما يعني حظر الجهاد الابتدائي.

نقد ودراسة

في رأينا ان هذا المبدأ أو هذه القضية: (كل انسان حرّ في ان يعيش كما يحب) أو (كل مجتمع حرٌّ في أن يتصرف كما يشاء) من القضايا المشهورة التي لا يمكن أن نسلّم بها على هذه الصورة وبهذه الشمولية، لان هذه القضايا لها أُسس برهانية، فاذا كانت تلك البراهين مقيدة بقيد أو اقتضت وجود قيد فان هذه القضايا تستمد اعتبارها من تلك البراهين أيضاً فلا تبقى على عمومها وشموليتها بل تتقيّد بالقيود

الموجودة في البرهان.

وليست المبادئ والقضايا المذكورة فقط بل المشهورات كافة لها هذا التحديد، فحتى القضية القائلة (الصدق حسن) والتي هي من المشهورات التي يسلّم بها بنو الانسان لا عمومية لها، لانها في بعض الموارد ليست محبَّذة، ليس هذا فحسب بل هي مذمومة أيضا، فمثلا لا يكون للصدق ـ الذي يعرِّض نفس انسان للخطر أو يستتبع فساداً آخر ـ قيمة ايجابية، ليس هذا فحسب بل له قيمة سلبية أيضا.

في رأينا كما قلنا ان اساس القيم لا يعود فقط الى انسانية الانسان، بل الىٰ علاقة الانسان بالله عز وجل، وليس معنى اعتبار القيم هو مجرد أمور تشريعية وتعاقدية وجعلية ـ حسب اصطلاح علمائنا ـ لنقول: كل ما اعتبره الله عز وجل حسنا في القوانين الدينية والسماوية فانه حسن، وكل ما اعتبره سيئا فهو سيء، بلا ارتباط بالجذور الفطرية والتأثيرات التكوينية لها، لان هذا الكلام لا نقبله، بل ان جميع القيم تتشكّل في ضوء الحكمة الالهية والغاية من الخلق. إذنْ لكي ننال القيم لابدّ أن نلاحظ الهدف الالهي من خلق الانسان، وفي هذا السياق نلتفت الى القيم.

هنا يجب ان نرجع في قضية حرية الفرد والمجتمع ـ التي نبحث عنها ـ الى هذا الأصل أيضا ونلاحظ ما هي الغاية من خلق الانسان؟

في رأينا كما قلنا سابقاً انّ الهدف من خلق الانسان هو تكامله الاختياري، وهو حسب الرؤية الاسلامية تقرُّبه الى الله وسعادته المعنوية والأبدية. وبملاحظة هذه الغاية وعلى اساس هذه الحكمة الالهية تجد القيم الحقوقية والأخلاقية موقعها، فان لم نلتفت الى الغاية من خلق الانسان فانا سوف نعجز عن اثبات أية قيمة اخلاقية وحقوقية.

ان حرية الانسان كقيمة يمكن الاهتمام بها الى درجة معيّنة، لان التكامل الحقيقي للانسان لا يتحقق بدون حريته لانه تكامل اختياري ويجب تحققه بصورة

حرة من دون اجبار، الّا انّ لازم هذه الحرية ليس هو سلب حق التدخل في الحياة الشخصية والاجتماعية للآخرين، لانه في بعض الموارد وعلى اساس الهدف من الخلق يُمنح الانسان حقُّ التدخل في شؤون الآخرين، وحق منعهم من بعض الاعمال، فمثلا اذا أقدم شخص على الانتحار فالواجب هو منعه من ذلك، وهذا هو تدخل في الحياة الخاصة للآخرين، ولا يتنافى ذلك مع الأخلاق أو الحقوق أبداً بل يعتبر تركه معصية وأمراً غيرخلُقي.

و ما ذكر يصدق تماما علىٰ التدخل في الشؤون الداخلية للمجتمعات الأُخرىٰ. فالمجتمع تصبح له قيمة ويكون محترما حينما يسير منسجما مع الغاية العامّة للخلق، ويكون نظامه الأخلاقي ومنهجه في الحياة محترما حينما يكون متّجها نحو التكامل أو لا يكون مضاداً لتكامل ذلك المجتمع ومانعا لتعاليه على الاقل.

اما السلوك والنظام الذي يكون ضارّاً بذلك المجتمع وغيره فلا يوجد مبدأ عامٌّ يثبت القيمة والاحترام لهذا السلوك ويضمن حرية المجتمع في هذا المجال، ويمنع الآخرين من التدخل في الشؤون الداخلية لذلك المجتمع فيما يرتبط بهذا السلوك الخاطىء.

من البديهي ان مثل هذا التدخّل لا يعني سلب الاختيار والحرية من الآخرين، بل يعني التمهيد للانتفاع الصحيح من الاختيار والحرية أو لانتخاب المنهج الصحيح في الحياة.

التدخل في شؤون الآخرين

ان أهمَّ تدخُّل في الشؤون الفردية او الاجتماعية للآخرين هو التدخل الفكري والارشادي. اذا وجد في مجتمع ما فكر خاطىء فعلى المجتمع الاسلامي هداية ذلك المجتمع وتعريفه بالرؤية الاسلامية الصحيحة، والسعي لجعله يقر بالدين الحق،

فاذا أراد مجتمع ما معارضةَ الاسلام بسوء اختياره ولم يستعدّ حتى لسماع دعـوة الاسلام فليس لهذا المجتمع قيمة في الرؤية الاسلامية.

في الاسلام تكون القيمة للفرد والمجتمع الذي يسير في طريق التكامل. وقـد اعتبر القرآن بعض الناس من زمرة الحيوانات بل وأحطَّ منها، والكفار والمنكرون لله من بني الانسـان هم أرذل واسوء الدوابّ في الارض. ليس للانسان مجرداً عـن الفكر والاعتقاد قيمة في النظام القيمي للاسلام، ويعتبر حيوانا ذا رجلين، ويحظى بالقيمة الاسلامية حينما يمتلك الرؤية الكونية والفكـرية الصـحيحة، أي الاسـلام والايمان بالله، أي في حالة ارتباطه بخالق الكون في العقيدة والقيم. ان منح الحقوق لأناس فاقدين لهذه القيم واحترامهم هو بأمل ان يميلوا تدريجيا الى الاسلام. فاذا فُقد الامل في الفرد أو المجتمع الكافر بالله وغير المسلم فليست له أية قيمة لدىٰ الله والمسلمين، وقد ينزل الله عذابه ويهلك هذا المجتمع أو يأمر المسلمين بقتاله، وهذا نوع آخر من العذاب الالهي كما قال تعالىٰ في القرآن:

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[١].

على الانسان ان يطيع الاوامر الالهية من ناحية عبوديته لله ولتحقيق الهدف من التشريع الالهي. وعلى المجتمع الاسلامي هداية المجتمعات الاُخرىٰ نحو الحـق، واذا وجدت قوىٰ تمنع من ذلك فانه يجب عليه ازالتها عن طريق تكامل بني الانسان، واذا اظهروا العناد فعلىٰ المجتمع الاسلامي قتالهم. انّ الجهاد الابتدائي في الاسلام حق، وقد وقع في صدر الاسلام، وسيقع بصورة اكمل في عصر ظهور ولي العصر عليه السلام.

---

١. التوبة ١٤.

اهداف وخصائص الجهاد الابتدائي

ليس الهدف من الجهاد الابتدائي هو تسلط مجتمع على مجتمع آخر أو توسعة الرقعة الجغرافية لذلك المجتمع، وليس طلب الاقتدار واستثمار المصالح الاقتصادية والمعادن وثروات الآخرين، وليس هو الاستثمار والاستعمار والاستغلال، بل هدفه الأساسي هو ان يصبح الناس جميعاً عابدين لله ويعرفون الحق ويعملون به. وفي المجتمعات التي تعارض الاسلام والدين والارشاد والهداية يقوم قادة المجتمع أو طبقة خاصة بدفع الناس نحو المعارضة لكي لا يخضعوا للحق ولا يسلموا للدين الحق. ان هؤلاء لا يسمحون ببلوغ صوت العدالة الاسلامية الى أسماع الناس، والاسلام طبعا يقاتل هؤلاء ويفتح الطريق للآخرين كي يتعرفوا على حقيقة الاسلام.

انّ النظام القيمي في الاسلام يختلف بصورة عامة وبنحو اساسي مع النظام القيمي السائد في العالم والذي يدعو الى اخلاق بلا دين وبعيد عن الله عز وجل. اننا ندعو الى اخلاق في ظل الدين والاعتقاد بالله ونعتقد انّ الهدف من الخلق هو الذي يشكّل الدعامة للقضايا الأخلاقية. ففي اعتقادنا ان هذه القيم الأخلاقية تنشأ من تلك الجذور العقائدية.

في نظامنا القيمي بخصائصه التي ذكرناها يكون الجهاد الابتدائي مبرّراً تماما، وان لم يمكن تبريره في إطار النظام القيمي السائد في العالم، إذ انّنا غير ملزمين برعاية مبادئ النظم كافة، بل لنا مبادؤنا الأخلاقية الخاصة المنسجمة مع الرؤية الكونية والفكرية للاسلام ولا تتناقض معها أبداً.

بناء على ذلك فانّ الهدف الأساسي من الجهاد الابتدائي هو هداية الناس وايقاظهم، وفي ضوء هذا الهدف الأصيل تتحدد صورة الحرب وطريقة تعامل

المسلمين ومجاهدي الاسلام مع مقاتلي العدوّ في المراحل المختلفة.

شروط الدخول في الحرب

في الرؤية الاسلامية ليست الحرب محبّذة في ذاتها، بل كما قلنا لها هدف وهدفها الأساسي هو ارشاد العدوّ وهدايته الى الطريق الصحيح كي يسلم الجميع ويواصلوا الحياة بسلام واستقرار.

وعليه كما يقول القرآن الكريم:

﴿وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[1].

فانه وان جاء في مورد الاختلافات الزوجية ولكن نظراً لإطلاق العبارة يمكن القول: انّ الصلح افضل في كل الموارد حتى في علاقة المسلمين مع الكفار.

لا يعني ذلك طبعا وجوب احلال السلام مهما بلغ الثمن، لانّ ترك الحرب لاقتراح السلام من قبل العدوّ يكون في الكثير من الموارد خديعة من أجل تجديد القوىٰ ومهاجمة المسلمين بقوة اكبر وأمضى.

المراد هو أن العدوّ اذا اقترح سلاما مقبولا حقاً فان الاسلام يدعو الى قبوله مع التزام جانب الاحتياط ومراقبة جميع الجهات، قال تعالىٰ بهذا الشأن:

﴿وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾[2].

في الجهاد الابتدائي اذا استعد العدو لعقد معاهدة مع المسلمين وكان ذلك في صالحهم، أي انه يترك باب التبليغ للاسلام مفتوحاً ويستطيع المسلمون استمالة الناس لعبادة الله بعملهم الإعلامي وبدون قتال وسفك للدماء فان عليهم قبول هذه المعاهدة، وعدم الدخول في حرب، لانها تكون لرفع موانع التبليغ الى الاسلام، وبما

---

١. النساء ١٢٨.

٢. الانفال ٦١

ان هذه الموانع ترتفع بدون حرب فلا يجوز الدخول في الحرب. من هنا يمكن القول: ان الأصل والقاعدة الاولية في علاقة الاسلام مع الكفار هو السلام لا الحرب، ولكن المسلمين اذا واجهوا عدوّاً لجوجاً متزمّتا وليس من اهل السلام، واذا اقترح السلام فانه ينوي خداع المسلمين وإغفالهم وشن هجوم أشدَّ عليهم فلا سبيل امامهم في هذه الحالة سوى الحرب.

لكن مع ذلک لا يجوز للمسلمين القيام بهجوم مباغت على العدوّ من دون مقدمة، لان الحرب والجهاد ليسا محبّذينِ في ذاتهما، بل الهدف منهما هو ارشاد الكفار وهدايتهم وقبول الاسلام والعدالة الاسلامية. من هنا ينبغي دعوة العدوّ الى الاسلام قبل الحرب وايصال حقائق الاسلام الى سمعه، وما لم تتمَّ هذه الدعوة كمقدمة لا يجوز الدخول في الحرب.

ورد في إحدىٰ الروايات المستفيضة عن طريق الشيعة والسنّة انّ النبيﷺ حينما كان يريد ارسال امير المؤمنينؑ الى إحدىٰ الحروب فانّه كان يقول له: «لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من ملء الارض ذهبا تنفقه في سبيل الله». إذنْ لابدّ من افهام الهدف للعدو كي يعلم انّ المسلمين يريدون تحريره من عبودية الانسان وايصاله الى عبودية الله الواحد والذي هو غاية تكامله.

الآداب والقيم في أثناء الحرب

في المرحلة التالية وبعد الدخول في الحرب يلزم رعاية الكثير من القضايا القيمية:

فمن واجب المسلمين عند الحرب احترام المقدسات، وهي المقدّسات المحترمة بصورة مشتركة بين المسلمين والكفار، كالمسجد الحرام والاشهر الحُرم التي لا يجوز هتك حرمتها حتى في حالة الحرب.